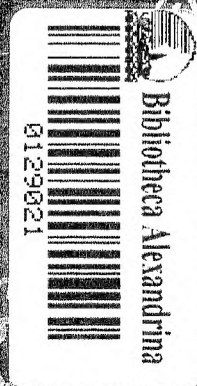


وكتبها
عبد الوكيل بن محمد بن أبي الطغوى

الحمد لله

في سيرة الأمير المنصور الناصر

تأليف
عبد الوكيل بن محمد بن أبي الطغوى
القاهرة - طبع في ١٣٩١ هـ



الدكتور عبد العظيم الطمعي



في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة

يطلب من : مكتبة وصبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠



الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

جميع الحقوق محفوظة

إيضاح وتقديم

- ١ -

فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٨٦ م أعلمنى الأستاذ الدكتور سيد تقى الدين وكيل كلية اللغة العربية أنه تقرر أن أشترك مع الدكتور مرعى مذكور مدرس الصحافة والإعلام بالكلية فى تدريس مادة «وقف الإسلام من الأيديولوجيات المعاصرة» ، اطلاب الصحافة والإعلام بالمرحلة النهائية «الليسانس» ، وكنت أميل إلى الاعتذار أولاً ؛ لأننى لم أشتغل بتدريس هذه المسادة من قبل ، ولأنها بعيدة عن مجال التخصص الذى أعمل فيه (البلاغة والنقد) . وقوبل إعتذارى بالرفض من الأستاذ الدكتور سعد ظلام عميد الكلية ، فاستخرت الله وبدأت أعد للأمر عدته . وقد كان الدكتور مرعى مذكور ، وهو صديق وفى - كريماً حين أتاح لى فرصة الاختيار بين أن أدرس إما الفلسفات والأيديولوجيات الروحية الشرقية كالبهائية والقاديانية . أو الفلسفات والأيديولوجيات الأوروبية الغربية ، ويغلب عليها الجانب المادى ، كالعلمانية والماركسية ، ووجدتني أميل ميلاً شديداً إلى الجانب الثانى ، وهو الأيديولوجيات المادية الغربية ، والتقت وجهات نظرنا حول هذا التوزيع وأخذ كل منا يعمل فى مجاله مستمداً العون من الله .

- ٢ -

وفىما يختص بالجانب الذى أنيط بى فقد هديت إلى أن يكون المنهج الذى أمارس من خلاله عملى على الوجه الآتى :

١ - التعرض لتاريخ أوروبا منذ القرن الأول لميلاد السيد المسيح - عليه السلام - حتى نهاية القرن السابع عشر الذى انتقلت فيه أوروبا من سيادة النصوص

(و)

الدينية كمصدر وحيد للمعرفة إلى الفلسفات المثالية العقلية خلال عصر التنوير
القصير المدى (خمسون سنة تقريباً) .

• التعرض للفلسفات الوضعية المادية التي كان قيامها رد فعل عنيف على
كل من الفكر الديني الكنسي، والفكر العقلي المثالي . لأن الفلسفات الوضعية
المادية انهمكت كلا من الفكر الكنسي والعقلي المثالي بالقصور في مجال المعرفة
وبالإفلاس في مجال التوجيه .

• وقد تجمعت خيوط الفكر الوضعي في اتجاه مادي واحد هو ما يعرف
الآن بـ « العلمانية » والعلمانية قد تكونت من عدة أيديولوجيات مادية قننا
برصدها كالداروينية ، و « هرويدية » ، والبراجماتية ، وحسية أو جست كونت
وعقد جان جاك روسو ، ثم الميكانيكية . كما خدعت العلمانية نفسها بالكشوف
العلمية الصحيحة التي أساءت العلمانية فهمها ، وانحرفت بها عن مسارها مثل
اكتشاف كوبرنيك لمركزية الشمس وبرونو ، وجاليليو ثم إسحق نيوتن
مكتشف الجاذبية .

• ووقفنا طويلاً أمام الماركسية باعتبارها الوريث لكل نفايات الفكر
المادي . وناقشنا في موضوعية وصدق الأساس الذي قامت عليه هذه الفلسفة .

هذا ، ولما كان المقصود من تدريس هذه الأيديولوجيات لطلاب الصحافة
والإعلام هو بيان موقف الإسلام منها فإن الطابع أو المنهج الذي سمرنا عليه
في هذا الكتاب منهج يقوم على العرض والنقد والنقض في لمحنته وسداه .
فليس ما في هذا الكتاب تاريخاً لهذه الأيديولوجيات . وإنما هو دراسة كاشفة
عما فيها من زيف وقصور وانحراف .

ومواجهة الإسلام الأيديولوجيات المعاصرة من أزم الواجبات التي ينبغي
أن ينهض بها الدعاة . وأن يعدوا أنفسهم إعداداً كاملاً للتصدي لها لأنها
- وعلى ما بين بعضها من عداوة - تجمع على محاربة الإسلام وعزله عن الحياة ،

(ز)

حتى عن حياة المسلمين أنفسهم ، وهي كلها تسير في كسب الانتصار لها على أساس واحد لا يكاد يتخلف وإن لم يفصح عنه . ذلك الأساس هو :

الذي يعرف هو الذي يحكم ويقود

وسيرى قارىء هذا الكتاب أن أحق الأيديولوجيات ، على الإطلاق بالحكم والقيادة للإنسانية جمعاء بناء على الأساس الذي وضعوه هو الإسلام ، والإسلام وحده . فقد استقى الإسلام المعرفة الصحيحة من جميع مصادرها الصحيحة :

من العقل ، ومن الحواس والتجربة والملاحظة ، ومن العلم بكل فروعه ومجالاته ، ومن الواقع . ثم عصم هذه المصادر بالوحي الأمين وغيره من الأيديولوجيات إذا استقى معرفة من مصادر صحيح رفض كل المصادر التي عداها ، نخسر ولم يربح ، وبعضها كان قد استقى المعرفة من مصادر غير صحيحة فكان أسرع هذه الأيديولوجيات في التردى والسقوط .

وحقيقة الحقائق التي يصل إليها قارىء هذا الكتاب :

« إن الإسلام برىء من نقص أخذه على ما سواه . وإن ما سواه ليس فيه ما هو صحيح إلا وهو معتمد في الإسلام . وإن الإسلام في استقائه للمعرفة الصحيحة أعتمد على كل المصادر المعرفية الصحيحة . وسما فوق كل الفلسفات والأيديولوجيات ، لأنه من صنع الله ، وماعداه من صنع البشر .

هذا وقد وقعت أخطاء في أثناء الطبع لا تغيب على القارئ الفطن ولم نتمكن من تصحيحها لضيق الوقت . وعندنا أن إعداد هذا الكتاب (تأليفاً وطبعاً) ثم في مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر ليسكون بأيدي الطلاب في وقت مناسب . والحمد لله في الأولى والآخرة .

د / عبد العظيم إبراهيم المطعنى

القاهرة : الظاهر في الثلاثاء الموافق ٢٨ / ٤ / ١٤٠٧ هـ .

٣٠ / ١٢ / ١٩٨٦ م .

سَيَادَةُ الْبُصُورِ الْمُقَدَّسَةِ أَوْ سَيِّطَرَةُ الْكَنِيسَةِ

عرفت أوروبا المسيحية منذ القرن الأول للميلاد ، عرفتها وكانت المسيحية إذ ذاك محتفظة بـ بصفتها ونقاها ، أو على الأقل كان صفاء المسيحية وتقواها ميسور آمن يطلبه . لأنها كانت قريبة العهد بمبعث المسيح عليه السلام . ولم تضاف إليها تلك التراكمات ، التي تنوء بها المسيحية الآن . والتي بدأت - أعني التراكمات - في الظهور من وقت مبكر على يد بولس الرسول المعروف بهذا الاسم في المصادر المسيحية ، (١) .

وطوال القرون الثلاثة الأولى من ميلاد السيد المسيح عليه السلام كانت مسيحية المسيح في محنة من جهتين .

الأولى : اضطهاد أعداء المسيحية للمسيحيين وإنزال أشنع ألوان العذاب بهم من قبل الرومان وغيرهم من اليهود .

الثانية : الأفكار التي روج لها بواس في حياته ، والتي بثها في الرسائل المعروفة باسمه والمعروفة في أواخر العهد الجديد ، الأنجيل ، ويسمى بها المسيحيون برسائل الرسل . ولبولس منها أربع عشرة رسالة كل رسالة تحمل

(١) بولس هذا ليس من أصحاب المسيح عليه السلام ، وهو كان يهوديا في البدء ومن أعداء المسيحية ، ثم دخل فيها بحيلة بارعة وإن لم يخف زيفها على عاقل وأخذ يدعو إلى المسيحية في جد ونشاط ، وأدخل عليها ما ليس منها . وكان عمله هذا بمثابة طمس لمعلم المسيحية الصحيحة ، كما جاء بها عيسى عليه السلام .

اسما خاصا بها . بيد أن المسيحية ، كانت قوية في بدء الصراع ، ولها أنصار أوفياء صادقون ، وكثير منهم خروا شهداء في سبيل التمسك بعقيدتهم الصحيحة ورفضهم لكل زيف أريد إلحاقه بها .

ومسيحية بولس كانت تقوم على التثليث وتأليه المسيح عليه السلام ، الأمر الذي لم يقل به المسيح قط ، وقد أنكر مسيحية بولس كثير من المسيحيين طوال القرون الثلاثة الأولى ، وفي نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع تصدى آريوس لأباطيل بولس وأذاع بين الناس أن المسيح ليس إلهًا وإنما هو مخلوق لله الواحد الأحد ، وكثر اتباع آريوس حتى عرفوا به « الآريوسيون » وتابع كثير من الكنائس رأى آريوس إلا كنيسة الإسكندرية فقد تنبت عقيدة بولس وحكمت على آريوس بالحرمان ، ولكنه ظل على رأيه ولم يذعن لقرار كنيسة الإسكندرية التي آل أمرها إلى البطريرك إسكندر وكان شديد التعصب لعقيدة بولس وهي التثليث والوهية عيسى عليه السلام . وما تولد عنها من عقائد .

قسطنطين وأول مجمع مسيحي في التاريخ الكنسي

قسطنطين هو إمبراطور الرومان الذي شهد ذلك الصراع الخطير بين كل من آريوس نصير مسيحية المسيح والإسكندر بطريرك كنيسة الإسكندرية نصير مسيحية بولس ، وقد حاول قسطنطين وكان قد اعتنق المسيحية عن غير اقتناع كما يقول ديورانت في كتابه « قصة الحضارة » ، حاول قسطنطين هذا أن يوفق بين الفريقين ولكنه لم ينجح . ثم دعا إلى عقد أول مجمع مسيحي في التاريخ الكنسي ، وهو مجمع نيقية بالقرب من القسطنطينية عاصمة الدولة حينذاك ، وكان انعقاده عام ٣٢٥ م وبعد مناظرات جرت بين الفريقين تضافرت الجهود لانتصار عقيدة بولس على عقيدة آريوس وأتباعه رغم معارضة حادة حتى من رجال الدين المسيحي أنفسهم ، وانتهى المجمع الذي كان

يناصره السلطان « قسطنطين » بكل ما يملك إلى قبرار خطير طمس معالم
المسيحية التي جاء بها عيسى طمسا . وإليك نص القرار :

قرار مجمع نيقية :

« إن الجامعة المقدسة ، والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن
لم يكن ابن الله موجوداً فيه (١٩) وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد
من لا شيء ، أو من يقول : أن الإبن وجد من مادة أو جوهر غير الله الآب ،
وكل من يؤمن أنه خلق - بالبناء للمجهول - أو من يقول : انه قابل للتغيير ،
ويعتريه ظل دوران » .

وهذا القرار فرضت الكنيسة - ولأول مرة في التاريخ - عقيدة بولس
القاضية بالوهية عيسى عليه السلام . وهي عقيدة أصدرها من لا يملك لمن
لا يستحق . فالبشر لا يملكون وصف أحد غير الله بأنه إله وعيسى لا يستحق
أن يكون إله ١٩

وبما تجب الإشارة إليه أن مجمع نيقية ، كان عدد أعضائه من رجال الدين
المسيحي ثمانية وأربعين وألفين من الأساقفة ، ولما عرض عليهم آريوس
عقيدته القاضية بدسرية عيسى وكونه مخلوقاً لله وأنه رسول الله وليس
بإبن الله اختلفت أغلبية الحاضرين أو بالتحديد كان عدد الذين اختلفوا برأي
آريوس ١٧٣٠ عضواً مقابل ٣١٨ عضواً رضخوا لتوجيهات قسطنطين
والاسكندر بابا كنيسة الاسكندرية حينذاك .

أي أن نسبة الرافضين لالوهية المسيح قد بلغت ٨٤٤٧٪ تقريباً وأن
نسبة القائلين بالوهية قد وقفت عند حد ١٥٥٣٪ تقريباً فإذا أضفنا
إلى ذلك رغبة السلطان في تقرير هذه العقيدة التي انتهى إليها الأعضاء الـ ١٨٠٠
فإن معنى هذا أن قرار هذه القلة ، قرار مشوب دعت إليه الرهبة من السلطان

فهو إذن قرار باطل بكل مقياس ١١ (٢)

صدى هذا القرار :

لم ترحب الدوائر المسيحية بقرار مجمع نيقية ، ووقعت معارضة عنيفة له من جانب الموحدين كالمنسطوريين والآريوسيين وكثير من الكنائس ، وبالرغم من هذه المعارضات فإن القرار كتب له الذيوع والانتشار وسانده القوة ففرض على الناس فرضا كريها . وأخذت المجامع تتوالى به - دمج نيقية وتتخذ من القرارات المشابهة لذلك القرار الخطير بحجة المسيحية بولس بكل صورة من صورها . وكانت حصيلة ، هذا كله تتلخص فيما يأتي :

• القول بالوهية المسيح عليه السلام وكونه ابنا لله . ١٤

• القول بالوهية الروح القدس ١٥

• القول بالثلوث المقدس : الآب - الابن - الروح القدس ١٥

• القول بالخطيئة ، الموروثة ، وأن بنى آدم مأخوذون بعصيان أبيهم آدم بحيث أكل من الشجرة المحرمة ، شجرة المعرفة ، ١٦

• القول بمقيدة الخلاص عن طريق القرايين ووساطة الحكماء بين العبد وربّه .

• الجزم بصلب المسيح وأن الصلب كان فيه فداء وخلاص لبني آدم من الخطيئة الموروثة ١٤

• القول بأن للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية أو طبيعتين إحداهما ناسوتية (نسبة إلى الناس) باعتبار الجسد والآخرى لاهوتية (نسبة إلى الألوهية) باعتبار الروح أو الحقيقة ١٤

(٢) وراجع في هذا القرار إيضاحا أكثر في محاضرات في النصرانية للإمام ابن زهرة (١٢٥٠) وما بعدها .

هــذا هو ، كـرنفال ، العقيدة التى أسفرت عنها المجامع بدءاً من مجمع فيقية . ولم تكتف تلك المجامع بما تقدم . بل أخذت تضيف وتضيف ما من شأنه أن يعلى من شأن الكنيسة ، ويقوى من سيطرتها على مقاليد الأمور . فأضافت عقيدة أن البابا معصوم ، وأنه وحده له حق تفسير التعاليم وفى مجمع لا تيران عام ١٢١٥ صدر قرار كنسى خطير بأن الكنيسة لها ثلاثة حقوق هى :

١ - حق الحرمان : أن الكنيسة تملك حق الحرمان من الرحمة لكل من يخرج على تعاليم الكنيسة أو يرى غير ما ترى من عقائد وتفسيرات ، وقد مارست الكنيسة حق الحرمان على شكلين :

• شكل فردى حيث كانت تصدر أحكاماً عقابية رادعة على الأفراد المهرطقين الخارجين عن سلطانها إما بالاعدام أو اللعنة والطرده من ملكوت السموات . مثلاً حدث مع بعض العلماء كجاليلىو ونيوتن وسبائى الحديث عنهما وعن غيرهما .

• شكل جماعى : حيث كانت الكنيسة تعاقب الجماعات بل والشعوب بما تراه من عقوبات كما حدث للشعب الأنجليزى حين اختلف الملك يوحنا مع البابا فأصدر البابا قراراً بحرمان شعب إنجلترا كله فمطلت الكنائس وعقود الزواج والصلاة على الموتى وكان الموتى يحملون إلى قبورهم بعناير صلاة وهكذا .

وفى هذا الإطار أنشأت الكنيسة محاكم التفتيش التى كان يحاكم فيها كل من تحوم حوله الشبهات ويؤخذ بالظنة فيعدم أو يحرق بلا رحمة ولا شفقة .

٢ - حق الغفران : وبمقتضاه منحت الكنيسة نفسها حق غفران الذنوب والخطايا مقابل مقدار من المال يبدل للكنيسة من رغبة الغفران .

وكانت الكنيسة تعطى المغفور لهم صكا يسمى صك الغفران كاستند مادي على الكنيسة يتيح لحامله دخول الجنة . وكان الفقراء لكي يحصلوا على صكوك الغفران هذه يقومون بخدمة الكنيسة بدلا من بذل المال الذي عجزوا عنه لفقرهم . وهكذا أخذت الكنيسة تحكم قبضتها على الناس وتسيطر على مصائرهم الدنيوية والآخرية .

٣ - حق التحلة : وفيه منحت الكنيسة نفسها حق الخروج على النصوص المقدسة وتعاليم الرسل إذا رأت في ذلك مصلحة لها .

نموذج من صكوك الغفران :

وفيا بلى صورة لصك من صكوك الغفران التي كانت تمنحها الكنيسة لطلبي المغفرة بعد بذل الثمن :

« ربنا يسوع المسيح رحمك يا فلان : ويملك باستحقاقات آلامه السكية المقدسة ، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائعات الكنسية التي استوجبتها وأيضا من جميع الأفراس والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسي الرسولي . وأعو جميع أقدار الذنب وكل علامات الملامة التي ربما حملتها على نفسك في هذه الفرصة . وأرفع القصاصات التي كنت تلزم بمكابدتها في المظهر ، وأردك حديثا إلى الشركة في أسرار الكنيسة ، وأقرنك بشركة القديسين ، وأردك ثانية إلى الطهارة ... حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة ، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة ، باسم الآب والابن والروح القدس ، ١١٩ .

ولا تملأ لناق على هذا الهديان إلا في العبارتين الآتيتين :

• إن مبتدعى صكوك الغفران كانوا ضالين مضللين ودجالين ؟

• وإن طالبي تلك الصكوك كانوا في جهالة عمياء ، وما أبعد هؤلاء

وهؤلاء عن السيد المسيح وتعاليمه . ١٩

أسرار الكنيسة :

والأسرار الكنسية التي ابتدعها رجال الكنيسة لانتقال شناعة عما تقدم

من تصورات وخرافات . ومن تلك الأسرار :

• جعل الثلاثة واحداً :

قلنا فيما تقدم أن الكنيسة ذهبت إلى تأليه المسيح وتأليه الروح القدس بالاضافة إلى تأليه الآب ، والله ، وبذلك كان يجب عليهم أن يؤمنوا بثلاثة آلهة لا بإله واحد . ولما كان التسديد في الآلهة مظهراً من مظاهر الإشراك ملازماً لعقيدة الكنيسة فإن الكنيسة لجأت - لكي تدفع عن عقيدتها وصحة الإشراك - فقالت إن الثلاثة : الآب ، والابن والروح القدس ، إنما هم إله واحد ؟ فوقعت بهذا القول في ورطة أشنع من ورطة الإشراك نفسها وخالفت النقل والعقل معاً . وكانت هذه البدعة ، من أقوى الأسباب التي دعت إلى التمرد على الكنيسة في زمن لاحق كما سيأتي في موضعه إن شاء الله .

خالفت النقل : لأنه لا يوجد نص مقدس لا في كتبهم المقدسة ولا في

غيرها ينص على هذه العقيدة الغريبة حقاً ؟ ٢٠ .

وخالفت العقل ، لأن العقل لا يتصور قط أن ثلاثة أشياء لكل منها

وجوده المستقل في الخارج والمنفصل عن غيره ، لا يقبل العقل ولا يتصور

أن تكون هذه الأشياء الثلاثة شيئاً واحداً كما تدعى الكنيسة . وحين

ووجهت الكنيسة بأن العقل لا يتصور ما دعت إليه كان ردهم لا يقل

شناعة عن عقيدتها نفسها . قالت الكنيسة لمعارضيه وناقديها : إن هذا سر من الأسرار المقدسة وليس للعقل سلطان على حقائق الإيمان ؟

وظنت الكنيسة أنها انتصرت وهي وحدها التي هزمت في هذا المجال وما تزال تردد هذه الإجابة البلهاء كلما ووجهت بنقد أو اعتراض أو حتى مجرد استفهام برى .

وهذا الاعتراض العقلي لم يثنأ في عصر التنوير ، الذي حدث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا - وإن راج فيه واستفحل - وإنما وجد منذ بداية القرن الرابع الميلادي ووجه به قسطنطين امبراطور روما فكان يقول كما قالت الكنيسة إنه سر من الأسرار .

تشابه السؤال ، واتحدت الإجابة في كل العصور وإن اختلف منشأ السؤال في العصور اللاحقة لعصر قسطنطين منذ القرن الرابع الميلادي وبالرقم من هذا كله فقد ظلت المشكلة قائمة إلى الآن ولم تفلح الكنيسة في حلها :

فالكثيسة تقول : $1 + 1 + 1 = 119$

والعلم والعقل يقولان : $1 + 1 + 1 = 3$

فكيف تلتقى الإجابتان يا ترى انهما تلتقيان بأحدى ضوونتين لا ثالث لهما :

فإما أن تتنازل الكنيسة عن جملها وتخريفها وتسلم بالحقائق العقلية والبدائية الرياضية فتحل المشكلة ؟

ولما أن يكفر العقلاء بعقولهم ، ويهدروا حقائق العلم ويقفون في مغالطات الكنيسة وتعسفاتها فتحل المشكلة .

لأنهما فرضان بعيدا المتناهي ، وغايتان لا أمل في إدراك أى منهما ؟

• الاعتراف :

قلنا فيما سبق أن الكنيسة منحت نفسها في مجمع لاتيران عام ١٢١٥ م ثلاثة حقوق منها حق الغفران ، ومحو الخطايا . وذكرنا صورة من صكوك الغفران التي كانت الكنيسة تبيع فيها الجنة بالمزاد العلني وترتب على منح نفسها حق الغفران مبدأ الاعتراف أمام القسس ورجال الدين . فمن أذنب ذنبا أو ذنوبا وأراد أن يطهر نفسه منها فلا مناصر له من الجلوس أمام الكاهن والاعتراف له بما ارتكب من جرائم وآثام . وجعلت الكنيسة هذا الاعتراف مقدمة لمنح المعترف البراءة والتطهير مقابل مقدار من المال يقدمه المخطيء للكنيسة . فإذا كان طالب الغفران فقيرا فعليه أن يخدم الكنيسة أو يجند في جيشها ليدافع عنها .

ولما كان الاعتراف موردا من موارد مالية الكنيسة فقد قررت أن يعترف الخطاة كل عام مرة بدلا من الاعتراف مرة واحدة في العمر ؟ ١٩
وبذلك وضعت الكنيسة نفسها موضع الوسيط بين الخطاة والخالق فالطريق إلى الله ، مسدود أمام عامة الناس ، ولا يملك أحد أن يفتحه إلا الكاهن ؟ ١٩

وكانت هذه الوسيلة سببا بارزا في ثراء الكنيسة ورجال الدين ويصور ديورانت هذا الثراء فيقول :

« وإذا كانت ممتلكات الكنيسة مما لا يجوز انتقاله إلى غيرها . . . فقد أخذت هذه الممتلكات تنمو على مر القرون لدرجة أن تملك كنيسة واحدة أو دير للرجال والنساء عدة آلاف من الضياع تشمل فيما تشمله إثنتي عشرة بلدة ، بل تشمل أحيانا مدينة كبرى أو مدينتين » (٣) .

ول ديورانت يتحدث - هنا - عن إمالك كنيسة واحدة أو دير واحد فحكم ياترى كانت تبلغ إمالك الكنائس والأديرة كلها ؟ ١٩

(٣) قصة الحضارة - بتصرف (مجلد ٤ - ص ٦٩) وما بعدها .

ويقول في موضع آخر :

« وكذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية . . . وقد حسب دخل الكرسي البابوي عام ١٢٥٠ م فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوروبية مجتمعين » (١) .

وقد ترتب على منح صكوك الغفران فساد كبير . فإن الحاصلين عليها وقد ضمننت لهم اللجنة تحلوا من الفضائل ولم يتورعوا عن ارتكاب أية جريمة أورذيلة ، ولو كان ذلك كفرا بالله ، وشركا بالمسيح وقد دعاهم إلى ذلك قصور في صياغة الصك . إذ جعلته الكنيسة براءة خالدة تمحو ما تقدم وما تأخر من الذنوب . ولو كانت الكنيسة قد نصرت أثره - الوهمي بالطبع - على ماضى دونما يستقل لكانت أسهمت في تحقيق شيء من الإصلاح . ولكن الإصلاح لم يكن في حسابها وإنما الذى كان في حسابها هو جمع المال بأى ثمن لذلك أطلقت أثر الصك ولم يقيد بالماضى حتى لا تقل من قيمته عند طالبيه وقد كان مبدأ أو حق الغفران والاعتراف وصمة في جبين الكنيسة أخذت مكانها بوضوح إلى جانب كثير من الوصايا ١٩

• الوصية عند الموت :

وكانت الكنيسة تدخل نفسها وريثا في مال الموتى مع وراثتهم الشرعيين ، وتحتم على كل إنسان أن يكتب وصيته للكنيسة قبل موته ، ثم خامرها الشك فأرادت أن تنظم تحرير الوصايا على شكل يضمن لها نصيبها في مال كل من يموت . فأصدر البابا إسكندر الثالث عام ١١٧٠ م قرارا يقضى بأن تكتب الوصايا في حضرة قسيس ، وكل من يجرؤ على تحرير وصية من غير هذا الطريق يطرد من حظيرة الدين ، وتعتبر لوصية غير قانونية من وجهة الكنيسة . ١٩

• العشور :

وبالإضافة إلى موارد صكوك الغفران والوصايا كبلت الكنيسة أتباعها بمورد مالي مرهق إلى أبعد الحدود . وهو تقديم عشور الأموال لها . وقد مل الناس هذا السلوك ، وبخاصة أن الكنيسة لم تكن تقدم للناس أية خدمات مقابل هذه الأموال كبناء المدارس وفتح الطرق والمصحات ، بل كانت تنفق هذه الأموال على مطالبها الخاصة ولما شعرت الكنيسة بتدمير الناس من هذه الإجراءات التعسفية جعلت للقساوسة حق إصدار اللعنات على كل من يتأخر في دفع عشور أمواله أو يقدم بيانات غير حقيقية عن إيراداته وممتلكاته ١٩

• العشاء الرباني :

من البدع التي أخذتها الكنيسة عن مسيحية بولس البدعة المسماة بالعشاء الرباني الذي يتناوله المسيحيون في عيد الفصح ، وهو يتكون من خبز وخمر . وكان عند المسيحيين الأوائل عادة رمزية الخبز فيها خبز ، والخمر خمر ولكن الكنيسة في وقت لاحق أدعت أن الخبز في العشاء الرباني يتحول إلى جسد المسيح ولحمه ، وأن الخمر يتحول إلى دم المسيح فعلا ، ويدعون أن من تناول العشاء الرباني فقد أكل لحم المسيح فعلا وشرب دمه فعلا ، وأن ذات المسيح اختلطت بذوات آكليهم وفي هذا نجاة من العذاب وبركة ١٩

وقد أكثر بولس من ذكر هذا في رسائله ، وعلى رغم أن إنجيلي متى ويوحنا أشارا إلى أصل هذا العشاء^(٥) فإن كلام بولس فيه يعتبر هو الأصل لأن رسائل بولس سبقت كتابة الأناجيل الأربعة : متى ويوحنا ولوقا

(٥) انظر إنجيل متى (٢٦ : ٢٧ - ٢٨) وإنجيل يوحنا : (٣٦ :

ومرقس . وأول هذه الأناجيل كتابة لم يكتب قبل عام ٣٧ م ويقال إن الذي كتبه هو بولس لا متى .

ومشكلة المشكلات في العشاء الرباني أو القربان المقدس كما يقال أحياناً هي : كيف يتحول الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح حقيقة ؟

الكنيسة تصر على هذا ، ولو أنها قالت أن ذلك التحويل مجازي تقديرى لا حقيقى واقعى لما اختلف معها في هذا ، ولكن إصرارها على هذا الموقف هو مشكلة المشكلات فعلاً .

ولكن الكنيسة لم تعد حيلة قوازي وراءها ماء الوجه . تلك الحيلة مائلة في هذا الجواب :

« إن هذا سر من أسرار الإيمان ولا مجال للعقل فيه ١٩ »

وقد ثار على هذا الإدعاء الكاذب كثير من ذوى العقول من المفكرين وفلاسفة ، الغرب مثل فولتير وويكف ولوثر وكلفن وغيرهم .

هـ الرهبانية :

ومن معتقدات الكنيسة الموروثة عن بولس كراهية الزواج بالنساء وتفضيل حياة العزوبة . والسبب في ذلك أن الكنيسة تنظر إلى المرأة نظرة ازدراء ، لأنها - في نظرها - كافت السبب - وليس الشيطان - في إخراج آدم من الجنة ، وتؤكد حياة العزوبة لرجال الإكليروس - رجال الدين - ومن دولعي العزوبة عندهم إمكان التفرغ لعبادة الله - لأن الذي يتزوج وينجب يمنع ولاده لزوجته ولأولاده من دون الله ٢٠ وكان التعبد عندهم في حياة العزوبة

وهذا المبدأ مأخوذ من كلام بولس الذي يقول فيه : « أقول لغير المتزوجين والأرامل أنه خير لهم أن يبقوا مثلي (٦) » ولكن إذا لم يستطيعوا أن يضبطوا

(٦) قضى بولس حياته كلها أعزب لم يتزوج . وهذا معنى قوله هنا « أن يبقوا مثلي » .

أنفسهم فليتزوجوا ، لأن الزواج أصلح . وأما المنزويون فأوصيهم بأن لا تفارق المرأة زوجها . وإن فارقه فلتبقى بغير زواج ، أو لتصلح زوجها ولا يترك الرجل امرأته .

بواس هنا يبدو معتدلاً بعض الاعتدال ، أما الكنيسة . فقد تشددت بالنسبة . لبعض الطوائف حين منعهم من الزواج منعاً باتاً .

مساوىء هذا السلوك :

وكان لهذا السلوك مساوىء قبيحة . كل القبح ، فهي تحرم الإنسان من حق غريزي مكفول له ، وعند الفطرة التي فطر الله عليها خلقه وهياً لهم سبل التمتع بها .

والواقع - كما يحدثنا التاريخ أن الذين استجابوا - في الظاهر - لهذا المبدأ الكنسي . لجأوا في السر إلى إرواء طباقتهم وإشباع رغباتهم الجنسية من الطرق المحرمة بعد أن أوصدت أمامهم الكنيسة أبواب الخلاص .

بل إن كثيراً منهم كان يمارس الحرام داخل الكنيسة نفسها إذ لا فرصة أمامه إلا هي . وما أكثر العقوبات التي أوقعت على هؤلاء المظلومين الظالمين . وما أكثر من أفلت من العقاب لاحتياطه الشديد عند الممارسة .

فهذا ول ديورانت يقول : « إن سجلات الأديرة تحوى فيما تحوى عشرين مجلداً من المحاكات بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات ، » (٧)

ويقول رئيس دير كلوني : « أن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها لمستهقرون بآبن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها . بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون لتكون ملاذاً للعفة والطهارة لقد فاضت تلك البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى ، » ١٩

(٧) قصة الحضارة (مجلد : ٦ جزء ٤ ص ٨٦) .

(٨) قصة الحضارة (مجلد : ٥ - ١٤٥) وما بعدها .

وكان لهذه الفضائح أثر سيء ذو شقين عند العامة . فكثير من الناس أخذ يرتاب في الدين الذي تمثله الكنيسة لما رأوا رجالها وخصيان المملوكات غارقين في الرذائل والدنائس . وهذا هو الشق الأول أو أحد الشقين .

أما الشق الثاني ، وكان يمثل الغيورون على الدين من غير رجال الكنيسة فقصدهم إتخاذوا من تلك الفضائح التي إرتكبتها رجال الدين أسباباً وجيهة جداً الإنشقاق على الكنيسة والمترد على التعاليم التي ينادي بها رجالها . ومدعاة للشك والإرتياب ولم تفلح الكنيسة في القضاء على تلك الشكوك ، وما ذلك في مقدورها اللهم إلا تلك الإجابة التي كانت ترددها دائماً على أسماع المتساءلين والناقدين :

« إن هذا سر من أسرار الكنيسة لا يستطيع أن يدركه عقل عاقل .

أرى يقولون : أن قضايا الإيمان منحة من الله وليس للعقول مجال فيها . ومن المؤسف أن مارتن لوتر وقد عرف بأنه رجل الثورة على المعتقدات الكنسية ، ورجل الإصلاح الديني كان يلجأ إلى تلك الإجابة بعد أن قرر أن الكتاب المقدس والعقل بينهما نفور شديد ، وقد قال في هذا : « فإما أن تؤمن بالعقل وتكفر بالكتاب المقدس ؟ وإما أن تكفر بالعقل وتؤمن بالكتاب المقدس . وهذه قولة لو مضى معها لوتر حتى النهاية لكان قد كتب له الفلاح . ولكنه إنعكس فقال : إن الإيمان منحة من عند الله وليس للعقل مجال فيه ١٤

مصادر المسيحية :

للمسيحية المعاصرة مصادر رئيسية وهي :

١ - رسائل بولس الأربع عشرة .

٢ — الأناجيل الأربعة .

٣ — أعمال الرسل . وهذه المصادر الثلاثة تسمى به « العهد الجديد »
تميزا لها عن العهد القديم « وهو التوراة وملحقاتها . وعلى العهدين القديم
والجديد يطلق اسم « الكتاب المقدس » والعهد القديم خاص بالديانة اليهودية
والمسيحيون - على الرغم من هذا الانفصال - يعتبرون العهد القديم جزءاً من
الكتاب المقدس يجب الإيمان به على كل مسيحي .

أزمة توثيق النصوص :

وقد واجهت المسيحية مشكلة مر أعقد المشكلات منذ اللحظة الأولى .
وهي أزمة توثيق النصوص — وبخاصة الأناجيل الأربعة التي هي أصل
الاعتقاد عندهم .

ويهمنا أن نشير هنا إلى بعض الحقائق دون الخوض في التفاسير والتفاصيل
فذلك أمر آخر (٩) .

ومن أبرز الحقائق المتعلقة بتوثيق النصوص المقدسة عندهم :

- جهل التاريخ الذي وجدت فيه تلك الأناجيل ؟
- جهل اللغة الأولى التي كتبت بها أم اليونانية أم العبرانية أم ماذا ؟
- جهل الأشخاص الذين كتبوا تلك الأناجيل أم حواريو المسيح عليه
السلام أم أشخاص آخرون انتحلوا أسماءهم ؟
- جهل المصادر التي أخذت عنها الأناجيل : أم لأملاء المسيح على
تلاميذه ؟ أم نسخة ، أو نسخ مفقودة ؟ أم هي تدوين للروايات الشفهية التي
كانت ترددها الأجيال قبل التدوين النهائي ؟

(٩) قد عالجت هذه المشكلة علاجا وافيا في كتابين : أحدهما الحكيم في حديثه مع الله
والثاني : « الاسلام في مواجهة الاستشراق المالى » الأول نشر : دارالسلام للطبع
والنشر والتوزيع . والثاني دار الوفاء .

• جهل الوقائع التي تزويها الأناجيل : أهي شهادة عيان لحياة المسيح عليه السلام ، أم تصويروا لقائد طوائف مختلفة كل لإنجيل منها كان يمثل عقيدة طائفة كما ترها هي لا كما كانت في مسيحيتها المسيح نفسه عليه السلام .

• صعوبة التوفيق بيننا في الأناجيل من اختلافات وشناعات وتناقضات حول الواقعة الواحدة . وبخاصة في شجرة نسب المسيح عليه السلام . (١٠)

هذا وقد خضعت أسفار العمدتين القديم والجديد لدراسة نقدية موضوعية حديثة قام بها مفكرون غربيون لا يحصون عدداً آمنهم من هم يهود ، ومن هم نصارى . والذي حلمهم على هذا العمل النقدي المشكلات التي أشرنا إلى بعضها آنفاً أضف إلى هذا أن آباء الكنيسة في كل زمان قد لوحظ أن إجاباتهم على تلك المشكلات كانت ساذجة لم تضع حداً للمشكلة . لذلك إستأنف المفكرون والنقاد البحث فيها من جديد . وقد كتفى هنا بنصر جامع إنتهى إليه النقاد في حقيقة الأناجيل بعد البحث الموضوعي الدقيق . يقول الدكتور موريس بوكاي :

• أن الملمحة العامة التي أعطيناها عن الأناجيل والتي إستخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص تقود إلى مفهوم أدب مفكك تفتقر خطته إلى الإستمرار وتبدو تناقضاته غير قابلة للحل كما تقول ألفاظ الحكم الذي أصدره المعلقون على الترجمة المسكونية للكتاب المقدس ، الذين يهمننا الرجوع إلى سلطتهم . حيث أن التقديرات في هذا الموضوع تؤدي إلى نتائج بالغة الخطورة ولقد رأينا أن بعض المعلومات عن التاريخ الديني المعاصر لميلاد الأناجيل تستطيع أن توضح بعض سمات هذا الأدب الذي يبلبل القاري المتأمل ، ولكن يجب الذهاب إلى أكثر من هذا ، كما يجب البحث عما يمكن

(١٠) أنظر في هذا كتاب « دراسة السكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » د / موريس بوكاي طبعة دار المعارف أو : الجيبكيم في جديده مع الله .

أن تعلمنا به الدراسات المنشورة في العصر الحديث عن المصادر التي نزل منها المبشرون لتتغير بنصوصهم ، (١١)

وقفه مع هذا النص :

هذا النص يسجل الحقائق التي لا تنهى إليها النقاد من دراستهم النصوص الأناجيل .

وقد استبعدوا - بشكل قاطع - أن تكون الأناجيل وحيا من عنده الله لأن بها تناقضات وجهالات ساحرة الوحي ، براءة منها .

وقد أطلقوا على نصوص الأناجيل مصطلح « أدب مفكك » ، وأنه يوقع القارئ المتأمل في حيرة وبلبلة فكر .

وقد استعان النقاد بالحكم الذي أصدره المعلقون على الترجمة ، المسكونية (١٢) للكتاب المقدس والمعلقون كانوا من رجال الدين ، أي هم أهل الاختصاص في هذا المجال ، ولهم فيه سلطة شرعية لا ينازع فيها أحد . إذن فرجال الدين قد إتفقوا مع النقاد على النتائج التي أدت إليها البحث العلمي الموضوعي حول النصوص المقدسة توراثية وإنجيلية .

أي أن هذا النص يمثل رأي الكنيسة نفسها في النصوص المقدسة . وهذا يوضح لنا أن أصل الأصول في الديانة المسيحية يستكشفه قدر هائل من الشكوك والإضطراب . وهذا ما أردنا تأكيدنا هنا .

ومعنى كلمة « أدب » التي إرتضى المعلقون والنقاد إطلاقها على الأناجيل أن هذه الأناجيل عمل بشري لا نصوص وحي . ووصف هذا الأدب بأنه

(١٢) المسكونية نسبة إلى الأرض المسكونة . أي مؤتمر عام شمل علماء المسيحية في الأرض المسكونة . وهذا ما يشبه الإجماع في المصطلح الشرعي الإسلامي .

« مفكك » ، يفيد أنه أدب لم تتوفر له مقومات الأصالة والإحكام وهذا وصف
جد خطير بالنسبة لاعتقاد الكتبة ١٩

ويررى موريس بوكاي تقريراً آخر أشد خطورة مما تقدم فيقول :
« وبعض هذه المكتابات المزورة يحتوى تفاصيل خرافية أنتجها الخيال الشعبي
وعلى ذلك فبعض مؤلفي الدراسات عن الأناجيل المزورة يدكرون برضى
شديد الوضوح مقاطع من هذه التفاصيل تدعو حقاً للسخرية . . . وعلى
المعلقين أن يتحلوا بشرف الإعتراف بهذا (١٣)

تشبيه رائع :

وينتهى نقاد الأناجيل إلى وصفها بأنها امزوج من أدب الملاحم الشعبية
أنها مثل ملحمة رولان لها أصل تاريخي لكن الخيال الشعبي ضخم ذلك
الأصل وأضاف إليه وأضاف . وهذا لا يمنع من صدق الواقعة تاريخياً ، وإنما
الذي ينبغي أن يزاح عنها هو التضخيم الذى أضافه الخيال البشرى . وفى
ذلك يقول موريس :

« ونفس الأمر بالنسبة ، للأناجيل فخيالات متى والمتناقضات الصارخة
بين الأناجيل ، والأمور غير المعقولة ، وعدم التوافق مع معطيات العلم
الطبيعى ، والتحرقات المتوالية للنصوص ، كل هذا يجعل الأناجيل تحتوى
على اصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنسانى وحده ، لكن هذه العيوب
لا تضع فى موضع الشك وجود رسالة المسيح . فالشكوك نخيم فقط على
المكيفية التى جرت بها ، (١٤)

وهذا هو عين الحق والصواب . فلا ينبغي أن يشك مؤمن فى وجود

(١٣) نفس المصدر (٩٩)

(١٤) نفس المصدر (١٣١)

المسيح وصحة رسالته ، ولكن الشك الذى هو من صميم الإيمان أن تكون
هذه الأناجيل وحيًا من عند الله ١١٩

رسائل بولس :

أما رسائل بولس وهى أهم مصادر المسيحية باعتراف الكنائس نفسها
فهى من حيث تحقيق النصوص ونسبتها إلى كاتبها صحيحة النسبة ولم يعثرها
مما عثرى الأناجيل من أوهام وشكوك ، ولكنها تشترك مع الأناجيل
فى أمور أخرى شديدة الخطورة والحساسية . الا وهى عدم شرعية الأخذ
عن مصادر موثوق بها ، وعدم وفاقية ما فيها من تعاليم لتعاليم السيد المسيح
عليه السلام .

فبولس ليس من حوارى المسيح ولم يره ولم يلتق به . وحيلة انصالة
بالمسيح رؤيا ومناما حيلة مطعون فيها . وبولس كان ذو عقيدة أو ثقافة
راسخة قبل التصاقه بالمسيحية ، فقد كان حافظا ومتبحرا فى تعاليم الأفلاطونية
الحدیثة ، ذات الغالوث المتقدم ذكره ، وكان على صلة بالعقائد الوثنية القديمة
وفى مقدمتها المترامية صاحبة عقيدة الخلاص والسكمان الوسيطة بين العبد
والآلهة ، والمذابح والقرابين ورسائل بولس وإن صحت نسبتها إليه فإن
التعاليم التى وردت فيها لم تصدر عن السيد المسيح عليه السلام وإنما هى
ملفقة من عقائد الرومان وعقائد مدرسة الاسكندرية أو الأفلاطونية الحديثة
وباختصار شديد نقول :

إن رسائل بولس صحيحة السند علملة المتن . وصحة سندها لا تعثر
سببا فى قبولها واعتمادها مع تزوير المادة المدكورة فيها من حيث تصويرها
لتعاليم السيد المسيح عليه السلام . والفروق جد كبيرة بين مسيحية المسيح
عليه السلام كما وردت فى القرآن الكريم وكما عرفها المسيحيون الأوائل فى عهد
آل بولس ونسطورس ومن قبلهما ، وبين المسيحية الحديثة ، التى ابتدعها بولس
وروج لها ونقلها الكنيسة بالرضا والقبول .

وصفوة القول :

ان الكنيسة التي تولت الريادة والتوجيه في أوربا حتى القرون الوسطى لم تمتلك الأصول الصحيحة للنصوص المقدسة التي ترقى إلى درجة القطع واليقين في نسبتها إلى قطب الدين المسيحى ، وهو عيسى بن مريم عليه السلام أو أحد تلاميذه الاثني عشر .

وترتب على هذا : تحريف العقائد ، وتحريف قواعد السلوك ، ووقوع الكنيسة في ورطة كانت هي السبب في القضاء على سلطانها وتدهورها إلى اليوم .

ثنائية الإنسان في ظل النظام الكنسى أو البابوى :

ومن العيوب والمآخذ التي سجلها وعى الزمن عن النظام البابوى الكنسى ما يعرف عند الدارسين والمفكرين بـ « ثنائية الإنسان ، أو مثوية الإنسان . والمراد من هذا التعبير هو انشطار الإنسان في الولاء والتبعية والخضوع إلى سلطتين متنازعين لكل سلطة منهما ايدولوجية خاصة بها .

وذلك لأن الكنيسة لم يدم استئثارها بالسلطة العامة على المجتمعات الأوروبية . بل نازعها رجال الحكم والسياسة من ملوك ورؤساء وأمراء ولأمرما رضيت الكنيسة بأن يكون لها السلطان الدينى أو الروحى المعنوى ، وأن تترك للملوك والرؤساء والأمراء السلطة السياسية وتدير شئون الحياة او رضيت الكنيسة بالسلطة « الروحية » وتركت السلطة « الزمنية » لغيرها من الحكام . وأصبح على الإنسان في ظل هذا الانشطار أن تكون « روحه » للكنيسة ، و« جسده » لرجال الحكم من ملوك ورؤساء وأمراء .

وبهذا حدث أول انفصال بين الدين والسياسة . والكنيسة عذرها في هذا لأنها لم تكن تملك - وما تزال - دستوراً أو نظاماً تدير من خلاله شئون الحياة إلى كل مظاهرها .

فالمسيحية التي اعتمدتها الكنيسة هي مسيحية بولس لا مسيحية السيد المسيح . ومسيحية بواس كما أوجزنا الحديث عنها ملفقة من عقائد وثنية هي قاصرة كل القصور عن التشريع الذي يقود أمة ، أو يحقق الأمن والاستقرار لشعب .

يقول برنتن : « ان المسيحية الظاهرة في مجلس نيقية (العقيدة الرسمية) في أعظم امبراطورية في العالم مخالفة كل المخالفة المسيحية المسيحيين في الجليل . ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد (الاناجيل وأعمال الرسل) التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعا لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا (١٤) .

وقفة مع هذا النص :

انه يقارن بين المسيحية الاولى التي كان عليها المسيحيون في الجليل وهو مهد رسالة عيسى ، وبين مسيحية القرن الرابع الذي انتهى إليها يجمع نيقية مستقاة من أقوال بولس .

وانتهى المؤلف ، وهو مسيحي ، إلى أن المقارنة لا تسفر عن وقوع اختلاف بين المسيحية في عهدها الأول ، وبين مسيحية القرن الرابع فقط بل تسفر المقارنة عن أن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بأي وجه من الوجوه . وبهذا يظهر فشل الكنيسة من عدة وجوه :

- فشلها في مجال صحة النصوص .

- وفشلها في مجال الاقتناع وعجزها التام عن تفسير أسرار الطقوس الدينية
- وفشلها في التغلب على ما في مصادرها الدينية من تناقضات وتناقضات .
- فشلها في كف أطباعها وفي كسب ولاء الناس .

ويضاف إلى هذه الأنماط فشيئ آخر كان واحداً من أهم وأبرز العوامل
في التمرد عليها وإسقاطها وذلك هو :

• تصورات الكنيسة عن بعض الظواهر السكونية والاجتماعية :

كان للكنيسة مواقف مخزية ومؤسفة في فهم ظواهر السكون وبعض
الأوضاع الحياتية .

• فقد كان رجال الدين يعتقدون أن الأرض مركز السكون وتعمل
هنا بأن الأرض عاش عليها السيد المسيح فهي أولى بأن تكون مركز
السكون دون غيرها ؟

• وكانوا يعتقدون أن الأرض أو السكون كله وجد عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد ؟
• وكانوا يعتقدون أن العناصر الأولية أربعة : الماء والنار والهواء والتراب ؟
• وكانوا يعتقدون أن الأمراض أرجاس من أرجاس الشياطين وأن
علاجها يكون بإقامة القداس وإحراق الأبخرة ؟

• وكانوا يرون في نظام العبودية والرق عقوبة من الله على الخطيئة
الموروثة . وأن الرقيق يجب أن يظل رقيقاً ومن يدعو إلى الحرية والعتق فهو
متنرد على حكم الله ؟

هذه هي المسيحية التي عرفتها أوروبا وتولت زمام الحكم والتوجيه فيها
ودحاً من الزمن ، وكان رجال الدين يزعمون أن الكنيسة بما تملكه من
نصوص مقدسة ومباركة من السيد المسيح هي - وحدها - دون سواها
مصدر المعرفة الصحيح ، وكل غارح عليها إثمها هو مهرطق محروم من
الملكوت السماوي (١٥) ؟

هذه هي الكنيسة وتعاليمها ومقوماتها وتصوراتها . تولت زمام التوجيه

(١٥) سيأتي لهذا تفصيل آخر عند الحديث عن أسباب نشأة المهدانية والصراع
بين رجال الكنيسة والعلماء .

وما هي له بأهل ، وما كانت الكنيسة لتتاح لها فرص القيادة والتوجيه مطلقا أو مقيدا إلا في عصور الجهالة والانحطاط . وهذا هو الذي وقع بالفعل . وهذا هو الذي كانت تدركه الكنيسة نفسها . فحدثت من تعليم القراءة والكتابة ، واستأثرت بالكتاب المقدس وتعاليمه وتفسيره لأن في بقاء الجهل بقاء لها . فإذا حل العلم محل الجهل أذنت شمسها - إن كانت لها شمس - بالإنفول : ؟

وانحطاط أوروبا في العصور الوسطى تحت ظل الكنيسة ، وفي كنف التوجيه الديني المنحرف ، حقيقة لا ينازع فيها عاقل .

لقد قامت أوروبا بالانفصال من جراء الجهالة التي فرضتها عليها الكنيسة والظلم الذي وقع عليها من ملوك الضياع والإقطاع ، وفقدت أوروبا نور الهداية وصدق التوجيه نقيم عليها الظلام من كل جهة ، وقبل أن نعرض لموقف الإسلام من هذه التصورات الكنسية ، نذكر فيما يأتي نص خطاب من أحد ملوك غرب أوروبا إلى أحد خلفاء المسلمين لما في ذلك الخطاب من شهادة صادقة على تخلف أوروبا في أوج سلطان الكنيسة ، وورق الشرق الإسلامي بفضل الإسلام ، ولإيمكم نص الخطاب حرفيا :

الخطاب :

د من جورج الثاني ملك إنجلترا والغال (فرنسا) والنرويج ، إلى الخليفة هشام الثالث : بعد التعظيم والتوقير . سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم في بلادكم العامرة ، فأردنا لبلدنا اقتباس هذه الفضائل لنشر أضواء العلم في بلادنا التي يحيطها الجهل من أركانها الأربعة . وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة دو بانث على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز ،

خادمكم المطيع جورج ، (١٦) .

(١٦) كان هذا في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي : انظر القرآن

والمنهج للعلمي المعاصر المستأشار عبد الحليم الجندى ٧٦؟

هذا الخطاب يصور حالة أوروبا في القرن الحادى عشر ، وهو أحد القرون الوسطى التى كانت المكنيسة تسيطر خلالها على مقاليد الأوضاع الروحية والثقافية هناك ، وتذكر بعض المصادر أن هذا الخطاب كان مصحوبا بهدايا قيمة منها شمعانات من الذهب الخالص طول الواحدة ذراعان ، ولأنتان وعشرون قطعة ذهبية من أواني المائدة هدية خالصة للخليفة المسلم على أن أبرز عبدة تؤخذ من هذا الخطاب هى توقيع الملك جورج عليه بعبارة : خادمكم المطيع ، ؟ .

فانظر إلى أى مدى رفع الإسلام خلفاء المسلمين وقتذاك ؟ وهل فى الواقع المعاصر الآن من يخاف أحد من ولاية أمور المسلمين بمثل هذه العبارة من رؤساء الغرب وزعمائهم .

وبم تسمى هذه الواقعة ١٩ أليست هذه بعثة من بعوث العلم نزحت من أوروبا إلى الأندلس حين كان الإسلام شامخا هامة فيها ؟ ثم انعكس الوضع لما بعد المسلمون عن الإسلام فأخذنا نرسل طلابنا لتحصيل العلم والمعرفة من معاهد الغرب وجامعاته ، وتلك الأيام تداولها بين الناس ، .

موقف الإسلام من التصورات الكنسية

لم تستند الكنيسة في تصوراتها التي أوجزنا الحديث عنها فيما تقدم إلى دليل صحيح من النقل ، ولا إلى برهان مقنع من العقل ؛ وبذلك فقدت كل مقومات الصديق فيما صدر عنها فتصوراتها باطلة أمام النقل والعقل على حد سواء . والنقل والعقل هما المرجع في معرفة الصحيح والباطل من العقائد والأفكار . وقد ووجهت تصورات الكنيسة من الجهتين معا :

• من جهة النقل ، والعمدة فيه النصوص الإسلامية من الكتاب ومن السنة ، وقد نضيف إليهما نصوص أهل الكتاب (النصارى) أنفسهم على ما هي عليه الآن .

• ومن جهة العقل ، وهذا المجال شراكة بين علماء الإسلام والمعتدلين المستنيرين من مفكرى الغرب من المسيحيين وغيرهم ، بل ومن بعض رجال الدين منهم .

وقد قدم - هنا - مواجهة الإسلام للتصورات البابوية الكاثوليكية ، أما دور مفكرى الغرب ومستنيريه فسيأتى في فصل الصراع بين الكنيسة وخصومها فيما عرف بـ « عصر التنوير » في أوروبا خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

وفى مواجهة الإسلام لتلك التصورات فقمصر على أسس التصورات التي إذا انهارت - ولا بد أن تنهار - لإنهار تبعها لها ما بنوه عليها من فروع وتشعيبات .

ونحدد منذ الآن موضوعات المواجهة في التصورات الآتية :

تأليه المسيح - الثالوث - الصلب والخطيئة البوروثية - عصمة البابوات -
الرهبانة - المشاء الرباني - الاعتراف .

• تأليه المسيح عليه عليه السلام :

إن أول قرية الصقت بالمسيحية وكانت لإيدانا بظهور فريات أخرى ، هي
قرية تأليه المسيح عليه السلام . وهذه القرية هي التي كدورت صفو مسيحية
المسيح وكانت أولى الخطوات في طريق الشيطان .

فعمسى عليه السلام ايس بدءاً من الرسل والرسل كلهم من البشر وهذه
سنة الله في الرسالات .

وقد حملهم على القول بتأليه عيسى عدة عوامل هي في الواقع أوهام في
أوهام .

• حملهم عليه ماورد في رسائل بولس من أكاذيب . وبولس لم يكن
من حواربي المسيح ولا هو وآه وكان من ألد أعداء المسيحيين قبل
التحريف .

ولو كانت هذه المسألة (مسألة تأليه المسيح) صحيحة لنقلها عنه حواربه
الحقيقيون أو نقلها عنه بعضهم ، ولما كان شيئاً من ذلك لم يكن .

• وحملهم على القول بتأليه عبارات وردت في الأناجيل تفيد أن
الله - سبحانه عما يقولون - أبو المسيح ، من مثل قول المسيح حين
الروايات الانجيلية : « أبي الذي في السماء » ، ومثل قوله في الصلاة
التي علمهم إياها : « يا أبانا الذي في السماء ليتقدس اسمك » .

هذه العبارات على فرض صحتها لا دلالة لهم فيها على أن عيسى ابن الله
حتى يكون مثله إلهاً ١٩

وقد نقض العالم السنى المسلم محمد بن مسلم بن قتيبة فى كتابه تاويل مشكل القرآن هذا الفهم الباطل الذى فهمه رجال الدين المسيحى من أن كلمة د أب ، تعنى الأبوة الحقيقية :

وخلاصة قول ابن قتيبة : إن القوم ضلوا حين فهموا من هذه العبارات المعنى الخرفى لها : وهى أبوة الصلب والنسب بينما المعنى المراد إنما هو : أبوة الرعاية والحفظ والتأييد ويزيد هذا المعنى رسوخا وقوة : أن المسيح فيما تروى عنه أناجيل النصارى قال عن الماء . إنه أبى ، وقال عن الخبز : إنه أبى وكم خاطب المسيح فى الأناجيل الحواريين قائلا لهم : أبوكم أو أيكم ، أو أباكم الذى فى السماء ١٤

ومعنى هذا : أنه لو كان المراد من كلمة د أب ، فى أقوال المسيح أبوة الصواب اللزيم من ذلك :

أن يكون الماء أباً حقيقياً للمسيح ١٤

وأن يكون الخبز أباً حقيقياً له كذلك ١٤

بل وأن يكون الله - تعالى عما يقولون - أباً حقيقياً لحواريي المسيح
الاثني عشر ١٤

بل وليكان أباً لكل من يقول : يا أبانا الذى فى السماء ليتقدس
اسمك .. ١٤

وهذه ، اللازميات ، لم يقل بها أحد حتى من النصارى أنفسهم

إذا فالأبوة - على فرض صحة ورودها فى كلام السيد المسيح - إنما هى
أبوة مجازية لاحقيقية .

« وحملهم على القول بالتأليه ولادة المسيح من أم بلا أب . وهذه شبهة مردودة . ولو جاز أن يأخذها عاقل دليلا على التأليه فإن آدم أحق بها من عيسى عليهما السلام . ١٩ »

عيسى ولد من أم وإيس له أب . وأدم خلق من لا أب ولا أم فخلق الله آدم أعجب وأدخل في باب الإعجاز من خلق عيسى ولم يقل أحد من النصارى بأن آدم لأنه فكيف ساغ لهم بناء على هذه الشبهة أن يؤلهوا عيسى عليه السلام ١٩

« وحملهم على التأليه بعض معجزات عيسى عليه السلام ، من إحياء الموتى وإبراء المرضى . . . ! »

وليس في هذا دليل - كذلك . فالمعجزات فاعلمها الله وليس الرسل ، وإنما يجريها الله على أيدي الرسل تصديقا لهم في دعوى النبوة ومعجزات عيسى عليه السلام من جنس معجزات سائر الرسل في كونها أمرا خارقا لما جرت به عادات البشر وقدرانهم . وإذا صح أن المعجزات تتفاوت في القوة فإن في معجزات غير عيسى من رسل الله ما هو أدخل في باب الإعجاز منها ، وأكثر دهشة وغرابة فمرش بلقيس الذي نقل كما هو من أقصى جنوب شبه الجزيرة إلى أقصى شمالها في أقل من طرفة عين أدخل في باب الإعجاز من معجزة إحياء الميت . إذ قد يقال : إنه لم يمض بل أغشى عليه - مثلا - أما نقل قصر من قصور الملوك في أقل من طرفة عين (لاحظ أن عنصر الزمن هنا يكاد يكون معدوما) . فهو قاطع لمادة النزاع والجدل . وإن تكينولوجيات العالم اليوم جماء لعاجزة كل العجز عن أن تأتي بمثل معجزة سليمان عليه السلام . ولو كان بعضها لبعض ظهيرا . ١٩ (١٨)

(١٨) انظر - أن شئت تفصيلات أكثر في كتابنا « مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه - دار الأنصار - القاهرة ١٩٨٠ م .

القرآن الكريم يدحض هذه الفرية :

ما أكثر النصوص القرآنية التي فندت شبهات النصارى ودحضت فرية التآليه هذه . ومن ذلك قوله سبحانه :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ! قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء . والله على كل شيء قدير ، (١٩) .

وقوله :

« وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدن ، وكبره تكبيراً ، (٣٠) .

وقوله :

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، (٢١) .

وفي أسلوب قوي عنيف يصور القرآن شناعة هذه الجريمة ، التي تدرك قبحها انجمادات فيقول :

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه . وتتشق الأرض ، وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى

(١٩) المائدة (١٧)

(٢٠) الاسراء (١١١)

(٢١) مريم (٣٤ - ٣٥)

للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ، (٢٢) .
وهكذا يكرر القرآن في قوة ووضوح على فريضة النصارى وبطريق كل شبهة تؤدي إلى هذا الفهم العقيم .

وبقول :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .

وتدور النصوص القرآنية حول توحيد الله توحيداً خالصاً من شائبة الصاحبة ، والولد ، والشريك ، والمثل . وذلك هو التوحيد المنجى ، وتلك هى العقيدة الصحيحة . وبما ذكره القرآن في هذا الصدد استقامت رسالات الرسل جميعها . ونفقت مما أضاعتها إليها الأهواء الفاسدة .

فليس لله أصل هو متفرع عنه ، وليس هو أصلاً لأحد هو متفرع عنه .
« لم يلد . ولم يولد . وليس له في الوجود مثل أو مكافئ » : ولم يكن له كفواً أحد .

هـ أمثلة الولادة - ولادة عيسى من غير أب ، فقد أراحها القرآن عن مجال الاستشهاد بها على التآليه فقال :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن : فيه . يكون » ، (٢٣) .

القرآن : « آمين » أخلص في النصح لمؤلفي المسيح عليه السلام ، وأزال عنهم الشبهة التي استندوا إليها - شبهة الولادة من غير أب - في أسلوب برهاني واضح كل الوضوح .

(٢٢) مريم (٨٨ - ٩٥) .

(٢٣) الأعراف (٥٩) .

إن مثل خلق عيسى كمثل خلق آدم . فـآدم مخلوق من تراب لا أباً ولا أمه ولم يقل أحد إنه إله ، وعيسى مخلوق من أم ولا أباً له . فكيف ساغ لكم أن تقولوه ١٩ إن آدم أخق منه بهذا . لو كان ما استندتم عليه داخلاً في الاعتبار . فهل يصح هذا في عقل عاقل ١٩

ومعلوم أن القرار بتأليه المسيح عليه السلام لم يصدر إلا بعد ثلاثة قرون من بعثته في مجمع نيقية عام ٣٢٥ م بتشجيع من قسطنطين إمبراطور روما الوثنية وكان أعضاء المجمع ٢٠٤٨ قال بالتأليه منهم ٣١٨ ضد ١٧٣٠ رفضوا التأليه .

أى أن نسبة الرافضين إلى المجيزين كانت ٨٦ ر ١٧ . مقابل ١٥/٥٣/ ١٩

ومن أبلغ ما قيل حديثاً - في إبطال قضية تأليه عيسى عليه السلام ماقاله الأخد شيوخ الأزهر ، وهو حجاج برهاني خطابي وجداني وهذا قوله : (٢٤)

عباد المسيح لنا عندكم	سؤال عجيب ، فهل من جواب ١٩
إذا كان عيسى على زعمكم	الاه ، قويا ، عزيزاً يهاب ١٩
فكيف اعتقدتم بأن اليهود	أذاقوه بالصلب مر العذاب ١٩
وكيف اعتقدتم بأن الإلاه	يموت ، ويدفن تحت التراب ١٩

إن الالهية معناها : العظمة والعزة والقهر والسلطان والتفرد والتمتع والسمو والخلود والغلبة . فكيف يتصور عقل عاقل أن « الاله » يولد ويكون طفلاً وينمو ويأكل ويشرب ويتألم ويضحك ويقتل وهو لا حول له ولا قوة ١٩

أن معنى الالهية قد انحط في كثير من عقائد الأمم ، ومن أكثرها انحطاطاً ماذهب إليه مجمع نيقية الذي تسبب في إضلال كثير من البشر . فقالوا بأن عيسى الاله وهو قول صدر ممن لا يملك لمن لا يستحق . وقول هذا شأبه هو أضعف الأقوال . !

(٢٤) هو الشيخ زاهد الكوثري فيما أرجح . وقد اطلمت عليه في مجلة الإسلام منذ

هذه بريد . وسطرته الآن من النادر .

• التثليث :

كان القول بالوهية المسيح غريب منكرأ ، و لوهية المسيح بصفة خاصة والوهية غير د الله ، بصفة عامة لا أرى وصفا دقيقا لها إلا أن نستعير عبارة شاع أمرها بين الفلاسفة حينئذ ، كانوا يصلحونها على كل أمر مستحيل وقد أصابوا في الوصف عن طريق تلك العبارة . وهي :

د كن يبحث عن قبعة . سوداء في حجرة مظلمة لا وجود لها ، ١٩

هذا هو وصف المستحيل مع مدعيه كما صوروه الفلاسفة . وكذلك الوهية المسيح عليه السلام ؛ لأنها ضرب من صروب المستحيل . فمن أقرها والتس لها دليلا يقويها فهو كمن يبحث - فعلا - عن قبعة سوداء في غرفة مظلمة لا وجود لها .

أى أن القبعة ، المبحوث عنها لا وجود لها إلا في ذهن أو خيال أو وهم من يبحث عنها .

ولابد أن تسكون القبعة سوداء ليكون لونها من لون الغرفة التي يتنن أن القبعة موجودة فيها وهذا رمز للحيرة والجهل والضلال عند الباحث عن القبعة ، لأنه لا يرى بوضوح ولا يميز وضوح د جو الغرفة ، فهو دائم البحث بلا طائل .

ومثل الوهية المسيح في الغرابة والتفكارة والتوهيم القول بالتثليث الإلهي .

فبعد أن قرر مجمع نيقية عام ٣٢٥ الوهية المسيح انعقد مجمع آخر عام ٣٨١م في قسطنطينية . وقرر المؤتمرون وعددهم مائة وخمسون استنفا أن الروح القدس هو بدوره د إله ، واهنوا كل من يعتقد أن الروح القدس ليس باله . وفي مقدمة الملعونين مقدانيوس وأتباعه الذين كانوا يرون أن الروح القدس

ليس باله ، بل هو مخلوق مصنوع لله ١٩ (٢٦) .

وبهذا أكتملت عقيدة التثليث المقدس :

الآب - الابن - الروح القدس . . ١٩

وبهذا - كذلك - دخل الاشراك في العقيدة المسيحية من أوسع طريق :
فأنته - الحق - لم يعد وحده مالك الملك عندهم . وإنما صار له في
هذا الاعتقاد شريكان : الابن ، وروح القدس تعالى الله عما يقولون علوا
كبيرا .

وبعضهم - قبل نزول القرآن - ادعى أن مريم : إله ، لإنها أم ، إله ، ١٩
وقد حكى القرآن عنهم هذا القول :

« إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين
من دون الله ١٩ »

قال : سبحانك ، ما كان لي أن أقول ما ليس لي بحق . إن كنت
قلته فقد علمته . تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . إنك أنت علام الغيوب
ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا
ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم . وأنت على كل شيء
شديد ، (٢٧) .

بيد أن تأليه مريم قد رجع عنه المسيحيون الآن . ولست أدري إن كان
هذا صدقا أم موقفا مفتعلا . أتخذوه أمام الناس بحسب ١٩

وأيا كان الأمر فإن عقيدة التثليث قد أخرجت رجال الكنيسة أحرارا
شديدا . لأن الاشراك لازم لها . وأزاء هذا الإحراج راح بعضهم يضيف
جملة أخرى بعد سرد الاقافيم الثلاثة ، فيقولون :

(٢٦) أنظر : محاضرات في النصرانية (١٣١) .

(٢٧) المائدة (١١٦ - ١١٧) .

باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد ١١٤
وعبارة « إله واحد » المضافة أرادوا منها نفى الشرك عن عقيدتهم وقد
صارت هذه العبارة « المضافة » مشكلة أخرى من مشكلات الاعتقاد الكنسى،
فهي لم تستطع أن تحل المشكلة التي وردت من أجاما بقدر ما صارت هي مشكلة
أخرى من أعقد المشكلات . . إذ كيف تكون ثلاث ذات متغايرة منفصل
بعضها عن بعض ؟ فكيف تكون ذاتا واحدة .

أنا الآن أكتب وفي يدي قلم ، وأمامي ورقة بيضاء . موضوعه على
« منضدة » فكيف يسوغ في العقل أن ذات القلم ، وذات الورقة وذات المنضدة
تكون : ذاتا واحدة ١١٥

أهناك عقل في الوجود تنطلي عليه هذه الدعوى الأشد من الوهم ضاعفا
ونكارة . ١١٦

وأنت الآن تقرأ ، وفي يدك كتاب : ومجلس على مقعد . فهل من السائق
عقلا وواقعا أن تصبح يدك ، والكتاب الذي تمسك به ، والمقعد الذي
تجلس أنت عليه : شيئا واحداً أو ذاتا واحدة .

لقد حوصرت قضية التشليث مع التوحيد المزعوم فيها بالآلاف من مثل
هذه الأسئلة ، التي أثارها العقلاء في كل زمان ومكان . ولم تهتد الكنيسة إلى
الآن ، ولن تهتدي إلى الأبد - إلى جواب يقتنع السائلين والمتسائلين لأن
هذه القضية لم تستند إلى شيء من الحق قط ، فصارت سريرة المضم جداً وأفسكرها
كثيرون ولم يجد الكنيسة في القرون الوسطى من وسيلة للافتناع إلا أن تنشئ
محاكم التفتيش ، وتلقى - بالظنة من غير دليل - كل مخالف لها في الجحيم
المستعير (٢٨) .

(٢٨) انظر تفصيل القول في محاكم التفتيش : قصة المضارة (ج ١٦) والتمصب
والسامع بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالي والمسيحية للدكتور أحمد شلبي .

اضطراب وتضييق :

والبابا شنودة بابا الإسكندرية الثالث من استشعر هذا الحرج ، وقد كتب مقالا في مجلة الهلال المصرية في ديسمبر عام ١٩٧٠ م وناقش فيه فيما ناقش فكرة التثليث ، وأراد أن ينفى عنها وصمة الشرك بحيلة لا تنهض دليلا على ماقال ، فإذا قال ١٩

قال : إن التثليث ليس تعدد ذوات ، وإنما تشعب ذات . وضرب لذلك مثلا بالنار لها حرارة ولها ضوء . ثم قال : إن النار والحرارة المنبعثة عنها والضوء شيء واحد ١٩

وقد ظن البابا أنه أتى بما لم يأت به الأوائل من آباء الكنيسة ، وأنه أوسد الباب أمام المعارضين والنقاد . وظن أن مثله الذي ساقه قد أنطلى على النفوس وجهد نشاط العقول ، وخرست أمامه الألسنة وجفت الأقلام .

ولو كان البابا قد فكر وقدر فأحسن التفكير وأحكم التقدير لظهر له فساد استدلاله قبل غيره ، لأن فيما قاله مقالا ومقالا . فالنار وحرارتها وضوؤها ليست شيئا واحدا . وإنما هي شيء تولد عنه شيان :

الحرارة ، ثم الضوء . والنار هي مركز الدائرة وقطب المثلث إن كان المثلث مركز وقطب . الحرارة والضوء أثران للنفس وحرارة النار يمكن انفصالها عنها ، بل ذلك كغير الوقوع لأن الإلقاء النحاسي - مثلا - حين يوضع على النار لفترة طويلة نسبيا تشتد حرارته ، وتظل مشتعلة حتى بعد إطفاء النار فتسكون الحرارة ولا نار حينئذ .

والهوائ الذي تسخن بالنار وتوضع في د الثرموسات ، يظل ساخنا لمدة طويلة . فإين عملية الاتحاد التام بين النار وآثارها ياترى ؟ إذا كان ينبغي على البابا أن يدرك هذه الحقائق قبل أن يتحدع بمثله الذي ساقه .

وحق إذا سلمنا جدلاً بصحة هذا المثل ، فإن صحته وقف عليه وحده لا تتعداه إلـى التثليث ، الكنسى . ذلك لأن المسيح عليه السلام وهو ثانى الأقانيم الثلاثة حملت به أم ، وولدت له . وعاش على الأرض حيناً من الدهر . فهو منفصل تماماً ، ومغاير تماماً للأقنوم الأول : الأب ، ولالأقنوم الثالث : « روح القدس ، أما انفصاله عن الأب فبديهية من البداهة . وأما انفصاله عن « الروح ، فلأن الروح كما يعتقد آباء الكنيسة الكاثوليكية قد بشر به المسيح قبل نهايته وقال للحواريين : أن روح القدس سستظل فيهم إلى الأبد .

لذن فالأقانيم الثلاثة مفصولة بعضها عن بعض . وكل أقنوم مستقل تماماً عن الآخر .

ونرتب على هذا سؤالين :

١ . كيف تكون ثلاث ذوات كل منها مستقل عن الأخرى شيئاً واحداً ؟

٢ . وكيف ساع للبابا أن يقيس التثليث الكنسى على التثليث النارى الذى صبره مثلاً للإقناع . ولا تطابق ولا تناسب بين المثل المضروب وما أراد قياسه عليه .

البابا يريد أن يقول : إن تولد المسيح عن الله تولد معنوى لا حقيقى وهذا القول مردود عليه من كاتب مسيحى مصرى هو الأستاذ يسى منصور ويطلق عليه البابا ورجال الكنيسة المصرية أنه - أى يسى منصور - كاتب قدير ويسى منصور هذا ، أو الكاتب القدير كما يطلق عليه رجال الكنيسة يذسف فى كتاب له ماقاله البابا نفساً لا يبق له على أثر . وإليك ماقاله الكاتب القدير يسى منصور (٢٩) .

(٢٩) ناقشنا هذه القضية بالسمع وموضوعية فى كتاب « مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه مرجع سبق ذكره : كما ناقشناها بأسلوب جديد فى كتاب « الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى - دار الوفاء .

د الروح القدس هو الاقنوم الثالث في اللاهوت ، وليس مجرد تأثير أو صفة أو قوة . بل هو ذات حقيقى ، وأقنوم متميز . . . وهو وحدة أقنومية غير أقنوم الآب ، وغير اقنوم الابن ، ومساوئهما في السلطان والمقام ، (٢٠) .

هذا هو الروح القدس : ذات مغايرة لذات الآب ، ولذات الابن . إذن فالتغاير بين الأقانيم الثلاثة تغاير ذوات لا تغاير آثار ولا صفات . ١٤ . وهذا الذى يقرره الكتاب القدير يختلف مع ماقرره البابا تماما ؛ لأن البابا قدر التغاير معنويا لا ذاتيا .

والروح القدس مساو للآب والابن في السلطان والمقام ، إذن هم ثلاثة ألهة لا إله واحد كما يزعم البابا . فالتثليث — إذن — شرك ، ووثنية لأن فيه الوهية بشر ، وهو عيسى عليه السلام . فإذا يقول البابا إلا أن القسوم يتخبطون ويخلطون

فإذا كان ماقاله البابا هو الصحيح — عندهم — فيسى منصور ليس كاتباً ولا قديراً . ١٤ .

وإن كان ماقاله يسى منصور هو المعتقد — عندهم — فيجب أن يكون هو البابا والرئيس الأعلى للكراسة المرقسية ١٤

مع أن هذا الكتاب القدير قد وقع فى خلط مع نفسه . فقد نقلنا عنه تحديده لمساهية روح القدس آنفا . ومعناه أن روح القدس مغاير لأقنوم الآب وهو د الله .

ثم يعود فيقرر أن الروح القدس هو د الله ، فيقول :

(إن الروح القدس هو الله الأزلى . فهو السكائن منذ البدء قبل الخلق ، وهو الخالق لكل شئ . والقادر على كل شئ ، والحاضر فى كل مكان وهو السرمدى غير المحدود) .

(٣٠) انظر : الله واحد أم ثلوث (١١٦) مجدى مرجان .

إن هذا الكلام الذى قاله الكتاب القدير كان ينبغى - لو كان القوم
على وعى بما يقولون - أن يكون ضبطاً وتحديداً للأقنوم الأول : (الأب
أو الله) لا أن يكون وصفاً للروح القدس . وبناء على ماقرره الكتاب القدير
من أن الروح القدس هو الله الأزلى والسرمدى والخالق لكل شئ ؟ فن هو
الله الأب إذن ١٤

وما دام الروح القدس هو خالق كل شئ ، وكان الأب شيئاً من الأشياء
فهو إذن مخلوق للروح القدس ، وكذلك الابن ؟

فلماذا بقى لله (الأب) ياترى ؟ وما قيمته فى الوجود ؟ إن الروح القدس
وقد علمنا من كلامهم أنه مغاير لله (الأب) أو الأقنوم الأول ، هو وحدة
كاف لتفسير الـكون (فما الحاجة إلى الأقنوم الأول بله الثانى ؟

وإذا كان الأقنوم الثالث (الروح القدس) هو الخالق المدبر الأزلى
الأبدى السرمدى فلماذا يبقى ترتيبه فى المثلث اللاهوتى هو (الثالث) إن فى
هذا ظلمة وأى ظلم . والعدالة تقتضى أن يكون هو : الأقنوم الأول لا الثانى
ولا الثالث . ١٥ .

أما الأقنوم الأول (الأب) فما دام هو مخلوقاً للروح القدس فلا يستحق
أن يكون هو (الأول) بل لا يستحق أن يكون على الإطلاق .

ومن العجيب والمدهش أن القوم قد قسموا الـكون إلى ثلاث وحدات
إدارية . وجعلوا لكل أقنوم وحدة خاصة به .

• جعلوا لله الأب وحدة العدل فهو مصدر العدل . ١١٤ .

• وجعلوا لله الابن وحدة الرحمة فهو مصدر الرحمة . ١١٤ .

• وجعلوا لله الروح وحدة النعمة فهو مصدر النعمة . ١١٤ .

وهذا هو الاشراك بعينه . والواقع أن هذا الثلاث مركب غريب كل

الغريبة من أية جهة نظرت إليه، وقد حذت فيه الكنيسة حذو الرومان وحذو الأفلوطينية الحديثة . وصار من المتعارف لدراى المسيحية الحديثة وتطورها أن بابا كنيسة الإسكندرية كان وراء تأليه روح القدس عام ٣٨١م كما كان قسطنطين وراء تأليه المسيح عام ٣٢٥م . إذن: الرومان والأفلوطينية الحديثة وراء هذا كله .

ولما كان التثليث لا مستند له من نقل ولا عقل ولا واقع اضطرب فيه القوم على النحو الذى رأينا ، وهبطت قيمة الألوهية فى الاعتقاد السكائولمى إلى درجة فقدت فيها كل جلالها وبهاىها وقهرها .

القرآن يدحض وينذر :

وقد وقف القرآن العظيم موقفا حاسما من فكرة التأليه البشرى ومن خرافة التثليث . وأقام أوضح الأدلة على وحدانية الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد والشريك ، وإليك بعضا مما قال :

دليل نفي التعدد والشريك :

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، لإذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض . سبحانه الله عما يصفون » (٢١) .

فى الآية الكريمة دعوى ودليل صدقها :

• الدعوى : نفى الولد والشريك عن الله .

• ودليلها . لإحكام النظام فى الكون وجريه على سنن لم يتخلف : السماء

(٣١) المؤمنون (٩١) وحرف الجر « من » الداخلة على « ولد » وعلى « إله » لاستفراق النفي وعمومه . أى ما اتخذ الله قط من ولد أى كان الولد أو الاتخاذ من جنس البشر أو من غيره . اتخذاً حقيقة أو مجازيا . واصل السلام : ما اتخذ الله ولداً وما كان معه إله فدخلت من على المفعول لإفادة قبول النفي .

فوق والأرض تحت . والأفلاك تسير ، ولم يقع خلل في ملكه - سبحانه -
ولو كان معه شريك : ولد أو غير ولد لاختل نظام الكون واستبد كل شريك
بخصته شأن كل الشركاء . فهذه الدعوى صادقة كل الصدق يدرك صدقها
العالم والجاهل . ومن أدلة التوحيد قوله تعالى :

(أم اتخذوا الهة من الأرض هم ينشرون ؟ . لو كان فيهما آلهة إلا الله
لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفنون) (٣٢) .

تعدد الآلهة كما تصور هذه الآية - يترتب عليه فساد السموات والأرض
والقرآن يتحد من عدم فسادهما دليلاً على فني التعدد وثبوت التوحيد .

وهذا الدليل خطابي برهاني معاً (٣٣) - فهو خطابي لأنه يلفت نظر الناس
جميعاً إلى حقيقة كونية مشاهدة ، وهي إحكام نظام الكون وسيره بتدبير الله
دون أن يحدث فيه خلل أو فساد ..

وهذه الحقيقة يستوى الناس جميعاً - حسب الفطرة - في إدراكها .
دون إعمال للعقل وترتيب النتائج على مقدماتها بعد سلامة المقدمات
وصحتها .

وهو دليل برهاني مقنع في وضوح . ومقدماته صحيحة ، وصحتها مطردة
حتى في الواقع الحيواني للناس .

فلم نر دولة من الدول ، ولا نظاماً من النظم يتولاه رئيسان متساويان في
السلطة والإدارة ، ولو حدث هذا - أعني تعدد الرؤساء في البلد الواحد -
لترتب على ذلك الشقاق والنزاع والتدمير ، حين تتعارض الرغبات وتختلف
المقاصد .

(٣٢) الأنبياء (٢٠ - ٢١) .

(٣٣) انظر المسامرة بشرح المسامرة لابن شرف القدسي ص ٤٤ وما بعدها :
تحقيق الشيخ محمد عبد الحميد .

وكذلك نظام السكون لو تعددت فيه الآلهة لاختل وفسد . وعدم فساده هو المشاهد . ويترتب على هذا نفى للتعدد . وبالتالي يثبت التوحيد بكل معانيه : توحيد في الذات ، وتوحيد في الصفات ، وتوحيد في الأفعال . فآله واحد أحد فرد صمد لا صاحبة له ولا شريك ولا ولد .

ولما كانت عقيدة التثليث بهذه المثابة من القبح والشناعة ، فإن القرآن الكريم يقضى في القائلين قصصاً الذي لا يرد . فبعد أن أقام أدلة التوحيد وبراهينه ، وشنع على فرية القائلين بأن لله - سبحانه - صاحبة وولداً . توجه إلى قائلها بهذا النهي القاطع عساهم يشوبون إلى رشدهم :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد . له ما في السموات وما في الأرض . وكفى بالله وكيلاً ، (٢٤) .

فإذا استمر الذين قالوا بالتثليث ، ولم ينتهوا فيكون الإتهام خيراً لهم . فإن الحكم العادل فيهم :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ؟ وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم . أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار ، وما لظالمين من أنصار ،

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ؟ وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه مديقة كانا ياكلان الطمام . أنظر كيف نبين

لهم الآيات . ثم أنظر أنى يؤفكون ، ١٩ (٢٥)
أجل : ثم . أنظر أنى يؤفكون ١٩ وهل بعد هذا الأفك من إفك ١٩

الصلب والخطيئة الموروثة :

اعتقدت الكنيسة أن المسيح عليه السلام قد صلب ومات ثم قام بعد موته ١٩
ويفلسون واقعة صلبه بأنه كفارة لبني الإنسان عن الخطيئة الموروثة التي
ورثها بنو آدم عن أبيهم آدم الذي خالف أمر ربه وأكل من الشجرة المحرمة
« شجرة المعرفة » .

وفي هذا الفرع عدة تصورات :

• أن أبا البشر آدم حين أخطأ ظلمت خطيئته في عمقه وفي أعناق ذريته
إلى أن وقع التكفير بصلب المسيح فعلا ١٩

• أن المسيح عليه السلام قد صلب فعلا وهو ابن الله ١١٩

• إن الله قدم لإبنه الوحيد (سبحانه) للصلب محبة منه لعباده وليكفر
عنهم خطيئتهم الموروثة ١١٩

والإسلام موقف محدد من هذه التصورات يحويها من الوجود بشكل
قاطع . وإليك البيان :

• أولا : خطيئة آدم .

لا نزاع أن آدم عليه السلام قد وقع منه ما أخذه الله عليه وعده « نصية »
فقد جاء بهذا صريح القرآن في أكثر من موضع .

فقد صدر أمر لآدم وحواء من الله تعالى بالامتنع عن الأكل من الشجرة
التي عيناها وحددها لهما عن طريق الإشارة الحسية الواضحة :

«...ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (٢٦)
ثم احتال الشيطان فزين لها الأكل منها . ويحكي القرآن الأمين طريقة
هذا التزيين فيقول :

« فوسس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك
لا يبلى » (٢٧) .

وانطلقت هذه الخيلة على آدم فوقع في المحذور :
« فأكل منها فبدت لها سوءانها وطفقا يخرصان عليهما من ورق الجنة
وعصى آدم ربه فغوى » (٢٨)

حقيقة هذه المعصية :

هذه هي معصية آدم عليه السلام ، والمعاصي أنماط ودرجات ، فليست هي
على درجة واحدة ، وليكنها متفاوتة ، منها الصغيرة ، ومنها الكبيرة ، ومنها
ما يقع عن قصد ووعى تام وتعمد وهزم . ومنها ما يقع على سبيل السهو
والنسيان ، ومنها ما يقع عن طريق الإكراه أو التأويل فن أي نوع كانت
معصية آدم عليه السلام ؟

يجيب على هذا السؤال القرآن الأمين نفسه :
« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » (٩٢)
وهذا حدد القرآن الحكيم نوع معصية آدم ربه تحديدا دقيقا كل الدقة
واضحا كل الوضوح .

لأنها معصية وقعت بسبب النسيان والسهو والغفلة ، فليست هي مقصودة
قصدا ، ولا متعمدة تعمدا . إن آدم نسى عهد ربه فأكل من الشجرة المحرمة !

(٣٧) طه (١٢٠)

(٣٩) طه (١١٥)

(٢٦) البقرة (٣٥)

(٣٨) طه (١٢١)

ولو كان على ذكر لقاوم لإغراء الشيطان . إذن معصية آدم كانت محصورة في التمسك . وهذا يشفع أو هو كان شفيحاً بالفعل له عند ربه .

معصية ليست مؤبدة :

ومع هذا . فإن تلك المعصية لم تتأبد على آدم ، بل لم تصاحبه حين أنجب باكوره بنيه ، فقد غفرها الله له وتاب عليه وهداه وبرأه منها بمنه وفضله وكرمه . وفي هذا جاء صريح القرآن الكريم :

« ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي » (٤٠)

اجتباؤه : اختياره واصطفاه . وتاب عليه : غفر له وعفاه عنه ، وهداه أرشده ووفقه للعمل الصالح فيما يستقبل من حياته ولهذا لم يتحدث القرآن عن أية معصية وقعت من آدم بعد هبوطه إلى الأرض ، وبعد أن اجتباه ربه وتاب عليه وهداه .

وحين أنجب آدم كان طاهراً مطهراً متوباً عليه مهدياً للعمل الصالح .

إذن ، فكيف يورث آدم بنيه خطيئة كان هو قد برىء منها ؟ وإذا كان قد غفر لآدم ، وهو الجاني الحقيقي للمعصية . فكيف يؤخذ عليها بنوه وهم لم يحنوا تلك المعصية ولا كانوا موجودين ساعة وقوعها . وإنما كانوا خرية من بعده ؟

وعقيدة الخطيئة الموروثة كانت أكبر معول هدم في صرح الكنيسة إبان عصر التنوير في أوروبا (النصف الثاني من القرن الثامن عشر) وصار منفذاً واسعاً للطعن في سلطان الكنيسة والتمرد عليها وانصراف الناس عنها .

وما أكثر الذين علقوا على هذه العقيدة تعليقات لازعة وصادقة كل الصدق ومن هؤلاء فولتير الفرنسي الذي كان يعتبر عقيدة الخطيئة الموروثة :

(٤٠) طه (١٢٢)

دإهانة لله وإتهاماً له بالبربرية والتناقض ويتساءل : كيف يعاقب الله أجيالاً (أبرياء) لأن أباهم الأول كان قد أكل فاكهة من حديقة ؟ ، (٤١)
ويقول الدكتور كبير لس المنتجون وهو من فقهاء أهل الكتاب : دإن
افة أجيال قبل أن تولد من جراء خطيئة آدم عسير أن توصف بالعدل ؟
وإن كانت هذه هي العقيدة المسيحية فعسير علينا أن ننظر في نزكيتها أمام
ضمير الأمة .

دحض هذه الفرية :

ولهذا فإن القرآن الأمين ، يكر على هذه الفرية ويقرر الحق الذي ينسجم
ويتسق مع العدل والعقل والفطرة ، وهي سنة الله التي لم تجد وان تجد لها
تبدلاً ولا تحويلاً .

والحق الذي يقرره القرآن الحكيم هو .

- دقل أغير الله أبغيكم رباً وهو رب كل شىء . ولا تنكسب كل نفس إلا
عليها ، ولا تزر وزر أخرى ... (٤٤)
- د لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم .. ، (٤٣)
- د كل نفس بما كسبت رهينة ، (٤٤)
- د وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، (٤٥)
- د من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، (٤٦)

دلالة هذه الآيات :

هذه الآيات الحكيمات تدل على مبادئ شريعة محددة . وتحسم كل
خلاف حول أصول التكليف والمسؤولية .

(٤١) (المعانيه (١٦٢) نصر عبيد الرحمن الحوالى - مكة المكرمة .

(٤٢) (الأنعام () (٤٣) (النور (١١)

(٤٤) (المدثر (٣٨) (٤٥) (النجم (٣٩)

(٤٦) (فصلت (٤٦)

. فقلدى بعمل عملا صالحا فثمرة عمله له هو دون غيره .
والذى يقترب اثما أو جريمة فعلى عاتقه هو تقع المسؤولية فلن تفيد طاعة
أمرى . شخصا آخر عاصيا .

ولن يسأل برى . عن ذنب عاص أو مجرم .
، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون
عما كانوا يعملون ، (٤٧) .
، واحشوا يوما لا يجرى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده
شيئا ، (٤٨) .

هذا هو العدل والحق والإنصاف . وهذا المبدأ الإسلامى العادل هو الذى
تأخذ به كل نظم العالم مسلمين وغير مسلمين فإذا أجرم أب فلا يعاقب معه
بنوه . بهذا تقضى كل محاكم العالم وتطلق نظم العالم وقوانينه على اختلاف
منازعه وأصولها على هذا المبدأ الإسلامى ، صطلح :

شخصية الجريمة :

ويقصد به أن كل إنسان مسئول هو - وخدمه - عن عمله الصادر عنه
باختياره إذا لم يكن له شركاء فيه من ضموه عليه ، أو عاونوه ، أو استخدموه .
ووثيقة حقوق الإنسان أخذت - فيها أخذت - بهذا المبدأ وجعلت من
حق الإنسان ألا يساء لأية بسبب عمل ارتكبه غيره . وإذا حدث وأضر
إنسان بذنب لم يجزه هو بل جناه غيره عد هذا خروجا عن العدالة ، واعتداء
على برى . ١٩ .

وهذا واحد من المبادئ والقيم التى صار الإسلام بها عالميا صالحا لقيادة
كل البشر وإظلالهم بظلاله الوارف .

وهذا تصح عقيدة الخطيئة الموروثة واقعة نادرة كل النذور ، وشاذة
كل الشذوذ .

فليس لها سند من صريح القول . . ١٩٠٠

وليس سند من صحيح القول . ١٩٠٠

وليس لها سند من الفطرة ولا من الواقع . . ١٩٠٠

ولم تستطع الكنيسة أن تواجه خصومها من أبناء الملة التي ادعت حق احتكارها ، وتفسير أسرارها ، فجئت على نفسها لما استضاء الناس بنور العلم ، واستبصروا معالم الطريق وأعملوا عقولهم فيما بين أيديهم من معارف وعقائد وسلوكيات . ١١

وصفوة القول في هذه الفكرة .

« أن قبل القول بالخطيئة الموروثة لم تكن في الوجود خطيئة موروثة وإن بعد القول بالخطيئة الموروثة وقعت فعلا خطيئة موروثة ولكنها خطيئة من نوع آخر لم يخطئها آدم ، وإنما أخطأها بعض بنيها ، فهم يتوارثونها جيلا عن جيل . وهذه الخطيئة الموروثة الجديدة : هي بدعة القول بالخطيئة الموروثة ، ١٩

عصمة البابوات .

ومن الأخطاء الشنيعة التي وقعت فيها الكنيسة بدعة الزعم أن البابا معصوم ، وعصمة البابا دعامة بارزة في الاعتقاد الكنسي ، وركن ركين في تكوين الكاثوليكية التي تقوم على عقائد عصمة البابا ، واحتكار تفسيره للنصوص المقدسة ، وجعل أقوال القساوسة ورجال الأكليريوس « الدين » مساوية للنصوص الكتاب المقدس في الدرجة ووجوب العمل بها ، بالإضافة إلى « التثليث » والأسرار اللاهوتية ، وكون البابا أي بابا - يستمد سلطانه من « الرب » مباشرة . ثم الاعتراف أمام الكاهن وغفران الذنوب وبيع الجثة بمقدود مدنية في المزاد العلني وإيصاد الباب أمام العباد بينهم وبين الله إلا عن طريق الكهنة وتقديم القرابين لهم . . ١٩٠٠

وبهذه العقيدة - عصمة البابا كان الناس يعتقدون أن البابا قادر على منح البركات ، وإنزال اللعنات ، وتعطيل القوانين الطبيعية إذا شاء وإحداث الظواهر الكونية إذا أراد ، فهو قادر - ومن حقه - إدخال من يريد في الرحمة ، وطرد من يستحق منها . قادر على إنزال المطر من غير سحاب ، وعلى تفريق العواصف المدمرة وتعطيل مفعولها كما يفعل خبراء المفترقات في إبطال مفعولها ١١٩

واحتل البابا ومساعدوه من الطبقة العليا في البناء الكنسى منزلة رفيعة ، في قلوب الناس وسيطروا على مشاعرهم ووجداناتهم وكعادة العقائد الكنسية في الانتحال والاستعارة والترقيع فإن بدعة عصمة البابا انتحلت من عقائد الأمم الوثنية ، كما في عقيدة الفرس قبل الإسلام حيث كانوا يعتقدون في دلوكمهم ، عقائد عبياء ويقدمونهم كأنهم آلهة .

بيد أن خداع البابوات وحاشيتهم لرعاياهم قد تعرض لفضائح خطيرة فيما يتعلق ببعض المطالب .

فقد وقع في جزيرة صقلية جفاف كاد يهلك النسل والضرع . وذهب الناس إلى القساوسة يطلبون منهم إنزال الأمطار فعجزوا - بالطبع - فأنهال الناس على القساوسة والقديسين ، ورموهم بأقذع الشتائم والسباب ، وجلدوا بعضهم بالسياط . وريطوا بعضهم في العراء تحت حر الشمس ، وأخذوا يهتفون في وجوههم : « إما المطر ، وإما حبل المشنقة ، (٤٦) .

الإسلام يزيل هذا الوم :

الإسلام حرر الإنسان من كل أشكال الرق والعبودية والتبعية وجعل الناس سواء أمام الله لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .
وحرر عقولهم من الجمود والتحجر ، وسما بالإنسان إلى أعلى علمين غارب السكينة ، وشتع على مدعيها والمنخرطين في سلكها ، فالنافع والضار هو الله وحده ، هو القائم على كل نفس بما كسبت يعلم سرها ونجواها . فإذا أراد بأحد خيراً فلا راد له ، وإن أراد بأحد ضراً فلا كاشف له إلا هو .

ونصوص القرآن العظيم تنحو في هذا المجال منحنيين :

أولهما : يتحدث عن الأنبياء والرسل ، وهم أعرف الناس بالله ، وأخشاهم له ، وأقربهم إليه ، وأعلام منزلة ، وهم معصومون من المعاصي كبيرها وصغيرها بعد البعثة باتفاق ، وقبل البعثة على الأرجح ومع هذا فإن القرآن يتحدث عن كثير منهم بأنهم كانوا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، وقد يؤمر فريق منهم بالاستغفار ، وهم قط لم يذنبوا ، وإنما يعتبرون جهادهم وعملهم في مجال الدعوة قاصراً عن بلوغ رتبة الكمال الأسمى بالنسبة لجلال مرسلهم وعظمة شأنه ، أو يعتبرون بعض ما فعلوه باجتهادهم ظانين أنه في خدمة الدعوة قد خالف الأنسب والأولى إما بأخبار من الوحي ، أو بعد التطبيق العملي فيتوبون ويستغفرون .

فوسى عليه السلام يطلب المغفرة له ولأخيه : رب اغفر لي ولأخي ، (٥٠)
وداود يخبر عنه القرآن الأمين أنه : فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، (٥١)
وسليمان يحكى عنه القرآن أنه قال : رب اغفر لي وهب ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى (٥٢) .

(٥١) ص (٣٥)

(٥٠) الأعراف (١٥١)

(٥٢) ص (٢٤)

وخاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم - يقول له القرآن الكريم
« فسبح بحمد ربك واستغفره » (٥٣).

ويقول : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك
وما تأخر » (٥٤).

ومعنى هذا كله أن صفوة خلقه وهم الرسل يستغفرون ربهم ويقرون
بأن لهم ذنوبا خاصة بهم ، وهم معصومون ، ولم تمنعهم عصيتهم من أن
يستشعروا القصور أمام الخالق . هذا هو شأن الرسل المصطفين الأخيار
فبإلزامك بعامة الناس من بعد الرسل ١٥ ولئن يكون في خلق الله من هو أكرم
عند الله من رسل الله . فكيف يمنح البابوات أنفسهم والمقربين منهم حقا
يجعلهم أسمي من رسل الله .

هذا هو المنحى الأول للقرآن الكريم في مواجهة هذه البدعة بدعة
عصمة البابوات وقد استهم وإطلاق يدهم في ملكوت الله يدخلون الجنة من
يشاءون ويطردون منها من يشاءون ١٩

التنديد بموقف البابوات وحاشيتهم :

ندد القرآن بموقف البابوات والأجبار والرهبان كما ندد بموقف من
صدق بما يقولون افتراء على الله وعلى رسوله .

ندد بالأولين فقال : « إن كثيرا من الأجبار والرهبان يأكلون أموال
الناس بالباطل .. » (٥٥) .

ويدخل في المال المساكول بالباطل : القرابين وأثمان صكوك الغفران
والعشور ، والوصايا . وكلها موارد كانت تدر على رجال الدين رجاء فحشا .

و ندد من يصومهم و يطعمهم فقال :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ،
 بها أنسوا إلا ليعبدوا لاله واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (٥٦) .

وهذه الآية تكاد تكون نصاً فيما عليه عقيدة النصارى الذين أسروا
 يعبدوا الله فبدلوا دينهم ، واتخذوا عيسى رباً كما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم
 أرباباً . وهذا ضلال ما بعده ضلال .

و يعود القرآن فيضع مبدأ للتصالح مع أهل الكتاب ، وأساساً صالحاً
 لتحقيق الإستقامة ، وطراح الديدع وإزالة الواسطة بين العبد وربّه ، وتنقية
 العقيدة من كل صور الإشرار والوثنية :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم .

إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً .

ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ... » (٥٧) .

ذلك هو الحق القلّ طمسوه بالباطل : فدعوا عيسى رباً وهو عبد الله

ورسول موحى إليه .

ودعوا الكهان أرباباً من دون الله ، بيدهم النفع والضرر ، وهم لا يملكون

لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

وبقيت آية لها بهذا المقام صلة . فدعوى الباطل أنهم وجدتم لهم الحق

في تفسيرهم نصوص الوحي ، وأنهم لهم الحق في إضافة نصوص من عندهم إلى

نصوص الوحي تكون لها من القياس ما لنصوص الوحي . هذه المواقف

الخطرة يحذر منها القرآن أيما تحذير :

ومن أظلم من افترى على الله كذباً ، أو قال : أوحى إلى ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ... ، (٥٨) .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد أبطل هذه الأوهام ، ووضع الحق في نصابه ، ونبه على الضلال الذي وقعت فيه الكنيسة ، فحرفت نصوص الوحي ولم تكن أمينة على كلمات الله . وادعت لنفسها من الحقوق ما لا يصح ثبوته إلا لله - سبحانه - وحرفت العقائد وأحلت محلها أموراً مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

ولولا هذه المواقف التي وقفها القرآن من تحريفات أهل الكتاب اضاع الحق ، ولما عرف أحد ما هو الطريق إلى الله . . .

الرهبانية :

لم تكن الرهبانية من الشعائر أو السلوكيات المألوفة في المسيحية خلال القرون الثلاثة الأولى من الميلاد ، وإنما هي بدعة ، عرفت خلال القرن الرابع الميلادي ، وسيطرت على مشاعر أتباع الكنيسة حقبة من الدهر . وكان لانشأتها أسباب دعت إليها أول الأمر ، ثم تفشى أمرها بين الناس وساء استعمالها حتى صارت مصدراً للأضرار والشرور . وتجاوزت حد الاعتدال إلى الغلو الفاحش .

أجل لم تكن شعيرة من شعائر الدين . وإنما كانت رد فعل لحياة الروم بعد تنصرهم في أوائل القرن الرابع الهجري . وبعد أن صار المجتمع المسيحي يتكون من تركيبة قوامها عنصران :

١ - العنصر المسيحي أصالة ، وكانت المسيحية حتى آنذاك لها صلة وثيقة برسالة السيد المسيح ، إذ لم تكن الانحرافات قد تفشيت فيها على النحو الذي حدث فيما بعد .

• العنصر الروماني الحديث الصلة بالمسيحية . وكان للروم فلسفة في الحياة صورها في المبادئ الآتية :

١ — الإيمان بالمحسوس ، وقلة التقدير بما لا يقع تحت الحس أو لميتافيزيقا .

٢ — قلة التدين والخشوع .

٣ — شدة الاعتماد بالحياة الدنيا والإهتمام الزائد بمنافعها ولذاتها .

٤ — النزعة الوطنية (٥٩) .

وقد ورث الروم هذه الفلسفة عن الفلسفة الإغريقية القديمة . فرادوا منعفاً على ضعف في الأخلاق والسلوك . ونساقوا في إحتساء اللذات ووقفوا عليها كل جهودهم . ولم يكن لهم إيمان يغرس في نفوسهم حب العفاف والقضيلة . ولم يعرفوا القناعة ولا الزهد وإنما عبدوا الشهوات وأغرقوا فيها . وحين أمزاجهم بالمسيحيين بعد تنصر الروم كان هناك واحد من إحتالين :

إما أن يحمل المسيحيون الروم على حياة الطهارة والعفاف والإيمان بالحياة الآخرة ونعيمها .

وإما أن يحرف الروم المسيحيين إلى حياة اللذة الفانية وعدم الإهتمام بما عند الله .

وللأسف فإن الذي حدث هو أن غلبت النزعة الرومية على السلوك المسيحي فأصبحوا جميعاً أصحاب لذة ومتعة عاجلة . متأثرين في ذلك بمذهب أو فلسفة أبيقور (٣٧٠ ق م) التي ورثها الروم عن اليونان ، وكان أبيقور

(٥٩) ماذا خسر العالم بالمخطاط المسلمين (١٧٦) .

يدين في الاخلاق والسلوك بذهب اللذة ، وإزاء هذا كله فها فريق من المسيحيين إلى الرهبانية والزهد في الدنيا كرد فعل لما رأوه من الزوم والفساد وانهماط وانهماك في ملذات الدنيا . وكأنهم أرادوا - بذلك - أن يضربوا المثل للشعب المسيحي ويذكروه بالعفة والطهارة والتزهد عن الدنيا التي بشر بها السيد المسيح عليه السلام .

وكانت الرهبانية في أول أمرها معتدلة ، ثم غالوا فيها وصارت تقوم على الدائم الآتية :

١ - العزوبة : ويعنون بها الإعراض كلية عن النساء والإضراب عن الزواج . ولما ساندوا في هذا السلوك على عدة أسباب :

الأول : إعتقادهم بالمسيح لأنه لم يتزوج ، وقد حدث على العزوبة فعلا (٦٠) .
الثاني : اعتقادهم أن المرأة شيطان ، وفي ذلك يقول سنان بونا فنتور :
« إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا حيا وحشيا ١٤ » . وإنما الذي ترون هو الشيطان بذاته والذي تسمعون هو صغير الثعبان ، (٦١) .

الثالث : اختصاص الله بالولاء : أي أن الإنسان ، وبخاصة رجل الدين أو الكاهن يجب أن يكون ولاؤه الكامل لله . والذي يتزوج يكون ولاؤه لزوجته ولأولاده أكثر من إخلاصه للكنيسة ١٤ .

(٦٠) انظر إن شئت إنجيل متى (١٩ : ١٣) حيث يزعمون أن عيسى عليه السلام قال : « يوجد حصيان خصوصا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يهمل نفسه » .

(٦١) أشعة خاطئة بنور الإسلام (٣٩) نقلا عن « القديسة » مرجع سبق ذكره ومن المعجب أن احتقارهم للمرأة كان يشمل الأمهات والبنات فضلا عن الزوجات . فاحتقار الرجل لأمه وبناته عبادة وتقوى ١٤ .

وَحِينَ طُرِئَتْ فِكْرَةُ الرِّهْبَانِيَّةِ فِي عِجَالِ السُّلُوكِ الْكَثْنِيِّ طَبَقَتْهَا الْكَنِيسَةُ
بِأَثَرِ رَجْعِي فَطَلَقَتْ عَلَى رِجَالِ الدِّينِ زَوْجَاتِهِمْ وَأَوْجَبَتْ عَلَيْهِمُ التَّهْتَلُ
وَالانْقِطَاعَ لِلْعِبَادَةِ ١٩ .

٢ - التجرد الكامل عن الدنيا : وبذلك حُبُّوا إِلَى الْإِتْبَاعِ الْعِزْلَةَ التَّامَّةَ
عَنِ الْحَيَاةِ، وَقَتْلَ كُلِّ أَمَلٍ فِيهَا ، وَالْمَرْوَفَ عَنْهَا حَتَّى الْغَضَافَةَ وَالْمَلَابِسَ . وَكَانَ
بَعْضُهُمْ يَرْقُدُ فِي الْمُسْتَنْقَعَاتِ وَهُوَ عَارٍ لِيَعْرِضَ جَسَدَهُ لِلْأَمْرَاضِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ
فَرَّ إِلَى الصَّخْرَاءِ .

٣ - العبادة المتواصلة : كَانَ آبَاءُ الْكَنِيسَةِ يَحْمِلُونَ أَتْبَاعَهُمْ عَلَى أَنْ
يَكُونُوا فِي حَالَةٍ عِبَادَةٍ مُسْتَدْرَةٍ مِمَّا كَانَ الشَّقَاءُ وَالْعَنَاءُ فِي فِرَاوَلَتِهَا مِنْ
الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالطَّقُوسِ وَالتَّزَانِيمِ . وَمَنْ خَالَفَ عَرَضَ نَفْسَهُ لِأَشَدِّ
أَنْوَاعِ الْعِقَابِ ١٩ .

٤ - التعذيب الشاق : كَالْعِزْلَةَ وَأَكْلَ الْحَشَائِشِ وَالتَّعَرُّضَ لِحَرَارَةِ
الْشَّمْسِ ، وَتَحْمِلَ آلامِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ :

بَلْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ تُجَاسِّمَةَ الْجَسْمِ وَالْثِيَابِ وَالْأَعْضَاءَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى .
لِأَنَّ الْجَسْمَ فَإِنَّهُ وَهُوَ مُصَدِّرُ الشَّهَوَاتِ فَيَجِبُ احْتِقَارُهُ وَالْإِهْنَامُ بِالرُّوحِ ١٩ :

هَذِهِ هِيَ الرِّهْبَانِيَّةُ فِي أَوجَزِ تَقْوِيرِهَا . فَاهُوَ مَوْقِفُ الْإِسْلَامِ مِنْهَا ؟ .

الْإِسْلَامُ يَدْعُو إِلَى التَّسَامِي وَالْتِعَادُلِ :

الرِّهْبَانِيَّةُ عَلَى التَّخَوُّ الَّذِي قَدِمَتْهُ مَرْقُوسَةٌ فِي الْإِسْلَامِ ، بَلْ هِيَ تَوْغٌ مِنْ
الْمَغَالَاةِ وَالتَّنَطُّعِ اللَّهِ غَفَى عَنْهَا . فَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْكَوْنَ وَسَخَّرَ مَا فِيهِ مِنْ نَعْمٍ
لِخِدْمَةِ الْإِنْسَانِ . وَالِاسْتِمْتَاعِ بِمِلْذَاتِ الدُّنْيَا وَطِيبَاتِهَا أَمْرٌ مَبَاحٌ بَلْ مَرْغَبٌ
فِيهِ . وَحَسْبُكَ ذَانِكَ النَّصَانُ الْكَزِيمَانُ :

« يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلال طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان لأنه لكم عدو مبين ، (٦٢) .

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ، (٦٣) .

في الآية الأولى كان النداء للناس جميعا ، وقد رغب إليهم التمتع من الحلال الطيب بشرط البعد عن إغراءات الشيطان .

وفي الآية الثانية كان النداء للذين آمنوا خاصة . ورغب إليهم التمتع بالطيبات من الرزق ، بشرط أن يكون الشكر الخالص عليها لله المعبود بحق ، وهو مولى النعم .

وهناك آية لا إخالها إلا تصديا واضحا لدعوة الرهبانية ومروجها وهي تواجهم في عنف وشدة واستنكار بالغ حيث حرموا ما أحل الله من الطيبات والملاذات :

« قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟

« قل هي الذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . . . ، (٦٤) .

فهذه الدنيا وما فيها مائدة غنية لعباد الله ، خلق لهم فيها كل ما لذ وطاب . وأمدم فيها بنعم لا تعد ولا تحصى وليس فيها محرم إلا ما حرم الله ، وما حرم إلا الخبائث وما أحل إلا الطيبات . والمنهج الجامع الذي وصفه الله للانتفاع بما في الدنيا من ملاذات طيبات هو الاعتدال والتوسط . فلا يحرم الإنسان نفسه كل الحرمان ، ولا يفرض في التمتع بها كل الإفراط :

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، واكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين ، .

(٦٢) البقرة (١٦٨) (٦٣) البقرة (١٧٢) . (٦٤) الأعراف (٣٢) .

وتطبيقاً على هذا المنهج امتدح القرآن فريقاً من عباد الله كان منهم جهنم الاعتدال في الإنفاق فقال :

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً ، » (٦٥) .

هذا هو منهج الإسلام في التمتع بالطيبات في الدنيا على وجه عام . فلا إعراض ولا حرمان ، ولا إغراق ولا إفراط . وقد أحسن شاعر مسلم حين أفصح عن هذا المنهج الإسلامي المعتدل فقال :

زاهد الهند نعى الدنيا وصام أنا أنعاهما ، ولكن لا أصوم (٦٦)
طامع الغرب رعى الدنيا وهام أنا أراعها ، ولكن لا أهيـم
ولنا في كل ذا حـد قوام فليلبنا بعد هذا من يلوم

أما ما قامت عليه الرهبانية من حياة العزوبة والإقطاع للعبادة ، والتعذيب الشاق فإن الإسلام موقفاً واضحاً من كل بدعة منها .

فبالنسبة إلى حياة العزوبة واحتقار المرأة ووصفها بأنها شيطان نجد الإسلام يجعل النساء شقائق الرجال . فتأمل - مثلاً - قوله تعالى :

« ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ولا يكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ، » الفتح (٥) .

وقوله تعالى : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض . . . » آل عمران (١٩٥) .

وقوله تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، » (٦٧) .

(٦٥) الفرقان (٦٧) .

(٦٦) الصوم المنفي هنا المراد به الحرمان والإعراض عن منع الحياة وليس المراد نفي الصوم للشرعى مفروضاً أو مندوباً .

(٦٧) البقرة (٢٢٨) .

قال إسلام يضع المرأة موضعاً كريماً ، ويستوى بينهما وبين الرجال في الفضل اللهم إلا في ما يتفق مع طبيعة كل منهما من أن لكل منهما نجلاً خاصاً به يؤذى فيه لسانه .

لما أن يكون للرجل فضل من حيث إنه رجل ، وتحقر المرأة من حيث أنها امرأة فذلك ما يحظره الإسلام .

وحسب المرأة من الكرامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى الرجال بها وهو على قرأش الموت فقال : « استوصوا بالنساء خيراً » .

وكرم الأمهات ممن فقال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وجعل برها على الولد مضاعفاً ، فقد قال لمن جاء يسأله : من أحق الناس بحسن صحابي : قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك . وفي الرابعة قال : ثم أبوك .

إذن فاحترار المرأة الذي تقرره الرهبانية العابثة لإحراف خطير لم تأت به شريعة ، ولا يستحسنه عقل .

الترغب في الزواج :

في هذا المقام يطالعنا قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (٦٨) . والأمر هنا وإن كان للإباحة - فإنه يتضمن معنى الترغب في الزواج بدليل قوله تعالى : « ما طاب » .

ويأتى في معرض الإمتنان على الخلق قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٦٩) .

وبشير القرآن المعجز - هنا - إلى معان تستثير جهود كل علماء النفس في البحث عن معنى : السكن ، ومعنى المودة والرحمة ، التي جعلها الله بين الأزواج ،

والآثار الطبيعية من النواحي الخلقية والسلوكية والتربوية التي تترتب على اقتران الأزواج ، والقرار القسري ، والأجواء المبهجة التي تشيع في الأسر السعيدة التي تحكم علاقاتها توجهات الاسلام .

وإذا كانت هذه الآية ترغيباً وتحييماً في التسامح بالقرائن من حيث أمر الله فإن لها نظائر في القرآن الكريم تتحدث عن القرار النفسي وما يعود على الزوجين من ذلك الرباط القطري الوثيق ، تأمل قوله تعالى في بيان ما يعود على الأزواج من زوجاتهم ، وما يعود على الزوجات من أزواجهن :

« من لباس لَكُمْ ، وأنتم لباس لهن ، (٧٠) تأمل معنى اللباس حيث يوحى بالمهاسة والستر واكتمال الشخصية والوقاية من الأضرار وهكذا يستر كل من الزوجين الآخر وتتجدد مشاعر الوفاء والألفة بينهما ويعف كل منهما صاحبه ويقبض من الأضرار . وما هو معلوم عند علماء النفس أن العكس أن العكس (الجنس) يؤدي إلى الإصابة بالتوتر العصبي والأمراض النفسية والخواء الخلقى . لذلك فإن في تفسير القرآن عن الآثار الطبيعية الجميلة الناتجة عن الرباط الزوجي باللباس دلالات معجزة - بحق - فقد أجمل في إيجاز حكيم فيضاً من المعاني والمقاصد السامية .

وإذا كان كل ذلك في محيط الأسرة فإن نصيب الإنسانية الواعدة وإمداد الحياة بمناخات بقاءها واستمرارها تكلمت به آية أخرى جاء فيها :

« والله جعل لَكُمْ من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لَكُمْ من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون ، (٧١)

(٧٠) البقرة (٢٢٣) .

(٧١) النحل (٧٢) البنون : أبناء الرجل المباشرون والحفدة : أبناء أبنائه .

أن أبخل البخلاء في الحياة هو الذي يأخذ من الحياة أكثر مما يعطيها . والعازف عن الزواج هو من أبخل البخلاء فقد أخذ منها أكثر مما أعطته :

أعطته الحياة أباً وأماً ، وأعطاه أبوه وأمه حناناً وعطفاً وتربية وهذا دين عليه إذا لم يف به فيزوج وينجب ويعطف ويربي فهو من أبخل البخلاء حقاً .

أنه رهديد جبان يخشى تحمل المسؤولية ويكره تجشم المشقات . أو هو لص يختلس من الحياة حراماً ما كان ينبغي أن يطلبه من جهة الحلال .

والسنة الشريفة :

إن موقف السنة الشريفة يتسق مع موقف القرآن تماماً . فقد ورد أنه عليه السلام نصح صحابياً نوفيت زوجته أن يتزوج بعد ثلاثة أيام من وفاتها . وبين الحكمة من الإسراع بالزواج بأن الرجل الأعزب يبيت معه الشيطان ؟!

ورغب الشباب - إذا ملكوا القدرة على الإنفاق - في الزواج فقال : « يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج .. » (٧٢) .

وقال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها الزوجة الصالحة .. » .

ولما جاء نفر من صحابته يسألون عن سنته في العبادات بدأ لهم لما أخبروا بها أنها قليلة ، فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ؟ وقال بعضهم : لا آكل اللحم ؟ وقال بعضهم : لا أنام على فراش .. فلما بلغت مقالاتهم هذه رسول الله عليه السلام ، قام خطيباً في الناس فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا .. ولكنني أصلي وأنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٧٣) .

(٧٢) أخرجه مسلم في كتاب « النكاح » .

التشدد في العبادة :

السمى من أجل الدنيا ، وطلب الآخرة مقصدان ساميان في الإسلام والمنهج السوى هو الجمع بين هذين المقصدين بحيث لا يطفى جانب منهما على الآخر .

فالإقبال على الدنيا وترك الآخرة مذموم . والإيقطاع للعبادة وطلب الآخرة - كذلك - لإنحراف غير محمود في التوجيه الإسلامى ، وفى القرآن الكريم وردت تلك الإشارة الحكيمية فى الأخذ بالأسباب الموضلة للرزق الحلال :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٧٤) .

وقد ورد فى السنة الشريفة كثير من التوجيهات التى تحذر من الإيقطاع للعبادة والمغالاة فيها :

روى أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى حبلاً مشدوداً بين سائرتي المسجد فقال : « ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب . فإذا فترت تعلقت به فقال صلى الله عليه وسلم : لا حلوه ؟ ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقم » (٧٥) .

شدت زينب - رضى الله عنها - حبلاً بعمودين من أعمدة المسجد ، وربطته بعنقها وهى تصلى تطوعاً بالليل . وأرادت من الحبل أن يمنحها من الرقاد إذا غلبها الناس . ورأى صاحب الدعوة أن هذا العمل مغالاة فى العبادة . فأمر بفك الحبل ثم أرشد الأمة إلى الاعتدال والتوسط والقصد فليتطوع من كان قادراً على التطوع . فاذا مالت نفسه للراحة فليعطها حظها من الراحة ، ولا يتهاى فى العبادة .

ولهذا الحديث نظائر وأشياء . منها أنه دخل المسجد فرأى رجلاً فيه في غير وقت صلاة . وتكررت هذه الرواية فسأل عنه فأخبروه بأنه عابد لله . فقال : ومن ينفق عليه ؟ فسألوه : أخوه . قال : أخوه أعبد منه ، ورأى رجلاً يمشى متوكئاً على ولديه ، فسأل عن أمره : فقالوا إنه نذر أن يصوم لله ، ضاحياً لا يستظل ؟ قائماً لا يقعد . فقال : ما أغنى الله عن تعذيب هذا نفسه . ثم أمره بإتمام صيامه ونهاه عن القيام والوقوف تحت جوارق الشمس .

ورأى رجلاً آخر قد ظللهم من حر الشمس في شهر رمضان ، لأن الصيام قد أجهدته . فلما علم عليه السلام أنه على سفر وليس له مأوى يؤويه . قال : ليس من البر الصيام في السفر ، (٧٦) .

وهكذا يأخذ الإسلام بالإعتدال وينهى عن الإفراط والتفريط معاً . فجاء بشريعة لم تصادم فطرة ، ولم تجمل الناس ما فيه عنت ومحنة قاتلة .

وما من شيء ابتدعه الكنياسة في رهبايتها إلا جاء الإسلام بتعديله ونهذه . ودعا الإسلام عباد الله جميعاً للتمتع بما في السكون من طيبات ولذا أذن . وأحاط ذلك كله بصحائف فيها الإنسانية سمو ورقعة وبسر :

• ألا تتبع خطوات الشيطان .

• أن تشكر الله نعمه وفضائله .

• أن لا تنصرف في الملذات ، ولا تنشق على أنفسك في الحرمان .

وهذا هو المنهج السديد ، والطريق القويم : لا هم ولا حزن ، صادق وأمين من عند الله ، تلتقي فيه الإنسانية فتلقى على الخير ، ولا خير بعد ذلك يتطلبه . متطلب ذو عقل راع وفطرة سليمة ، ونسأل في ختام هذه الجولة :

• أي المنهجين أحق بالإتباع : الزمانية المذمومة ؟ أم المنهج الإسلامي المشرى . ١٤ .

الإعتراف :

بدعة الإعتراف من الكذب البدع الكنسية، وإن كانت كل بدع الكنسية كاذبة . وقد نشأت هذه البدعة في ظل طغيان السينية المادية والروحي .

فن حيث الطغيان المادية أرادت الكنيسة أن يظل الإعتراف موردا غنيا من مواردها المالية .

ومن حيث الطغيان الروحي أرادت الكنيسة أن يظل سلطانها الروحي والديني سيطرا على مشاعر الناس . فاستخفقت عقولهم ، وقللت لهم أن المرور إلى الجنة لا بد أن يكون طريقها أنها عصابة من أخطر عصابات الإبتزاز في تاريخ البشرية جمعاء ، وقد سخر منهم فلواتير في أحمال أعماله الفنية حيث طالب « الكاهن » الذي جرى بين يديه الإعتراف أن يجلس الكاهن أمام « المعترف » ليتعترف الكاهن بدوره عما ارتكبه من جرائم ١٩ (٧٧) .

وكم بلغ السخف مداه حين عرضت الكنيسة وقصور الجنة وغيرها في المزد العلى . وأصبح ثمن الجنة « المال » بدلا من التقوي والعمل الصالح ١٩ .

وهذا الإعتراف الذي أعدته الكنيسة مظهر من مظاهر الإصلاح والتقوي والحصول على غفران الذنوب وتمكفير الخطايا ، هذا الإعتراف ينهى عنه الإسلام . فالإعتراف بالذنب إذاعة للذنب ونشر بعد أن ستر الله المذنب فإذا بالمذنب يفضح نفسه بنفسه وقد جاء في القرآن الكريم .

« إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول . . » ، وإذاعة الذنب نوع من أنواع الجهر بالسوء . والسنة الشريفة تجعل التحدث بالذنوب - التي سترها الله - مانعا من غفران تلك الذنوب وفي ذلك ورد :

(٧٧) قصة العاصفة (٣٢٥) مرجع سبق ذكره .

وكل ذنوب أمتى عسى أن تغفر إلا المجاهرين .. ، وفسر المهاجرين بأن
الرجل يذنب ذنباً بالليل فيستره الله ثم يصبح هو يحدث الناس به ١٩ .
فالذنوب الذى يذيعه صاحبه ذنمان : هو ذنب فى حقيقته وذنوب آخر
حين يذاع .

وعلى المجاهر إذا أراد أن يتوب أن يستغفر الله من ذنوبه ، ثم من
المجاهرة بها .

هذا هو الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها . لا يقيم واسطة بين
الله وبين عباده . فلا كهانة ولا استخفاف بالعقول ورجل الدين أو عالم
الدين فى الإسلام : يعلم المسلم كيف يعبد ربه أما الكاهن فى المسيحية فيدعى
أنه بواسطته هو يعبد العابد ربه . والفرق بين النظريتين كالفرق بين النور
والظلام ، وبين السماء والأرض .

لأن الإسلام شريعة الله الحقة ، جاء بها وحيه الأمين ، وبينها للناس
رسوله الكريم .

أما الكنيسة فقد أضاعت وحى الله . ووضعت للناس ديناً من صنعها هى .
ولذلك باءت بالفشل حتى فى المجتمعات المسيحية الخالصة . وكان لابد أن تبوء
بالفشل ، لأنها واجهت الناس بما ألغى عقول الناس ، وصدم مشاعر الناس . ١١٠ .

القرار أو المصير

قدمنا لك تصوراً أميناً لمعتقدات المسيحية التي أفرزتها الكنيسة على مر العصور الغابرة . ولم يبق إلا أن نقف أمام القرار النهائي فيها ، أو المصير الذي صارت إليه . ونقدم بين يدي هذا القرار كلمة حكيمة لأستاذنا عباس محمود العقاد رحمه الله حيث يقول :

« لن يهبط دين وعقيدته في دالة ، عالية وإن يعلو دين وعقيدته في الله هابطة ، والدين الذي قدمته الكنيسة للناس قد مضى بحظ وفير من هبوط العقيدة في دالة ، فقد جعلت دالة ، مركباً تركيباً غريباً من عناصر غير متألّفة ، صارت فيه كمن يحاول أن يخدع الناس بأن هناك دعوداً ، مستوياً مكوناً من الماء ، السائل . والماء السائل غير متماسك فكيف يقوم منه عمود من غير حواجز تمسكه وتمكفه عن السيلان ؟ ولما هبطت العقيدة في دالة في دين الكنيسة هبطت كل الطقوس ومراسم العبادة فيها . فقد عجزت الكنيسة عن أن تقدم تفسيرات مقنعة لالحقيقة الدين الذي قدمته للناس ، ولا لأسرار الكون وظواهر الحياة . وعجزت - بعد ذلك - أن تحتفظ بزمam القيادة والتوجيه لما واجهها عدوان لدودان :

العدو الأول :

زعماء الإمبراطوريات وملوك الشعوب ورؤسائهم . .

وقد خضعت الكنيسة أمامهم ورضيت بفصل الدين عن السياسة . ونتج عن هذا « مثنوية الإنسان » فروحه للكنيسة ، وجسده للسلطان ؟ !

العدو الثاني :

العلماء والعقليون . وهؤلاء صمدوا حتى أشعلوا نار الثورة المسلحة ضد الكنيسة - كما سيأتى قريباً بإذن الله - وبذلك قوارت الكنيسة ورضيت من الغنيمة بالإياب ، لأنها لم يعد فيها شيء يفرى . وقد برهنت - بكل وضوح - أنها غير صالحة للريادة وقيادة الحياة . . . ١١٠

العلمانية

العلمانية ، مثال خضراء الدمن التي فسرت في الأثر المشهور بأنها المرأة الحسنة في المنبت السوء . أى أن لها ظاهراً براقاً خداعاً ، وباطناً ممتناً منفراً . ظاهرها البراق الخداع أنها منسوبة إلى العلم والعلم من أجل وأطيب المواهب والملايكات الإنسانية .

وباطنها الممتن المنفر أنها تسعى جاهدة لحرمان الإنسان من أكبر نعمته وأجلها وأحدها في الوجود ، وهي : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

أن العلم ينتشل الإنسان من لجج الظلمات إلى ساحات النور الرحبية .
أما العلمانية فتبدأ رحلتها مع الإنسان من العلم لتضعه في بحر من الظلمات ١٤ .

ونسبة العلمانية إلى العلم أكذوبة الأكاذيب في حضارة أوروبا الحديثة وكم في الحضارة الأوروبية الحديثة من افتراءات وأكاذيب ١٥

والعلمانية ضوابط وتعريف في معاجم الغرب العامة والخاصة سترجيء الحديث عنها إلى موضعه من هذه الدراسة . أما الآن فنقدم تصويراً موجزاً لها ليسكون حديثنا عنها عن شيء معلوم ؛ لأن الحديث عن المجهول لا يفيد .

المراد من العلمانية :

إن المراد من العلمانية في أوجز تصور لها هو المعارف والعلوم المضادة لآل أفكار الكنيسة وتصوراتها في أوروبا في القرون الوسطى . أو قل هو

المعارف والعلوم المضادة للأفكار والمعارف الدينية التي قدمتها الكنيسة للناس آنذاك .

فالعلمانية كانت تقف في الجانب المضاد للدين . ويجب أن يتذكر القارئ أن المراد بالدين الذي نأواه العلمانية وقتذاك إنما هو دين الكنيسة لا كل دين .

ويدخل في معارف العلمانية — بهذا التحديد — كل اكتشاف علمي جديد عن الكون ومظاهره في الجو والبحر والبر ، في الفلك وفي الطبيعة ، وفي علوم الإنسان ، في الأرض وفي النبات والحياء ، في الكيمياء وفي الاجتماع وفي علم النفس ، وفي التاريخ وفي الآثار . كما يدخل فيه المباحث العقلية والقيم الفلسفية في شتى قضايا الفكر ومشكلات الحياة .

وتتجلى مظاهر العلمانية بكل دقة في الفلسفات المادية الحسية البهجة ، التي تكون روافدها ومكوناتها الحواس الخمس :
البصر ، السمع ، اللمس ، الذوق ، الشم .

فقد حصرت المادية الحسية مصادر المعرفة الإنسانية فيما يدرك عن واحدة من هذه الحواس ، وأنكرت وجود ما لا يدرك بواحدة منها وأطلقت عليه عالم ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا .

ولسلك من هذه المذاهب والاتجاهات والأيدولوجيات رواد وأنصار ، وخصوم ومعارضون .

ولهذا العلمانية أسباب دعت إلى ظهورها . ثم شيوعها وانتشارها وغلوها .
أسباب ظهور العلمانية :

من اليبير جداً حصر أسباب ظهور العلمانية في قائمتين كبيرتين . ثم انقسام إحدى القائمتين إلى مجموعتين بينهما صلات وافتراق :

القائمة الأولى : فقدان الثقة في الكنيسة في كونها مصدراً للمعرفة ،
وسلطة للتوجيه .

القائمة الثانية : نمو البحث العلمى المضاد للفكر الكنسى الدينى ، وانهار
الناس بنتائج القريبة من الفهم والإدراك . وصدق كثير من معطيات هذا
البحث العلمى الحديث .

وهذه القائمة نوعان :

الأول : مباحث علمية أسفرت عنها ملاحظات وتجارب صحيحة فكانت
نتائجها مقبولة ، ولم يعقبها نقد يزعم في صحتها أو يفقد الثقة فيها .

والثانى : فروض علمية بنيت على غير أساس ، أو على شبهات واهية فلم
تسلم من النقود والطعون التى هزت كيانها ، وأطرحتها من الحقائق العلمية
القائمة . ولكنها - مع هذا - أسهمت لإسهاما كبيراً في ظهور العلمانية
كمصدر وحيد - عند أصحابها - للمعرفة دون ما سواها من مصادر
ولإيديولوجيات . ١٩

ولذلك الحديث مفصلاً عن كل ما أوجزناه في هذه المقدمة . وبالله التوفيق
ومنه السداد .

فقدان الثقة في الكنيسة كمصدر للمعرفة :

لا أرانا في حاجة إلى كلام طويل في هذا الصدد ، فقد وقفنا مع الفكر
الدينى الكنسى وقفات ناقدة فاحصة فيما تقدم ، واعتمدنا في نقدنا على أسس
سلمية تاريخية ودينية وعقلية وواقعية وعلمية . واستشهدنا بنقود لأصحاب
الفكر الحر من علماء مسيحيين ونقاد موضوعيين منهم . والنقد الذى وجوه
إلى الفكر الكنسى شمل :

١ - مصادر المسيحية ونصوصها المقدسة .

٢ - العقائد التى انتهت إليها الكنيسة وحاولت فرضها على الناس .

- ٣ — الأسرار الكنسية وطقوس العبادة .
 - ٤ — منزلة رجال الدين ، الأكليروس ، في البناء الكنسي .
 - ٥ — استخفاف الكنيسة بمقول الناس .
 - ٦ — تفسيراتها الغريبة لحقائق الأشياء .
 - ٧ — عجزها التام عن امتناع معارضيتها وأتباعها على حد سواء .
- أول تمرد على الكنيسة - أو حركة الإصلاح الديني :

ظلت الكنيسة تتمتع بالسلطان الكامل والسيادة العليا في أوروبا ، وبخاصة بعد أن هادنت عدوها اللدود المتمثل في الملوك والرؤساء ، ووافقت على مبدأ « فصل الدين عن السياسة » ، وبذلك ضمنت الكنيسة بقاء سلطانها الروحي واحتكارها للمعرفة ، باعتبارها المصدر الوحيد لها .

ولما تفاقم خطر الكنيسة ، واستفحل داودا ظهرت حركة عرفت بحركة الإصلاح الديني ، وهي في الواقع أول تمرد عنيف على فكر الكنيسة ومعتقداتها وتصوراتها الهزيلة في كل ما قالت به .

لوثر والإصلاح الديني :

تفسب حركة الإصلاح في أوربا إلى مارتن لوثر . وإلى كلفن من بعده . والواقع أن لوثر قام بسبب ضيق في هذا المجال ، ولكنه لم يسر في الطريق إلى النهاية المرجوة من رجل مثله كافح كفاحا مرأ من أجل الإصلاح الذي رآه .

وتتلخص حركة الإصلاح الذي قام به كل من لوثر وكلفن في الخطوات الآتية :

• إبطال الأحكام التي صدرت من البابوات ولم يكن لها أصل في الكتاب المقدس .

• محاربة صكوك الغفران ، وحق الغفران الذي زعمه البابوات لا أنفسهم .

• إبطال القول بالعشاء الرباني واستحالة الخبز والخمر فيه إلى لحم المسيح ودمه .

• نادت بضرورة تزويج الكهنة والقضاء على حياة العزوبة .

• إنكار عبادة الصور والنمايل وبطلان السجود لها .

• إنكار استئثار البابوات بتفسير وفهم الكتاب المقدس (١) .

ولذا كان لوثر قد خرج على الكنيسة وعقائدها الموروثة . فإنه ظل بهم في خطأ جسيم وهو أن مسائل الإيمان منحة من عند الله فلا يجوز أن يكون للعقل حكم فيها .

وعلى أية حال فإن لوثر وكل من قد نزاعا ثوب المهابة عن الكنيسة وفتح بابا خطيرا في التمرد عليها وافتقادها سيطرتها على العامة والخاصة على حد سواء . ويصور ولن هذا الانحدار الذي وصلت إليه الكنيسة بعد حركة الإصلاح فيقول :

• كادت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضماير الأمراء وذوى اليسار والإقنطار من الناس . كذلك بدأت تفقد إيمان عامة الناس بها ، وثقتهم فيها . وكان من نتائج انحطاط سلطانها الروحي على الطبقة الأولى أن بدأوا ينكرون عليها تدخلها في شئونهم ، وقيودها الخلقية عليهم ، ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم . وادعائها الحق في فرض الضرائب . . . و . . . (٢) .

وما تحذر الإشارة إليه أن المصلحين وغيرهم ممن تمردوا على الكنيسة كانوا يوجهون جل جهودهم إلى محاربة الكنيسة وحدها . ولم تتعرض لكثير من القضايا المهمة كعقيدة التثليث ، وتحريف إنجيل المسيح عليه السلام

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢١٠) وما بعدها .

(٢) معالم تاريخ الإنسانية (٣ : ٩٨٩) وما بعدها .

والخطيئة الموروثة . ولذلك فإن حركة الإصلاح وقفت دون أن تحقق أسمى غاية كان من الممكن أن تصل إليها .

معاداة الكنيسة للعلم :

إذا عددنا حركة الإصلاح الديني أول سبب فتح للناس باب التمسيد والخروج عليها فإن هناك سبباً ثانياً أذكى روح الكراهية في الكنيسة وتعاليمها ، وهو معاداة الكنيسة للعلم واضطهادها للعلماء ، واعتبار كل كشف على وإن كان صحيحاً هرطقة وكفراً .

وما يذكر من الحوادث الصغيرة في هذا المجال أن مهندس بلدية في ألمانيا كان قد اكتشف أو اخترع مصباحاً يضاء بالزيت ليلاً ، فاعتبرته الكنيسة هرطقة وقضت عليه بالحرمان . وعلت حكمها بأن الله أراد الليل ظلاماً وأراد النهار ضياءً . وأن أية محاولة لإضاءة الليل إنما هي تمرد على إرادة الله . ١٩٠٠ (٢) .

ولسنا ندري ماذا كانت ستري الكنيسة لو حدث اكتشاف الكهرباء في عهدها الذهبي وفي أوج سلطانها ١٩

الكشوف العلمية الحديثة :

من العوامل التي كانت محطراً صعباً للكنيسة البحوث العلمية التي أسفرت عن حقائق كونية بالغة الأهمية ، وكان لها نصيب من الصحة .

وفي مقدمة هذه الكشوف نظرية كوبرنيك (١٥٤٣ م) الفلكية ، والتي تقضى بأن الشمس هي مركز الكون ، وأن الأرض تدور حولها ، وكذلك بقية الكواكب كانت هذه النظرية بمثابة قذيفة فجرت في هيكل الكنيسة ووضعتها أمام أعقد مشكلة في تاريخها الوسيط .

(٢) الألمانية (١٥٧) مرجع سابق .

فقد كانت الكنيسة تعتقد أن الأرض هي مركز الكون ، وأن الشمس هي التي تدور حولها قاطعة المسافة ما بين شرقها وغربها في نظام محكم . وقد ورثت الكنيسة هذه العقيدة عن نظريه بطليميوس ، وأخذت بها وجعلتها حقيقة من حقائق الدين .

ولم تفتح الكنيسة صدرها فتقارن بين النظريتين وتأخذ بالصحيح منها وإنما سارعت بإلقاء القبض على كوبرنيق وقدمته لمحاكم التفتيش وهو في سن الشيخوخة . وقبل إصدار الحكم عليه عاجلته المنية وفوتت على الكنيسة فرصة الانقمام والتأديب والتشفي .

وصادرت الكنيسة كتاب كوبرنيق (حركات الأجرام السماوية) وقالت ان ما فيه إنما هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل ١٩٠٠

وظننت الكنيسة أنها أحكمت قبضتها على الأمر ، وأنها وأدت نظرية كوبرنيق في مهدها .

وبعد قليل من الزمن قبض الله رجلاً آخر يبعث نظرية كوبر من جديد ، وهو جيردانو برونو . وإذا بالكنيسة تهب من جديد وتلقى به في السجن ويظل الرجل مسجوناً ست سنوات ثابتاً على رأيه . فاضطرت الكنيسة إلى أن تحرقه وتسحق عظامه وتذريها وهي رماد في الهواء ، ليكون عبرة لمن سواه من العلماء والباحثين ١١٩٠٠

من النظر إلى العمل :

لم توقف إجراءات الكنيسة تدفق العلوم ، ولم تخف قلوب العلماء . فقد استمر البحث العلمي في التقدم ، وتبنى العالم الفلكي جاليليو النظرية الفلكية السابقة ، وخطا بها خطوة واسعة إلى الأمام .

اخترع جاليليو هذا جهازه الخطير « المرقب » ، اود التلسكوب ، وأيد به

عملياً وتجربياً ما نادى به كوبر وبرونو نظرياً من قبل . فأمرعت الكنيسة
بالقاء القبض عليه ، وتقديمه للمحاكمة .

وقضى عليه سبعة من السكرادلة بالسجن ، وأمره بتلاوة مزامير النهم
السبعة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات (٤) .

وخشى الرجل ، وهو شيخ مسن ، أن تفعل به الكنيسة مثلما فعلت
ببرونو من قبل فأعلن ارتداده - ظاهرياً - عن رأيه ، أعلنه وهو منحني
على ركبتيه أمام رئيس المحكمة ، وهو يقول :

« أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمري . راعى أمام نظامك ؟
والكتاب المقدس أمامي المسه يمدى : أرفض وألعن وأحتقر القول
الإلحادى الخاطىء . بدوران الأرض ، وأتعهد مع هذا بتبليغ المحكمة عن كل
ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل . » (٥) .

وبهذا الأسلوب القمعى كانت تعقب الكنيسة كل عالم يكتشف ظاهرة
جديدة من ظواهر الكون . ومن الملاحظ أن الكنيسة لم تكن تسمح
بمناقشة الكشف العلمى على الإطلاق ، بل كانت تستخدم سلطانها العاقبة فى
مصادرة كل ماتراه خارجاً على أفكارها وتعاليمها .

ومن الطريف أن جاليليو - كما تذكر المصادر - أخذ يردد فى صوت
خافت وهو خارج من المحكمة هذه العبارة :

« ومع ذلك فإن الأرض هى التى تدور ، » (٦) ١٩٦٤

نيوتن والجاذبية :

كانت وفاة جاليليو هى ١٦٤٢ م وفى هذه السنة نفسها ولد إسحق نيوتن ،

(٤) تاريخ معالم الإنسانية (١٠٠٨، ١) مرجع سبق ذكره .

(٥) النزاع بين الدين والفلسفة (٥ ٢) د/ توفيق الطويل .

(٦) علماء الإنسانية مائة ()

وكان القدر قد جاء به تعريضاً عن جاليليو ليكون امتداداً له في الكشف عن معارف جديدة مما أودعه الله من أسرار في كونه النسيم إذ على يد نيوتن هذا ظهر قانون الجاذبية الذي ذاع صيته وكان له وقع قوى انهيار له رجال الدين وغير رجال الدين من الطبقات التي نالت حظاً وفيراً من الثقافة .

وفي هذا الوقت الذي أعلن فيه نيوتن عن نظرية الجاذبية كانت المحوث قد وصلت بنظرية كوبرنيك وبرونو وجاليليو إلى درجة اليقين . لذلك كان انتصار نيوتن انتصاراً مضاعفاً ، وزادت ثقة الناس في كشوفات العلماء . وازداد تدهور الكنيسة وتداعت معارفها واحدة بعد الأخرى ومع أن نيوتن كان مؤمناً بالله فإن رجال الكنيسة ساربه واضطهدوه وقالوا : إن نظريته تؤدي إلى إنكار عناية الله . وكانت الكنيسة صادقة في هذا الترفع . كما سيأتي - إلا أن صدقها لن يشفع لها أزاء قصورها وجحودها في هذا المجال .

فلو أن الكنيسة استغلت هذه الكشوف في الدعوة إلى الإيمان ، واستطاعت أن تربط بين هذه القوانين وبين القدرة والحكمة الإلهية لتغير مجرى التاريخ الديني في أوروبا . ولكنها لجأت إلى مصادرة الفكرة ولم تجد هذه المصادرة شيئاً أمام صدق الكشوف وظهور آثارها .

وإلى هنا كان فقدان الثقة في الكنيسة قد بلغ مداه ، واتجه الناس بعامة والمتفقون بخاصة إلى مصادر جديدة للمعرفة ، وأداروا ظهورهم للكنيسة وأذنت شمسها بالغروب .

وفي القرن السابع عشر اكتملت النظرية العلمية المعادية للكنيسة ، وراجت في جميع الأوساط . وأسفرت عن نتائج وإنجازات بالغة الأهمية والخطورة . وفي خضمها برتراند رسل في الحقائق الآتية :

١ - إن تقرير الحقائق يجب أن يقوم على الملاحظة والتجربة ، لا على الرواية غير المؤيدة (يعنى النصوص الدينية) .

٢ - إن العالم غير الحيوانى - الجمادات - متفاعل فى نفسه مستبقي لنفسه ، وتنطبق كل التغيرات التى فيه مع قوانين الطبيعة .

٣ - إن الأرض ليست هى مركز الـكون . وأن الإنسان قد لا يكون الهدف من وجودها إذا كان لوجودها أى هدف . وفوق ذلك فإن فكرة الهدف فكرة لا فائدة منها من الناحية العلمية^(٧) .

ولم تقف الكنيسة مكتوفة الأيدى أمام هذه التطورات الخطيرة ، بل قاومتها من محورين :

أحدهما : ظهرت - ولأول مرة - القوائم البابوية التى ذكرت فيها أسماء الكتب المحرمة قراءتها واقتنائها ، وكان من يعثر عنده على كتاب منها يقدم لمحاكم التفتيش بلا رحمة . ١٩

والثانى : متابعه العلماء والمبالغة فى اضطهادهم وتعذيبهم بكل ألوان التعذيب .

وأُسفرت هذه التحديات عن نتائج لم تكن فى صالح الكنيسة ، بل زادت من الفجوة بينها وبين الناس عامتهم وخاصتهم ، وارتفعت الأصوات فى كل مكان تندد بالطغيان الكنسى .

وأُسهمت الاكتشاف العلمية فى إيجاد فكر لا دينى ، بدأ ضعيفا فى أول الأمر ، ثم قوى واشتد بمرور الأيام . ونتج عن ذلك إتجاهان كبيران كل منهما يدعى أنه المصدر الوحيد للمعرفة بعد سقوط الكنيسة من هذا المجال . والإتجاهان الجديدان هما :

(٧) أثر العلم فى المجتمع (٦) برتراند رسل : ترجمة ذ. تمام حسان .

الأول - الاتجاه العقلي أو القول بسيادة العقل .

الثاني - الاتجاه الوضعي أو القول بسيادة الحس .

سيادة العقل أو عصر التنوير :

كان ظهور هذا الاتجاه رد فعل مباشر لفقدان الثقة ، في الكنيسة باعتبارها مصدرا وحيدا للمعرفة ، وقد سميت الفترة التي ظهر فيها الاتجاه العقلي في تاريخ الفلسفة الأوروبية بـ « عصر التنوير » ، وتحديد الزدني هو النصف الثاني من القرن الثامن عشر . ويغلب على الفكر العقلي في تلك الفترة المضادة للدين ومناوآته بعد الفشل الذريع الذي منيت به الكنيسة أمام التغييرات المفاجئة التي ظهرت على ساحة الفكر آنذاك .

والمحور الذي تقوم عليه الفلسفة العقلية ، او المثالية كما يطلق عليها هو : أن العقل - وحده - هو مصدر المعرفة اليقينية الصحيحة ، وأن له الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة وما فيها من سياسة وقانون وأخلاق ودين ، وأن الإنسانية هي هدف الحياة للجميع ، وليس الله أو المجتمع الخاص أو الدولة ،

وقد يطلق على هذه الفلسفة : «عصر الإيمان الفلسفي بالإله ليس له وحي وليس بخالق للعالم » وهو العقل . أي أنه يؤله العقل وفي نفس الوقت لا يدعى أن للعقل - الإله الجديد - وحيًا ، ولا هو خالق للعالم^(٨) .

رواد هذا الاتجاه :

وكان لهذا الاتجاه رواد وأنصار : فولتير في فرنسا ، ديبلي ولا متری . وولف في ألمانيا ، ولسنج . ولوك في إنجلترا . وغيرهم كثيرون .

(أ) انظر : الفكر الإسلامي الحديث وصلاته بالاستعمار الغربي

(٢٥٢) د / محمد البهي .

الإفراط في سلطان العقل :

اتسم عصر التنوير في الإسراف في سلطان العقل ، ورأوا فيه مصدراً وحيداً كافياً لحل كل ألغاز الحياة وأمرار الكون ، ومن أعدى أعداء الكنيسة في عصر التنوير الفيلسوف الفرنسي فولتير ، فقد نقد واقع المسيحية التقليدية ، إذ ذاك نقداً مرأ . وضم إلى النقد الأسلوب الساخر اللاذع الذي تطاول به حتى على الذات العلية ، الله ، ولكن يمكن الاعتذار عنه بأنه إنما كان يمتنى . الله ، الذي تتصوره الكنيسة ، وليس ، الله الذي له الكمال المطلق . وقد دعا فولتير إلى دين جديد وإله جديد غير دين الكنيسة وغير إله الكنيسة . . ١٩

ذلك الدين هو الدين الطبيعي ، أما الإله فهو الطبيعة نفسها . وكانوا يصفون الطبيعة ، الإله ، بأنها ، إله جذاب ، لا رجال دين فيه يأتون بالعقائد الفلسفية والأسرار الملفة ، الذين يستعبدون الناس لحسابهم . وفولتير كان يوجه نقداً لاذعاً للكتاب المقدس بهيديه القديم والجديد ، وهو في الواقع نقد موضوعي مدعوم بأجلى الأدلة .

وتراه يعلق على معلومات التوراة الجغرافية المقلوطة فيقول :

، من الواضح أن الله لم يكن قويا في الجغرافيا ، (٩) .

ولم يكن فولتير كافراً ملحداً ، بل كان ممن يرون ضرورة الإيمان بالله . أما الوحي فأنكره مع من أنكره من مثل : بوب وآخرين . ولكن هذا الإيمان لم يكن كملا مثلاً أنكروا الوحي ، والسبب في ذلك أنهم لو أقروا به لزم من الإقرار به صحة مدعيات الكنيسة .

وكذلك كانوا يؤمنون بأن ، الله ، شبيه بصانع الساعة الذي لم يكن له تدبير فيها بعد خروجها من يده ١٩

(٩) قصة النزاع (١٩٠) مرجع سبق ذكره .

وهكذا ترى الإفراط في سلطة العقل قد قاد بعض العقليين إلى ما يقرب من الكفر والإلحاد ، أو قاد بعضهم إلى الكفر والإلحاد فعلا . وبعض العقليين على الرغم من جعله العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة دونما سواء فإنه أخرج قضايا الإيمان وفي مقدمتها « الله » من سلطان العقل . ومن أشهر من قال بهذا الفيلسوف الألماني « ديكارت » ، ولكنه لم يخرج « الله » وحده من سلطان العقل ، بل أخرج كل العقائد الكنسية والنصوص المقدسة وكان يرى أن لعضائقة بين العلم والدين ، ولا سلطان لأحدهما على الآخر وبحالته تماما الفيلسوف جون لوك فقد أخضع الدين العقل عند التعارض فقال : « من استبعد العقل لينسحق للوحي مجالا فقد نذر كليهما » . (١٠) .

وعلى كل فإن الإنجاء العقلي المشالي في عصر التنوير لم يقف موقفا محمودا أمام قضايا الإيمان والدين . والسبب في ذلك أنه فشل الكنيسة في عرض الدين كما أنزله الله . فقد واجهت الناس مواجهة هزيلة ببضاعة أكثرها فساد ، فهمي وحدها المسؤولة عن هذا التردى . وما تجب الإشارة إليه أن النزعة الإلحادية أو الشبهية بالإلحاد لم تكن ذاتة ولا منتشرة بين عامة الشعب ، فقد ظل الشعب مؤمنا في عصر التنوير وإن فقدوا بعض الثقة أو كل الثقة في الكنيسة .

ومعاداة العقل للدين المسيحي في ذلك الوقت كان لها الأسباب المعقولة التي أشرنا إليها مع ملاحظة أن المراد من الدين الذي عاده العقل هو الدين الذي كانت تمثله الكنيسة وليس كل دين . ومن المعروف أن الدين الذي كانت تقدمه الكنيسة للناس ليس له من خصائص الدين الصحيح إلا مجرد التسمية . أما هو في الواقع فإنه « توليفة » قد صنعها البشر من عناصر غير متجانسة . والعقيدة لا تصنع وإنما هي تتأق عن الوحي الصادق الأمين . وهذا ما لم يكن له وجود قط في الواقع الكنسي . ١٩٠٠

(١٠) قصة النزاع (٢١٤) مرجع سبق ذكره .

سيادة الحس :

انتهى عصر التنوير العقلي بانتهاء القرن الثامن عشر تقريباً بعد أن دام نصف قرن ، وكان موقفه من الدين (المسيحية الكاثوليكية) مزدوجاً . منهم من اعتدل في الخصومة معه كديكارت ، ومنهم من بالغ كفولتير . وأياً كان الأمر فإن عصر التنوير العقلي كان قد انزع القيادة والتوجيه من الدين ، وادعى أن العقل - وحده - هو مصدر المعرفة الحقة ، ولا شيء سواه .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر ظهر على الساحة منافس خطير للدين وللعقل معاً . وهذا المنافس كان له وجود قبل القرن التاسع عشر ولكنه لم يظهر كذهب له فلسفة خاصة به بين المذاهب الفلسفية في أوروبا إلا في أوائل القرن التاسع عشر . إلا هو ، سيادة الحس ، أو الوضعية ، كما أطلق عليه واشتهر به .

وأصحاب هذا المذهب يقولون : لا الدين ، ولا العقل يمكن عن طريق واحد منهما الوصول إلى المعرفة اليقينة . وإنما المصدر الوحيد للمعرفة هو : الملاحظة والتجربة التي موضوعها المادة وخواصها المختلفة ، وطريقها أو أدوانها الحواس الخمس . فما يدرك بالحواس هو الموجود ، وما لا يدرك بالحواس فغير موجود . وإنما هو خداع ووهم من الأوهام . ١٤ .

دعاة الوضعية المادية .

ينسب هذا المذهب إلى الفيلسوف الفرنسي أوجست كوفت في القرن التاسع عشر (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م) وكان لهذا المذهب فواة منذ القرن الخامس قبل الميلاد على يد الفيلسوف الأسكتلندي هيوم (١٧١١ - ١٨٨٦ م) ولكنه لم يستقر إلا على يد أوجست كوفت ، وكان يعرف قبله بالمذهب التجريبي أما في

عنده فعرّف بمذهب الوضعية ، وإليها تنسب النزعات المادية التي جاءت فيما بعد كالمادية الجدلية أو الشيوعية — كما سيأتي .

الأساس الذي استخلص منه كونت هذا المذهب أنه نظر إلى تاريخ المعرفة كما يقول فندلبنند في تعليقه على فلسفة كونت . وقد فهم من النظر في تاريخ المعرفة الإنسانية أنها مرت بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كان مصدر المعرفة فيها هو الدين أو الوحي الإلهي .

والمرحلة الثانية : كان مصدر المعرفة فيها الميتافيزيقا أو العقل أو الفلسفة المثالية .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة : فإن مصدر المعرفة فيها هو الواقعية . وهذه « الثلاثية » وضعها كونت لتكون بمثابة القانون الذي يؤيد مذهب الوضعية الذي يقضي بأن مادة الطبيعة وأعمال الملاحظة والتجربة فيها هي وحدها الموصلة للمعرفة الصحيحة ، وليس الدين ولا العقل . وقد نشبت ماركس بعد كونت بهذا الفرض التطوري وطبقه في مجال الاقتصاد كما طبقه كونت في مجال المعرفة .

ويقدم الوضعيون أسبابا وتعليلات لفرضهم مذهب الوضعية كمصدر وحيد للمعرفة ومن تلك الأسباب والتعليلات :

١ - فشل الكنيسة في تقديم تفسير صحيح للمعرفة وانحطاط المعرفة التي كانت تثبتاها طوال فترة سياستها .

٢ - فشل الفلسفة العقلية المثالية بدورها وإفلاسها فيما دعت إليه . فقد كانت الفلسفة العقلية المثالية تسعى لإبعاد الدين — الكنيسة — عن توجيه الإنسان ولكنها عادت على يد بعض أقطابها مثل « هيغل » إلى تأييد الوحي والدين من جديد (١١)

(١١) للفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغرب (٢٦٦) مرجع سبق ذكره .

وانتهت الفلسفة الوضعية إلى نتائج جد خطيرة ، فقد أفكرت الوحي
— جملة — كما أفكرت وجود الخالق ، الله ، ودعت إلى إحلال العلم الوضعي
(الحسي) محل ، اللاهوت ، وأن يكون هدف الإنسان هو ، الإنسانية ، بدلا
من ، الله ، .

وقد رأيت أن كل من كتب عن فلسفة أوجست كونت قد أجمعوا على أنه
وإن هدم ديننا هو دين السكينة (المصنوع بمعرفة آباؤها) فإنه لم يستطع أن
يتخلص من فكرة الدين مطلقا ، بل اخترع ديننا بدل الدين الذي عاده .
وجعل الإنسانية هي الإله الجديد بعد أن أفكر ، إله ،^(١٢) السكينة . ومؤدى
هذا أن الدين والدين ضرورة فطرية عند الإنسان لا يستطيع — وإن حاول —
الإفكاك عنها .

الثورة الفرنسية :

رأينا أن كلا من الفلسفة العقلية المثالية ، والفلسفة الوضعية المادية كانتا
رد فعل نظري على سلوك الكنيسة وإحكام قبضتها على مقاليد الأمور ، وأن
كلا منهما : الفلسفة العقلية والفلسفة الوضعية كانت تعمل جاهدة على إزاحة
السلطان البابوي عن القيادة والتوجيه . الفلسفة العقلية في عصرها إدعت سيادة
العقل على ما عداها ، والفلسفة الوضعية في عهدها إدعت سيادة الحس أو الواقعية
على ما عداها . وفي كلا العصرين : العقلي والواقعي المادي كانت المعركة
هادئة من جانب ، وهنيئة من جانب آخر : هادئة من جانب خصوم الكنيسة
ثما كانوا يشهرون في وجهها إلا سلاح الفكر والبرهان والجدل .

وهنيئة من جانب الكنيسة فإنها لم تكن تحاور وإنما تضطهد . ولم تكن
تسمع وإنما تسجن أو تقتل أو تصدر أحكام الحرمان والطرده من ملكوت
السموات ١٩

(١٢) ينظر : تاريخ الفلسفة الحديث الأستاذ بونف كرم (٣١٤)

والخط الفكري لم يتوقف رغم الاضطهاد والتعذيب . والكنيسة لم تهادن المفكرين « المهرطفين » ومحاكم التفتيش كان أكثر عرانا بنزلائها من الدور والمنازل .

وفي أواخر القرن الثامن عشر لم يكتف خصوم الكنيسة بلغة الفسك والعلم والبحث فحلوا الصراع إلى صدام مسلح ، وكانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م تعلن غضبها العارمة على أساليب القمع والاضطهاد والتنكيل ، وعلى سحب الجمل التي خيمت على ربوع البلاد ، وعلى الطغيان السكسي بكل صورته : الديني والروحي والسياسي والمالي والاجتماعي . ولم يكن المستهدف من قيام الثورة القضاء على سلطان الكنيسة وحدها ، بل كان ملوك الإقطاع وأئمة الإستبداد السياسي من الأهداف التي قامت الثورة من أجلها . وإر الشعار الذي كان ينادى به الثوار لأبلغ وأوجز إعلام بالأهداف السكسي التي كانت تريد تحقيقها : يقول الشعار :

« أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » .

وقد حققت الثورة أهدافها ، ودخلت أوروبا في عصر النهضة بعد طول ظلام وأزاحت السكاوس الذي كان جائئا على صدرها . وسقط سلطان الكنيسة إلى الأبد ، وافكش سدنها داخل جدرانها وانحسر المد الذي كان يتدفق نحوها . وحدث ذلك التحول الخطير في حياة أوروبا في كل مجال من مجالات الحياة ..

النتائج الخطيرة التي أسفرت عنها الثورة :

الثورات - دائما - من أبرز أسبابها السكبت والتبرم النفسي ، وحين يجد صناحب السكبت متنفسا وفرصة على مضطهديه فإن رد الفعل يقع عفويا ، والعفوية تؤدي إلى الاشتطاط وعدم الروية والإتزان . وهذا هو ما قسم به الثورة الفرنسية فيما نرى .

فقد كانت ثورة باطشة عارمة غشوما ، لم تفرق في ماذا ينبغي عمله وماذا ينبغي تركه . ولذلك ارتكبت كثيراً من الأخطاء أو التجاوزات بجانب ما عملته من صواب .

وكانت النتيجة السريعة لها : أن حصدت المقصلة معظم رؤوس أعدائها من الفئات المترفة في النعيم ، والمتحكمة في المصائر . وقامت بأعمال غريبة هوجاء فقد حلت الجمعيات الدينية ، وسرحت الرهبان والراهبات ، وصادرت أموال الكنيسة ، وألغت كل امتيازاتها ، وحاربت العقائد الدينية علناً وعلى رؤوس الأشهاد وأصبح رجال الدين موظفين مدنيين لدى الحكومة .

أما النتائج التي جاءت بعد ذلك متأنية فهي :

١ - ولدت عنها دولة جمهورية لادينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب بدلا من « باسم الله » ١٩

٢ - دعت إلى حرية التدين بدلا من ضرورة التدين ولو على وجه صحيح .

٣ - دعت إلى الحرية الشخصية في العمل والسلوك بدلا من التحلي بمكارم الأخلاق .

٤ - أصدرت دستورا وضعيا ليكون أساسا للحكم بدلا من التوجيهات الدينية .

وصفوة القول : إن الثورة عاجلت خطأ وباطلا بخطا وباطل آخر .

وأزاحت ديننا وضعيا وأحلت محله ديننا وضعيا آخر . وأن الحضارة التي قامت في أوروبا بعد الثورة إنما هي حضارة مادية أو نفعية . ولم تخط أوروبا خطوة واحدة إلى الأمام في سلم الرقي الحقيقي . فكانت لادينية قبل الثورة . وظلت لا دينية بعد الثورة وإلى الآن .

وقفه إسلاميه ناقدة :

علمت بما تقدم أن الصراع المدمر في أوربا دار حول ثلاثة مذاهب مختلفة كل الاختلاف حسبما صورته لنا الواقع المؤلم وقتذاك :

فالدين ، وهو المنهج الأول نظر إليه على أنه عدو لدود لكل من العقل والعلم . ١٩٠٠

والعقل ، وهو المنهج الثاني ، تصوره على أنه عدو لدود للدين . ١٩٠٠ .
والعلم ، وهو المنهج الثالث ، فهموه على أنه عدو لدود للدين والعقل معاً . ١٩٠٠

هذه الفجوات التي امتدت بين المذاهب الثلاثة فجوات مفتعلة ، صنعها قيصور النظر وسوء التقدير وتجويف الحقائق .

والعقليون معذورون في عدائهم للفكر الديني إذ ذاك ، لأنه لم يكن فكراً دينياً بالمعنى الصحيح للدين ؛ لأن إطلاق اسم الدين على الفكر الكنسي حينذاك كان اسماً منتحلاً مستعاراً دون أن تكون هناك علاقة بين المستعار ، وهو الدين ، وبين المستعار له ، وهو الفكر الكنسي .

وسبب الصراع الذي دار في القرون الثلاثة الوسيطة : الخامس عشر ، والسادس عشر ، والسابع عشر ، واشتد أواره في القرن الثامن عشر الميلادي ، لأن هذا الصراع غلطة شنيعة وقعت منذ القرن الأول الميلادي .

إضاعة الإنجيل :

تلك الغلطة هي إضاعة الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام . وانتحال أناجيل أخرى نسبت إليه . وإضاعة الإنجيل الحقيقي ضاعت من يد القوم ، أمانة الوحي ، ففقدوا العاصم من الخطأ ، والمنقذ من الضلال . ولو قدر أن إنجيل السيد المسيح كان موجوداً بيد القوم ، مضمونة من

التحريف ، لتغير وجه التاريخ ولما وقعت الكنيسة في تلك الأخطاء الجسيمة المتوارثة التي حملتها الأجيال إلى القرن السابع عشر وما تلاه من عصور الفتن والإضطرابات .

ولما وقع الشقاق بينها وبين العقليين والوضعيين . ولمكن لما أضاع القوم أمانة الوحي وصنعوا عقائدهم بأهوائهم ، لما كان الأمر كذلك حق للعقل أن يتمرد ، وحق للعلم أن يشور ؛ لأن كلا من العقل والعلم لم يواجها ديناً ، وإنما واجها تصورات بشرية ، سميت - ظلمنا وعدوانا - باسم الدين . وفي الواقع أن المناهج الثلاثة المتصارعة في ذلك الوقت كانت مناهج بشرية وليس من بينها واحد اسمه دين ؟

ومن الذي أضاع الإنجيل ؟

سؤال له دوره في تصوير الواقع في هذا المجال . وعلى كثرة ما طالعت لم أر من وقف أمام هذا السؤال .

وليس لدينا إجابة يقينية عليه ، وإن كنا نملك أن نقول فيه كلمة مقنعة . فمن الذي أضاع الإنجيل ياترى ؟

لدينا ثلاثة فروض :

الأول : هل الذي أضاع الإنجيل هم أتباع السيد المسيح عليه السلام قبل وقوع التحريف ؟

والجواب : هذا مستبعد ؛ لأنهم ليس لهم مصلحة في إضاعته ، بل مصلحة لهم كانت في وجوده بأيديهم ليشرهوه كأمضى سلاح في وجوه مضطهديهم وجلادهم من دعاة التحريف .

الثاني : هل الذي أضاع الإنجيل هم اليهود ؟

والجواب : هذا يمكن ، بل وممكن جداً . ولهذا الوجه أسباب وجيهة جداً ومقولة جداً .

• فاليهود من أول يوم في حياة المسيح عليه السلام ناصبوه العداوة، ورموه وأمه البتول الطاهرة بالإثم والعدوان . وبذلك جاء القرآن الكريم . فأتت به قومها تحمله . قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك أمرا سوء ، وما كانت أمك بغيا ، (١٣) .

ولم يقتنع اليهود بالآيات العظيمة التي أظهرها الله على يد عيسى . فأصروا على مقولتهم الشنيعة وقالوا : إن أبا عيسى هو يوسف النجار - خطيبها - أتت به منه سفاحا ١٩

ويسجل عليهم القرآن الأمين لإصرارهم على موقفهم، ويسلك ذلك الموقف في سلسلة جرائمهم الشنيعة التي ارتكبوها مع الله ومع رسوله .

• فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم : قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ، (١٤) .

• واليهود ضاقوا ذرعا برسالة المسيح عليه السلام ، وأذاقوه مر العذاب وسعوا بالنكاية القاتلة بينه وبين الروم حتى أعدوا له خشبة الصليب وصلبوه عليها - فيما تراعى لهم - فجريمة الصلب والقتل وقعت منهم قطعا بالتسبب ، ومن الروم بالمباشرة - بحسب النية والقصد - وإن نجاه الله من كيدهم .

• واليهود - كما يقول ولفسن أحد مؤرخيهم - حرصوا على تطهير كتبهم الدينية المتداولة من ذكر أي إشارة تفيد وجود السيد المسيح ؟ لأنهم يحاولون بكل جهد طمس حقائقه ليداروا جريمتهم معه .

هذه أسباب ومبررات مقبولة ومعقولة ، تؤيد رأى من يقول : إن اليهود

(١٣) مريم (٢٧ - ٢٨) .

(١٤) النساء (١٥٥ - ١٥٦) .

هم الذين أضاعوا الإنجيل، لأن في إضاعته استمراراً لموقفهم منه، وقوم
سعوا جاهدين لإزالة المسيح نفسه من الوجود من اليسير عليهم إضاعة الإنجيل
الذي جاء به من عند ربه .

الثالث : هل الذي أضاع الإنجيل هو بولس أو شاؤل كما يسمى في المصادر
الدينية الكتابية ؟

والجواب : جائز . بل جائز جوازا مؤكدا . والدليل : أن بولس كما تقدم
وكما يرجح بل ويعتقد كل من كتب بموضوعية ونزاهة - في تطور المسيحية
على مدى التاريخ - أن بولس هو الذي وقع منه أول تحريف لرسالة السيد
المسيح عليه السلام : ورسائله المملوكة بالعهد الجديد كانت أسبق تدوينا من
وضع الأناجيل الأربعة . وقد أجمع النقاد الغربيون على أن مسيحية بولس
تختلف تماما مع مسيحية المسيح عليه السلام . وهذا دليل كاف جدا على إدانة
بولس بإضاعة الإنجيل الصحيح ؛ لأن في وجوده وتداوله بين الناس فضحا
لا كاذبه ، وكشفا لزيغه الذي ألصقه برسالة السيد المسيح - عليه السلام -
ولو قدر أن الإنجيل الصحيح كان موجودا ومتداولاً في حياة بولس لما وجد
بولس طريقا إلى فرض نفسه على التاريخ الكنسي ولا انتهى أمره ولم يسمع
به أحد . . . ولكن قدر الله وما شاء فعل . وفي كل تقدير له حكمة .

ضاع الإنجيل فضاعت بضياعه أمانة الوحي . وصنعت الكنيسة عقيدتها . . ؟
ووضعت دينها فأبى ذلك الدين بما ينكره العقل والعلم معا . فكانت المضادة
بينه وبين عدويه اللاديين : العقل والعلم مضادة حقيقة لها أسبابها وأصولها
التي لا تنكر .

ولو كان الدين الذي ساد أوروبا في تلك العصور غير دين الكنيسة لما وقع
صدام بينه وبين العقل والعلم . لأن بين الدين الصحيح وبين العقل والعلم ألفة
وتأخيا وانسجاما ، لا تنافر وتعاد وافتراق . ولو فرضنا أن الإسلام هو الذي

كان يسود أوروبا في تلك العصور لما حدث ذلك الانشطار الخطير في الفكر والعقيدة معا .

ماذا كان سيحدث لو كان السائد هو الإسلام ؟ :

الذي كان سيحدث لو كان الإسلام هو الدين الذي كان يسود أوروبا في عصر الصراع الحريز الذي مرت به ، أن شيئا مما حدث كان لن يكون ، لأن الإسلام يضع العقل والعلم موضعهما اللائق بهما .

فالعقل في الإسلام هو مناط المسؤولية والتكليف ، وهو أداة الفهم والإدراك والتأمل . ومصدر التفكير والتدبر ، ومصدر الموازنات والمقارنات والاستدلال وهو ، القارى . ، للآيات الكونية . والسكون كله أمام العقل كتاب مفتوح . وقد استحدث القرآن الممكن والمواهب العقلية ، ودعاها للتبصر والتفكير ، ولم يأت الإسلام بشيء يصدىم العقل فيما للعقل فيه مجال . ويمكن أن نشير إلى منزلة العقل في الإسلام بالنصوص القرآنية الآتية :

« أنأمرون الناس بالبِر وتذسبون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ، ^(١٥) إن هاهنا موقفا معيبا . فالناصب بالخير إذا لم يمكن بعمل بذلك الخير فقد أساء إلى نفسه ، وأساء إلى غيره ، لأن القدوة الحسنة التي يرجى قبول نصيحها هي التي تلزم بما تقول . لذلك فإن القرآن يسجل على اليهود هذا الموقف وينبهم إلى الخطأ الذي وقعوا فيه ، مشيرا إلى أن الوقوع في هذا الخطأ لا يصدر إلا عن لاعقل له فقال « أفلا تعقلون ، ١٦ وهذا تنزيه بفضل العقل وعلو منزلته وفي واحد من مواقف يوم القيامة يبين الكتاب العزيز أن قوما ندموا على ما فرط منهم في الدنيا ، وتبين لهم سبب هلاكهم ، وهو أنهم لم يعملوا عقولهم فيما دعوا إليه ، وبلغوا به .

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » (١٦).
وهكذا يسوق القرآن الكريم مادة (عقل) متصرفاً فيها بين الماضي والمضارع وهي في كل موضع وردت فيه في صيغة المضارع تدل إما على ندم وحسرة لعدم إعمال العقل في التفكير والتدبر ، وإما للتهيب والإثارة للنظر فيها يذكر من آيات وأدلة ليقودهم التفكير السليم الموجه بالعقل الواعي إلى التي هي أحسن . ومثال الندم قد تقدم ، أما أمثلة التهيب والإثارة فمنها :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (١٧) .

« إنا أنزلنا قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (١٨) .

وكذلك يحصر فهم الأمثال المضروبة على من كان له عقل يعي .
فيقول :

« وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » (١٩) .

كما يحصر تفصيل الآيات السكونية ويقصر فهمها على ذوي العقول فيقول :
« كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » (٢٠) .

ولإزالة النظر في السكون ، والتدبر في نظامه المحكم وتصريف الأور فيه إنما هو وقف على العقلاء :

« إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين

(١٧) البقرة (٢٤٢) .

(١٩) العنكبوت (٤٣) .

(١٦) الملك (١٠) .

(١٨) يوسف (٢) .

(٢٠) الروم (٢٨) .

السما. والأرض لآيات لقوم يعقلون، (٢١).

أما نفي العقل عن فريق من الناس فمعناه أن ذلك الفريق سائر في الضلال صم لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون ، عمى لا يبصرون :

صم بكم عمى فهم لا يعقلون ، (٢٢).

ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، (٢٣).

إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، (٢٤).

فانظر إلى أى مدى يمتدح القرآن العقل ويستثيره ليقوم بدوره في الفهم والإدراك والتوجيه . وذلك لأن الإسلام لا يخشى العقل ، لأن العقل إنما ينسكرك الباطل والزيف ، وليس في الإسلام باطل ولا زيف .

والعقل رب أسرة من المملكات والمواهب منها : التفكير والتدبر والتذكر والتبصر ، وما من ملكة من هذه المملكات إلا وقد أثارها القرآن وألح عليها في الإقارة وهاجها وأيقظها من سباتها ، ودعاها وكرر دعواتها للنظر والتأمل في حقيقة الإيمان ودلائله .

ولذلك أصبح مألوفاً بل وسمة من سمات البيان القرآني أن تكون فواصل آياته يتفكرون أو تتفكرون . ويتذكرون أو تذكرون ، ومن التدبر ورد :

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، (٢٥).

فالإسلام هو دين العقل والمملكات والمواهب العقلية والفكرية والنفسية . وهو أحياناً يتدخل في صميم العملية التفكيرية ، فيرسم طريقها ومنهجها ترى ذلك واضحاً في قوله تعالى :

(٢١) البقرة (١٦٤) . (٢٢) البقرة (١٧١) . (٢٣) يونس (١٠٠) .

(٢٤) الأنفال (١٢) . (٢٥) محمد (٢٤) .

دقل: إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا... (٢٦).
هذا هو منهج الإسلام في إثارة ملكات الإدراك والتمييز فكيف كان
سيكون صراع بينه وبين العقل لو كان الإسلام هو الذي ساد أوروبا في
عصورها الوسطى إن الإسلام يحتضن العقل ويجعله مناط التكليف والمسئولية.
فبينه وبين العقل والتفكير ألفة وانسجام . ورأى العقل في الإسلام -
مصدر من مصادر المعرفة ، وليس هو مصدر المعرفة الوحيد ، وهذا هو
الخطأ الذي وقع فيه العقليون في عصر التنوير ، حيث جعلوا العقل هو مصدر
المعرفة الوحيد ولاكنهم معذرون ، لأنهم لم يجدوا في دين الكنيسة ديناً صحيحاً
يعترف بدور العقل ، فقابلوا غلوا بغلوا ، وكلاهما : رجال الكنيسة والعقليون
كانوا بعيدين عن الصواب .

الحياة العقلية في الإسلام :

صورة الحياة الإسلامية ، ما تزال ولن تزال ، صورة عملية حية لمبادئ
الإسلام النظرية . يدل ذلك على ذلك أن علماء العقيدة أوجبوا النظر العقلي
والتفكير المنفصلي إلى الإيمان على كل مكلف كان من أهل النظر والفكر ،
حتى يحقق الإيمان عن أدلته وبراهينه ، فإذا ترك النظر والتفكير مكلف قادر
على النظر والتفكير كان إيمانه باطلاً عند علماء الأمة ، حتى ولو قلده غيره من
أهل النظر فيما اهتموا إليه ؛ لأن التقليد في أصول الإيمان مع القدرة على
البحث والتأمل باطل .

وهذا الإنجاء مأخوذ من القرآن الكريم فإنه عند كل مطلب إيماني من
أصول الإيمان يدعو ويلح ويشير ويستحث على النظر في ملكوت الله . في
مثل قوله تعالى :

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي
الالباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق

السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا - سبحانه - فقنا عذاب النار، (٢٧) .

والقرآن الحكيم هو الذي حمل المسلمين على التفكير العقلي ، ووجههم
إليه توجيها في مواطن كثيرة . ودعاهم إلى الاعتبار والسير وتقصى الحقائق .
خذ إليك مثلا قوله تعالى :

« أفلم يسيرا في الأرض فتسكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون
بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ، (٢٨) .

والمجالات التي استحدث الإسلام العقل لإزالة الفكر فيها كثيرة . منها :

(أ) مجالات العقيدة للتوصل إلى درجة اليقين فيها
(ب) مظاهر الكون العلوية والسفلية لانتزاع أدلة الإيمان والتوحيد منها .
(ج) الزروع والنبات للتأمل في حالها ونشأتها وتطورها واختلاف
منافعها .

(د) النفس ومكوناتها وأسرار الخلقة فيها .
(هـ) التاريخ العام والخاص للاعتبار بحال الأمم والتعرف على أسباب
قوتها وضعفها وزوالها وتبدل أحوالها .
(و) السياحة في الأرض للوقوف على ما فيها من آيات بينات ودلائل
قاطعات .

(ز) المذاهب والاتجاهات التي تحاول كل منها - على حدة - الاستئثار
بالإنسان وإغراءه باتباعها .

ولذلك نشأ التفكير العقلي في الحياة الإسلامية منذ عصر نزول القرآن

(٢٧) سورة آل عمران (١٩٠ - ١٩١) .

(٢٨) الحج (٤٦) .

وكان أولى القضايا التي أثارها أمامهم القرآن مسألة التقليد الأعمى الآباء والأجداد ، والدعوة إلى الاستقلال الفكري والاستدلال وتحقيق قيمة الفرد داخل الجماعة .

هذا وقد مد القرآن الفكر العقلي الإنساني بالمنهج السديد يستعين به المسلم في التمييز بين النافع والضار ، والحق والباطل ، والصحيح والفاقد .

وكان استجابة لتنويه الإسلام بالعقل أن قامت المذاهب الفلسفة العقلية ونظرت في كل شيء ينبغي النظر فيه . وتعددت تلك المذاهب وتشعب المذهب الواحد - أحيانا - إلى عدة شعب . وأفتحت الحركة العقلية تراثا هائلا من المعارف الإسلامية كباحث المتكلمين وعلوم أصول الفقه ، وعلماء الفقه ، واستعملوا النظر والقياس حتى في العلوم العربية من نحو وصرف وبيان وفقه لغة وأصول لغة . وواجهوا ثقافات الأمم المتحضرة وتعاملوا معها بحذر شديد فأخذوا منها النافع المفيد ، وأعرضوا عن الضار ، وقد أسهموا في إرساء صرح الحضارة الإنسانية بتصويب وافر . ومن أعلام فلاسفة الإسلام وعلمائه العقلين .

الإمام الشافعي ، البيروني ، الغزالي . الفارابي ، ابن رشد ، الخوارزمي ابن النفيس ، الإمام الأشعري ، الإمام أبو منصور الماتريدي ، ابن طفيل ، الشيخ الرئيس بن سينا ، وجابر بن حيان ، والكندي ، وأبو بكر الرازي ، والمسعودي ، والحسن بن الهيثم ، وابن النفيس ، وابن خلدون ، وغيرهم مما يتعذر عدده .

وصفوة القول : إن بين الإسلام وبين العقل رحما كاشحة ، وألفة أليقة فلا ينتظر أن يحدث بين الإسلام وبين العقل صدام . كيف والإسلام لا يخاطب إلا عقلاء ولا يكلف إلا العقلاء ؛ لأن العقل من نور الله كما يقول الإمام الغزالي أو هو الدليل على الله في الأرض كما يقول الجاحظ . ونذكر فيما يلي مناظرة عقلية

دارت بين عالم مسلم كان من فلاسفة الكلام ، وبين ممثلي مذهب هندي إلحادى .
لننظر كيف استخدم الفيلسوف المسلم النظر العقلى ، وماذا كانت النتيجة :

روى الإمام أحمد رضى الله عنه ، أن الجهم بن صفوان لقي بعض
« السمنية » - مذهب هندي فلسفى - فقالوا له :

« كمالك فى دينك فإن ظهرت حجبتنا عليك دخلت فى ديننا ، وإن ظهرت
حجبتك علينا دخلنا فى دينك . فوافق على ما قالوا فبدأوا يسألونه ويحجب :

« ألسنت تزعم أن لك إلها ؟ قال : بلى . قالوا : فهل رأيت إلهك ؟
قال : لا . قالوا : هل سمعت كلامه ؟ قال : لا . قالوا : أشممت رائحته ؟
قال : لا . قالوا : هل وجدت له حساً ؟ قال : لا . قالوا : هل وجدت له مجساً ؟
قال : لا . قالوا : فما يدريك أنه إله ؟

فقال لهم جهم : ألسنت تزعمون أن فيهكم روحاً ؟ قالوا : بلى . قال : هل
رأيتموه ؟ قالوا : لا . قال : هل سمعتم كلامه ؟ قالوا : لا . قال : هل وجدتم له
حساً أو مجساً ؟ قالوا : لا .

قال فكذلك الله . لا يرى له وجه ، ولا يسمع له صوت ، ولا تشم له
رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، ولا يكون فى مكان دون مكان ، (٢٩) .

كيف انتصر عليهم جهم ؟

جهم فى هذه المناظرة هو المنتصر . ولكن ما المنهج الذى استخدمه معهم ؟
واضح أن منهجه الإستدلالى - هنا - عقلى . وطرق العقل فى الإستدلال
والمناظرة كثيرة . منها ما يسمى بـ : الإستدلال القياسى ، أو القياس
الإستدلالى ، وهو الذى استخدمه جهم مع مناظريه الهندوس

وقبل أن نصل إلى ما نريد قوله - هنا - نقول إن عملية عقلية فكرية دارت خيوطها في عقل جهم قبل أن يتسلم زمام المناظرة منهم .

• فجهم علم أن القوم ينكرون وجود الله .

• وأن سبب الإنكار - عندهم - أن الله سبحانه - لم يقع تحت حاسة من الحواس الخمس كما وضح هذا من سؤالهم .

• فاقرب جهم على هذا أن يبحث - وفي سرعة - عن شيء لم يقع تحت الحس والقوم به مؤمنون .

• فوقع عقله على : الروح ، التي بها القوم وغير القوم أحياء .

• وأدرك أن : الروح ، لا ترى ولا تشم لها رائحة ، ولا يسمع لها صوت ، ولا تحس ، ولا تذوق .

• وما دام الروح بهذه المثابة والمناظرون مؤمنون بها فهي إذن طريق لإلزام الخهم بوجود الله .

ولا يقدر في وجوده أنه لم يقع تحت حاسة ، كالم يقدر في وجود الروح أنها لم تقع تحت حاسة .

هذه هي خيوط العملية الفكرية العقلية التي جرت في صمت في نفس جهم . فلما فرغ القوم مما عندهم وما رتبوه على مقدمات استللا لهم ، بدأ جهم يحاورهم على نفس المنهج والطريقة . فلما أقروا له بما أراد قال لهم : فكذلك الله ... إنه موجود ولا يقدر في وجوده ما ذكروه من قضايا سلبية .

هذا هو القياس الاستدلالي ، فقد قاس جهم فيه منكرأ على معترف به مع اشتراك الأمرين في الخصائص : المعترف به هو الروح ، والمنكر هو الله ، والمناظرون ما داموا مؤمنين بالروح مع أن ما يقال عن الله من حيث هدم وقوعه تحت الحس ، يقال فيه : فلا عذر لهم في عدم الإيمان بالله ، وهذا هو المطلوب . فرحم الله جهما ورحم معه أصحاب العقول المستنيرة .

العقل الذي يقدره الإسلام :

ومع أن الإسلام قد رفع من شأن العقل ، وجعله مناط المسؤولية والتكليف ودعا لإعماله في عوالم المعاني ، وحوالك المشكلات ، فإنه يحيط هذا العقل بضمانات وضوابط ، لأن للعقل جوارح وشطحات قد تؤدي إن الممالك . ولذلك فإن الإسلام يقدر العقل المهنّب ، لا كل عقل . والعقل المهنّب هو العقل الذي يعتصم بالوحي . ويسترشد بما أنزل الله ، وبما قرره رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وبالنظر إلى هذه القضية انقسم مفكرو الأمة قسمين كبيرين : أحدهما يقدم دلالة النصوص على دلالة العقول إذا حدث تعارض في الظاهر ، وهم أهل السنة والجماعة . وأشد منهم تمسكا بالنصوص أهل الظاهر أو الظاهرية .

والثاني : يقدم دلالة العقل على دلالة النص . ولكنه لا يهمل النص كل الإهمال بل يلجأ إلى التأويل ليوفق بينهما . وهؤلاء هم المعتزلة . وما أكثر القصايا التي تمايلت فيها آراء الفريقين تبعاً لاختلاف النهج . فالمعتزلة - مثلاً - يذهبون إلى أن العقل - وحده - بدون معونة الوحي كاف في معرفة الله . وهذه مباغلة منهم في تقدير العقل وسمو منزلته .

ولما حججهم أهل السنة والجماعة بأن الله يقول : « وما كنا معدين حتى نبعث رسولا » ، لم يقف المعتزلة مكتوفي الأيدي أمام هذا الاحتجاج القوي بل لجأوا إلى صرف اللفظ عن ظاهره وقالوا : إن المراد بالرسول - هنا - هو « العقل » ، ١٢ .

وأهل السنة لم يلغوا العقل تماماً ، بل هم يقدرُون العقل كل التقدير ومباحثهم العقلية تحل عن الوصف ، وتستعص على التصوير ، ولهم مثل المعتزلة تأويلات عقلية في كثير من النصوص ، ولكن دون الحد الذي بلغه المعتزلة في هذا المجال .

وقد وضعوا مناهج في البحث العقلي كان لها أكبر الأثر في تطوير البحث الفلسفي العقلي في أوروبا وفي غيرها. وقد سبقوا بمناهجهم العقلية عباقرة أوروبا ، وأثروا في اتجاهاتهم وتسكويين مسكناتهم العقلية بما لا يدع مجالاً للشك (٣٠).

إن العقل الذي يقدره الإسلام هو العقل المذهب الذي يعترف بقدرته المحدودة على المعرفة . لا كما يرى رواد عصر التنوير الأوروبي أن العقل مستقل بالقدرة المطلقة على المعرفة .

والصحيح من هذين المذهبين ، والذي يؤيده الواقع المحسوس هو المذهب الإسلامي . إذ لو كان العقل مستقلاً بالمعرفة لما اختلف ذوو العقول في كثير من القضايا ، فيقول عقل برأى . ويقول عقل آخر برأى يضاده أو يناقضه والسر في اختلاف المذاهب الفلسفية وتعددتها إنما هو قصور العقل عن الإحاطة التامة بحقائق الأشياء .

فمثلاً اختلف العقلاء حول الإلزام الخلقى ما هو مصدره ؟ فالناس في أى مجتمع يلتزمون بأخلاق معينة . كما ارتداء الملابس مثلاً ، والتستر عند قضاء الحاجة . والإستئذان عند دخول الأماكن الخاصة ، وعند الإنصراف منها .

تساءل العقلاء ما هو مصدر هذا الإلزام ؟

• وفريق قال : إن مصدره هو الدين ؟

• وفريق قال : إن مصدره هو القانون ؟

• وفريق قال : إن مصدره هو العرف والعادة والتقليد ؟

• وفريق قال : إن مصدره هو الضمير ، ؟

(٣٠) انظر البحث القيم : « منهج البحث العلمى عند العرب » للدكتور جلال محمد موسى .

وفريق قال : إن مصدره هو العقل ، ؟

فهذه مصادر خمسة قال بكل مصدر منها فريق من ذوى العقول من قديم الزمن ، وما تزال المشكلة خاضعة للبحث ولاختلاف الراى حولها إلى الآن . فلو كان للعقل القدرة المطلقة على تحصيل المعرفة لأجمع العقلاء على رأى واحد ، ولكن هيهات هيهات .

ونخلص من هذا كله إلى :

أولاً : الإسلام لا يعادى العقل وإنما يقدر شأنه ويدعو إلى إعماله ويجهله سناط المسؤولية والتكليف .

ثانياً : ليس للعقل القدرة المطلقة . على المعرفة . وعليه - ليأمن الخطأ - أى يعتصم بالوحى .

ثالثاً : أن الكنيسة أخطأت حين اعتدت على حرمة العقل ومصادرت سلطانته وحرمتته من أداء رسالة . وأن عقلاء عصر التنوير أخطأوا عندما غالوا فى قيمة العقل ، وهما خطآن متكافئان كل منهما أوقع صاحبه فى المحذور .

ولو كانت الكنيسة فى إبان عظمتها تلك انتهجت منهج الإسلام إزاء العقل لأصلحت نفسها من داخلها ، ولا ستأثرت بولاء الناس لها ولأن يقوم على الوعى وحسن الإدراك . ولما تمرد عليها العقليون ولا غير العقليين . ولكنها جمدت على فكرها وعقائدها فتحركت كل القرى ضدها . وكان ما كان وما أبشع ما كان .

موقف الإسلام من العلم ووسائل المعرفة :

فى الوقفة الإسلامية الناقدة أوضحنا أن الإسلام لا يعادى العقل ، بل يقدره ويرفع من شأنه ، فالإسلام دين العقل ، ولا يخاطب إلا العقلاء ، ويوم يفقد إنسان ما عقله فإن الإسلام يرفع عنه التكليف كلية ، لأن الله

إذا أخذ ما وهب رفع ما أوجب كما يقول الأصوليون . والعقل هبة الله للإنسان وبه ، وبما أيا أخرى فضله على كثير من خلق .

ومنزلة العلم في الإسلام كمنزلة العقل فيه ، فلا يضيق الإسلام بالعلم ولا بالعلماء كما لم يضق بالعقل ولا بالعقلاء . ومن يتصور أن الإسلام يضيق بالعقل أو العلم ، أو يعادى واحداً منهما فقد جهل حقيقة الإسلام ، وأقنى بغير علم .

ولا فرق في الإسلام بين علم وعلم ، فبكل المعارف والعلوم يتلقاها الإسلام بسعة صدر ، ورحابة أفق . وليست هذه وحدها هي علاقة الإسلام بالعلم والعلماء . بل إن الإسلام يستنهض كل همم العلماء ويلفت أنظارهم نحو ملكوت الله أرضاً وسماً وفضاء وما يتصل بكل مظاهر الـكون وأسراره وأهـاجيبه .

وليس في الوجود كتاب دعا إلى العلوم والمعارف ، وأشاد بفضل العلم والعلماء كما دعا القرآن الحكيم وأشاد .

وما يجب لفت الأنظار إليه أن أول جملة ابتدأ بها القرآن نزوله هي دعوة صريحة إلى تحصيل العلوم والمعارف ، وهي قوله تعالى :

« إقرأ . . » والقراءة مفتاح العلوم في كل عصر ومصر ، ولم تخل أمة من الحضارة قديماً ولا حديثاً إلا ولها نظام في فن الكتابة والقراءة . وعن طريق تسجيل تلك الحضارات وقفت الأمم اللاحقة على حضارات الأمم الغابرة .

وإن كانت القراءة هي أهم مفاتيح العلوم فإن قوله تعالى : باسم ربك الأعلى ، بعد قوله : « إقرأ » ، يعتبر تقييداً ووصفاً للعلم الذي يبحث عليه الإسلام ويفضله ويفضل المحققين له . فالقراءة التي تكون باسم الله هي القراءة المشمعة النافعة ، لبني الإنسان ولكل كائن . وكذلك العلوم المرموز لها بالأمر بالقراءة .

أى أن الإسلام يوظف العلم لخدمة الحياة لا لتدمير الحياة ، لسمادة الأحياء لا لشقائهم ، الإضافات الحسنة لا لبث المخاوف والقلق .

ودعوة القرآن إلى العلم لا يحصرها المقام هنا ، ولكننا نكتفى منها بما يوضح المراد .

وأسمى قيمة ، وأعلى غاية في هذه الحياة أن يخشى الإنسان ربه وخالفه وهذه الغاية النبيلة يجعلها الله وقفنا على العلماء فيقول :
« إنما يخشى الله من عباده العلماء . » (٣١) .

وفي نفي المساواة بين العلماء والجهلاء يقول :
« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣٢) .
ومن الأدعية التي علمناها القرآن قول الحق سبحانه :
« وقل رب زدني علما » (٣٣) .

وينص على أن ما في السكون من أسرار لا يقف على كنهها إلا ذوو العلم فيقول :

« ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف السنت-كروالوان-كم
إن في ذلك لآيات للعالمين » (٣٤) .

هذا . ولإني لا أكاد أجزم بأن في القرآن العظيم دعوات لكل نوع من أنواع العلوم النظرية والعملية .

فثلا هذه الآيات المذكورة قبل هذا مباشرة فيها إشارات إلى نوعين من أنواع العلوم وهما :

-
- | | |
|------------------|-------------------|
| (٣١) فاطر (٢٨) . | (٣٢) الزمر (٩) . |
| (٣٣) طه (١١٤) . | (٣٤) الروم (٢٢) . |

الجيولوجيا . ثم الدراسات الإنسانية :

وقوله تعالى : سنريهم آياتنا في الآفاق ... فيه إشارة إلى علوم الفضاء
والسكون .

وقوله تعالى : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا
إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، (٢٥) .
فيه إشارة إلى علمي الاجتماع والنفس :

وقوله تعالى : وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم
مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون، (٣٦) .
فيه إشارة إلى علوم الفلك .

وقوله تعالى : وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً ،
وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من
فضله ...، (٣٧) .

فيه إشارة إلى علوم البحار .

وقوله تعالى : وفلينظر الإنسان إلى طاهاه ، أنا صببنا الماء صبا ،
ثم شققنا الأرض شققا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلًا
وحداثق غلبا . وفاكهة وأبا ، متاهًا لكم ولأنعامكم، (٣٨) .
فيه إشارات قوية إلى علم الأحياء والنبات .

-
- | | |
|----------------------|---------------------|
| • (٣٦) للنحل (١٢) . | • (٣٥) الروم (٢١) . |
| • (٣٨) عبس (٢٤-٣٢) . | • (٢٧) للنحل (١٤) . |

وقوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، وتعلموا عدد السنين والحساب ، (٣٩) .
فيه إشارة إلى علوم الرياضة .

وقوله تعالى : « فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، (٤٠) .

فيه إشارة إلى علم الأجنة .

وقوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، (٤١) .

فيه إشارة إلى علمى التاريخ الانسانى والآثار الحضارية .

وقوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركا ، متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا ، (٤٢) .
فيه إشارة إلى علم المناظرة والجدل الإقناعى :

وهكذا لو تتبعنا آيات القرآن الكريم لاستخرجت منه إشارات ذكية إلى أصول العلوم والمعارف وفروعها ، وما من آية سقناها دليلا على علم من العلوم إلا ولها نظائر يتعذر رصدها - هنا - فالإسلام هو دين العلم كما كان دين العقل .

وإذا كان الإسلام يقدر العقل المهذب المعصوم بالوحي ، دون العقل

(٣٩) الإسراء (١٢) . (٤٠) الحج (٥) .

(٤١) الروم (٩) . (٤٢) الزمر (٣٠) .

الجاحش المشتط . فإنه كذلك يقدر العلم المهذب الذي يسخر لخدمة الحياة
ويصيف إليها إضافات حسنة ، دون العلم الذي يغتر به صاحبه ويوجهه
وجهة منحرفة .

فالفارق بين الإسلام في نظاره إلى العلم وبين الكنيسة في عداتها للعالم فرق
كبير . ولو كان الإسلام هو الذي واجه ما واجهته الكنيسة في الغرب
في أيام محنتها لما حدث شيء مما حدث أمام الكنيسة ؛ لأن الإسلام يحتضن
العلم ، ويغنى موارده ولا يضيق به كما ضاقت به الكنيسة . والكنيسة إنما
ضاقت بالعقل ، وضاقت بالعلم ؛ لأنها كان لديها . أو كل ما كان لديها كانت
تخشى عليه من العقل والعلم معاً . .

كان لديها من العقائد ورسوم العبادات ما تخشى عليه من العقل
فعادت العقل .

وكان لديها من المعارف عن بعض ظواهر الكون ما تخشى عليه من العلم
فعادت العلم .

أما الإسلام فلم يكن لديه ولا يكون لديه من العقائد والمعارف ما يخشى
عليه من العقل والعلم .

ولذلك كان الإسلام سيمتصر على ما انهزمت أمامه الكنيسة في أيام
محنتها المؤسفة .

فالنظريات العلمية التي توصل إليها برونو وجاليليو، ونيوتن وهزرت كيان
الكنيسة ، وزلزلت عرشها لمحيثها مخالفة للفكر والاعتقاد الكنسي ، تلك
النظريات يرحب بها الإسلام ويستقبلها فاتحاً لها ذراعيه ولسان خاله يقول :
مرحى مرحى بالعلم الصحيح لدى الدين الصحيح .

وعما يسجل لعلماء الإسلام بحروف من ذهب على رق من الفضة ان

ما أنكرته الكنيسة من كروية الأرض ودورانها حول الشمس قد قال به علماء المسلمين منذ عهد بعيد .

وهذا هو أبو الريحان البيروني (٢٥١ - ٥٤٠ هـ) - (٩٦٥ - ١٠٤٨ م)
يقرر في وضوح .

١ - أن الأرض كروية وليست مستوية السطح .

٢ - أن الأرض متحركة ، وليست ثابتة .

٣ - أن الجاذبية التي في الأرض هي التي تمسك من عليها .

ويستدل البيروني على كروية الأرض بدليلين :

الاول : أن أعلى الجبال تظهر للعين إذا سار الناظر نحوها ، ثم تظهر أسافلها شيئاً فشيئاً كلما اقترب منها الناظر . ومثل الجبال سوارى السفن والمراكب .

الثاني : أن القائم في محل منكشف الأفق ليس فيه شيء يمنع النظر إلى جميع الجهات يرى الأرض دائماً على شكل مستدير الحدود . ومن المعلوم أن الكرة هي الجسم الذي يرى على شكل مستدير من أى جهة نظرت إليه ،^(٤٣) .
أما إشارة البيروني لقانون حركة الأرض فيقول فيه : « إن الأرض متحركة حركة الرمح على محورها » ،^(٤٤) .

وهذا كلام علمي - كما ترى - يسبق به البيروني علماء أوروبا بأكثر من خمسة قرون .

• ويشير البيروني إلى قانون الجاذبية الذي اكتشفه إسحق نيوتن في القرن السابع عشر فيقول :

(٤٣) انظر : القرآن والمنهج العلمي المعاصر (١٤٨) .

(٤٤) نفس المصدر والموضع .

د لا محالة أن الخلاء الذى فى بطن الأرض هو الذى يمسك الناس
حواليها ، (٤٥) .

قف مليا أمام قوله : لا محالة ، تجده يعطيك معنى له وزنه وهو أن البيرونى
لم يقل ما قال على سبيل الظن وإنما قاله متيقنا .

والبيرونى انتهى إلى هذه الحقائق المثيرة فى القرن الرابع الهجرى قبل
عصر العلم الحديث بزمان طويل .

وأعجب من ذلك أن فيلسوف العرب والإسلام الكندي (١٧٥ - ٢٥٢ هـ)
قام قبل البيرونى بعمل تجارب على جاذبية الأرض وإن لم يصل فيها إلى رأى
محدد ، ولكنهما محاولة مبكرة جاءت نتيجة لدعوة القرآن إلى التأمل والتفكير
فى حقائق الكون وسهر ما فيه من خلواهر .

تذكرة لازمة :

والآن يحسن بنا أن نتذكر أن أول امتحان علمى وقع للكشيشة على
أيدى العلماء هو :

١ - القول بكروية الأرض ودورانها حول الشمس . وكانت الكشيشة
تعتقد دوران الشمس حول الأرض .

٢ - قانون الجاذبية . ولم يكن للكشيشة فيه معتقد ولكن لما قال به
نيوتن رفضته الكشيشة واعتبرته نوعا من الهرطقة وأسنا ندرى لماذا .

وهذان القانونان قد سبق لعلماء الإسلام القول بهما ، ولم ينسكراهما أحد
من علماء الدين ولا من الولاة والسلاطين ؛ لأن الإسلام ربى عقل المسام لقبول
كل علم صحيح ، كما أن عقيدة المسلم ترى فى مثل هذه الحقائق غذاء روحيا بعمق
الإيمان بآفته ويكشف عما فى الكون من دقائق وأسرار تدل على الجلال ، وتجلى
مظاهر قدرته ، وبدائع صنعته ، لأن العلم - فى الإسلام - دعامة من أقوى
دعائم الإيمان .

الملاحظة والتجربة :

رأينا - فيما تقدم - أن الوضعيه التي أرسى قواعدها أو جسست كونت كانت تقوم فلسفتها على مدركات الحواس ، والحواس تعطى ثمارها في الحصول على المعرفة بالملاحظة والتجربة .

وهذا ما كانت ترفضه الكنيسة وتنفر منه ، وكان موقفها هذا واحدا من أهم العوامل التي تضافرت على عزلها وتقليص ظلها وتمرد الناس عليها .

ونسأل الآن سؤالا :

ما هو موقف الإسلام من الوضعيه وملاحظاتها وتجاربها ؟ أيرفضها كما رفضت الكنيسة ؟ أم له تقدير آخر فيها ؟

والجواب : إن الإسلام لا يرفض الملاحظة والتجربة باعتبارهما وسيلة من وسائل المعرفة . وإنما يرفض ما انتهى إليه الوضعيون من أن الملاحظة والتجربة الحسية هي طريق المعرفة الوحيد ؟

كما يرفض ما انتهى إليه الوضعيون من إنكار ما ليس مدركا عن طريق واحدة من الحواس الخمس .

هذا هو ما يرفضه الإسلام . أما التجارب والملاحظات باعتبارهما منهجا من مناهج تحصيل المعارف والعلوم . فهذا مقبول في الإسلام ، ومقرر في مصادره الأولى ، وفي مباحث علمائه منذ بدء تدوين العلوم والفنون وإلى الآن ورود الملاحظة والتجربة في القرآن الكريم .

فن أمثلة استخدام الملاحظة والتجربة كوسيلة علمية في القرآن الكريم قول الحق تبارك وتعالى :

« الذي خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت .

فارجع البصر : هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، (٤٦) .

في الآية الأولى ملاحظة كاملة المتكويين :

ففيها الباعث على إجرائها ، وهو تبين هل في خلق الرحمن فطور أو عيب .

وفيها التوجيه إلى كيفية إجرائها : فارجع البصر .

وفيها التوجيه بكيفية رصد النتيجة : فهل ترى من فطور ؟

وفي الآية الثانية كيفية تمحيص العلم : ثم ارجع البصر كرتين .

هذا هو منهج التصميم للملاحظة على المنهج الاستقرائي الذي يحدد فيه

الفرض أولاً ثم يستقرأ ، موضوعه ، لإثبات صحة الفرض أو نفيه . ولكن

الفرض - دنا - مثبت كما ترى .

وفي الآيات الآتية :

• أقلاً ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، ؟

• وإلى السماء كيف رفعت ، ؟

• وإلى الجبال كيف نصبت ، ؟

• وإلى الأرض كيف سطحت ، ؟

أربع ملاحظات جاءت على منهج استدلالى غير المنهج الاستقرائى

الذى جاءت عليه الملاحظة الفطرية السابقة .

ففي الآية الأولى : دعوة لملاحظة كيفية خلق الإبل ،

وفي الثانية : دعوة لملاحظة كيفية رفع السماء .

وفي الثالثة : دعوة لملاحظة نصب الجبال .

وفي الرابعة : دعوة لملاحظة تسطيح الأرض

وكم في الآيات الأربع من المواعظ والعبر التي لا تنكشف إلا مع التأمل والتدبر ، والقرآن يدعو إلى هذه الملاحظات لأنها دلائل صدق على ماله من قدرة لا تعجز ، وحكمة لا تخطئ ، وإرادة لا تقهر .

ومنهج البحث - هنا - استدلالى استنباطى . لأن العقل ينتهى من التأمل والنظر إلى نتيجة من نتائج الإيمان ، هى أن وراء هذه المقدورات قادراً ، ووراء هذه المحكمات حكيماً ، ووراء هذه المرادات مريداً .

آثرنا أن نطلق على النماذج السابقة : ملاحظات ؛ لأن ظاهر القرآن في السياق والصياغة يتبادر منه أن المراد الملاحظة الفكرية العقلية التي يكفي فيها النظر المتأمل في ظواهر المادة الملائوت النظر لإيها . ولم نسمها تجارب ؛ لأننا أردنا أن نفرق بين الملاحظة والتجربة :

بأن الملاحظة هى المراقبة والتأمل الفكرى العقلى :

أما التجربة فهى ما نفتن فيها العمل بالتفكير والتأمل : فهى أخص من الملاحظة فكل تجربة فيها ملاحظة . وليس كل ملاحظة فيها تجربة .

وفي القرآن من التجارب - بهذا المعنى - ما لا ينازعنا فيه منازع . ومن أبرز التجارب في القرآن الحكيم . ما وقع لإبراهيم عليه السلام حين طلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى .

فأمره الله أن يأخذ أربعة أنواع من الطير ، ويذبحهن ويقطعن قطعاً قطعاً . ثم يوزع كل قطعه على جبل ، ثم يدعوهن . ففعل إبراهيم عليه السلام . ثم دعاهن فرأهن قد أتين نحوه سعيماً ، وكانهن لم يذبحن ولم يقطن . فهذه تجربة من أروع التجارب ففيها عمل : وهو ذبح إبراهيم الطير وتقطيعهن وتوزيعهن على الجبال ودعوتهن إليه وفيها : ملاحظة . وهى تأمل إبراهيم عليه السلام - بعد القيام بالتجربة ، وقد عاين عليه السلام كيفية الأحياء .

وقد انتهى به هذا التأمل (الملاحظة في أعقاب التجربة) إلى الإيمان اليقيني العملي بعد الإيمان الخبري النظري .

اقرأ معي قول الحق :

« وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن أطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك . ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً . ثم ادعهم يأتينك سعيًا . واعلم أن الله عزيز حكيم ، (٤٧) » .

هذه التجربة التامة التصميم ، القرآن هو الذي فتلى خيوطها . ثم نسجها هذا النسج المحكم المرتب العناصر تركيباً بديعاً . وإحكام تصميمها هو الذي أحكم مطلوبها فاطمأن قلب إبراهيم . لأن الخبر ليس كالعيان ..

قياس العلة :

لستخدم القرآن الحكيم الملاحظة والتجربة ؛ لأنهما وسيلتان من وسائل حصول العلم والمعرفة . ولها في مناهج البحث والاستدلال دور عظيم . واستخدم - كذلك - ما يسمى عند علماء النظر والبحث - فلاسفة وغير فلاسفة - بـ قياس العلة : وهو أن يعطى مجهول حكم معلوم لاشتراكهما في علة الحكم . ومن ذلك لإفهام القرآن المنسكبي البحث بعد الموت والبلى ، فقد جاء أحدهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ومعه رماد عظام بالية كان قد حرقها ، ثم ذراها في الهواء فصارت هباء منثوراً ، ثم قال لصاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - :

« أحيي هذه الله بعد موتها ، ١٩ يريد أن يحقق بهذه المقولة انتصاراً للكفر على الإيمان .

فساق القرآن هذه الدعوى مع الرد عليها :

« وضرب لنا مثلاً - ونسى خلقه - قال : من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » (٤٨) .

الكافر استبعد أن يكون لإحياء العظام بعد بلاها فاعل ، يريد أن هذا نفي قدرة الله على الإحياء . هذه شبهته يصورها القرآن بكل أمانة ثم يبطلها باستخدام قياس العلة .

والعلة - هنا - أن الله هو الذى أنشأها أول مرة ولم يكن لها وجود على أية صورة من الصور . فكيف يعجز عن إعادة إنشائها مرة ثانية وقد كان لها وجود على صورة من الصور ١٩ .

إن العقل لا ينازع فى الإعادة بعد ثبوت الإنشاء السابق ، ولو أن مهندساً شاد قهراً كان آية فى فن العمارة . ثم تهدم القصر فلن ينكر عليه عقل هائل إذا قال : إننى سأعيد بناءه على ما كان عليه قبل التهدم وقته - سبحانه - المثل الأعلى .

ولا استخدام قياس العلة صور أخرى فى القرآن لا نستطيع - هنا - استقراءها . وفيما ذكرناه دليل على ما لم نذكره .

وقياس الشبه :

قياس الشبه قسم قياس العلة فى أن كلا منهما يؤدي إلى الافتناع ، ويقطع بذور الشك ، ويمهد لليقين .

وقد استخدم القرآن قياس الشبه كما استخدم قياس العلة فى معرض الجدل مع منكري حقائق الإيمان . وبخاصة مع منكري البعث والمشركون مع الله آلهة أخرى .

وقياس الشبه أن يحمل المناظر أمراً مشكوكاً فيه أو منكرأ على آخر مسلم به عند الخلق شبيه واقع بينهما .

ومن ذلك في القرآن العظيم في الرد على منكري البعث :

« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير » (٤٩) .
قال الإمام جاء الله الرخشري : « إلا كخلقها وبعثها . أى سواء في قدرته القليل والكثير والواحد والجمع لا يتفاوت ... » (٥٠) .

ومؤدى هذا القياس كما نفهمه :

• تشبيه خلق جميع الخلق وبعثهم بالإمكان العقلي وإن كان واجبا من حيث ورود الخبر به .

• تشبيه خلق الكثرة وبعثها بخلق القلة وبعثها فى اليسر والسهولة .

ومؤدى هذا كله تصوير لإمكان البعث ويسره وسمولته بقياس ما تعلق بالكثرة على ما تعلق بالقلة .

وهذا هو قياس الشبه . ومنه قوله تعالى :

« كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدأ علينا إنا كنا فاعلين » (٥١) .

شبه الإعادة المتنازع فيها بالبده المتقين به ليخرج المتنازع فيه مخرج المتقين به ، وهو المطلوب .

يقول صاحب الكشاف : « والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيها للإعادة بالإبتداء » (٥٢) .

أبى نعيد الخلق الأول لكل من كان حيا فمات خلقا ثانيا . يعنى :
البعث ..

(٥٠) النمل (١٠٤) .

(٥٢) الكشاف .

(٤٩) لقمان (٢٨)

(٥١) الكشاف .

إن القرآن الحكيم حين استخدم وسائل المعرفة والإقناع أخرجها في صور فطرية بديعة ، يسرى معناها إلى النفس في يسر وسهولة ويخاطب العامة بخطاب الخاصة فلا يرى العايم أن القصد مستغلق عليه ، ولا يرى الخاص أن البيان ليس مسدودا إليه . وتلك سمة ، من سمات الإعجاز في القرآن ، وخاصة فريدة من خواصه البيانية . يغلف المعاني ، وإن كانت أحكاما تقريرية ، بما يمتع المشاعر ، ويمز الوجدانات ، ويقنع العقول .

والحواس التي وجد الوضعيون عندها طلبتهم ، وانتهى إليها مساهمهم يستثمرها القرآن ، ويجلي أمامها الحقائق ، فتلمسها عن قرب ، ثم ترسل أشعتها أو إشارتها إلى العقل فيؤاف بينها ويصقلها ، ويخرج منها زبدتها فيحصل العلم ، وتمثل المعرفة . فالعقل لا يقبل تلك الأشعة على صورتها الفجة وإنما يحللها ويمزجها ويوصل إلى المقصود منها . وبعد أن ينتهي من التصفية والتنقية ، يصوغ القرار والحكم يكون الإيمان ويكون التصديق .

فالعقل ، والعلم ، والإيمان أسرة مؤلفة في الإسلام . لا يعادى واحد منها الآخر .

فليس الإسلام مع العقلاء في قصر المعرفة على العقل ، وليس معهم في اعتقاد المجافاة بين العقل والإيمان .

وليس القرآن مع الوضعيين الماديين في قصرهم المعرفة على الحواس ، وليس معهم فيما تبوه على هذه النظرة المخدوعة المخادعة من إنكار ما وراء الحس من حقائق ، ووضع جفوة بين العلم والإيمان .

ولنما القرآن مع منهجه الكامل المتكامل الذي يستثمر كل وسائل الإدراك في الوصول إلى الإيمان بالحقائق ، والتصديق بما جاء عن لسان رسله ، مصوغا عن التحريف ، بعيدا عن التبديل .

ولما كان هذا هو موقف الإسلام من العقل ، والعلم والربط بينهما وبين حقائق الإيمان كان تاريخ علماء الإسلام حافلا - في مجال البحث العلمي والعقلي - بكل عجيب وكانوا - بحق خير أمة أخرجت للناس .

العلم : أو الملاحظة والتجربة والاستقراء عن العلماء الإسلاميين :

استنهض الإسلام همم العلماء ، ورفع شأن العلم ، ووجه الأنظار إليه فنبغ من المسلمين أعلام في مجال العلم التجريبي ، وصار بعضهم أساتذة لرواد النهضة في أوروبا ، وسبقوهم في هذا الميدان ، ومهدوا لهم الطريق فيما وصلوا إليه .

ومن طريق ما يروى في هذا المجال أن حملة لواء العلم التجريبي الأوائل من المسلمين كانوا إذا أرادوا إنشاء مصحة (مستشفى) أجروا تجارب على الأماكن التي يريدون إنشاء المصحة فيها . فكانوا يأخذون شرائح من اللحم النيء . ويضعون في كل مكان مقترح قطعة من اللحم معلقة على حامل .

ثم يعودون بعد مدة يقدرونها لينظروا في شرائح اللحم المعلقة . فإذا وجدوا نسبة التعفن في مكان أعلى من نسبته في مكان آخر ، اختاروا المكان الذي تقل نسبة التعفن فيه ، لأنه أصح الأماكن للإستشفاء لقلة الميكروبات فيه (٥٣) .

فهذه تجربة وملاحظة ذات قيمة في الاختبار وتحصيل المعرفة كانت ثمرة طيبة للعقل المستنير الذي صقله الإسلام .

ومما يروى كذلك أن أول عملية جراحية دقيقة أجراها علماء الأندلس المسلمين ، كانت فتح مثانة لإخراج حصاة منها (٥٤) .

(٥٣) انظر : أثر الإسلام في الحضارة الأوربية للأستاذ العقاد ، ط دار المعارف .

(٥٤) نفس المصدر .

نماذج من بحوثهم :

جابر بن حيان : (٥١٦١ - ٧٧٨م) في هذا الزمن المبكر نبغ جابر بن حيان في علوم البحث والاستدلال حتى عد د إمام التجريبيين ، والارويون وصفوه بأفقه ، أول كيميائي في التاريخ .

وبما يؤثر عنه أنه كان يرى أن د في التجربة كمال العلم ، ويريك دقته في البحث قوله في وصف كتبه :

د إذا ثبت في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط . دون ماسمعه أو قيل لنا أو قرأناه ، بعد أن إمتحناه وجريناه .
فهو لا يعتمد المعارف السائدة أو التي يقرأها أو يقال له إلا بعد التجربة والاختبار .

والعالم عنده هو الدرب المجرب ، وفي ذلك يقول : د من كان دربا كان عالما ومن لم يكن دربا لم يكن عالما .

وهو أول من أعلن أن لكل تجربة د تصميم متكامل ، يبدأ بتحديد الغرض منها ، واتخاذ الأساليب الموصلة إليه مع تجنب المستحيل عقلا ، واختيار الوقت المناسب لإجرائها مع التحلي بالصبر والحفظ وعدم الاغترار بالظواهر (٥٥) .

ه الخوارزمي : (٨٢٥ = ٨٥٠ م) من مؤلفاته د العالمية ، : كتاب الجبر والمقابلة وقد ترجم إلى عدة لغات ، وعن طريقة عرفى أوروبا علم د الجبر ، وقد أجاد المؤرخ دراير حين نسب اكتشاف علم الجبر إلى المنهج الإسلامى في المشاهدة والتجربة .

والخوارزمي هو واضع د اللوغاريتم ، وإليه يرجع الفضل في شهرة الكسور العشرية وموضع الصفر فى الجمل الحسابية .

(٥٥) القرآن والمنهج العلمى المعاصر (١٣٠) مصدر سبق ذكره .

هـ الكندى فيلسوف العرب : (١٧٥ هـ = ٨٠١ م) ولادة . من علماء الإسلام نبغ في الهندسة والطبيعة ، واستخدم الفرجار في رسم الزوايا الهندسية ، وأجرى تجارب على جاذبية الأرض . وله مؤلفات في الفلك وعلم الهيئة وتأثير الكواكب على الأرض ، وكان يرى أن كل ما في العالم من الأجرام كروى الشكل . وله مؤلفات في الكيمياء والموسيقى . وبصفه العالم الإيطالى كاردانو (١٥٧٦) أنه واحد من اثني عشر عبقرياً ظهروا في العالم .

• أبو بكر الرازي : (٢٤٠ هـ = ٨٦٤ م) ولادة : اشتغل بالكيمياء والطب وكان له اهتمام بتشريح الجسم لمعرفة أسرار هـ . وكان يفحص المرضى فحصاً دقيقاً وهم على أسرة المرض . وقد أحصى له بعض المستشرقين ٣٥ تجربة سريرية وكان أول من استعمل الخيوط المصنوعة من جلود الحيوانات في خياطة الجروح .

هـ المسعودى : (٣٢٦ هـ = ٩٥٦ م) وفاة . عالم فلكى وجيولوجى ومؤرخ وجغرافى أخذ يحوب الممالك يؤرخ لها ويطلع ويدون مشاهداته ، ومن أبرز مؤلفاته دروج الذهب ومعادن الجوهر ، ثلاثة أجزاء فيه علم غريب وعطاء وفير وله كتاب في علم الفلك : التنبيه والإشراف .

وهو أول من أثبت العلاقة بين البيئة والإنسان والاقتصاد . وما يفخر به المسلم المعاصر أن المسعودى أثبت علاقة بين ظاهرة المد والجزر وضوء القمر .

وقد حدثني بعض أهل العلم وكنا على شاطئ البحر الأبيض ونحن نشاهد تلاطم أمواجه العالية ، والجو خال من الرياح تماماً فدهشت لمياج البحر دون أن تثيره الرياح العاتية . فقال لى صاحبى العالم : لا تعجب . فإن هناك علاقة وطيدة بين هذه الظاهرة وبين أشعة القمر حتى ولو لم يكن مرتباً

لنا الآن (كانت الساعة الثانية بعد الظهر) فتذكرت ملاحظة المسمودية هذه وكانت تجربة عملية أشهد بها .

لهذا فإن بعض علماء الفريجة يرفضون أن يقارن المسمودى بغيره من العلماء الأقدمين .

• الحسن بن الهيثم : (٣٥٤ - ٤٣٠ هـ) القرن الحادى عشر الميلادى من المعلوم أن الحسن بن الهيثم هو أول من أشار بعمل خزان على النيل عتمد أسوان ، ولكنه لم يتم تصعوبة تكاليفه كما يرى بعض الكائمين . وقد اشتهر الحسن بأنه مكتشف علم الضوء ، ويقول المستشار عبد الحليم الجندى : أن أوروبا بايعت الحسن بن الهيثم على أنه مكتشف علم الضوء وخطات نظريات إقليدس وبطليموس^(٥٦) من أن العين ترسل أشعة بصرية نحو الجسم المرئى . وأخذت بالقول أن الجسم هو الذى يرسل أشعة إلى العين : وهذا قول الحسن بن الهيثم . ولحسن هذا (٤٧) كتابا فى الرياضيات و (٥٨) كتابا فى الهندسة . افتتح بها علماء أوروبا ، وفى مقدمتهم روجير بيكون .

• ابن سينا : الشيخ الرئيس (٧٣٥ - ٤٣٨ هـ) الحديث عن ابن سينا متشعب كثير الفروع وهو من أنجب من ولدتهم العقيدة الإسلامية . وتعدى الإسلام للبحث العلمى وتحصيل المعارف الكونية .

ومن مؤلفاته القيمة كتاب القانون فى الطب ، الذى يقول فيه وليتم أوائله ، الإنجيل الطبى فى أوروبا لأطول مدة من الزمان ، ١٧٠٠ م بعد أن ترجم إلى اللاتينية بمعرفة جيرار السكريمون ، وطبع باللغات الأوربية أكثر من خمس عشرة مرة فى المدة من ١٤٨٣ إلى ١٥٠٠ م بعد أن اخترع جوتنبرج المطبعة عام ١٤٥٠ م .

(٥٦) أفليدس مهندس إغريقى قديم (قبل الميلاد وبطليموس عالم مصرى اشتغل بعلم الرياضة وله مؤلف فى الفلك وكان يرى الأرض هى مركز السكون حتى ظهرت نظرية كوبرنيق فى القرن السادس عشر الميلادى .

رصد ابن سينا في كتاب « القانون » ٧٦٠ عقار اوزعت على علمى النبات والصيدلة في جامعات أوروبا . ومن كتابه « القانون » عرفت أوروبا أسباب السكته ، وانتشار الحصبة ، وحمى المثانة . كما أوحى كتابه بما هو معروف الآن في المستشفيات بكيس الثلج ، واستخدام التخدير في الجراحات ، وحقن المرضى تحت الجلد . وعلم الأمراض النفسية .

وله كتيب صغير في نشأة : الحروف الهجائية . قام فيه برسم دقيق للحنجرة وأعضاء النطق مبينا عليه مخرج كل حرف من الحروف كما تحدث عن سبب تكوين الحروف حال النطق بها .

كما أشار في تآليفه لعلم الطبقات وعلم الرسومات في الجيولوجيا . . . هذا هو بعض تأثير الإسلام في بعض أبنائه من حب العلم والتعمق فيه . وما ذكرناه لا يعد شيئا بالنسبة لما لم نذكره . مع ملاحظة أننا وقفنا هنا عند رصد الحركة العلمية عند علماء المسلمين عند القرن الخامس الهجري بل عند نصفه الأول .

وأردنا أن نستدل بوضوح على منزلة العلم والعلماء في الإسلام . كما دللنا على منزلة العقل والعقلاء فيه .

وفي هذه الفترة التي رصدنا آثارها العلمية لم تنجب الكنيسة عالما واحداً يماثل أحد العلماء المسلمين .

ولذلك إذا قلنا إن الإسلام لو كان هو السائد في أوروبا بدل الكنيسة في أيام محنتها لما وقع صدام بينه وبين العقل : ولا بينه وبين العلم من أى نوع كان إذا قلنا هذا كنا صادقين بل أكثر من صادقين .

الإسلام من أسباب النهضة :

وبما يدرج الإسلام في تصوير موقفه مما حدث في أوروبا في القرون الوسطى من انحراف وانشقاق أن مبادئ الإسلام وآثاره العملية في الشرق الإسلامي كانت واحداً من أبرز الأسباب الإيجابية في قيام النهضة الأوروبية وامتدادها إلى العصر الحديث .

فقد كانت أوروبا تعيش في ظلام حالك ، وجعل مطبق في تلك العصور قبل صلتها بالشرق الإسلامي . فلما وقعت تلك الصلة في أشكال مختلفة أخذت روح العلم والمعرفة والتبصر بقيم الحياة تدب في أوصال أوروبا التي كانت قد جفت عروقها ، وضعف نبضها ، وتبدلت فيها المشاعر والأحاسيس (٥٧) .

وليست هذه دعوى بلا دليل . وإنما حق قد أدرك بعض أبناء أوروبا المعتدلين أثره فأفصحوا عنه .

ومن مظاهر العلاقات والصلات التي امتدت بين أوروبا وبلاد الإسلام ما يأتي :

- ١ — الحروب الصليبية التي أتاحت لأوروبا أكرم الفرص للتعرف على الحضارة الإسلامية ومحاولة الاقتباس منها عن كثب ومعايشة .
- ٢ — ترجمة مؤلفات العلماء المسلمين في العلوم النظرية والعملية مثل الخوارزمي وابن النفيس والحسن بن الهيثم وابن سينا والفارابي والرازي وغيرهم .
- ٣ — البعث العلمية التي نزحت إلى معاهد العلم الإسلامية في الأندلس والاحتكاك الحضاري والثقافي بينهما وبين جنوب غرب أوروبا وبخاصة فرنسا وإنجلترا .

(٥٧) عد مرة أخرى لقراءة خطاب جورج الثاني إلى الخليفة هشام الثالث في القرن الرابع الهجري من هذا الكتاب .

ع - السياحة المتبادلة بين الشرق والغرب والقوافل التجارية بينهما .

وقد اقتبست أوروبا كثيراً من العلوم والفنون التي ازدهرت أو بدأت
تباشرها على أيدي العلماء والمفكرين والفلاسفة الإسلاميين . وقد أصاب
العقاد حين قال ما معناه في هذا الصدد :

« إن ما نأخذه من أوروبا بعد ازدهال نهضتها الحديثة إنما هو من باب
سداد الديون التي للعرب والمسلمين عليها بما نهلتهم من المعارف والعلوم الإسلامية
قبل أن تعرف أوروبا ما تعرفه الآن » .

وأوروبا - إذن - مدينة للمعارف والعلوم الإسلامية . وما ثارت أوروبا
على الأرضاع الكنسية والاقطاعية فيها إلا بعد أن عرفت حلاوة الحرية
والمساواة والعدل والمعرفة التي كانت تظل الشرق الإسلامي بفضل الإسلام
ومبادئه التي تأخى فيها الدين والعلم والعقل ، واتسقت مع الفطرة الإنسانية
السليمة أيما اتساق .

ومن المستحسن - الآن - أن نوجز مظاهر موقف الإسلام من الأيديولوجية
الصليبية والتي تحلم بأنها قادرة على سياسة العالم وتوجيهه بعد عزل ما عداها ،
وفي المقدمة الإسلام ، في الآتي :

أولاً : أن الإسلام يرفض كل التصورات الكنسية التي أدت إلى الثورة
عليها في الغرب ، لأن تصوراتها فاسدة بكل مقياس ، وبشهادة المنصفين منهم .

ثانياً : إن الإسلام لا يعادى العقل « العاقل » ولا يعادى العلم « العالم » ،
ولأنما يرفض اشتطاط العقل كما يرفض انحراف العلم ، ويوجه كلا من العقل
إذا اشتط ، والعلم إذا انحرف إلى ما فيه خير الإنسانية في الدنيا والآخرة .

ثالثاً : إن مبادئ الإسلام كونت لدى المسلمين ثروات زاخرة من
نتاج العقل ، وثمار العلم ، وحرر الإنسانية من الأوهام ومنحها منزلة رفيعة

في الحياة وموسى بين الناس في الحقوق والواجبات فرقت حياتهم في ظله .
وتعلم منهم الغرب ، واقتبس من حضارتهم وثار لكرامته . واسكنه سرعان
ما تنسكب القصر اط السوى .

قائمة : الأخطاء التي مهدت الطريق للعلمانية :

حفظت ذاكرة التاريخ قائمة من أبرز الأخطاء التي ذاعت في الناس عن
الكنيسة ، وأدت إلى الثورة عندها . وإلى تمهيد الطريق لقيام العلمانية التي
كثرت الحديث عنها في الربع الأخير من هذا القرن العشرين .

وقائمة الأخطاء البارزة نوجزها كل الإيجاز في الآتي :

- ١ - بنوة عيسى عليه السلام لله - سبحانه عما يقولون علواً كبيراً .
- ٢ - التثليث : الأب والابن والروح القدس .
- ٣ - الزعم بأن الثلاثة = واحد . والعلم يقول : $١ + ١ + ١ =$ ثلاثة ١٩
- ٤ - الإستحالة في العشاء الرباني بصيرورة الخبز لحما والخمر دما مع أن
العلم والعقل يمنعان أن يتحول نوع ما إلى نوع آخر مختلف عنه تماماً في
الخصائص والكيفيات . ١٩
- ٥ - إدعاء الكنيسة أن الأرض مركز الكون ، وأثبت العلم أن الشمس
هي مركز الكون ، وخطأ الكنيسة فيما تعتقد .
- ٦ - الخطيئة الموروثة . وقال العقل : ما ذنب أجيال لم تخطئ نفاق
على خطيئته جنحها غير ها ولم تمكن لها وجود حين أخطأ المخطئ .
- ٧ - غضنمة البابوات واحتكارهم لمسائل الدين ومساواة تفسيراتهم
وأقوالهم بنصوص الوحي ومنحهم أنفسهم حق الخروج على تعاليم
الكتاب المقدس .

- ٨ - استخفاف البابوات والسكينة بعقول الناس وإدعائهم أنهم يملكون
غفران خطاياهم ويبيعهم الجنة ، وهم لا يملكونها - بعقود في المزداد العلني .
- ٩ - قول الكنيسة أن بدء حياة الخليقة كانت عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد
وقال العلم أن عمر الكون يقاس بملايين السنين .
- ١٠ - ادعاء الكنيسة أن الأنجيل الأربعة هي كلام السيد المسيح تلقاه
وحيا عن الله ، وقال النقاد والعلماء أنها أعمال بشرية بدليل ما فيها من أخطاء
علمية وعقلية وتاريخية ، والوحى منزله عن الخطأ ١٠٠
- ١١ - اعتقاد الكنيسة بأن الأمراض من خبائث الشياطين ، ويكفي في
علاجها إقامة القديس والمذابح وإحراق البخور . وأثبت العلم أن أسباب
الأمراض ميكروبات وكائنات حية بالغة الدقة والتعقيد وعلاجها يكون
عن بعض المستحضرات الكيميائية ١٠١ .
- ١٢ - ادعاء الكنيسة أن الموت جاء نتيجة للخطيئة الموروثة . ولولا
هذه الخطيئة لما مات الإنسان ولما كان من الخالدين ١٢
- ١٣ - ادعاء الكنيسة أن « الرق والعبودية ، عقاب من الله على الخطيئة
الموروثة . ومن يدعو إلى تحرير العبيد يكون متمرداً على إرادة الله ؟ » .
- ١٤ - جعل الكنيسة الاعتراف بالخطايا للكاهن شرطاً من شروط
الطهارة وتنصيب الكاهن ، واسطة بين « المخلوق » ، و « الخالق » .
- ١٥ - محاربة الكنيسة للكشوف العلمية الصحيحة لأنها تخالف عقيدتها
الباطلة . واضطهاد العلماء والتنكيل بهم مع أنهم محقون وهي مخطئة ١٤ .
- ١٦ - الإنارة المالية المجعفة التي كانت تنقضاها الكنيسة من الناس ، مثلاً
في العصور والوصايا عند الموت وإقامة القرايين بدون وجه حق لها على
الرعايا ١٤ .

١٧ - تفشى الرذائل بين الرهبان والراهبات في الأديرة وهم يتظاهرون بين الناس بالطهارة والعفاف ١٩

١٨ - بشاعة محاكم التفتيش التي أنشأها الكنيسة لمحاكمة مخالفها في الرأي . جرد الظنة ، وصرامة الأحكام التي كانت تصدرها وشناعة تنفيذ العقوبات كإحراق المخالفين وهم أحياء وإخراج الموتى من قبورهم لتنفيذ العقوبات فيهم .
١٩ - تحالف الكنيسة مع : الأشراف والسلطة الزمنية ، على تسخير الإنسان فاستأثرت الكنيسة بروحه ، ورضى السلطان بحجسه وصار الإنسان موزع الولاء بين شركاء مقياس كسين ١٩

وبهذا - وغيره - مهدت الكنيسة للعلمانية الجاهلة .

العلمانية هي الوريث :

عرفنا فيما تقدم أن فكرين مضادين لفكر الكنيسة قاما في وجهها كتنافيين خطيرين :

أولهما : المذهب العقلي الذي مآد طوال عصر التنوير حركة التمرد المماكسة للخط الديني الكنسي .

وثانيهما : المذهب الوضعي العنيف الذي رفض الفكر الديني الكنسي ورفض الفكر العقلي كذلك ، وانهما بالإنفلاس في مجال المعرفة . والريادة والتوجيه .

هذا من الناحية النظرية . أما من الناحية العملية فقد كانت الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) هي الضربة القاضية والقاصمة لظهر البعير وأزاحت سلطان الكنيسة والإقطاع وأفسحت المجال لرائد جديد يكون هو الرائد والموجه والسيد المطاع .

وقد كانت الفرصة مهيأة عقيب قيام الثورة لأن تتجه أوروبا اتجاهها مستقيماً يخلصها من ربق التبعية لحضارات وثنية كانت تغذيها وتسيطر عليها طوال

المدة من القرن الرابع الميلادي إلى القرن الثامن عشر الذي حدثت في أواخره
الثورة ، وهي حضارات الإغريق ، وحضارات الروم .

وتخلصها كذلك من الجحود والتحجر البابوي ، ثم تضع قدمها على بداية
الطريق الصحيح . وكان ذلك تمكنا لوحدثت أوروبا نفسها بالتغيير المحمود .
وقد كان ذلك ممكنا وقريبا منها في بلاد الأندلس وصقلية والشرق الإسلامي .
فلو كانت أوروبا قد ولت وجهها شطر الإسلام ، وأقبلت عليه بصدق
وإخلاص لارتفعت هامتها إلى السماء ولحمت حضارها المسادية الهائلة بمنهج
الإسلام في الإرشاد والتوجيه والدعوة إلى ما هو أقوم .

ولكن من سوء حظ أوروبا أن أضاعت تلك الفرصة العظيمة وخرجت
من ردة إلى ردة . ومن انتكاسة إلى انتكاسة ١٤٠٠

أضاعت أوروبا الفرصة وارتقت في أحضان العلمانية الجاهلة وكانت
العلمانية هي الوريث الوحيد أو المستبد بأطيب ما في التركة . ولم تترك منها
إلا الفتات وما ليس فيه غناء .

كان البديل الذي نصب نفسه وليا ووصيا على غروش البلاذ هو العلمانية .
وكانت الظروف مهيأة لانجاء مثل العلمانية أن يحدد لنفسه مكانا في كل
القلوب والمشاعر .

فقد جرب الناس - هناك - الحياة تحت ظل الدين فسكر هوا الدين وفزوا
منه ؛ كرموه وفروا منه لأنه لم يكن ديننا بالمعنى الصحيح ، وإنما أطلق عليه
اسم « الدين » وما هو بدين .

وقد أصبحت تلك التجربة المرة لأوروبا مع الدين الكنسي المزور المخرف
المصنوع سببا كرهت أوروبا من أجله الدين ، أي دين ، وإن كان ديننا
قويما حوفظ فيه على أمانة الوحى ، وشملت مبادئه من التحريف والتبديل .
وصاغت تشريعاته لإطلال الحياة كلها بالسعادة والرفق ونهضت مهمتها

حلولا لكل ما في الحياة من مشكلات ، ورسم الطريق الصحيح لربط
الخلق بخالقهم ، وإفراجه بالولاء . وتحقيق الخير في الدنيا الزائلة والآخرة
الباقية الخالدة .

لم تعط أوروبا نفسها فرصة للمراجعة والتبصر عقيب الثورة ، ولم تحسن
الاختيار . فانتقلت من مضار إلى مضار أشد وأفظع ، وخرجت من فتن إلى
فتن أخطر وأشنع ، حتى ليصدق عليها قول شاعرنا الحكيم :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

أجل : لقد خرجت أوروبا من الرمضاء ، ثم خاضت بقدميها - وهما
عاريتان - في نار الجحيم . ولا يخدعك ما تراه الآن من حضارات مادية
تنعم بها أوروبا ، وتصدر فائضها إلى خارج حدودها لأن رقي الأمم لا يقاس
بما فيها من حضارات مادية ، ولو بلغت عنان السماء وغاصت أعماق البحار ..
ولم تكن أقطار الأرض . . ؟

العلمانية . . ما هي ؟

ولكن ما هي العلمانية ؟ ومن أحق الناس ببيان المراد منها ؟ أهم منتجوها
ومصدروها ؟ أم مستهلكوها ومستوردوها . . ؟

العلمانية عملة أرسلعة أوروبية خالصة . على ربوعها ولدت ، وفي كنفها
نشأت وترعرعت . فهم - أعني الأوروبيين - أحق الناس ببيان المراد منها ،
أعني وضع التعاريف التي تحدد معناها الجامع المانع كما يقول المناطقة في
تعريف التعريف الصحيح .

ولكن فريقا منا - نحن العرب المسلمين - يحاول أن يزح بأنفه في
الموضوع ، ويدعى - وهو يعلم - أنه أعرف بالعلمانية من المنتج ،
والمخترع ، وسنعود لهذا الفريق بعد قليل . والذي يهمنا الآن أن نعرض

تعاريف العلمانية عند مفكرى أوروبا ، وفي مصادر المعجمية العامة والخاصة
والإليك البيان :

تعريفات العلمانية عند الغربيين :

« تقول دائرة المعارف البريطانية : « العلمانية هي حركة اجتماعية تهدف
إلى صرف الناس عن الإهتمام بالآخرة إلى الإهتمام بهذه الدنيا وحدها ، هذا ،
وقد أخذ الإتجاه يتطور خلال التاريخ الحديث نحو العلمانية باعتبارها
حركة مضادة للدين وللمسيحية .

« ويعرفها قاموس العالم الجديد : بأنها « الروح الدنيوية أو الإتجاهات
الدنيوية ، وعلى الخصوص هي نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أى شكل
من أشكال الإيمان والعبادة » .

« ويشرح معجم أكسفورد معنى العلمانية فيقول :

دنيوى أو مادى : ليس دينيا ولا روحيا ، مثل : التربية اللادينية الفن
أو المورسيقى اللادينية ، السلطة اللادينية ، الحكومة المناهضة للكنيسة ،
الرأى القائل أنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية .

« ويقول المعجم الدولى الثالث الجديدة العلمانية مذهب أو اتجاه فى الحياة
أو فى أى شىء خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب
أن لا تدخل فى الحكومة ، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعادا مقصودا .
فهى تعنى : « اللا دينية البحتة فى الحكومة » .

« وهى نظام اجتماعى فى الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية
والخلقية على إعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعى دون النظر
إلى الدين » (٥٨) .

(٥٨) انظر العلمانية (٣٥) وما بعدها مرجع سابق ذكره .

هذه هي العلمانية وشروطها حسب ما أوردته معاجم الغرب . وتتلخص معاني هذه التعريفات في الآتي :

أولاً : رفض الإيمان بالله ثم رفض مراسم العبادة على أية صورة كانت .

ثانياً : إبعاد الدين عن التوجيه في مجالات : الفن - التربية - الأخلاق .

ثالثاً : قيام حكومات على فلسفات تستمد أصولها من نظم الحياة المعاصرة دون التقيد بالدين ١٩

رابعاً : الإيمان بالمادة المحسوسة ورفض الإيمان بما لا يدرك بواسطة حاسة . من الحواس الخمس ١٤ .

خامساً : المحاولة الجادة لصرف الناس عن العمل للأخرة ، وقصر كل اهتمامهم بملذات الحياة الدنيا وحدها .

ويضيف المستشرق آربرى ان كلا من : المادية ، والإنسانية ، والمذهب الطبيعي ، والوضعية أشكال وصور مختلفة للعلمانية وإن اختلفت التسمية .

وصفوة القول : إن العلمانية تعني الإلحاد وهي لاكتفي بفصل الدين عن الحياة ، كما يفهم أو يروج بعض الكاتبيين عندنا هنا في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية والإسلامية . وإنما هي حركة تقوم على انكار الدين وجعله ضرباً من ضروب الخرافة والهلديان ؟ .

أهو دفاع عن العلمانية ١٩

وقفنا على حقيقة العلمانية كما يراها منشؤها ومنتجوها في الغرب على المستوى العام والمستوى الخاص ، وشرحوا - لنا - مجالات تطبيقها وبأن لنا عما قدمناه أنها شيء ، لا يكتفي بعزل الدين عن الحياة (فصل الدين عن الدولة) وإنما هي تعادى الدين - أي دين - ونعمل جاهدة على دحره ومحوه .

ولو كانت العلمانية قد وقفت عندهم عادتها وتمردوا على الدين الذي اخترعته الكنيسة لما لامها أحد ، ولم يكن انتصارها على الفكر الكنسي أغراها على التردد على كل دين .

ومع هذا التحديد الواضح للعلمانية ومقاصدها ومجالات عملها فإننا نرى كثيرا منا - نحن المسلمين - ننظر إلى العلمانية نظرة دفاع ورحمة . ونحاول جادين أن نبرهن بما ثبت لها ، ونجرب في وجهها الكالح القبيح عملية جراحية لتجميلها ونميرها .

ولأن أعرض للعلمانيين العرب الذين عرفوا بأنهم علمانيون وجہروا هم بهذه التسمية ، هؤلاء أن أعرض لهم فأمرهم معروف ، وحالهم مكشوف ومواقفهم مفضوحة .

ولأننا أعرض لأناس لم يقولوا بأنهم علمانيون ولبعضهم نتاج ذري وفير متتابع في الكتابة والنشر والتأليف .

من هؤلاء الأستاذ الدكتور نجييب محمود أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة - سابقا - وكاتب الأهرام الآن .

فقد كتب الدكتور نكي مقالا في الأهرام بتاريخ ١٢/٧/١٩٨٥ م عرض فيه العلمانية على القراء عرضا مخالفا لما عليه العلمانية في الواقع ، وكما وصفها أبناء الغرب أنفسهم وهم منتجوها ومصدروها .

كان عنوان المقال : « عين مفتحة عين » وهدف الكاتب أن يقول : إن العلمانية مفتوحة العين وليست عينها مكسورة وهي مع كسر العين تكون نسيبة إلى « العلم » أما بفتح العين فهي نسبة إلى « العالم » يقصد كل الشعوب وكانت النسبة حسب القواعد الصرفية أن تكون « العالمية » لا « العلمانية » ولكن دخلها إبدال وقلب مكاني فصارت « العلمانية » نسبة إلى العالم شرقه

وغربه شماله وجنوبه . وبعد تقرير هذه الفكرة يدلف الكاتب إلى محاولة غريبة بين العلمانية وبين الإسلام ، فيقول : إن الإسلام علماني ، لأن القرآن اهتم بشئون العالم من جوانب مختلفة . وأخذ يذكر بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن مقاصد عالية من سياسة وتشريع . الخ .

وقبل مقال الأستاذ الدكتور زكي نجيب قرأت مقالا مشابها نشرته جريدة الجمهورية الأستاذ مصطفى مرعي - شيخ المحامين - قال فيه : إن العلمانية بفتح العين لا بكسر ها وشرح معناها بمثل ما شرح الدكتور زكي ، ولكنه لم يتوسع مثله في تقرير المعاني وصوق الشواهد عليها .

ولنا هنا مع الشيخين وقفات :

الأولى : إن النسبة الصحيحة إلى « العالم » هي « العالمية » وليست هناك ضرورة لغوية أو حتى أدنى مسوغ لغوي لأن تحل « العلمانية » بفتح العين - كما يدعيان - محل « العالمية » . فالعلمانية نسبة مألوفة ، وهي أخف من « العلمانية » فلماذا حملت تلك النسبة « الغربية الثقيلة » محل النسبة المألوفة الخفيفة . . . ١٩ .

الثانية : إن إحقاق الناس بوضع . . الحدود والتعاريف وشرح المراد من مخترع ما هم الذين اخترعوه وابتدعوه ؛ لأنهم أدري به من غيرهم فإذا قالوا فيه قولا وجب على « المستهلك » أن يقف عندما قالوه وليس له أن يتفلسف ليضع « للمخترع » إسما غير الذي وصفوه هم . وبخاصة إذا كان التبديل في التسمية يخرج « المسمى » عن حقيقته ومعناه . وهذا هو ما اقترحه الشيخان وإن تفاوتت نسبة الاقتراف بينهما .

الثالثة : لم يقل أحد من الغربيين ، ولم ينص معجم من معاجهم على أن « العلمانية » مشتقة من « العالم » ومنسوبة إليه . . وإنما قالوا إنها مشتقة من « العلم » بكسر العين ومنسوبة إليه على غير قياس ، إلا إن أرادوا

من زيادة الألف بعد الميم : المبالغة ولو أن الشيخين كانا قد قالوا : إنها منسوبة إلى د العلم ، المشر الذي تقوم عليه نهضات الأمم لا نحصي الخلاف معهم حول المراد من العلمانية أهو العلم المذهب المؤمن ؟ أم هو العلم الملحد . وليكنهما وسعاً دائرة الخلاف فأرجعنا المعنى إلى غير مرجعه . ومثلهما مثل محام تطوع للدفاع عن مجرم مقر أمام القضاء بإجرامه ، معترف بخطيئته داعماً اتهام نفسه بالأدلة والبراهين القاطعة . فإذا بالمحامى يترافع عنه — رغم اعترافه ، والإعتراف — مع الرشد — سيد الأدلة ، ويقول ، أى المحامى — أن المتهم برئ .

أو مثلهما مثل من يسأل آخر عن اسمه ، ثم يقول له : لا ليس اسمك كذا وإنما اسمك كذا ؟

إن المتهم أدري بما فعل ، واعترافه الحر الراشد ، يقطع كل جدل ؟ .
وإن المسمى أدري الناس باسمه ، وليس لأحد أن يقول له : ليس هذا اسمك وإنما اسمك فلان ؟

أو مثل الشيخين مثل من يحذف د الياء ، من كلمة د شيطان ، لتصبح بعد الحذف د شطان ، مشددة الطاء . فيزيل بهذا قبحاً ؛ لأن الشيطان رمز الشر والفتن ، ويثبت حسناً ، لأن د شطان ، تذكئة : شط أو شاطيء وشط النخل أو شاطيء الماء ومعناها ييثان البهجة ، والسرور عند السامع بخلاف معنى د شيطان ، المقتبض الكتيب .

ولست أدري : أهذا دفاع من الشيخين عن العلمانية ؟ أم عدم وقوف منهما على معناها المنصوص عليه في دوائر معارف الغرب ، ومعالجة العامة والخاصة ؟ .

لا أستطيع أن أجيب ، وإن كنت لا أستطيع أن أكف عن التساؤل ؟

ومهما يكن من دفاع عن العلمانية فإن تاريخها العملي في كثير من البلدان يؤكد أنها - كما شرحها الغربيون - أيديولوجية مدمرة ، وبدعة من بدع العصر إن أفادت في جانب دمرت وأفسدت في جوانب . وإن الشقاء الذي يخيم على العالم - لأن - من أخطر أسبابه العلمانية الجاهلة .

هو امل مساعدة على نشأة العلمانية وتطورها :

عرفنا أن الوضعية التي أرسى اصولها أوجست كونت كانت أحد ردود الفعل على التعصب البابوي وجمود الكنيسة على قوالب جافة من العقائد وأشكال باهتة من رسوم العبادة ، ومعارف بالية من خداع الفسك . كما عرفنا أن وضعية كونت قصدت فيما قصدت تقليص الفلسفة العقلية ، وإثبات فشلها في القيادة والتوجيه ، وإفلاسها في أحداث أنماط جديدة من الحياة تلائم معارف العصر وثقافته وتصورات الطموحة .

وقد استطاعت الوضعية أن تنحى كلا من الفسك الكنسي والفلسفة العقلية المثالية ، وأن تستأثر بعقول المثقفين وتسكسب صداقتهم لها ، حتى افتتنوا بها وعدوها مثلهم الأعلى في الحياة .

بيد أن العلمانية - مع هذا كله - وقد حلت محل الوضعية المادية - كانت عاجزة في حاجة إلى وقائع علمية أخرى ، تبسط نفوذها من خلالها ، وثبتت أقدامها في الميدان فأبرز الكشف كان :

• نظرية كوبرنيك حول مركزية الشمس للكون ، وكروية الأرض ودورانها حول الشمس .

• نظرية إسحق نيوتن للجاذبية ، وكان لها تأثير كبير في توطيد أقدام الوضعية الممهدة للعلمانية فيما بعد .

هذان الكشفان لم يسكونا كافيين لاستكمال التصور الوضعي العلماني لذلك فإن الحاجة كانت ماسة لدهائم جديدة من جنس نظريتي كوبر ونيوتن ليتم الانتقال الحاسم من عصر الكتلركة والفلسفة العقلية المثالية .

وقد كان ذلك الممدد المنتظر ممثلاً في أربع دعائم وجدت فيها العلمانية أكبر عون لفرض نفسها كأيدولوجية بديلة جديرة بالتقدير . والدعائم الأربع هي :

- نظرية داروين في التطور وأصل الأنواع .
- نظرية فرويد في التحليل النفسي . وقد أحيت هاتان النظريتان كلا من :
- نظرية مكيا فللي في الحكم .
- نظرية جان جاك روسو في أصل السلطة ، وفيما يلي بيان لسكل واحدة منها وأثرها في تطور الفكر الوضعي العلماني :

الداروينية :

ولد تشارلز داروين في إنجلترا يوم ١٢ فبراير ١٨٠٩ م ، وتوفي عام ١٨٨٢ م فهو من مفكري القرن التاسع عشر الذي كان له أثر بعيد المدى في تطور الفكر العلماني في القارة الأوروبية وقتذاك .

وقد أصدر داروين كتابه « أصل الأنواع » ، عام ١٨٥٩ م ، وذهب فيه إلى أن أنواع الأحياء - جميعا - وهي النبات والحيوان والإنسان ، لم يخلق كل نوع منها خلقا مستقلا . بل كانت لها أصل واحد هو الخلية البسيطة (البروتوبلازم) ثم ظهر الحيوان الدودي ، ثم الشوكيات ثم النشويات . ثم ظهرت صور جديدة من الحيوان ، دل وجودها على وقوع انقلاب خطير في سير الحياة ، وأصبح لهذه الصورة حبل متين تدرج بواسطة التطور إلى تكوين الفقار ، فوجدت الفقاريات واللافقاريات . ثم نشأت البرمائيات كالضفادع ، ثم تدرج سلم للتطور من البرمائيات إلى الزواحف كالحيات . ومنها شأت الطيور ، وذوات الثدي . ومن ذوات الثدي نشأت القرود . ومن القرود . ومن القرود نشأت البشرات أو الإنسان (٥٩) ؟

(٥٩) أصل الأنواع بتصرف . نقلا عن : (موقف الإسلام من نظرية ماركس . .)

ويمضى داروين فى شرح نظريته فيرى أن الأنواع وجدت على الطبيعة متأثرة بالظروف الخارجية المحيطة بها ، وأنها - أى الأنواع - أخذت تتطور عن طريق الصراع وطلبا للبقاء . وأن الطبيعة كانت تبقى الأصلح وتزودى غير الأصل ، وهذا هو ما يسمى فى مذهب النشوء والإرتقاء بـ : « الانتخاب الطبيعي » ، أى اختيار الطبيعة لبقاء الأصلح وانقراض غيره من الدنايا .

وأنت ترى أن التطور عند داروين بدأ من نقطة هى « البروتو يلازم » وهو الصورة البدائية للحياة . وانتهى عند نقطة هى : « البشرىات أو الإنسان » وانتهى داروين إلى أن الأنواع الحالية على اختلافها يمكن أن تفسر بأصل واحد أو ببضعة أصول تمت وتكاثرت وتنوعت فى زمن مديد بمقتضى قانون : « الانتخاب الطبيعي » ، أو « بقاء الأصلح » وهو القانون اللازم من « تنازع البقاء » ، (٦٠) ١٩

وداروين لم يكن أول من ذهب إلى هذه الفكرة فقد قال بها قبله كثير من ومنهم من عمم فكرة التطور هذه حتى شملت نوعى السكون وهما : المادة غير العضوية . والمادة العضوية بأنواعها الثلاثة : النبات والحيوان والإنسان ومن ذهب هذا المذهب [التطور العام فى العضويات وغير العضويات] هزرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣ م) وهو من معاصري داروين . ومن قبل سبنسر هاملتون (١٧٨٨ - ١٨٥٦ م) وعمانويل كمانث (١٧٣٤ - ١٨٠٤ م) .

فالفكرة كانت مطروحة قبل داروين وفى أيام حياته ، ولكن داروين تحاش القول بالتطور العام واقتصر على أحد شقيه ، وهو تطور الكائنات العضوية . ولهذا الاختيار عند داروين سبب أحسن أستاذنا العقاد فى الحديث عنه أو قل : « الكشف عنه » ، وخلاصة ما ذكره العقاد يقم منه أن داروين صرف عن القول بالتطور العام خشية الوقوع فيما وقع فيه سبنسر والقائلون به ؛

لأنهم صدموا بعدم معرفة الأصول الأولى المؤثرة في تطوير السكون . فلم يجرؤوا على تفسيرها ، ولم يجرؤوا على إنكارها . . .

ولذلك ارتضى سبنسر أن يقف التطوريون العامون بالمعرفة الإنسانية عند الآثار الظاهرة التي يدركونها ، وإن يجمعوا عما وراءها بما لا يدرك لا بالعقل ولا بالحواس . فالمعرفة الإنسانية عند التطوريين العامين نوعان : نوع مدرك لأنه ظاهر وملك وسائل إدراكه .

ونوع غير مدرك ، مع أنه موجود ، ولكننا لا نملك الوسيلة الموصلة إليه . . . النوع الظاهر هو المؤثرات الطبيعية في الكائنات العضوية ، وهو ما انتصر عليه داروين .

أما النوع غير الظاهر فهو يتلخص في هذا السؤال المزدوج :
• ماذا خارج السكون كله يرجع إليه تطور السكون منذ البداية الأولى . وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التي لا أول لها ولا آخر إذا قيل أن السكون موجود بلا ابتداء ولا ختام ، (١٩٦) .
وهذه وقفة فائدة وذكية تمدح للأستاذ العقاد . وأرجو من القارئ أن يحتفظ بها ريثما نعود إليها بعد قليل .

ومن المستحسن بعد أن بينا في إيجاز محور نظرية داروين أن نعرض لأصلتها بالفكر العلماني وتطوره من خلال آثارها على العقل والثقافة في أوروبا بعد ذبوعها .

أثر الداروينية في القارة الأوروبية :

أولا : عند العلماء :

لانساق فريق من علماء الغرب وراء بهرج هذه النظرية وتمسك بها أينما تمسك فهذا جيمس جنز يقول عنها :

(٦١) الإنسان في القرآن الكريم (٧٢) ط : دار الهلال .

« إن في عقولنا تعصباً يرجح التفسير المادى للحقائق » (٦٢).

ويقول سير أرثر كيث : « إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحرم لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد - بعد ذلك - هو الإيمان بالخالق الخاص المباشر ؟ . وهذا ما لا يمكن حتى [مجرد] التفكير فيه » (٦٣) ١٤

فتأمل - عزيزى القارئ - هذا القول المتعسف . فأرثر كيث يعترف بكل وضوح أن نظرية داروين لا يمكن إثباتها علمياً ، وأن إثباتها عن طريق البرهان أياً كان مصدره علمياً أو عقلياً - مستحيل . وهذا الإقرار كافى فى إسقاط النظرية لو كان السير كيث ممن يعقلون ١٤

ولكنه يصرح بضرورة الإيمان بها اضطراراً . ولأى سبب - يأتى - ١٤
إن السبب أفصح عنه المكاتب : إنه الفرار من الإيمان بالخالق الخاص المباشر . وهذا الإيمان - يقود إلى الإيمان بالله العظيم خالق كل شئ . ولذلك فر منه السير كيث وارتمى فى أوهام الداروينية كما ترى ١٤
إلى هذا الحد الزرى ألغى السير كيث عقله ؟ ومن أجل أى شئ ؟ من أجل اختيار الكفر والإلحاد ، فراراً من الإيمان بالخالق العظيم المدبر .

ثانياً : عند عامة الناس :

تركت نظرية داروين فى المحيط العام الأوروبى آثاراً سيئة للغاية ، وما تزال أوروبا غارقة إلى الأذقان فى آثار الداروينية فى الاعتقاد والسلوك حتى ولو كانت غير ملاحظة عند التطبيق ، ومن أبرز آثارها السيئة ما يأتى :

-
- (٦٢) عالم الأسرار لجيمس جنز (١٨٩) انظر الإسلام يتحدى (٣٩) .
(٦٣) مذهب النشوء والارتقاء (٦) نقلاً عن الإسلام يتحدى (٤٠)

١ - خلق موجة من الإلحاد وبليلة الأذهان والكفر بما ورد في الكتاب المقدس عن قصة آدم وحواء ، واعتقاد أن الجنة التي كانا فيها وهم من الأوهام .

٢ - نفي الغاية والقصد : كانت التعاليم الدينية تعد الناس بحياة أخرى يجازى فيها المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته . فجاءت الداروينية تقول لهم : إنهم ثمرة من ثمار تطور الطبيعة ، ولم يخلقهم إله لعبادته فيجازى المحسن بالإحسان والمسيء بالإساءة . وأصبح من العبث الإيمان بأن الإنسان مخلوق لغاية وقصد فالطبيعة هي الخالقة ، وهي لا تريد أن تعبد وليس عندها ثواب ولا عقاب .

وقد زاد من هذه النكسة أقوال العلماء المرجحة للنظرية . فهاذا جوليان هلكسلي يقول :

« من المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ، ولكن قد تحل محله [في السيادة] القطاة أو الفأر ، (٦٤) ١٩ »

ونج عن هذا كله أن فقد كثير من الناس الثقة في الحياة وأصيبوا بذهول قاتل لأن الإنسان إنما يعيش بالأمل ويحيا من أجل غاية أسمى ومقصد يحسن يثير لديه كل الطاقات .

٣ - تولد شعور عند الناس بأن الإنسان ، حيوان لا غاية له ولا هدف يسعى إليه . فإذا يفعل - إذن - وقد اهتز إيمانه بفكرة الخالق المدبر المطلع على السراء . وقيل له : إن خالقه هو المادة ، وقوايتها هي النافذة فيه . . . وهو لا يرى في المادة إلا الصمت المطلق والعجز المطلق .

٤ - وتولد عن الداروينية فكرة التطور المطلق غير المقيد بأية ضوابط عدا تحكم الطبيعة غير العاقلة ، التي تخبط - كما يقول داروين نفسه - خيط عشواء .

فعملية الخلق الطبيعي عملية حتمية لا تدبير فيها ، والتطور نفسه قلق مضطرب ،
فليس بعيداً أن يعود الإنسان فرداً ، أو ضفدعة أو ماشيت من الكائنات
الدنيا ، ١٩

وذلك ظهرت الإباحية والتفسخ الخلق وعبادة المذات قبل فوات
الآوان ما دام الإنسان لا يرى في الكون حقيقة ثابتة . بل الأشياء رهينة
التطور المزعوم .

الدفاع عن الإلحاد :

وقد تطوع كثير من المفكرين الحالمين بزوال الإيمان بالله ، بالدفاع
عن العلمانية والإلحاد ممثلاً في نظرية داروين . يقول لويون :

« إن الزمان إله ؛ لأنه هو الذي يولد المعتقدات ، فينميتها ثم يميتها ...
إن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا . وما علينا إلا أن نتركه يعمل
لنرى كل شيء يتمحول ويتبدل » ، (٦٥) ١٩ .

ويقول جون لويس : « نظرية التطور والإرتقاء لا تستبعد قوى ما فوق
الطبيعة من عملية الخلق لحسب . بل تضع بدل هذه القوى تطور الحياة الطبيعي
وقد كان هذا تجديد مدهشاً » ، (٦٦) ١٩ .

جون لويس - سعيد جداً - لأن نظرية داروين لم تمكث بإبعاد قوى ما فوق
الطبيعة (الله سبحانه) من عملية الخلق لحسب ، ولكنها جاءت بالبديل عنها
وهو تطور الحياة الطبيعي المستغنى عن قوة أخرى تؤثر فيه ١١٩ .

ويرجح جوتيه عوامل استقاء النظرية إلى أسباب علمية مادية بحجة فيقول :
« إن الدلائل في تأييد المذهب المادي قد أتت في الغالب من ثلاثة مصادر :
علم الأحياء ، وعلم النفس ، والفيزياء . »

(٦٥) روح الجماعات (١٠٣ - ١٠٤) .

(٦٦) نظرية التطور وأصل الإنسان (١١) .

هذه النظرية قوت الصلة بين النظر القاصر، والتفكير الغطير وبين الإغترار بالملدانية ، وأنها كافية في تفسير ظواهر السكون وأسراره فلا حاجة إذن إلى الإيمان بالله ١٩ . إذ لم تدع إلى هذا الإيمان ضرورة فيما بدا لهم وقتذاك .

دور اليهود في ذبوع النظرية :

لذبوع نظرية داروين عدة عوامل كالصراع بين الدين والعلم ، وتقلص الفكر الكنسي ، وغنف الثورة الصناعية التي مسخت صورة الحياة في أوروبا وشيوع الإباحية ، وزعزت القيم الفاضلة .

ولسكن عاملاً آخر حظيراً أخذ على عاتقه مهمة الترويج لهذه النظرية بكل وسيلة ممكنة .

يفصح لك عن هذا قول اليهود :

« لا تتصوروا أن تصريحاً لنا كلمات جوفاء . ولاحظوا - هنا - أن نجاح داروين ، وماركس ونييتشه قد رتبناه من قبل . والآخر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأسمى سيكون واضحاً لنا على التأكيد (٦٦) . اليهود ليسوا وراء نظرية داروين لحسب ، بل وراء كل فكر مادي مدمر فهم وراء ماركس وماديتيه الجدلية (الشيوعية) ووراء نييتشه في تمرده على حقائق الإيمان (٦٧) ، ووراء فرويد في تقديس الجنس . وراء كل فكر ملحد .

واليهود لهم هدف خطير في مثل هذه المذاهب ؛ لأنهم يحملون بالسيطرة على العالم . وهي غير ممكنة إلا بعد وقوع انتكاسات في العالم في مقدمات تدمير

(٦٦) برتون كولبات حكماء صهيون (١٠٦) .

(٦٧) انظر في نييتشه : قصة الفلسفة (٥٠٧) وكانت له آراء جريئة طائشة في الدين والأخلاق ونظام الحكم . ثم أصيب بالجنون والعشى في آخر حياته ومات سنة ١٩٠٠ م وهو مجنون ١٩

العقائد الدينية ، ونشر الإباحية وترويج الدعايات للجنس والملذات الرخيصة
وتفسيك النظام الاجتماعية والسياسية والأسرية ، وعلمنة الثقافة والفن
والأخلاق والأمميون : كلة ، يطلقها اليهود على من ليس يهودياً . مسلمين
ونصارى وغيرهم من شعوب الأرض .

وخلاصة القول في نظرية داروين :

• إنها نظرية وإن بناها على قواعد علمية - فهي ظنية لا تؤدى إلى يقين .
وداروين نفسه لم يخزم بصحة مدعياته ، ولذلك تردد كثيراً في إعلانها تحسباً
لما سيكون لها من ردود فعل عنيفة .

• إن داروين كان مادياً صرفاً ، ووقع فيها وقع فيه الحسيون من بين يديه
ومن خلفه ؟ .

• إن الإيمان بالله ، والتصديق بنظرية داروين لا يجتمعان في قلب رجل
واحد أبداً لأن مدعيات داروين فيها تكذيب صارخ بالخبر الصادق الذي
جاء به وحى الله الأمين .

• هذا وبعرض نظرية داروين على الإسلام يظهر للقارى . بطلانها وزيفها
من أقصر طريق .

موقف الإسلام من نظرية التطور :

التطور ثلاثة أنواع :

- تطور في طبيعة الخلق وتولد الأنواع والسكون من القلة إلى الكثرة .
- ومن البساطة إلى التركيب ، وتولد أنواع من أنواع ، وهو التطور العام
في غير العضويات وفي العضويات . على مذهب هاربرت سبنسر وأصحابه . .
- تطور بالمعنى المذكور ولكنه مقصور على الكائنات العضوية الثلاثة :
النبات والحيوان والإنسان ، كما يرى تشارلز داروين ومشايعوه .

• تطور من البدائية إلى التحضر ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفردية إلى الاجتماع ومن السذاجة إلى الذكاء والقطنة مع أن كل نوع من أنواع المخلوقات مخلوق خلقاً مستقلاً مباشراً ، بقدره الله وإرادته وتدبيره .

هذه أنواع ثلاثة من صور التطور . الإسلام يقر بواحد منها ، وهو الثالث ، ويرفض الأول والثاني ؛ لأنهما يسهيان إلى إضفاء صفة الإستقلال الطبيعي في الخلق والتكوين . فالطبيعة فيهما تحل - أرادوا أم لم يريدوا - محل الله ، ۱۱۱۹

والتطور الذي ذهب إليه داروين قد حط فيه من قدر الإنسان . فالإنسان في الإسلام مخلوق كريم قد فضله الله على كثير من خلقه .

وآدم أبو البشر قد جاء صريح القرآن ببيان قصة خلقه من تراب خلقاً مستقلاً لم يكن نتيجة لتطور أنواع كما زعم داروين .

أما حواء أم البشر فقد خلقها الله من نفس آدم عليه السلام . وبث منهما لا من غيرهما رجالاً كثيراً ونساء . وأرسل إليهم رسوله مبشرين ومنذرين . والله قد خلق آدم يوم خلقه على الصورة التي نرى ذريته عليها ، صورة • في أحسن تقديم ، كما جاء في القرآن الكريم ويقول الله تعالى مخاطباً الإنسان :

• يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ؟ الذي خلقك فسواك فعدلك • . ويقول سبحانه : • وصوركم فأحسن صوركم • .

وفي الحديث الشريف : • إن الله خلق آدم على صورته • . ولهذا الحديث معنيان عند العلماء كلاهما يعليان من قدر الإنسان . أحدهما ، وهو الذي نميل إليه : أن الله خلق آدم يوم خلقه على نفس الصورة التي وجد بها وتوارثها عنه بنوه ومعنى هذا أن آدم أو الإنسان عموماً لم يمر بمراحل في الخلقه ظوئاً

بعد ظهور على النحو الذى طبع به داروين ومتابعوه . ويكون - على هذا -
هذا الحديث كأنه رد موجه قصداً إلى مدعى داروين . وهو - كذلك - لمحة
من الإعجاز النبوى الذى كان فيه - عليه السلام - لا ينطق عن الهوى إن هو
إلا وحي يوحى . وكلم من الغيبات التى ألمح إليها عليه السلام بإلهام من ربه
بجاءت كفلق الصبح .

فالمسلم لا يحتاج إلى عقيدة فى الإنسان غير العقيدة التى جاء بها القرآن
هذه العقيدة القرآنية تجبى العقائد ثم تذهب أشبه ما تكون بموديلات الموضة
وهى نابتة لا تزول ولا تقبل ولا تخضع للطوارئ والتغيرات ؛ لأنها خير
صديق حكي الواقع فى أمانة وصدق . بينما كل عقيدة بديله تقوم على الأوهام
حينما والتخمينات حينما آخر . والخير الصادق لا يقبل النقي . وكل من حاول
نفيه ركب متن الشطط . وناله فى ضلال الأوهام .

ويكفى فى مذهبي التطور العام والخاص أنهما أحيطا بأخطر المشكلات التى
قد استعصت على الحلول ، ولن يزال ذلك شأنها إلى الأبد .

فقد رأينا أن هاربرت سبنسر وهما من القائمين بالتطور الطبيعى
العام قد صدما بالأصول الأولى التى حدث عنها التطور . واكتفى سبنسر
أن يقسم المعارف الإنسانية قسمين كبيرين كما سر . أحدهما ما يتعلق بالأصول
الأولى واعتذر سبنسر بأنها تدرك ولا نعرف ؛ لأننا لم نزود بوسائل تمسكتنا
من معرفتها وما أكثر الأشياء التى يحس بها الإنسان ثم لا يعرف كنهها .

والأصول الأولى هذه كثيراً ما يطلق عليها أصحاب مذهب التطور العام :
القوى التى هى فوق الطبيعة . وبعضهم يطلق عليها « القوة الحيوية » ، هكذا
على الإبهام . وكانت الحقيقة على طرف التمام منهم لوطلبوها . فالمجهول الذى
أطلقوا عليه : القوى التى فوق الطبيعة ، أو « القوة الحيوية » ، إنما هو « الله »
لو كانوا يعقلون ! ؟

وهروب داروين نفسه من القول بالتطور الطبيعى العام كان مبعثه

- كما تقدم - فراره من أن يجد نفسه وجها لوجه أمام قوى ما فوق الطبيعة أو القوة الحيوية التي تقود التطوريين جميعا لجمعية الإيمان بالله خالق الكائنات .

وهروب داروين إلى القول بالتطور الخاص في العضويات دون التطور العام لم ينجح من الوقوف أمام نفس المشكلة ، التي صدم بها سبنسر ؛ لأن قسم داروين في القول بالتطور العضوى أفصح في وضوح أن وراء هذا التطور قوة مدبرة . وكان هذا الإفصاح سببا في أن يخشى الفريدرسل والاس قسم داروين من التاريخ ، وأن ينسب مذهب التطور إلى داروين وحده . لأن ذلك يوافق مذهب اليهود والعلمانيين حيث انتهى إلى الإلحاد ، وهو المطلوب عندهم .

أما ما انتهى إليه الفريدرسل والاس فإنه يمهّد الطريق - بحق - إلى الإيمان بالله . والإيمان بالله أعدى أعداء اليهود والعلمانيين على حد سواء وأرجو أن يستحضر القارئ الكريم ما نقلناه - قبل - عن السير آرثر كيث حيث جزم بأن نظرية داروين لا تثبت علميا ولا عن طريق برهان . وهذا حق وصواب . ولكن آرثر كيث مع هذا الفهم يفرض على نفسه قبول نظرية داروين . لا لأنها صحيحة أو ممكنة الوقوع . ولكنه لأنها البديل عن الإيمان بالله .

ونختم جولتنا مع الداروينية بكلام لداروين نفسه حول نظريته هذه . ولنا عليه تعقيب قصير :

فقد وجه مستر فورد ايس مؤلف كتاب « ملاح من الشكوكية » ، سؤالاً إلى داروين عام ١٨٧٩ م أى قبل وفاته بثلاث سنوات يستوضح فيه عقيدته الدينية . فأجاب داروين بالآتي :

« إن آرائى الخاصة لا خطر فيها ولا تعنى أحداً غيرى . ولكنك سألتنى فأسمح لنفسى أن أقول : إننى متردد ، ولكننى فى أقصى خطرات هذا التردد لم أكن قط

ملحداً بالمعنى الذى يفهم منه الإلحاد على معنى أنه إنكار لوجود الله. وأحسب أن وصف اللا أدري بصدق على في أكثر الأوقات - لاني جميعها - كلها تقدمت بي الأيام، (٧).

تعقيب :

يفهم من هذا الكلام أن داروين لم يكن يحزم بمذعبات نظريته ، وأنه لم يقصد بما قال إنكار وجود الله . كما يفهم منه أنه كلما تقدم به السن علا عنده جانب التردد على جانبي الاعتقاد . أنه يفضل أن يصف نفسه بـ « اللا أدري » ، لئلا يظن أنه كان الرجل - في آخر حياته كما يفهم من كلامه أنه « لا أدري » .

وهذا ما حمل العقاد على أن يقول في مواضع متعددة من كتبه أن داروين لم يكن ملحداً .

ويرى الأستاذ يوسف كرم أن داروين إنما تظاهر بنفى الإلحاد عن نفسه بحجارة للرأى العام - ولأنه انتهى في آخر حياته إلى القول بأن المسألة التي خاص فيها تسمو فوق مستوى العقول (٧١) .

ومعنى هذا أن داروين خرج من الحياة غير واثق كل الثقة بمذعبات نظريته . واعترافه بأن المسألة فوق مستوى العقول اعتراف منه بالقوى التي هي فوق الطبيعة أو القوة الحيوية . ومعنى هذا - مرة أخرى - أن الحلقة المفقودة في مباحث التطوريين ، وهو دليل الإيمان الصادق بالله قهرت أنصار التطور الطبيعي المادى ، فما كان منهم من أحد إلا ووجد الطريق أمامه مغلقاً . وكان مفتاحه في أيديهم لو أرادوا أن يفتحوه وليس ذلك المفتاح شيئاً غير

(٧٠) عقائد المفكرين في القرن العشرين (٥٦) الأستاذ عباس العنود - ط الأنجلو .

(٧١) تاريخ الفلسفة الحديثة (٢٤١)

الإعتراف بالخالق العظيم الذى يسجد له من فى السموات ، ومن فى الأرض طوعا أو كرها .

ومصير داروين هو مصير كل العلماء نبيين الذين يزعمون أن العلم المسمى قادر على الشرح والإيضاح وكشف العلل والأسباب التى وراء هذا السكون . خيبة الآمال ، وانغلاق الطريق هو عاقبة كل عالم جاهل وكل عاقل متعرد .

ورحم الله أستاذنا العقاد إذ يقول :

« إن القرن العشرين لم يضع الإنسان فى موضع أكرم له وأصدق فى وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء . وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء . موضعه بين خلائق الأرض والسماء أنه المخلوق المميز الذى يمتدى بالعقل فيما علم . وبالإيمان فيما خفى عليه . وموضعه بين بنى آدم وحواء أنهم إخوة من عشيرة واحدة أكرمها من كرم بما يعمل ويحتسب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما اتقاه ، لا يدان بعمل غيره ، ولا ينجو من وزره بغير عمله ، (٧٢) .

ثم ختم الأستاذ العقاد كلامه هذا بكلام رب العالمين :

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ولأنسألون عما كانوا يعملون » .

الفرويدية :

الفرويدية نسبة إلى سيجموند فرويد الذى ولد عام ١٨٥٦ م وتوفى عام ١٩٣٩ م وهو نمساوى الأصل يهودى العقيدة . وقد برز اسمه فى دراسات علم النفس الحديث وله فيها عدة مؤلفات . ونشاطه فى هذا المجال غزير ومتعدد .

ولانعرض للفرويدية هنا إلا من ناحية إسهامه في العلمانية المادية ، باعتباره حلقة تالية للداروينية ، وتطوراً لها . كما نركز على بيان موقف فرويد من الدين به عام . ومن بعض صور الإلزام الخلقى ، وهو إحدى القضايا التي شاع أمرها بين فلاسفة العصر الحديث وإن كان لها تاريخ ضارب في القدم يرجع إلى ما قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام (٧٢) .

ومن يقارن بين الداروينية والفرويدية يتبين له بوضوح أن فرويد بدأ من حيث انتهى داروين .

فداروين حين بدأ في سلسلة التطور من الخلية الأولى ، البروتوبلازم ، انتهى في سلم التطور بالبشرىات كما تقدم ومنها - عنده - الإنسان . وهو آخر نقطة في رحلة التطور كما تقدم .

ثم جاء فرويد وبدأ بالإنسان من حيث انتهى إليه داروين وقاده في مرحلة لاحقة حيث أخذ يقنن سلوكيات الإنسان ، ويفلسف تصرفاته على نحو مادي صرف !؟

مطرحاً من منهجه كل المؤثرات إلا المؤثرات المادية التي تدفع بالإنسان كفعل منعكس لمؤثر آخر خارجي . ويفسر فرويد - هذا - بعض الأخلاق على أنها تدبير بشرى لجأ إليها البشر في المراحل الأولى من وجوده على الأرض ليدفعوا عن أنفسهم بعض أخطار أنفسهم عند تعارض الرغبات ونشوء الصراع بينهم .

وفرويد يركز كثيراً على مقولة « اللاشعور » ، وهو بمثابة مخزن تخزن فيه

(٧٣) من أهم المصادر التي حفلت قضية الإلزام الخلقى ومصادره كتاب مشكلات فلسفية لائحة من العلماء كان يدرس لطلبة الثانوية العامة في الخمسينات .

الانفعالات التي لم تجد فرصة لإشباعها ، وبواسطة اللاشعور ، تصدر عن الإنسان كثير من التصرفات .

ويكاد فرويد يرجع كل نشاطات الإنسان إلى « الغريزة الجنسية » ويرى فرويد أن الإحساس الجنسي يظهر عند الإنسان مبكراً جداً منذ مرحلة الطفولة المبكرة يتخيلها الطفل ويسعى لإشباعها . في صور متعددة ، منها :
التذاذة بالتقام ندى أمه وامتصاص لبنها ، ومنها التذاذة بضم أمه إليه واحتضانها ١٩

بل إن إخراج الفضلات من الطعام والشراب (قضاء الحاجة اليومية) يعتبره فرويد تعبيراً عن الإحساس الجنسي وإشباعاً له ١٩ .

ومن أوهام فرويد المؤسسه على دور الإحساس الجنسي في تكوين سلوكيات الإنسان أن تحريم الزواج بالمحارم (القريبات جداً) يرجع إلى هذا الإحساس ١٩ .

ويفسر فرويد هذا بأن الأولاد - قديماً عند بدائية الإنسان - كانوا يميلون إلى « أمهاتهم » ميلاً جنسياً ، وكل منهم كان يرغب في الاستئثار بالأم دون بقية إخوته . وهذا سبب عندهم نوعاً من الصراع يقع بين الإخوة في التنافس على الاستئثار بالأم والزواج بها .

ومن ناحية أخرى كانوا يرون أباهم يحول بينهم وبين الاستئثار بالأم ، وليس لديهم وسيلة لإبعاد الأب من طريقهم إلا بقتله ١٩٠٠

وقد كون عندهم هذا الصراع فيما بينهم ، وكراهية أبيهم مشكلة تتطلب حلاً فلبجأوا إلى تحريم الزواج من الأم ليتفادوا الصراع الذي يدور بين الإخوة بعضهم ضد بعض ، ويتفادوا كذلك كراهية أبيهم التي تدفعهم إلى قتله ١٩٠٠

وهذا الاتفاق بين الإخوة كنافرة نتيجة لتحرية مرة في زعم فرويد . لأنه

يزعم أن الأولاد في بدء الخليقة كانوا يقتلون أباهم من أجل إفساح الطريق أمامهم إلى الأم ليعاشروها جنسيا . ولكنهم كانوا يندمون بعد قتل الآباء . وأنهم كانوا يقدسون ذكرى الأب المقتول ، وهذا التقديس نشأت عنه أود عبادته ، في البشر ومنها نشأت فكرة الدين . . ١٤٠

أما تحريم الزواج من الأم على النحو الذي عرفنا أسبابه عند فرويد فقد سرى بعد ذلك إلى تحريم الزواج من كل المحارم .

ثم سرى التحريم من المحارم إلى كل المحرمات والمحظورات (٧٤) . . ١٤٠

الدين حاله مرضية :

ويندب فرويد مع أوهامه حين يفسر لك سبب نشأة الدين والتدين عند الإنسان . ولا يخرج فرويد الدين عن أنه حالة أو ظاهرة مرضية عند الإنسان فيقول :

« إننا إذا حاولنا أن نحدد للدين مكانه في تاريخ تطور الإنسانية لم نجد لأنه كسب خالد بقدر ما يندو أنه نظير للمرض النفسى الذى لابد أن يجتازه الإنسان المتحضر وهو يتطور من سن الطفولة إلى سن النضج » .

تعقيب :

هذا عرض سريع جداً للجانب الذى يهمنا في نظرية فرويد . ومع هذا الإيجاز نستطيع أن نستخلص الحقائق الآتية :

١ - إن فرويد ينظر إلى الإنسان على أنه « حيوان » تتحكم فيه العوامل المادية الصرفة ١٤

٢ - لأنه يقطع الصلة بين الإنسان وما وراء الطبيعة ، أى بحائقه ومولاه ١٤ .

(٧٤) انظر : التطور والنبات في حياة البشر (٢٨ - ٤٩) ، محمد قطب .

٣ - يفسر سلوكيات الإنسان وفشاحاته على أنها نتاج الغرائز الجنسية باعتباره أحد فصائل الحيوانية البهيمية ؟ .

٤ - يزعم أن التحليل والتحرير من صنع البشر لجأوا إليه لتفادي نزاعات وصراعات كانت تحدث بينهم . وأن أول محرّم كان زواج الأم ثم عم جميع المحرمات .

٥ - يفسر الدين والعبادة تنسيراً بشرياً فأصل العبادة والدين هو تقديس الآب المقتول ، في ذكره ١٦٠٠

٦ - لأنه يرى أن نشأة هذا الدين ، إنما هو ظاهرة مرضية شبيهة بالمرض النفسى وأن الدين - في نفسه - ليس كسباً خالداً ، أن على الإنسان المتحضر أن يحتازه ويبرأ منه عند الاكتمال والنضج كما يبدأ الطفل حين يكبر من أشياء كان يحترمها في حال الطفولة ، ثم يظهر له بطلانها في سن الرشد ويكاف الوعى ١٩٠٠

وبهذا ترى أن فرويد قد أسهم في بناء صرح العلانية المعاصرة ، وأمدّها بكثير من الأوهام التى قدّرت بها العلانية المادية عند ماركس فيما بعد .

موقف الإسلام من نظرية فرويد :

إن أول ما يواجه به المسلم مدعىات فرويد هى أنها فروض لم يقم عليها دليلاً واحداً مقنعاً .

ومباحث علم النفس حتى هذه اللحظة ما تزال فى جوانب كثيرة منها مهزوزة ...

ومدعىات فرويد مبناها الخيال ومبعتها محاربة الدين والتدين ليفسح المجال - وهو يهودى - لتحقيق الحلم الكبير الذى تحلم به الصهيونية العالمية ، وهو سيطرة اليهود على العالم ١٩٠٠

فمثلا هل يستطيع فرويد ومشايخه أن يثبت علميا أو تاريخيا حالة واحدة من مدعياته ١٩ من هم الأولاد الذين قتلوا أبائهم أو أنفسهم المجال في التمتع بأهم ١٩ وفي أي عصر كان هذا ١٩ وفي أي مصدر من مصادر الرواية الصادقة اطلع عليه . ١٩

هل لديه إلمام من علم فيخرجه لنا . ١٩

وامتصاص الطفل لثدي أمه ليس إشباعا لغريزة الجنس المبكرة كما يدعى هذا اليهودي المأفون . وعلم النفس الطاهر المقيف يملك تفسيراً وحيداً صحيحاً لهذه الظاهرة :

إنه الإحساس بالجوع والخواء . ولذلك فإنه حين يشعر بالشبع سرعان ما يترك ثدي أمه ويروح في نوم عميق . .

أما ضمير لأمه فله تفسيره المعقول عند العقلاء . إن النفوس جبات على حب من أحسن إليهما . ولذلك فإن الطفل لا يحتضن أمه إلا في مرحلة لاجئته لمرحلة طفولته تباكرة . وهو في هذه الحالة يحتضن شعور بالحنان والمطف نحوها . إنها وطنه الأول والنفوس مفضولة على حب الأوطان . ومشاعر الأمومة الحانية الراحمة كفيلة بأن تستقطب كل مشاعر الطفل .

ولو كان ما ذكره فرويد صحيحا لكان الأطفال بعد سن العاشرة أكثر ميلا لها ، ولكن المشاهد في حياة كل طفل أنه كلما تقدم في السن أظهر استغلا لا عن كنف أمه ، فينام وحده وحتى لو نام معها فإنه يعل أن يلتصق بها . ومع لهذا فإن تقديره لها كأم يزداد نضجا واكتيالا .

وقد استشعر هذا فرويد نفسه ، ولكنه لم يخلق باب الإعراض عليه قال : إن الإحساس الجنسي المبكر يضاب به الكون ، بين مرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ ١٩

ونشأة التدين عند الإنسان البدائي لم يكن سببها تقديس ذكرى الأب

للمقتول الذي ندم على قتله أبناؤه القاتلون . هذا السبب لم يقل به إلا فرويد وحده . والذين فلسفوا وبحثوا عن هذه الظاهرة كلهم أرجعوها إلى سبب واحد وإن اختلفت عباراتهم عنه :

أرجعوها إلى أن الإنسان امتدى بفطرته إلى أن وراء هذا السكون قوة جبارة مدبرة لأوضاعه ، وهي قوة ما وراء الطبيعة كما يعبر عنها العلماء في عصور التقدم العلمي .

أحس الإنسان بهذه القوة الجبارة المدركة بأثارها دون ماهيتها وحقبةتها ولم يرض الإنسان بأن يقف موقفا سلبييا أمام هذه القوة الخارقة « الله » وهو وإن لم يدرك كنهها فقد تخيلها بعضهم في الكواكب ، وتخيلها بعضهم في النار وتخيلها بعضهم في الرياح وبعض الظواهر الكونية .

واختلافهم في التخيل لم يحل بينهم وبين تقدس تلك القوة وتمظيمها . تخيلوها قوة خارقة تخافوها ورجوها في آن واحد . وتقننوا في رسوم عبادتها ولكن فرويد شذ عن القاعدة . وراح بخياله المريض يدجل ويشعور وقد قصر فرويد تحليله الجنسي على الأولاد الذكور ، ونسى شعور البنات نحو الأب فلماذا لم يقل : إن البنات كن يتنافسن على أبيهن ولما رأين أن أمههن تحول بينهن وبين الاستئثار بأبيهن قن بقتل أمهن ثم تقدمن على قتلها وعظمن ذكرها فنشأ عن ذلك العبادة والتدين . ثم اتفقن - البنات - على عدم الزواج من الأب تفاديا للصراع بينهن وتفاديا لقتل أمهن ثم سرى التحريم من الأب إلى جميع المحارم من الرجال ، ثم إلى جميع المحرمات والمحظورات . . . 19

مبلغ ظنى أن فرويد كان يبيخ عن سبب وهمي يفسر به ظاهر التدين والدين ليقطع صلته بالوحي الإلهي . فلما وجد ضالته في حب الأولاد الجنسي لأمهم لم يفكر فيما عداه .

بقيت مسألة تحريم المحارم من النساء والرجال . إن مرجعها الوحيد

التشريع الإلهي لحكمة أو لحكم جليلة لا يطمسها دجل فرويد ومشايبعيه
أن لحكمة التشريعية من حظر نكاح المحارم من النساء والرجال لها عدة
مظاهر .:

منها : الاستجابة للفطرة السليمة ؛ فإنها تنفر كل النفور من المعاشرة
الجنسية بين الأولاد والأمهات ، وبين الآباء والبنيات ، وبين الإخوة
والأخوات ، وهكذا سائر المحارم .

ومن : الوقاية من الأمراض التي تلحق بالنسل ، وقد أكدت البحوث
العلمية الحديثة أن زواج الأقارب حتى فيما هو مباح كزواج الرجل من
ابنته عمه قد يصيب أولادهما بالأضرار كالبكم والخرس والكساح .
وأسباب هذه الآفات قد فطن إليها الطب الحديث . فقد يكون في الأسرة
أمراض غير ظاهرة في الآباء والأمهات ؛ لأنها ضعيفة فيهم فإذا تزوج رجل
بأبنة عمه مثلاً فإن نسبة المرض غير الظاهر الذي فيه ، وهي ضعيفة تؤازرها
وتقويها نسبة المرض هذا غير الظاهر في ابنته عمه التي صارت زوجته له .
فيظهر أثرهما في الجنين وتقع السكارثة . وقد عرضت وسائل الإعلام صوراً
متعددة في هذا المجال .

وهذا ما ورد التحذير منه في تعاليم الإسلام : « لا تتزوجوا القرابة
القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً ، أبى نحيفاً هزيباً .

وقد نشرت الصحف عجائب عن زواج المحارم في أمريكا منذ عام
ولا يقدح في هذا أن حالات كثيرة من زواج الأقارب تنخلو ذرياتها من
الأمراض . لأن هذا الإرشاد إنما جاء للاحتياط ووقوع حالة من مائة يسوغ
هذا النصح .

ومنها : أن كمال المتعة في العلاقات الزوجية يكون عند الإحساس بأن كلا من الزوجين كان غريبا عن الآخر ولم تجمعهم إلا هذه العلاقة الطاهرة السكرية . وإرجاع هذا إلى أسبابه من علم النفس ميسور ومقبول .

ومنها : لإفساح المجال بين أفراد الأمة وأسرها لتكوين علاقات ودية وثيقة بينهم ، وإشاعة جو من الترابط تزيد به الأمة قوة لما يعتقد بين الأسرتين اللتين يتصاهران بزواج أبنائهما من ألفة واتحاد وتعارف . وقد روى عن بعض السلف أنه قال : كان بنو فلان من أبغض خلق الله إلى . فلما تزوجت منهم صاروا من أحب خلق الله إلى .

ومنها : تفادى اختلاط النسب : فمثلا إذا تزوج الرجل أمه فإن ولده منها يكون ابنا لها وتكون هي جدته في نفس الوقت . ويكون ابنه له وأخا في نفس الوقت ويكون بالنسبة لأخى أبيه أخاه من أمه وهو عمه بالنسبة لأبيه ١٩ وإذا كبر لهذا الولد وولد له ولد . فإن أباه يكون عمه بالنسبة لأنه أخو أبيه لأمه ١٩ .

وأما أبو أبيه فيكون جده وعمه في آن واحد ، لأنه أخو أبيه من أمه ١٩ وهكذا سلسلة من الفروض لا حد لها . ويظهر أثرها السيئ في توزيع التركة وهو نظام لا بد منه في حياة الأفراد والجماعات .

من أجل هذه المقاصد السامية كان تحريم المحارم ، وهي مقاصد لا يدركها العقل البشري وبخاصة في الحالة البدائية ، التي يتحدث عنها فرويد ذروا واختلافا .

وبعد هذا كله ، فإن لفرويد اعترافا جملة عليه جلال الحق يجعله أكبر معبر في هدم هذه الأوهام التي طغ بها حيننا من حياتنا :
« ولا شك أن ذلك كله فرض . فلا أنا ولا غيري يملك التعمين في مثل

هذه الأمور؟ ولكنه فرض (معقول) توحى به طبائع الأشياء . وليس
هناك يقين قاطع بنفيه ويطيب لنا - الآن - أن تردد قول الشاعر :
والدعاوى مالم يقيموا عليها يثبت أنبأؤها أدياءا

وسدق الله العظيم :

« إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ... »

أثر الفرويدية في الفكر العلماني :

العلمانية - كما عرفت - تحاول جاهدة أن تنفي كل مالا يقع تحت الحس .
وقد أمدها فرويد بما يزيد لها ضلالا . فكما أن داروين من قبل قد نفى الخلق
سبحانه وجعل خلق الكائنات أثرا من آثار تطور الطبيعة في الكائنات
العضوية فإن فرويد - ينفي هنا - القيم الروحية والدينية في سلوكيات الإنسان .
فمكل ما في المجتمعات الإنسانية من أخلاق وسلوكيات وتدين مرجعه إلى
الغريزة الحيوانية البهيمية في الإنسان باعتبار الإنسان في أصله فصيلة حيوانية
لأ تأثير عليها إلا من الناحية المادية فلا وحى ولا دين ولا قيم روحية خارج
المادة تصرف الإنسان وتحمكم تصرفاته . وهذا هو بعينه ما تنادى به العلمانية
الجاهلة . ١٩٠

البراجماتية :

في نظرية داروين رأينا من يقول للناس : ليس لكم خالق غير الطبيعة .
وأنكم من سلسلة الحيوان البهيمى ، وأنتم والقروء شقيقان ، وقد اختارتكم
الطبيعة عن طريق الانتخاب الطبيعي نتيجة للصراع الذى دار بينكم وبين
منافسين لكم هم أدنى منكم بدليل أنكم باقون ، والبقاء في قانون الطبيعة
لا يكون إلا للأصلح ؛ فأنتم أصلح من منافسكم بدليل أنكم باقون ، وباقون
لأنكم أصلح وأنتم الآن أصحاب السيادة في الحياة ومع هذا فلا تأمنوا مكر

الطبيعة فقد تبدل الأحوال وتكون ، السيادة ، لقطة أو لفار . فليس في الطبيعة حقيقة ثابتة . وأنتم قد وجدتم بفعل التطور الطبيعي وليس للطبيعة قصد من وجودكم ، وليس لكم غاية تسعون إليها ١٩ .

وفي نظرية فرويد وجدنا من يقول للناس : ليس لكم مصدر للإلزام الخلق والسلوكي إذن ليس لكم مجاز بالخير خيراً ، ولا، عاقب على الشر شراً . سلوكياتكم مبعتها الفرائز الحيوانية وعلى الأخص الغريزة الجنسية ، والدين من اختراعكم أنتم أحللتهم ما أحللتهم ، وحرمتهم ما حرمتهم ودينكم هذا ظاهرة مرضية أشبه ما يكون بالمرض العصبي والنفسي ولا بد من اجتياز الدين وتركه عندما تبلغون كمال النضج ثم جاءت البرجمانية أو الفلسفة العملية النفعية هلي يديو ولهم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠ م) ولها رواد من قبله ومن معاصريه ومن جاء بعده مثل فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٣٦ م) وبرجسون (١٨٥٩ - ١٩٠٣ م) وجون ديوى (١٨٥٩ - ١٩٥٣) وتقوم البرجمانية على أن الحقيقة غير ثابتة وليس لها مصدر علوي بل هي من اختراع البشر . وليس في الوجود خير بذاته ولا شر بذاته ، ولا حق ولا باطل . فما هو خير في حالة هو شر في حالة أخرى ، وما هو شر في ظرف هو خير في ظرف آخر ، وكذلك ما هو حق قد يكون باطلا وما هو باطل قد يصير حقاً بحسب الأحوال والظروف . والكون في البراجمانزم غير متناه ولا هو زائل ١٩ .

فليست الحقائق مبادئ ضرورية يلتزم بها الإنسان كما يقول العقليون ، ولا هي ناشئة عن تأثير البيئة في السكان الخي كما يقول التطوريون ، ولكنها من اختراع الإنسان نفسه .

والكون إذا كان فيه إله ، فهو إله محدود متناه هو جزء من البشر والبشر جزء منه . بقول هنري برجسون أحد البراجمانيين :

« الحقيقة اختراع شيء جديد لا اكتشاف شيء سبق وجوده ... ونحن

نخترع الحقائق لنستفيد من الوجود ، كما نخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم قوى الطبيعة .

« ولا بد أن يكون في أجزاء الوجود . . قوة كامنة متشابهة في الجميع هي الحياة ، وهذه الحياة تخلق فيما تحل فيه ميلا خاصا وتوجيهاً معيناً يؤثران في كل جزئ من جزئياته . . . وليس ثمة قوة خارجية تعمل على التطور . . . »

« لقد فكرنا أولاً أن هناك إرادة شبيهة بالإنسانية تحرك الأشياء وتستخدمها في لعبة السكون . . هناك تصميم وقصد للأشياء ، ولكنه في داخلها وليس خارجها ، (٧٥) .

هذه الأقوال تريك في وضوح أن هنري برجسون يحل الحياة محل « الإله » والحياة عنده هي المحرك للكون . وهي قادرة - عنده - على استرداد نفسها ولعله يريد بهذه العبارة أن يفسر أسباب ظاهرة الموت ليسد الطريق أمام الإيمان بما وراء الطبيعة أو القوة الخبوية التي أحس بها الإنسان منذ أقدم عصور التاريخ فما دامت الحياة هي التي تأتي وتعود فليس وراءها خالق إذن ، ولا متصرف فيها باعتبارها مظهراً من مظاهر الوجود .

وهذا الذي يقوله برجسون ترجمة حية لفلسفة وليم جيمس . وخلاصتها أن الخير والشر يقاس بنتائج الفكر والعمل ، لا بالمصدر الذي نتج عنه . فكل فكر أو عمل يحكم عليه بعد وقوعه ، فإن حقق منفعة فهو خير ، وإن ترتب عليه شر فهو شر . وهذه النظرة شديدة الشبه بما قاله ميكيا فيلبي من قبل « إن الغاية تبرر الوسيلة » ١٩

حتى صفات « الله » على فرض وجوده ووجود نيته عند وليم جيمس فيها - عنده - صفات ميتة (١١٩) لأنها لا تحقق نفعا للناس ١٩ .

(٧٥) قصة الفلسفة (٥٦٤) ول ديورانت .

وفي مقدمة الصفات الميثة - عند جيمس - وحدانية الله ١٩ استمع إلى ول ديورانت وهو يروي عن جيمس قوله :

« من العبث أن يقال : إن هذه الفوضى التي نعيش فيها من صنع إرادة واحدة .. والكون يقدم لنا أكبر دليل على التناقض والتعارض .. قد يكون الأقدمون أعقل منا وأحكم ، وقد يكون تعدد الآلهة أصدق وأحق من وجود إله واحد ... لقد كان الاعتقاد بتعدد الآلهة هو الدين الحقيقي بالنسبة إلى عامة الناس دائماً ولا يزال كذلك ١٩ والناس على صواب والفلاسفة على خطأ .. » (٧٦) .

ويروي عنه - كذلك - تعاقباً على أن الله موصوف بالسكالات والقدرة والأبدية عند الفلاسفة والمتدينين ، يقول فيه :

« هي صفات عظيمة جميلة ، ولكن ما معنى هذا ؟ وما هي النتائج بالنسبة لنا نحن الناس ١٩

وبعد سلسلة من التساؤلات ينتهي إلى هذا القرار :

« ولدينا طبعاً لا نقبل مثل هذه الفلسفات السكشبية القائمة ... إن الحياة تتجاهلها وتغمرها وتجاوزها » (٧٧) .

ورجل هذه عقيدته في الله لا يرجي منه أي فكر مؤمن أو عمل محمود . وقد طبق البراجماتيون مذهبهم هذا في عالم النفس كما طبقوه في العقائد والأخلاق ، وضابط العقيدة والخلق عندهم أن كل عقيدة أو خلق حقق لصاحبه نفعاً فهو مقبول وخير وحق . ولو كانت الحقيقة تخالف ذلك .

(٧٤) نفس المصدر (٦٢٠) وإنما كان الفلاسفة على الخطأ عنده ؛ لأنهم يؤمنون

بإله واحد والإيمان بإله واحد نوع من الأمراض عند وليم جيمس ١٩

(٧٧) نفس المصدر (٦١٨ - ٦١٩) .

وكل عقيدة أو خلقى جر على صاحبه ضرراً فهو مرفوض وباطل ولو كانت الحقيقة على خلاف ذلك فالذى يموت فى سبيل الدفاع عن عرضه - مثلاً - منخطىء وشجاعته وغيروته باطل وشراً لأنه أدى به إلى الموت . أما بالنسبة لقاتله فهو خير وحق لأنه أزاح خصمه من طريقه وأنسخ لنفسه - بقتله - مجالاً للمنفعة ١٩

وحين طبعوه فى مجال عم النفس ذهبوا إلى العكس من الواقع . جيمس يقول : إذا رأيت ذنباً فهربت منه تولد عن هروبك منه خوفك من الذنب . وبأدنى تأمل ترى أن جيمس قد عكس الحقائق هنا، وجعل السبب مسبباً والمسبب مسبباً . فإن الخوف هو سبب الهروب ولو لم تخف من الذنب فإنك لم تهرب . وجيمس يقول لك : إن هروبك من الذنب نتج عنه خوفك منه ١٩

إن المذهب العملى الذى نادى به جيمس يجعل الحقائق نسبية على حد القول : مصائب قوم عند قوم فوائد . وقيمة العمل تقاس بعد ظهور نتيجته . فقياس الخير هو الثمرة أو النتيجة الناتجة عن العمل . وليس مقياسها العقل أو الدين والوجدى . . ١٩

لذلك فإن القوة والبطش عند البراجماتيين هما دعائما الإيمان الصحيح الذى يواجه به الناس الحياة . ويروون فى هذا عبارة عن رائد البراجماتية الأول فرنسيس بيكون إذ يقول : د إن المعرفة هى القوة ، (٧٨) ١٩

تعقيب :

إن البراجماتية على الصورة التى عرفناها ترجع بالبشرية إلى شريعة الغاب كما يقولون أو إلى مجتمع حيوانى لا يعرف إلى الفردية وإشباع الرغبات . القوى فيه يبطش بالضعيف ، والسيد هو الغالب فى حلبة الصراع . ١٩ . وكان البراجماتى يقول لك : إفعل ما شئت إذا كان فى الفعل خير لك . ولا تنقيد بأية قيود تفرض عليك نمطاً معيناً من الأخلاق ١٩

(٧٨) وما دامت المعرفة هى القوة فإن الجاهل القوى هو سيد العلماء ١٩

وأين يكون هذا التخریف من منهج الإسلام الحكيم القائم على الإيمان بالله وما جاءت به رسله وعلى الإيمان بالثواب والعقاب الآخرویین .

العمل في الإسلام :

ان العمل في الإسلام ثلاثة أنواع :

١ - مباح : وهو كل عمل حقق لهامله نفعا ولم يترتب عليه إضرار بالآخرین .

٢ - واجب : وهو كل عمل توقف عليه صلاح الفرد والجماعة .

٣ - محظور : وهو كل عمل ترتب عليه ضرر لهامله أو للآخرین .

ولنأخذ لذلك - مثلا - رجل يقود سيارته لينذهب إلى عمله « البعيد » في وقت معين رأى الطريق مزدحما بالناس ، فإن أسرع كان الإسراع في مصلحته ، وإن أبطأ كان الإبطاء في مصلحة المارة .

هب أن هذا الرجل أخذ يوازن أي الأمرين يسلك : تقديم مصلحته على مصلحة المارة أم تقديم مصلحة المارة على مصلحته ؟

البراجماتية تقول له : سر مسرعا فإن في الإسراع منفعة لك ولو حطمت المارة تحت عجلات سيارتك ؟

والإسلام يقول له : لا تسرع حتى لا يكون في إسراعك إزهاق لأرواح المارة فإن الضرر الناجم عن الإسراع أضعاف أضعاف ما سوف يحققه لك من منفعة ؟ فأى المنهجين أولى بالتقدير والاحترام .

وهب أنك تمر في الطريق - راجلا - لإدراك منفعة خاصة بك . وأبصرت من بعيد رجلا أعمى يقدم على بئر . فإن الإسلام يوجب عليك التوقف لإنقاذه ولو أضر ذلك بك . والبراجماتية تدعوك إلى إدراك منفعتك ولو تردى الأعمى في البئر ؟ فأى المنهجين ألزم بالإتباع يا ترى ؟

إن الإسلام يرسم خريطة العمل اليومي للإنسان الراقى ، ويضع أمامه النور الأخضر لإذانا بسلامة السير . كما يضع أمامه النور الأحمر إذا كان في استمرار السير خطر .

العمل في الإسلام ، مقدس ، ولكنه العمل المهنى لا العمل الحيوانى
الباطش المدمر والإيمان بالثواب والعقاب الآخر وبين ، وبإله قدير مطلع على
ما يفعل عباده هو الطريقه المثلى لإصلاح الفرد والجماعة . بل والامم . وهذا
ما كفه الإسلام على أبداع صورة ، وأحكم منهج .

وشعور الإنسان بالحرية المطلقة فيما يعمل وما يترك شعور مدمر لحياته
ولحيات بنى جنسه . معطل للطاقت الخلاقه فيه قاتل الإحساس
بالمسئولية التى هى أخص خصائص الإنسان فى الوجود .

نموذج من التوجيهات الإسلامية الراقية :

د قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشرکوا به شيئاً ، وبالوالدين
إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقک وإياهم ، ولا تقرهوا
القواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق .
ذلكم وصاكم به لعلکم تعقلون . ولا تقرهوا مال اليتيم إلا بالئى هى أحسن
حتى يبلغ أشده ، وأوفوا السكيل والميزان باقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها .
وإذا ألتتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلکم
تذكرون ، .

إن هذه التوجيهات - وهى قل من كل - حين يرعاها مجتمع فلن يكون
فى الوجود مجتمع أرقى منه ، وأنفع منه وأجدى لبنى الإنسان . وعلى هذا
المشوال ترقى الإنسانية وتسهل لا بما يقوله الجهلاء وإن ظنوا أنهم من أهل
العلم والريادة والتوجيه .

دور البراجماتية فى قيام العلمانية الجاهلة:

لسنا فى حاجة إلى تذکیر القارىء بحقيقة العلمانية بعد ما تقدم من أمرها .
ولسنا فى حاجة إلى تبصيره بعلاقة البراجماتزم بالعلمانزم . فيکفى أن يدرك

القارىء أن البراجماتزم لا يقوم على وجود الله ، ولا تسمح له فى تصوراتها المريضة بأى نوع من السلطان على الإنسان فهو حر طليق يفعل ما يحلو له ، وقد حطمت البراجماتزم فكرة الخير والشر فى نفسه . وهذا ما تريده العلمانية . وبالبراجماتزم والداروينية والفرويدية لمكتلمات للعلمانيين ثلاثة خيوط متهرئة تهيأت هى انسيج بينها العنكبوتى منها ومن خبوط متهرئة مثلها سياتى ذكرها بعد قليل .

العقد الإجتماعى :

العلمانية - كاسيأتى - نظام مفكك متبرى . فام إما على حقائق علمية صحيحة ، ولكنه خطأ فهمها وانحرف بها إلى غير الجهة التى تهدى إليها . وإما على فروض علمية واهية أو تخيلات تاريخية تملقها بدون تمحيز فأسمحت حين - وضعها لبنة فى بنائه المتداعى - فى تهديمه .

وقد سبق أن العلمانية تذرعت بالكشوف العلمية التى توصل إليها كل من كوبرنيك وبرونو ، وجاليليو ، وإسحق نيوتن ، وهى كشوف صحيحة . ولسكن العلمانيين انحرفوا بها عن الجادة .

كما تمسك العلمانيون بنظريات داروين وفرويد ووليم جيمس ، وهى أوهام منسوبة إلى العلم . ومن سوء حظ العلمانيين أن ما يعتمدون عليه من هذه النظريات ليس له سند علمى يقوم عليه . وإن كان فى بعض هذه النظريات لقطات يمكن إسنادها إلى العلم . وقد مر بك الحديث عن كل أولئك .

أما الأوهام التاريخية فهى التى كونت « نظرية العقد الاجتماعى » فى نظام الحكم وهذه النظرية ألصقت بالمفكر الفرنسى : جان جاك روسو المتوفى عام ١٧٧٨ م ، وصارت تنسب إليه عند الإطلاق . علما بأنه لم يكن أول من قال بها . وقد سبقه إلى القول بها ثلاثة معروفون وهم :

١ - هوبرت لانجيه في أواخر القرن السادس عشر . فقد ذهب إلى أن كل حكومة تستند إلى عقد بين الله وبين الخلق جميعا . وينشأ عنه عقد آخر بين الراعى وبين الرعية على العمل بأوامر الله ونواهيه . وأن العقد الذى بين الراعى ورعيته غير ملزم لهم . ولهم أن ينسخوه .

٢ - توماس هوبز الانجليزى (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) ويرى أن السيادة مستمدة من نهائد بين الناس على اختيار حاكم يتولى أمورهم لأنهم يخشون بعضهم بعضا لغلبة الشر والعدوان على طباع البشر . ولا يحق لهم بعد أن يولوه أمرهم أن يخرجوا عليه لأن التعاقد عنده هوبز يلزمهم ولا يلزمه . ١٩ ؛ لأنه ليس طرفا فيه ، بل منفذ له ١٩ .

٣ - جون لوك الإنجليزى (١٦٠٣ - ١٧٠٤ م) يقرر أن العقد ملزم للحاكم لأنه طرف فيه - على عكس ما رأى توماس هوبز - ويدخل جون لوك تعديلا على السبب الذى رآه هوبز فى إنشاء العقد ، وهو غلبة الشر على الناس وأن ذلك فطرة فيهم . كما يرى أن الرعية لم تنزل عن كل حقوقها للحاكم بل عن بعض الحقوق ليحفظوا سائر الحقوق .

جان جاك روسو : (١٧٧٩ م) :

جاء روسو بعد ثلاثة مهندوا الطريق لفكرة العقد الاجتماعى بينهم اتفاق واختلاف . فهورت لانجيه يجعل العقد الاجتماعى ناشئا عن عقد إلهى بين الله وجميع الناس . ويرى خروج الرعية على الحاكم إذا انحرف عن الأوامر والنواهي الإلهية أما هوبز فيرى عدم الخروج عليه ؛ لأنه مجرد منفذ وليس طرفا فى العقد ، كما يضيف هوبز أن الإنسان كان فى الحالة البدائية ذئبا على أخيه مطبوعا على الشر . والعقد الاجتماعى عنده عقد مستقل وليس ناشئا عن عقد إلهى كما يرى لانجيه .

ويتفق لوك مع هوبز في استقلالية العقد ، ولكنه يختلف معه في أن الإنسان البدائي ، كان ذمياً شريراً .

أما جان جاك روسو فقد ذهب إلى النقيض من قول هوبز . فادعى أن الإنسان في بدائيته ، كان ملائكياً . وأن تلك الفترة كانت المرحلة الذهبية في حياة البشر .

ولكن الإنسان انحرف عن ملائكيته . أضاع عصره الذهبي (البدائي) متأثراً بعاملين بارزين :

الأول : إنقياده للأطماع والأناثية التي أعقبت المرحلة البدائية ٢٠٠

الثاني : الدين ١٩ يرى روسو أن الدين كان له دور خطير في نقل الإنسان من الصفات الطبيعية إلى حالة من الفوضوية اقتضت وجود عقد اجتماعي لتنظيم حياة الناس ، ومحاولة العودة إليهم إلى الحالة الطبيعية ١١٩٠٠

ظهر روسو في الوقت الذي كان الصراع فيه بين الكنيسة وخصوصاً ماقد بلغ مداه ولذلك كان لنظريته هذه صدى كبير في نفوس المتمردين على الكنيسة حتى صار من أقوى الأسباب الممهدة لقيام الثورة الفرنسية ١٧٩٠ م .

وقد وصفت مؤلفاته بأنها د أناجيل الثورة ، وهذا وصف صادق فيما نرى ؛ لأن أوروبا بعد قيام الثورة الفرنسية لم تسكتف بفصل الدين عن الحياة استجابة لأحلام روسو ، بل اعتبرت الدين وباء فتاكا أخذت تحاربه بكل الوسائل ، وانتهجت نهجا علمانيا ، صرفا . وبفضل نظرية روسو عرفت أوروبا نظام الوطنية ، و القومية ، وإحلالها محل الدين . ثم وضعت هدفها الأعلى الحرص على المصالح الدنيوية المادية التي كانت نظرية العقد من أجلها . وأعرضت عن طلب ملكوت السماء ، أو الحياة الأخروية ؛ لأن هذا الملكوت ، هو بضاعة الكنيسة والكاسدة ، والعقد الاجتماعي لم يبرم من أجله ، وإنما أبرم من أجل الحياة الدنيا ١٩ .

هذه هي الآثار السيئة التي نجمت عن دكفريات روسو والحادياته، وحلا للناس أن يقولوا :

إن الشعب أو الأمة هي مصدر السلطات، والسيادة للشعب . وصارت ديباجة المراسيم والأحكام هي « باسم الشعب » ، وقالوا : « إن هذه هي الديمقراطية ، وهي كما عرفها لذكولن :

« حكم الشعب ، بواسطة الشعب ، من أجل الشعب » .

وقد أسيء فهم هذه الشعارات حتى صارت طازلا سميكا بين الخلق والخالق .

ووجد فيها العلمانيون سنداً قوياً للتخلص من سلطنة الكنيسة أولاً . ثم للتخلص من أي دين بعد التخلص الذي تم - لهم - بنجاح من الدين الذي كانت تدعو إليه الكنيسة .

وإن القاريء الفطن ليلحظ أن الخطرات مقسقة تمام الانساق بدءا من نظرية داروين ثم فرويد ، ثم وليم جيمس ، ثم روسو . وأن هذه النظريات وإن تقدم بعضها على بعض في الزمن فإنها مرتبة على حسب ما ذكرناه عند العلمانيين في مجال التطبيق العمل كما نرى .

موقف الإسلام من هذا العقد :

قلنا إن روسو مسبق بثلاثة مهدوا له القول بنظرية العقد الاجتماعي . ثم نسبت إليه النظرية كما نسبت نظريات كثيرة غيرها إلى غير روادها المتقدمين ، كنظريه التطور المنسوبة إلى داروين ، وهو مسبق لاسابق كما تقدم . وكما نسبت البراجمازم إلى وليم جيمس ، وهو مسبق كذلك لاسابق .

وفي نظرية العقد الاجتماعي هذه، فإن السبق لا يقف عند هوبرت لانجيه بل يتقدمه بزمان طويل .

والأفكار التي تستوضح رأى الإسلام أو حكم الإسلام فيها كما يأتي :

العقد - مصدر السلطات - الإلزام :

العقد : سبق علماء الإسلام مفهومي أروبا في إطلاق اسم « العقد » على تولى المسؤولية العليا في الدولة أو المجتمع .

فقد اتفق مجتهدو الفرق الإسلامية كلها - ما عدا الشيعة - على أن طريق ثبوت الإمامة هو الاختيار والاتفاق ، أي لا النص ولا التعيين . وليس لثبوت الإمامة إلا هذان الطريقان . فإذا بطل أحدهما لم يبق إلا الآخر ، (٧٩) والمراد بالنص والتعيين ، أي من قبل الله أو رسوله . وهذا الطريق باطل ، لأن الله لم ينص على أئمة المسلمين الذين يتولون الحكم فيهم ، وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم على الصحيح خلافا للشيعة .

لذلك أجمع علماء الأمة على أن اختيار الأمة واليا عاما عليهم واتفاقهم عليه إنما هو « عقد » وهو « عقد حقيقي » لا خيالي كما في نظرية روسو وزملائه فالعقد عند روسو مجرد افتراض وهمي لم يقم ، ولن يقوم عليه برهان . أما عند فقهاء الإسلام فهو عقد واقعي له طرفان :

الأول : جماعة المسلمين (الشعب أو الأمة) والثاني : الإمام أو الخليفة . والعقد في الشريعة الإسلامية دراسة الفقهاء دراسة تحليلية رائعة . وقد صور علماء الشريعة الاتفاقات التي تنشئها الإرادات الإنسانية الحرة ، ويتم بها التعامل بين الناس في أحوال خاصة وبشروط معينة على أنها عقود ، وأقاموا نظاما محكما يتألف من مجموعات هذه العقود . وتلك هي التي تكون القسم الأكبر من القانون الإسلامي ، الذي يسمى « المعاملات » ، (٨٠) .

(٧٩) : نظر الإرشاد لإمام الحرمين (٤٢٣) والرد على الباطنية للغزالي (٦٤) .

(٨٠) : نظرية الإسلام السياسية (٢١٤) د/ ضياء الدين الرئيس .

ويقول ابن خلدون في تصوير عقد الإمامة :

« وكانوا إذا بايعوا الأمير ، وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعقد . فأشبهه ذلك مثل البائع والمشتري (طرفي العقد) فسمى (أى عقد الإمامة) بيعة : مصدر باع ، (٨١) .

هذا هو ما اهتدى إليه علماء الإسلام من قديم الزمان ، فسبقوا روسو الذى عرف بأنه « أبو الديمقراطية الحديثة » كما سبقوا : لانجيه وهوبز ولوك وخلا منهم من كل النقائص التى أشرنا إليها عند لانجيه ومن بعده إلى روسو .

مصدر السلطات :

عرفنا أن أربعة من فقهاء القانون السياسى فى الغرب قالوا بنظرية العقد الاجتماعى . واحد منهم - فحسب - جعل العقد مستمداً من الله أولاً ، ثم من الرعية ثانياً . ولذلك نراه قد منح الرعية حق عزل الحاكم ، إذا انحرف عن أوامر الله ونواهيه .

أما الثلاثة الآخرون هوبز ولوك وروسو فقد أغفلوا الدور الإلهى فى العقد . بل إن روسو يذهب إلى أنه « عقد مدنى » ، خالص دعت الحاجة إليه للتخلص من الأثر السئ الذى لحق بالناس من الدين حيث نقلهم من الصفاء الطبيعى إلى حالة من الفوضى بقاء العقد ك محاولة إلى عودة الناس إلى الصفاء الطبيعى . وكان لهذه النظرة فى الغرب مآلها من انتكاسة لم تفق منها أوروبا إلى الآن .

ولمصدر السيادة وضع خاص فى الفقه الإسلامى مما به فوق كل اعتبار وخلاصة مباحث الفقهاء وعلماء الكلام فى هذا المجال هى :

(ا) إن العقد يقوم بناء على إرادة الأمة وبموجبها كوحدة متضامنة لها شخصية مستقلة . فالمسئولية مسئولية الأمة .

(ب) والأمة ترافق من تختاره إماما لها (حاكما عليها) فإذا ثبت فسقه عزله وولوا من هو أصلح منه . وإليك نصهم في هذا :

« إن الأمة هي صاحبة الرياسة العامة ... ولها أن تعزل الإمام لفسقه ،

(ح) للأمة إذا انحرف الإمام انحرافا يستحق به أن يعزل ، فلها الحق في محاكمته بعد عزله ، وإنزال العقاب به .

وبجمل ما تقدم أن للأمة :

١ - تولية الإمام (الحاكم) إذا استوفى شروط الإمامة .

٢ - مراقبته حال ممارسة مهام منصبه .

٣ - تقديم النصيح له وتوجيهه إذا اختلط عليه الأمر .

٤ - عزله إذا لم يستجب للنصح وأتى أعمالا جسيمة مخالفا بها منهج الله .

٥ - محاسبته على ما ارتكب من أخطاء إن لم تكن يسيرة .

إذن فالقول بأن الأمة هي مصدر السلطات قول مقبول في الإسلام بهذا الاعتبار الذي قدمناه ، مع مراعاة التفرقة الدقيقة بين أمرين :

الأول : الأمة مصدر السلطات في التولية والمراقبة والعزل .

الثاني : المنهج الذي يقوم عليه الحكم ، ويستند إليه الحاكم .

إن الخلط بين هذين الأمرين جد خطير . فن فاحية نقول : إن الأمة مصدر السلطات فيكون هذا في نظر الإسلام صحيحا . ومرة نقوله فيكون باطلا ؟

يكون صحيحا إذا قصرنا سلطة الأمة على اختيار الحاكم ومراقبته ونصحده، ثم عزله ومحاكمته إذا ارتكب خطأ جسيما ولم يستجب للنصح وعلى هذا الأساس قال علماء الأمة إن الأمة هي صاحبة الرياسة العامة ولها تكون السيادة وهي مصدر السلطات . قالوا هذا لأنهم لم يخلطوا بين المنهج الذي يكون به الحكم . وبين دور الأمة المشار إليه .

أما إذا فهم أن الأمة هي التي تقرر منهج الحكم بعيدا عن منهج الله فإن القول بأن الأمة هي مصدر السلطات يكون باطلا . إذ ليس للأمة خيار في تحكيم منهج الله . بل حكم الله هو الذي له السيادة بلا مزاحم ولا منازع .

وعلى هذا تصور المسألة في الآتي :

- ١ - دستور الأمة في الحكم هو شريعة الله لا نزاع في ذلك .
- ٢ - الأمة تختار من بينها واحدا ترعاه لدينه وخلقه وشجاعته ليمكون هو الحاكم ، والمنفذ لشريعة الله ،
- ٣ - فالحاكمة - إذن - لله وحده . وتنفيذ أحكام الشريعة كما أنزلها الله هو عمل الحاكم ، الذي تختاره الأمة وتبايعه وتعاونه على أداء مسؤوليته .
- ٤ - لا يفهم - قط - أن للأمة أن تختار دستورا أو قانونا غير منهج الله بناء على أنها مصدر السلطات . والفرق كبير بين السلطة ، وبين «التشريع» أو «الشريعة» فالشريعة جاهزة ، وهي محل إجماع ، بين الأمة لا تغيير ولا تبدل .

أما ما يداله التبدل والتغيير ويخضع لسلطة الأمة فهو أدوات الحكم البشرية .

فن الذى يحكم ؟ على أم سعيد أم خالد هذا صحيح .

أما دستور الحكم فهو د شريعة الله ، قولاً واحداً . وهو المحور الذى نذار عليه عجلة ، العمل الإسلامى . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم : (الكافرون) - (الظالمون) - (الفاسقون) .

على أن عقد الإمامة فى الإسلام الهدف منه حماية الدين وسياسة الدنيا كما يقول الماوردى وليس - كما فهمت أوروبا من عقد روسو - لرعاية المصالح الدنيوية المادية . وهذا من أبرز الفروق بين العقد العام فى الإسلام وبين النظم الوضعية الشاحبة .

اللزوم والتحمل :

رأينا اضطراب مفسكرى الغرب حول : هل العقد لازم أم غير لازم ، وإذا كان لازماً فعلى من يقع الإلزام ولئن التحلل منه ؟

لكننا فى المنهج الإسلامى نرى المرونة التى تدور مع المصلحة وجوداً وعدمها فإذا التزم الإمام (الحاكم العام) بأداء الأمانة وحكم بما أنزل الله بالعدل ورعى مصالح الرعية ، ولم يفرط فى الحقوق ، ولم يضيع الواجبات فله على الأمة السمع والطاعة والنصرة ملتزمين أمامه بما له من حقوق كفلها له العقد الصادر عن إرادة الأمة الحرة .

فهاهنا إلزام أوجب لإزاما : إلزام صدر عن الإمام أنشأ إلزام الأمة أمامه ، فهو ملتزم بما أوجبه عليه العقد . وهم ملتزمون أمامه بالسمع والطاعة ، وليس لهم أن يخرجوا عليه أو يعزلوه مادام على الهدى يسير .

فإذا انحرف ونصح ولم يستجب ، وتمادى فى أخطاء جسيمة ، كان يحل ما حرم الله أو يحرم ما حرم الله خلعتة الأمة وولت غيره ، فعدم إلزامه بمقتضى العقد حلل الأمة من طاعته .

وبهذا فإن الإسلام يقر مبدأ : الأمة مصدر السلطات أو السيادة لكن لا على الاعتبار الذى بنى عليه روسو نظريته فهو لم يفرق بين السلطة والدستور . ونظرية الإسلام السياسية تفرق بينهما . فالأمة ، السلطة ، وليس لها إصدار تشريع مخالف لشريعته . وعقد روسو مقصور على حماية المصالح المدنية الدنيوية وعقد الإسلام شامل لكلتا المصلحتين ، وعقد روسو عقد وهمى لا دليل عليه ، وعقد الإسلام عقد حقيقى ، وعقد روسو مهمل للدين ، وعقد الإسلام قائم على إعلاء كلمة الدين ومستمد سلطانه منه . فكم ذا - ياترى بين العقدين من فروق وفروق ؟

الميكيا فيللية :

من الخيوط التى نسجت منها العلمانية ثوبها البالى القاضح نظرية ميكيا فيللى فى الحكم وميكيا فيللى هو الفيلسوف السياسى الإيطالى نيكولو ميكيا فيللى (١٤٦٩ - ١٥٢٧ م) وقد تقلد مناصب دبلوماسية رفيعة فى حكومة بلاده إيطاليا ، فى ذلك الوقت ولما سقطت جمهورية إيطاليا وعادت أمرة مدينتى التى كانت تحكم إيطاليا قبل قيام النظام الجمهورى فيها ، وتولت حكم إيطاليا من جديد عذبت ميكيا فيللى عذابا ألما ، واضطهدته ثم أفرجت عنه حيث لم تثبت إدانته . وكانت إيطاليا فى عصره ضعيفة سياسيا وعسكريا مع ما لها من حضارة رفيعة الشأن ، ومقسمة إلى ولايات زادت ضعفها ضعفا . هذه الأوضاع انعكست آثارها على ميكيا فيللى الذى كان يود أن يرى بلاده قوية بعيدة عن الفوضى والاضطراب السياسى والاجتماعى والعسكرى .

وقد أخرج ميكيا فيللى عدة مؤلفات الذى يغنينا منها هو كتاب الأمير وهو كتاب فى دفن الحكم ، كما أراد منه مؤلفه . ولكن الرجل كما ساءت سريرته ساءت علانيته . ويتضح لك هذا من آراء ميكيا فيللى فى ما ينبغى أن يكون عليه الأمراء والحكام .

فهو يرى أن على الحاكم أو الأمير إذا أراد لنفسه النجاح أن :

١ - يتصل تماماً من القيم والمبادئ الأخلاقية ١٩٠٠

٢ - يعتمد على القوة والبطش والحداع ١٩٠٠

٣ - يفعل ما يفضى الشعب بقوة ولو مرة واحدة ليخافه الشعب ولا يجرأ على مخالفته ؟

٤ - يحمل الشعب على الخوف منه وعلى حبه إن استطاع ، وإن كان لابد من واحدة منهما فليجأ إلى تخويف الشعب لأن تخويفهم لا يكلفه شيئاً أما حبهم لإياه فإن ثمنه سيكون باهظاً ١٩٠٠

٥ - لا يعتذر للشعب إذا وعدهم بخير ولم ينفذه ١٩٠٠

٦ - لا يؤمن بشيء قط إذا كان الإيمان يعوقه عن تحقيق مطالبه ١٩٠٠

٧ - يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، فإذا كانت الغاية مفيدة للحاكم فلا يعبأ بأضرار الوسيلة مهما عظمت ، لأنها تضر غيره - الشعب - ولا تضره هو ولا حاشيته المخلصة له (٨٢) ١٩٠٠

هذه خلاصة أمينة وموجزة لآراء ميكيا فيللى فى الحكم ، ونصائحه للحكام فى كل زمان ومكان .

وكان لآرائه صدق كبير عند معاصريه ولاحقيه . وقد أطلق عليه والعلاء ، أنه « فيلسوف نصاب آفاق سافل لا أخلاق له » .

وسموا كتابه : الأمير ، بأنه كتاب الطغاة .

موقف الإسلام من هذا التصور :

كان من المتوقع أن لا نعقب على آراء ميكيا فيللى هذه ببيان موقف للإسلام منها . لأن موقف الإسلام إنما يكون من شيء فيه صواب وخطأ ، أو يحتمل

(٨٢) الخالدون مائة أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم (٣٤٧-٣٤٨) ت : مايكل

هارت . تريب أنيس منصور .

أنه كذلك . وآراء ميكيا ، ليس فيها ذرة من الصواب ، ولست أدري لماذا اكتفى المؤرخون الناقدون بوصفه بالكرب والسفالة ١٩ . ولرب كانوا قد وصفوه بأنه « مذهب العقل » لأغناهم عن كل ما ذكروه فيه وفي فكره إن جاز أن يسمى ما صدر عنه « فكراً » ١٩ .

وكان أولى برفيقه علي الطريق « فرويد » أن يحمل « ميكيا » تحميلاً نفسياً ليطلع الناس على « المسخ » الذي أصاب عقله ولـكن فرويد معذور ؛ لأنه نفسه محتاج إلى عالم من علماء النفس يكشف عن الرواسب الخبيثة التي افترست صفات الإنسانية السوية من كيانه الداخلي .

أما أن للإسلام موقفاً بما قال « ميكيا » ، فإن الإسلام يشترط في « الأمير » كل معان الطهر والعفاف والعدل والنزاهة وسلامة الفطرة . بينما « ميكيا » يحمل « أميره » بكل معاني السفالة .

أسس واهية وبناء منهيار :

هنا نحن قد فرغنا من عرض الأسس التي أقام عليها العلماءيون علمائهم الجاهلة وإن كنت - عزيزي القاري - في حاجة إلى إعادة مركرة لما تقدم فهاهي ذى أمام ناظر بك :

أولاً : العلماءيون يحصرون وسيلة المعرفة فيما يدرك بواحدة من الحواس الخمس : البصر ، السمع ، اللمس ، الذوق ، الشم . وبناء على هذا التصور الضيق لوسائل المعرفة أنكروا كل ما لا يرى ، ولا يسمع ، ولا يجس ، ولا يذاق ولا يشم .

فالجيفة - مثلاً - قد استكملت كل مقومات المعرفة عندهم :

لأنها ترى ملقاة على الأرض . وإذا حملها أحد العلماءيين ثم أطلقها من بين يديه ، فهو إذن قد لمسها ، وسمع صوت ارتطامها بالأرض حين ألقتها من بين يديه . ولو ذاق طعمها لوجده متعفنأ ، وهاهو ذا قد اشتم لها رائحة كريهة .

إذن فهذه الجيفة - عندهم - من أكمل صور المعرفة .
أما د الله ، فهو - عندهم - غير موجود ؛ لأن وسائل معرفتهم لم تحققه ١٩
فلا هو مرئى بالبصر . ١١٦
ولا هو يحس بالإصبع مثلا . ١١٩
ولم يسمعوا له صوتا . ١١٩ .
ولم يذوقوا له طعما . ١١٩ .
ولم يشموا له رائحة . ١١٩ .

فالعلمانيون - الجهلاء - يؤمنون بالجيفة الممتلئة إيمانا تزول الجبال ولا يزول
ويكفرون د الله ، كفرا راسخا متأصلا لو تحول كل من في الأرض إلى أنبياء
وحكماء ليحدثوا الإيمان بالله في قلوب العلماء ، لما استطاعوا ؛ لأن
دستورهم الخالد : ما لا يدرك عن طريق الحواس فهو غير موجود . ١٢٠ .
أنهم حصروا معرفتهم في المادة ، وانكروا ما بعدها . وقد تمسكوا بهذا
الاعتقاد وساعدتهم على هذا التمسك ، وقل : الإلحاد نوعان من الشبهات :

الأول : كشوف علمية صحيحة أساء العلمانيون فهمها وعكسوا مدلولاتها
أو نتائجها ومقتضياتها . ككشف كوبرنيك وبرونو وجاليليو من مركزية
الشمس للكون ودوران الأفلاك حولها ومنها الأرض .

وككشف فوتم لقانون الجاذبية . فوقف العلمانيون والجهالة ، عند
ظواهر هذه الظواهر ، وقالوا : إن قوانين الطبيعة كافية بتفسير ما في
الكون من أسرار ، ولاداعى لفرض قوة أعلى والله ، يقال : إنها خالفة للكون
ومدبرة أمره .

وقد لخص هذا الزعم هو دسن فقال : د كل ما في الوجود من أول ذرة
الهباء ، إلى عقل الإنسان محكوم بقوانين ثابتة لا تتغير وبناء على هذا أفلاصانع
للوجود ، (٨٣) . ١٩

(٨٣) العلم في رحاب الله (٢١) طبيب : حسين عباس الأنصاري .

الثاني : نظريات مغلوطة علميا ، ونصورات تاريخية وهمية ، وفلسفات واقعية مريضة تضافت حول شيء واحد هو إزاحة حقائق الدين الصحيح من الوجود ، أو تحييده وعزله عن الحياة . وقد مر بك كل أولئك وهي :

- تطور داروين المزعوم . . ا
- فرويدية فرويد الخبيثة . . ا
- براجماتزم جيمس ومشايبيه . . ا
- عقد روسو الاجتماعي الواهم . . ا
- طغيانية مكيا فيللى الوحشية . . ا

صنف إلى هذين النوعين ما أسفرت عنه الثورة الفرنسية من ارتداد أهل طغيانها محل طغيان ، وباطلا محل باطل . .

هذه هي الأسس التي بنى عليها الفكر العلماني علمانيته الجاهلة وهي أسس واهية كما علمت من التعقيبات التي ذكرناها عقب كل واحد منها . ولذلك فإن البناء الذي شيد عليها انهار وتقوض ، أو وجد - هكذا - منهياراً متقوضاً .

وعما يزيد في « توهين » ما استند إليه الفكر العلماني :

١ - أن مكتشف الكشوف العلمية الصحيحة لم يكونوا ملحدين ولا قالوا : إن كشوفهم ونظرياتهم دليل على إنكار وجود الله . فبرونو آثر أن يحرق ويندس رماده في الهواء .

وجاليليو روى عنه أنه قال وهو خارج من المحكمة التي تظاهر أمامها بأن الأرض ثابتة - كما ترى الكنيسة - وأن الشمس هي التي تدور حولها فأصدرت المحكمة قراراً ببراءته - بناء على هذا التظاهر - قال جاليليو هذا في صوت خفيض وهو خارج من المحكمة : ومع ذلك فإن الأرض هي التي تدور . . ١٤٠

لماذا عادتهم الكنيسة . ؟

ولا يقدح في إيمان هؤلاء الرواد ، إذا لم يرو عنهم كلمة الكفر والإلحاد ،

معاداة الكنيسة لهم؛ لآلق الكنيسة كانت تحمل الناس على الإيمان على مقتضى منهجها ونصورتها المشوشة . وهؤلاء سلكوا طريقا آخر في تحقيق الإيمان . لذلك حاربهم الكنيسة . وما أكثر العلماء غيرهم الذين وقفوا على حقائق الكون ثم ربطوا ربطا قويا بين أسرار الكون التي أدركوها وبين الإيمان الحق بالله سبحانه وتعالى

ومثل هؤلاء العلماء الذين لم يقولوا كلمة الكفر ، مع العلمانيين الذين كفروا لما تعلموا من هؤلاء الرواد مثل سليمان - عليه السلام - مع الشياطين الذين يقول الحق فيهم :

« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا . . . »

ونحن لا ننكر أن بعض العلماء الماديين قد انحرفوا لما وقفوا على بعض الأسرار ؛ لأنهم لم يخطوا الخطوة الأخيرة في مسار العلم فأنخدعوا بما وصلوا إليه من المعارف . ولو أنهم خطوا الخطوة الأخيرة لقدام العلم إلى أروع وأنصح حقائق الإيمان .

ولكن العلمانيين لما وقفوا عندما يدرك بالحواس قسموا المعرفة الإنسانية قسمين كبيرين :

الواقعية والميتافيزيقية :

الواقعية : وهي كل معرفة تقع تحت الحس والمشاهدة، والملاحظة ويمكن إجراء التجارب عليها . وهذا القسم هو المعترف به - عندهم - ومجاله المادة وخواصها الظاهرة الموزعة على فروع العلم المادى مثل : الطبيعة ، والكيمياء والجيولوجيا .

وبناء على هذا فإن الوجود كله محصور في الكون المادى المحسوس . وصلتنا به تكون عن طريق الحواس لمعرفة خصائص المادة واستخراج قوانينها منها وبها وحدها تفسر أسرارها ١٩ .

القسم الثانى : ما وراء الطبيعة من غيبات لا تدرك بالحواس ، وهذه الغيبات
أود الميتافيزيقيات ، نسبة إلى الميتافيزيقا ، وهى المرادف عندهم لما وراء
الطبيعة أو الغيبات ، هذه الغيبات لا وجود لها لأنها لا تدرك بوسائل المعرفة
عندهم .

وفى مقدمة الغيبات :

فكرة د الله ، و د الدين ، و د الحياة الآخرة ، و د الملائكة ، و د الشياطين ،
وكل الأمور العقلية أو الروحية . ولذلك أجمع العلماء على أن الميتافيزيقيا
خرافة ، هذا هو الصرح والعلمانى ، المتداعى بكل تصوراتهم وأوهامهم وأعايطه
وشبه الواهية التى قام عليها .

نقض على نقض :

النقد والنقض شقيقتان يعملان فى مجال واحد هو : الكشف عما فى الشيء
من صواب وخطأ أو خطأ فقط : ولكل منهما النقد والنقض . بعد هذا
التعميم تخصيص :

فالنقد يختص بالعمل فيما فيه صواب وخطأ ليميز بين كل منها .

والنقض يختص بالكشف عن خطأ ما ليس فيه صواب . والعلمانية
بمجموعة أخطاء ليس فيها صواب فهى إذن - من اختصاص النقض ، لا
د النقد ، .

والنقض فى اللغة هو : الإبطال . وهذا هو واقع العلمانية ومصيرها المحتوم
ولهذا أثرنا أن نعدون هذا الفرع بـ د نقض على نقض ، لأننا سنضيف فيه
نقضا للعلمانية فوق د النقض ، الذى تندم لنا عقب كل تصور من تصوراتها
الهزيلة . فليس فى العلمانية شيء يجرى على الإطلاق . فهى باطلة فى أسبابها
وفى تفسيراتها وفى تطبيقاتها . ولن يكون لها وزن مادام فى الحياة عرق ينبض
وعقل يفكر ، وحق يواجه باطلا .

نيوتن والدليل على وجود الله :

قلنا إن « النيو تنية » ، كان قد تزرع بها « العلماءيون » ، على تأصيل الإلحاد ولو كانت نظرية نيوتن سببا من أسباب الإلحاد لكان نيوتن أحق بهذا القول من العلمانيين الذين وجدوا النظرية « جاهزة » ، ولم يعانوا أدنى معاناة في صنعها ، ونيوتن نفسه يتخذ من نظريته أكبر دليل على الإيمان فقد قال حين سئل أن يقيم الدليل على وجود الله :

« لا تشكروا في الخالق . فإنه بما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قاعدة الوجود^(٨٤) ؛ لأن ضرورة عمياء متجانسة في كل زمان ومكان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والامكنة . بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا عن كائن أعلى له قوة وإرادة ... ومن الجمل الواضح أنه لا يوجد أى سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في جهة واحدة ، وعلى مستوى واحد بدون حدوث أى تغيير يذكر . فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه ... »^(٨٥) .

أفلسنت معي في صدق التثمين الذي ذكرناه أنفا : « وما كفر سليمان
ولسكن الشياطين كفروا » .

لا بلاس والدليل على وجود الله :

وينتج العالم القلبي المشهور « لا بلاس » ، صاحب نظرية السيديم نفس المنهج الذي انتهجه نيوتن في إقامة الدليل القاطع على وجود الله فيقول :

« إن القدرة الفاعلة - أى الخالقة - قد عذبت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية ، ومسافاتهما . وثبتت أقطار مدارتها ، ونظمت حركاتها

(٨٤) للعلم في رحاب الله (٥٢) طيب: حسين الأنصاري؛ نقلا عن دائرة مسارف
للقرن العشرين الأستاذ فريد وجدى (١-٤٩٦) ومعنى للضرورة الخلق بالإرادة .
(٨٥) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي نقلا عن : للعلم في رحاب الله (٥٤) .

بقوانين بسيطة ، ولكنها حكيمة . وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس والتوابع حول السيارات بأدق حساب . إن هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله ، لا يعرفه خلل . هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه بحيث لا يمكن أن يحمل على المصادقات .

فهذا عالم كابد شقاق العلم ينفي - في وضوح - أن يكون هذا السكون وليد الصدفة . كما يدعى العلمانيون الجهلاء .

اللورد فانسرت والدفاع من الميثافيزيقا :

اللورد فانسرت من كبار رجال السياسة الخارجية البريطانية ، كان يقدر الدين من ناحيته العمالية . لا يحصر مصدر المعرفة في المادة ، بل يؤمن كل الإيمان بما وراء الطبيعة من عالم رحب فسيح ، ويحمل فقدان الثقة بما وراء الطبيعة كفقْدان الإنسان الثقة في نفسه أموجود هو أم غير موجود ، فيقول : « إن فقدان الثقة بما فوق الطبيعة على سبيل فقدان الثقة بأنفسنا . وكلاهما لم يسعدا أحدا . بل أعقب بعده خللا في ميزان الحياة لم تصلحه مذاهب الشك واللذة (٨٦) » .

صور فانسرت في عبارته الموجزة هذه ثلاث حقائق :

• ضرورة الإيمان بما وراء الطبيعة وتوسيع مصادر المعرفة حتى تشمل كل المعقولات .

• فقدان الثقة بما وراء الطبيعة يعادل شك الإنسان في وجود نفسه ؟
• إن الخلل الذي أصاب الحياة في أوروبا مصدرة انعدام الإيمان بما وراء الطبيعة ، وأن البدائل التي حلت محل ذلك الإيمان من مذاهب الشك واللذة ليس في قدرتها منهج الإصلاح .

(٨٦) عقائد المفكرين في القرن العشرين (٢٢ - ٢٣) .

ويمكننا فلذلك نجد علماء متخصصين في كل فروع العلم التجريبي ينتهون بعد وقوفهم على الأسرار التي أودعها الله في المادة الكونية وخصائصها ونظامها الدقيق إلى وجود الله وراء كل سر من الأسرار . وهذا ينشئ لدينا سؤالا ذا خطر :

إذا كان العلم بكل مظاهره يدعو إلى الإيمان بالخالق المدبر العظيم ، فما الذي العلمانيين على الكفر بالله وبما وراء الحواس من عالم زاهر بالأعاجيب؟ والجواب لا يخرج عن واحد من عدة احتمالات :

• إن العلمانيين وقفوا عند دلالات الحواس ، ولم يستعملوا الملاحظات العقلية . فوقفوا عند الخطوة الأولى ، المبة ، ولم يكملوا الخطوات الباقية في مسار العلم .

والاعتماد على الحواس وحدها فيما هو من أخص خصائصها لا يؤدي إلى معرفة إلا بمعونة العقل . فالعقل يتلقى الإشارات الحسية من أي نوع ثم يفحصها وينسقها بعد أن تتمثل عنده على شكل مدرجات حسية مؤقتة . وهذه هي العملية الثانية في تحصيل المعرفة عن طريق الحواس . ثم يؤلف منها العقل مدرجات عقلية تخزن في الذاكرة بعد زوال الإشارات الحسية التي كونتها والمدرجات العقلية هي المبر عنها بالأحكام المجردة أو القوانين العقلية الكلية .

هذه خلاصة أمنيته لمذهب « كانت » في تكوين المعرفة التي مصدرها الأول الحواس (٨٧) .

والوقوف عند الإشارات الحسية الأولية جهل بمنهج المعرفة الصحيحة . وهذا هو الذي جر العلمانيين إلى هاوية الضلال .

(٨٧) أنظر قصة الإيمان (٢٧٥) للأستاذة نديم الجسر .

وقد جهل العلمانيون ما وصل إليه بسطاء الناس من إنتقال دلالات الحواس إلى قوانين عقلية راسخة ، فهذا قس بن ساعدة الأنثياذى يصل إلى ما وراء الجواس ، وهو عربي لم يدرس علوما ولا فلسفة ولا تتلمذ على معلم يقول : البعرة تدل على البصير ، والسير يدل على المسير ، وأرض ذات ججاج وبحر ذو أمواج ، وسماه ذات أبراج . . . أفلا يدل هذا على العلم الخبير ، ؟

إن النظر الذى سلمه قس نظر ساذج ، والأدوات التى استخدمها فى القياس والإستدلال عادية مألوفة . لأنه لم يحلل مادة فى معمل بواسطة أجهزة دقيقة الصنع . ومع ذلك وصل إلى أرقى ما تصل إليه أذهان وعقول الفلاسفة الحكماء . . ؟

ولو أن العلمانيين - لو كان هذا الاحتمال هو سبب ضلالهم - خطوا إلى نهاية الطريق لسكانوا من أعظم المؤمنين .

• أو يكون السبب هو نقص فى عقولهم لم يمكنهم من إدراك الحقائق من مصادرها الأصيلة . وهذا فيما أرى مجرد احتمال ليس له أثر فى الواقع .

• أو يكون السبب وراء تمسك العلمانيين غاية رخيصة يسعون وراءها وعقد دفيئة مسخت مرأثرهم . والغالب عند الباحثين والمحللين أن الصهيونية العالمية وراء كل مذهب هدام ؛ لأنهم - أى اليهود - كما قلنا مرارا يحملون بالسيطرة على العالم فى يوم ما . كما تعدم التوراة التى حفرها .

ودارس تاريخ اليهود والحن التى مرت بهم يجد أن المناخ صالح جدا الآن يقوم اليهود بهذه المدمرات ؛ لأن تحقيق حلمهم لن يتم فى العالم دين وعقيدة وخلق ونزاهة وعفة .

وبروتوكولات حكماء صهيون خير دليل على كشف نياتهم ، فهم يخططون للخطط فيها لتدمير العالم معنويا قبل تدميره عسكريا وسلطانيا على أيديهم . وبوسائل تدمير العالم معنويا كما ترسمها البروتوكولات هى :

- ١ - إفراغ القلوب من العقائد الدينية .
 - ٢ - إثارة الفتن وتفرقة الجماعات .
 - ٣ - إفشاء الرشوة بين الأفراد على جميع المستويات .
 - ٤ - تزيين الشهوات الجنسية وكل ما يؤدي إليها .
 - ٥ - نشر الإباحية بكل وسيلة ممكنة .
 - ٦ - محاربة الأخلاق الفاضلة .
 - ٧ - خداع الناس بالتنظيمات التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب كالماسونية والروتاري والليونز . ١٩
 - ٨ - توظيف الفنون والآداب لخدمة أطماعهم العالمية .
 - ٩ - تسخير الصحافة ووسائل الإعلام في الترويج لكل ما يخالف الدين ويعرّض على الفساد .
 - ١٠ - ترويج النظريات العلمية والفلسفية الملوحة ، كالداروينية والفرويدية والمسيكيا فيلية والجسمانية والوجودية وكل ما يقوض دعائم الإيمان . وهذا الاحتمال أقرب الاحتمالات في ضلال العلمانيين وإضلالهم . ١٩
- الفلسفات الجسكية والعلم المستنير والدليل على وجود الله :

الفلسفة الإلهية على اختلاف منازعها ، والعلم التجريبي على تنوع مجالاته كلاهما استقر في الهاية على الجسزم بأن الله موجود ، وجوداً يحيط بكل مظاهر الـكون وتديبر أمره بقوة غير متناهية ، وإرادة كلها حكمة واتزان وعلم لا يضرب عنه شيء ، والله هو : العظمة في أكمل صورها .

الفيلسوف قرأ كتاب الـكون في صمت بغير صوت ، والعالم غاص وراء الأسرار في ما أخضعه للتجربة والمشاهدة . وكانت النتيجة الجسمية لكل فلسفة حكيمة وعلم مستنير أن « الله موجود » وهي نتيجة قر عندها عقل

العقلاء . . وركن إليها علم العلماء . وكل عقل لم يهتد إلى الحقيقة ، وكل علم حاد عن الجادة فليس هو بعلم ، بل الجهل بعينه . وكل عقل حاد الطريق فلبس هو بعقل ولا صاحبه به عقل .

يقول بسكال : صنفان من الناس يصح أن نسميهم العقلاء : الذين يخدمون الله ؛ لأنهم يعرفونه . والذين يحدون في البحث عن الله ؛ لأنهم لا يعرفونه ، أجل لقد صدق بسكال . لأن الجاد في البحث عن الله هو لا بد واصل .

وجملة ما لدى الفلاسفة الإلهيين القدماء من أدلة عقلية على وجود الله ثلاثة أو أربعة على التفصيل :

• قانون الوجود .

• وقانون الحدوث .

• وقانون النظام وهو من فلسفة ابن رشد وقد نوعه نوعين :

(أ) قانون العناية أو دليلها .

(ب) قانون الاختراع أو دليله .

فالله موجود واجب الوجود ؛ لأنه لو قدر غير موجود المزم من ذلك محال وهو زوال العالم . والعالم موجود فالله موجود واجب الوجود .

وهذا العالم حادث . وكل حادث لا بد له من محدث قديم لا يتوقف وجوده على وجود غيره . ومحدث العالم هو الله سبحانه وتعالى .

ودليل النظام عند ابن رشد بفرعيه :

دليل العناية : وهو أن كل ما في الكون من المخلوقات موافق لمصلحة الإنسان ودال على عناية الله الخالق به كما بين الله ذلك في كتابه العزيز .

ودليل الاختراع : هو كل ما في الكون من مخلوقات إنما هي مخلوقة لله

فهو الفاعل وخلقها بإرادة حرة . وكل المخلوقات موافقة لمصلحة الإنسان حتى
تركيب الإنسان نفسه وصورته وأعضائه كل هذه مخلوقة مخترعة لله ، وموافقه
لمصلحة الإنسان دالة على عناية الله به .

هذه خلاصة موجزة لما وضعه الفلاسفة الأقدمون من أدلة حول وجود
الله سقناها ملخصة مبسرة بعيداً عن الصياغة الفلسفية الدقيقة توخيا لسهولة فهمها .
ولايكم نموذجاً من الصياغة الفلسفية لأحد طرق الاستدلال لتأمل كيف
عنى العقل الفلسفي بقضية وجود الله سبحانه .

يقول الفارابي :

« إن الموجودات على ضربين : أحدهما ممكن الوجود ، والثاني : واجب
الوجود . وممكن الوجود إذا فرض غير موجود لم يلزم عنه محال .

وليس بغنى بوجوده عن علته (٨٨) . وإذا وجد مصدر واجب الوجود
بغيره (٨٩) لا بذاته .

أما واجب الوجود - الله - ففي فرض غير موجود لزم عنه محال . ولا
هبة لوجوده . ولا يجوز كون وجوده بغيره . . . (٩٠) » .

وكان لفلسفة الفارابي هذه ، وابن سينا وابن رشد دور مهم في الذب عن
صحة العقيدة فأضافوا إلى الأدلة النقلية القطعية الثبوت والدلالة على وجود
الله وكاليات صفاته أدلة عقلية باهرة .

والأدلة النقلية التي جاء بها القرآن الكريم بنيت عليها الأدلة الفلسفية

(٨٨) أي أنه في وجوده منتقز إلى غيره ، وهو واجب الوجود . لأنه سبب
وجوده .

(٨٩) أي ، بالله خالقه .

(٩٠) هو ذوال العالم . والعالم موجود بالله موجود . قصة الإيمان (٥٩) .

والعلمية قديما وفي عصر النهضة الأوروبية . فالنكت صفوة مباحث العقول والعلوم مع المنهج القرآني الحكيم في إقامة أدلة على وجود الله وكأله المطلق . وهذا مظهر من مظاهر الإنجاز العلمي العصري في القرآن الكريم . يقول أستاذنا العقاد في هذا الصدد :

« أما فلسفة القرآن في إثبات وجود الله فهي جماع الفلسفات التي تمتحنت عنها أقوال الحكماء في هذا الباب .

« وأشهر الحجج التي اعتمدت عليها الفلسفة الإلهية ثلاث ، وهي :

« برهان الخلق المعروف عند الأوروبيين بالبرهان السكوني . . وبرهان النظام المعروف عندهم ببرهان الغاية والقصد . . وبرهان الاستعلام والاستكمال المعروف عندهم ببرهان القديس انسلم ، (٩١) .

ويلخص الأستاذ العقاد أو يشرح هذه البراهين الثلاثة بما لا يخرج عن الفكرة التي اهتدى إليها الفلاسفة الإسلاميون من قبل . فيقول :

« ونحو برهان الخلق أو البرهان السكوني أن المتحركات لابد لها من محرك لا يجوز عليه الحركة . وأن المسكنات لابد لها من موجد واجب الوجود . . . وهذا الموجد هو الله .

« ونحو برهان القصد أن نظام للعالم يدل على إرادة محكمة بما فيه من الأسباب والغايات .

« ونحو برهان المثل الأعلى أن العقل إذا تصور شيئا عظيما تصور ما هو أعظم منه . . . حتى ينتهي إلى العظمة التي لا مزيد عليها . والعظمة التي لا مزيد عليها لا تكون مجرد تصور يقع في الوجود ولا يوجد في الواقع . . . فإذن لابد من وجود الله لأنه أعظم الموجودات (٩٢) .

(٩١) الفلاسفة القرآنية (٩٩) وما قبلها .

(٩٢) نفس المصدر يتصرف في الحذف (٩٩) .

وذكر الأستاذ العقاد آيات من القرآن شاهداً على كل بهان من البراهين المتقدمة .

فشاهد برهان الخلق « تخلق فسوي » .

وشاهد برهان القصد « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . شاهد برهان الاستعلاء والإستكمال « ليس كشء شوء وهو السميع العليم » .

والواقع أن الأدلة القرآنية على وجود الله وكلالته لا تقع صورها ومعانيها تحت حصر سريع . وهي أدلة سبقت للعامة كما سبقت للخاصة على حد سواء . خاطبت العقل واستثارت الهمم ، وحركت المشاعر وأبعثت الوجدان ووصفت كتاب الكون بكل ما فيه من مشاهد . فهي أدلة فطرية جمعت بين الإمتاع والإقناع . وسوف نقف عند باقة منها في فصل قال من هذا الكتاب . أما الآن فنزيل وقفنا هذه مع العلمانية الجاهلة بسؤال تحسبه ضربة قاضية لكل أوهام العلمانية والأيدولوجيات المشتقة منها :

السؤال : هل الموجود هو ما يدرك بالحواس تحسب ؟ وأن ما لا يدرك بالحواس غير موجود في أية صورة من الصور ؟

إجابة العلمانيين والحسينيين أو الوضعيين الماديين على هذا السؤال معروفة وهي : لا وجود لما لا يدرك بالحواس . نعم هذه هي إجابتهم فإن أقروا لنا بها لزمهم أن يقبلوا نقضنا الآتي لمذهبهم .

« إن لم يقرروا كان هذا هدماً صريحاً لمذهبهم . فهم مدانون أقروا أو لم يقرروا فإذا قالوا — في حالة عدم الإقرار أن هناك موجودات لا تدرك عن طريق الحواس قلنا : حسناً ما قلتم . فذهب بكم — إذن — باطل مادتم قد وافقتمونا على أن الحواس ليست هي المصدر الوحيد للمعرفة .

وإذا قالوا : ليس هناك موجودات وراء الحواس قلنا : اسمعوا إذن ؟

ما هي الروح التي بها تكون الحياة أم موجودة أم غير موجودة . فإن قالوا : غير موجودة لزمهم أن يفرقوا بين حالتين : حالة الحياة وحالة الموت . وليس إلى هذا سهيل قط .

وإن قالوا : موجودة قلنا لهم : هل أدركتموها بحاسة من الحواس . فإن قالوا : بلى أدركناها بحاسة كذبوا على أنفسهم .

وإن قالوا أدركناها بآثارها وهي الحياة . قلنا : حسنا إن من الموجودات ما لا يدرك بالحواس وإنما يدرك بآثاره . وكذلك الله ، سبحانه . لم يدرك بواحدة من الحواس . وإنما عرفناه واستدللنا على وجوده بآثاره وهي الخلق والتصرف في الكون والتدبير .

وتقول للعلمانيين الجاهل :

افرقوا لنا بين العاقل والمجنون فإن قالوا لا فرق بينهما كذبوا على أنفسهم وإن قالوا إن العاقل من كان عقله موجوداً فيه . والمجنون من ذهب عقله قلنا لهم :

وهل العقل موجود وأنتم لم تدركوه بحاسة من الحواس فكيف أدركتموه فإن قالوا - ولا بد أن يقولوا - أدركناه بآثاره وهي حسن التصرف . قلنا لهم : حسنا ما قلتم . وكذلك الله ، لم يدرك بحاسة وإنما عرفناه بآثاره وهي أعظم وأبهر وأخلد من آثار الروح ومن آثار العقل . فعلام إذن تشكرون الله وما وراء الطبيعة وما أنتم أقررتم أن من الموجودات ما لا يدرك بالحواس وإنما يدرك بالعقل .

وصفوة القول :

أن الموجودات نوعان :

• نوع يدرك بالحواس وهو ما كان متعلقاً بخواص المادة جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً .

• ونوع لا يدرك بالحواس وطريق إدراكه إما العقل ، وإما الوجدان
وبذلك يبطل مذهب العلمانيين من أقصر طريق .

حكمة الحكيم :

فتأمل - معي - عزيزي القارئ، كيف أن الله سلب عباده حقيقة العلم
بالروح وبالعقل معاً . ليثبت حقه ويدحض باطل المبطلين من عباده وذلك
من احتفاظه بحقيقة الروح وحقيقة العقل .

فأرق مخلوقات الله الأرضية هو الإنسان .

والإنسان مكون من جسد (مادة) وروح ، وعقل ،

والجسد بلا روح جيفة منقنة .

فبالروح يحيا الجسد ويرقى .

وبالعقل تحيا الروح وترمى . والروح بلا عقل نوع من السوائم البهيمية .

والروح والعقل أسمى نعم الحياة ، ومع هذا فإن واحدا منها لا يقع تحت

الحواس . وهما أظهر وأسمى مظاهر الوجود . ألفتعساً لكل علماني جاهل ؟!

الشيوعية

الشيوعية : هذا المعنى يعبر عنه بمعدة مصطلحات :

فهو حيننا الشيوعية وحيننا : الاشتراكية العلمية . وحيننا آخر : المادية الجدلية ، ومرة : المادية التاريخية . ومرة : التفسير المادى للتاريخ .

وكل هذه التعبيرات ترجع - فى الأصل - إلى شيء واحد ، هو : المذهب الفلسفى الذى ينسب إلى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) . وكل مصطلح منها منظور فيه إلى معنى خاص فى نظرية ماركس هذا . بيد أن التمييز عنده بـ « الشيوعية » يمثل تلك المعانى كلها لأنه المصطلح السياسى العام الذى عرف به مذهب ماركس الفلسفى . وزاد من شهرته عندما صار لهذا المذهب دولة بعد الثورة الخراء التى قامت سنة ١٩١٧ م وانضوى تحت الإنتاج الشيوعى مجموعة من الدول .

وبعض الكتاب يعبر عن الشيوعية بـ « الإلحاد » الآخر أو « الإلحاد العالمى » ويمكن إرجاع هذه التعريفات إلى عدة اعتبارات :

- فالشيوعية منظور فيها إلى الطابع السياسى .
- والمادية الجدلية منظور فيها إلى المعنى الفلسفى .
- والمادية التاريخية أو التفسير المادى للتاريخ منظور فيها إلى التطور التاريخى الذى توهمه ماركس .
- والاشتراكية العلمية منظور فيها إلى المعنى الاقتصادى فى فلسفة ماركس .
- أما الإلحاد : فنظور فيه إلى عقيدة ماركس وانباعه من حيث الإيمان

باقه وعدمه . وإذا وصف الاتحاد بالأحر فالأحر المراد الرمن إلى خطورة الشيوعية وسفكها للدماء في سبيل غايتها مهما كانت الوسائل الموصلة إليها وإذا وصف الاتحاد العالمي . فلأن الشيوعية تبشر بأن طبقة من الناس « الشيوعيون » طبعا ، سوف تسيطر على « العالم » في يوم من الأيام في آخر مرحلة للصراع حسب « مبدأ » النقيض الذي سطا عليه ماركس من « هيجل » الفيلسوف الألماني ، ثم مسخه بعد السطو عليه كاسميأتى بإذن الله .

وقبل أن نوجز الحديث عن مادية ماركس ، وكيف سطا على أصل المذهب من « هيجل » وعلى أى نحو مسخه بعد السطو عليه كما يمسح كل سائق صورة « المسروق » قبل هذا كله نريد أن تلفت نظر القارئ إلى حقيقة بالغة الأهمية حتى يسير مع هذا « المرص » وهو على بصيرة بحقيقة المادة التي ندرسها - هنا - ويتبين الرابط الوثيق بين مراحل الأيديولوجيات الأروبية في خط سيرها على مسار التاريخ البعيد والقريب .

فقد بدأنا هذه الدراسة بالحديث عن تاريخ الكنيسة في الغرب وعقائدها وتصوراتها العامة والخاصة وسلوكيات رجالها وآبائها ، وصراعاتها مع خصومها ثم سقوطها في النهاية وقد رضيت من الغنيمة بالإياب ، وقد كانت لها الغنيمة خالصة بلا شمر كاء .

وعرفنا أن العلمانية ، بما فيها من صواب وخطأ قبل إلحادها وكفرها كانت ثمرة طبيعية للإنتصار على الكنيسة . وأن قانون « السببية » واضح كل الوضوح بين تعنت الكنيسة وجهلها الذي أدى بها إلى « السقوط » وبين قيام « العلمانية » على النحو الذي بررنا تصويره .

فوقف الكنيسة هو « السبب » وقيام العلمانية ، هو « المسبب » ما في ذلك من شك وهذه حقيقة يجمع عليها كل المنصفين ممن درسوا تاريخ أوروبا الفكرى أو كتبوا حول بهير المعرفة والأيديولوجيات فيها .

ونفس الشيء. يصدق على الصلة الوثيقة بين « العلمانية » و « الشيوعية » مع اختلاف مهم لأقصى غاية .

ذلك أن العلاقة بين الكنيسة والعلمانية كانت علاقة تضاد ونفور ، فقامت العلمانية على أنقاض الكنيسة . وبهذا ماتت فكرة وحيت فكرة هي نقيض لها أو تضاد وورث اللاحق منهما السابق .

أما العلاقة بين العلمانية والشيوعية فهي علاقة توافق وتآلف وانسجام إلى « أبعد حد » فالعلمانية لم تحت في ظل الشيوعية كما ماتت الكنيسة في ظل العلمانية . بل كانت الشيوعية مظلة واقية أو حصنا أميناً للعلمانية وما قامت الشيوعية إلا لحماية العلمانية . وتحضرنى - هنا - عدة تشبيهات لتوضيح العلاقة بين العلمانية والشيوعية اخترت منها الصورة الآتية :

إذا تصورنا العلمانية في صورة « ثعبان » نشأ بلا أنياب فإن الشيوعية هي التي ركبت للعلمانية « الأنياب » لتستطيع « العلمانية » أن تبث سمومها بواسطة تلك الأنياب السامة . فالعلمانية لم تكن ذات خطر قبل قيام الشيوعية بل كانت مجرد فلسفة فكرية تقاوم بالحجة والبرهان . ولما قامت الشيوعية صارت للعلمانية دولة أو دول مسلحة تحكم بالحديد والنار . هذا هو الواقع الذي يشهد كل المنصفين بصدقه .

وفي إيجاز شديد نقول :

إن الشيوعية إنما هي تقنين وتطور للعلمانية خرجت بهما من مجرد تصورات وأهية مقضى عليها بالفشل إلى « كتلة » بشرية عاملة بكل سلاح . ومن أوضح الأدلة على ذلك أن الشيوعية - الآن - مقتولة عقلياً وعلمياً ونظرياً . . . واسكنها « عملياً » قوة ضاربة تخشى سطوتها كبريات الدول .

إذن فالعلاقة بين العلمانية والشيوعية تختلف كل الاختلاف عن العلاقة

بين الكنيسة والعلمانية ، وحسينا هذا في الحديث عن تصوير العلاقات بين المسميات الثلاثة .

بين هيغل وفيتشه :

قلنا إن ماركس استعار أصل مذهبه من فلسفة « هيغل » ثم مسخه وغير معالمة فما هي - إذن - فلسفة هيغل ؟ وكيف وقعت عملية السطو الماركسي عليها ؟

هذا ما نبينه - الآن - ومن الله التوفيق .

فلسفة هيغل :

لهيغل فلسفة ولكنه لم يبدأها من فراغ ، بل سبقه إلى أصولها فيلسوف ألماني آخر فيتشه (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) وكلاهما ، فيتشه وهيغل من أنصار العقل وتؤكد أن تتحد نتائج فلسفتيهما إلا من وجوه وملاحظات يسيرة تفصل بين المتشابهين إلى حد ما .

فقد بدأ فيتشه : نوعان من الفلسفة العقلية المثالية انتهى منها إلى نتائج وغايات محددة . وجاء هيغل فبنى فلسفته العقلية المثالية على أسس فلسفة فيتشه ، ولكنه اختلف معه بعض النتائج كما سنرى .

فلسفة فيتشه التي نهج عليها هيغل :

يرى فيتشه : أن تصور الإنسان لنفسه هو بداية الطريق في فهم العالم الخارجي إلى أبعد حدود المعرفة . وفي ذلك يقول فيتشه ما معناه :
إذا تصور الإنسان نفسه . . . أي إذا « أنا » تصورت : « أنا » فإن هذا المتصور ينتج عنه :

أولا : أن « أنا » هو « أنا » .

ثانيا : وأن ، ما ليس أنا ، هو غير « أنا » ،

إيضاح : هذا الكلام في حاجة إلى إيضاح وكشف . وإيضاحه نقول :

إن لكل كلمة أو جملة معنيين أحدهما يسمى بـ « المنطوق » والثاني يسمى بـ « المفهوم » ، فإذا سألت أحداً من أنت ؟ فقال لك : محمد . فإليك تفهم من هذه الإجابة أن المستؤل هو « محمد » .

وأنه ليس شخصاً « غير محمد » .

والمعنى الأول يسمى منطوق العبارة ؛ لأنه فهم من دلالة اللفظ المنطوق مباشرة ، أما المعنى الثاني فيسمى مفهوم العبارة ؛ لأنه فهم من عرض الكلام لا من لفظه .

وإذا قال لك ناصح : لا تسافر ليلاً وحدك . كان المعنى المنطوق لهذه العبارة : النهي عن السفر ليلاً وحدك .

أما المعنى المفهوم لها فهو : « جواز السفر ليلاً في صحبة جماعة » ، بهذا يتضح مراد فيثشه ، من أن « أنا » ، إذا تصورت « أنا » ، تعج عنه أن « أنا » هو « أنا » ، وهذه هي دلالة منطوق العبارة كما علمت .

أما المعنى الثاني الناتج عن تلك العبارة وهو « أن ما ليس أنا . هو غير أنا » ، فهذا المعنى هو مفهوم العبارة لا منطوقها كما علمت .

وما ليس أنا عند فيثشه ، هو العالم الخارجى عن « أنا » ، فإذا تصورت أنت نفسك بـ « أنا » ، كان ما عداك وهو « ما ليس أنا » ، هو العالم الخارجى كله . وهذا تصوير صادق كل الصدق كما ترى .

ويمضى فيثشه فيقول :

فهنا : « أنا » ، وهنا أيضاً : « ليس أنا » ، ونصور : « أنا » ، يستلزم تصور :

« ليس أنا » ، وهذا كما ترى لإجمال المقدم . وقد فرع عليه فيثشه قوله :

« وإذن ، أنا ، باعتبار أنه يطوى في ذاته وجوده ليس أنا ، هو جامع
الشيء ومقابلته . »

والمراد بالشيء هنا هو « أنا » أما مقابلته فهو « ليس أنا » .

ويستطرد فيتشبه فيرى أن العالم الخارجى المرموز له بـ « ليس أنا » لما
كان « أنا » منظوياً عليه ومستلزماً له فهو - أى العالم الخارجى - من عمل « أنا »
ومن خالقه وإنتاجه ١٩

وإذا جاز لنا أن نختصر الطريق فى الوصول إلى النتائج من فلسفة فيتشه
فإننا نقول :

أن فيتشه استنتج من فلسفته تلك الحقائق الآتية :

• استقلال العقل فى الوجود عن الجسم وأى كائن آخر ،

• وأن العقل هو سيد نفسه ، وسيد غيره « العالم الخارجى » عنه .

• وأن الإنسان حر فى عمله حرية تامة ليس عليه سلطان من خارجه
لأمن الدين ولا من غير الدين .

وقد خرج بفلسفته هذه من دائرة الفكر الفلسفى المجرد إلى عالم الواقع
بما فيه من اتساع واتداد على النحو الآتى :

١ - إن العقل هو وسيلة المعرفة دون ما سواه .

٢ - إن العقل هو سيد الطبيعة « العالم الخارجى » لأنها من خلقه وعمله ١٩

٣ - استقلال الفرد فى المجتمع وصيانة حرمانه .

٤ - إن أصحاب العقول الخلقة يجب أن يسودوا « الجماهير » فى شكل
حكومات يتولاها عظماء القوم . وتكون الغاية هى رقى « الإنسانية »
وسعادتها .

وتقوم فلسفة فيتشيه على (مبدأ النقيض) الذى سلبتضح أمره بعد قليل فى عرضنا الموجز لمثالية هيغل .

هيغل على الطريق (١) :

ولد جورج ولهمم فريدريك هيغل عام (١٧٧٠ م) فى شتوتجارت بألمانيا وتوفى عام (١٨٣٤ م) وكان فى بدء حياته العقلية مؤمنا بحقائق اليونان منكرأ لمعجزات المسيح وألوهيته ولكنه رجع عن هذا وألف الكتب التى تضمنت هذه المعان . ثم بدأ يضع أسس فلسفته على غرار فلسفة فيتشيه . ولكنه أكثر منه وضوحا وشهرة . وتتلخص فلسفته فى التصور الآتى :

العقول الثلاثة :

(إن هناك فكرة مطلقة لها وجود ذاتى أطلق عليها اسم (العقل المطلق) ووجوده ذاتى أزلى قبل خلق الطبيعة . . وهذا (العقل المطلق) هو (الله) ومنه أقيمت (الطبيعة) وهى تغايره تماما ؛ لأنها مقيدة ومحددة ومتفرقة أما العقل المطلق فهو واحد وحده مضاقة عن كل قيد أيا كان . والطبيعة هى (العقل المقيد) .

وبعد ظهور الطبيعة ووجودها انتقلت الفكرة من (العقل المطلق) إلى (العقل المقيد المحدد) : الطبيعة أو الوجود السكونى المشاهد . فالطبيعة - إذن - هى خروج الفكرة من دائرتها الأولى ومن أجل ذلك كانت ضرورة - يعنى لم تصدر عن إرادة - وهذا مما يؤخذ على فلسفة هيغل . ولذلك تعتبر مقابلا ونقيضا للفكرة فى العقل المطلق ١٤ فالفكرة - هنا - انتقلت من المطلق إلى المقيد أو من النقيض إلى النقيض ، فهى إذن - أى الطبيعة أو العقل المقيد - قابل للفكرة فى العقل المطلق . ١٤

(١) انظر فى فلسفة هيغل : قصة الفلسفة (٣٧٥) والفكر الإسلامى الحديث

(٢٥٩) .

ولكنها - أى الطبيعة أو العقل المقيد - أخذت تسعى من جديد لتكتسب الوحدة الأولى التى كانت لها فى العقل المطلق بعد أن افتقدتها فى التفرق فى السكائنات التى تسكونت فى الطبيعة (أجزاء الكون) فوصلت إلى (العقل المجرد) والعقل المجرد يتمثل فى :

القانون ، والأخلاق ، والفن ، والدين ، والدولة ، والجماعة ، والفلسفة والنظام وهكذا .

وسمى هذا بالعقل المجرد ؛ لأنه ليس له وحدة المطلق ولا تقييد المقيد ، أو هو كما يرى هيجل : فيه تقييد بالنسبة للعقل المطلق ، وإطلاق بالنسبة للعقل المقيد (الطبيعة) .

ونلاحظ - هنا - حسب فلسفة هيجل :

أن العقل المطلق احتوى على نقيضه أو مقابله ، وهو العقل المقيد .

وأن العقل المقيد احتوى على نقيضه أو مقابله وهو العقل المجرد .

إذن فالشئ (العقل المطلق) انتقل إلى نقيضه : (العقل المقيد) وهو بدوره انتقل إلى نقيضه (العقل المجرد) .

وبذلك أسفرت فلسفة هيجل عن المبادئ الثلاثة الآتية التى كان فيثاغورس قد قال بها مع الاختلاف فى التسمية • ومبادئ هيجل الثلاثة أسماها :

- الدعوى •

- مقابل الدعوى •

- الجامع بين الدعوى ومقابلها •

وتطابق هذه المبادئ عن مراحل الفكرة عند هيجل هو :

- العقل المطلق دعوى •

- والعقل المقيد هو مقابل الدعوى ؛ لأنه نقيض الدعوى وهى العقل

المطلق •

• الجامع بين الدعوى ومقابلها وهو (العقل المجرد) لأنه يقيّد بالنسبة للعقل المطلق ، ومطلق بالنسبة للعقل المقيد .

فإذا أخذنا مبدأ (النظام) مثلاً فإنه يكون جامعاً للعقل المطلق (الله) وللعقل المقيد (الطبيعة) أى أن العقل المجرد إنما هو جامع لدعوى ومقابلها وقد طبقت هذه المبادئ على عناصر أخرى منها : الماء فقالوا :

إن المادة دعوى ؛ ولأما مقابل الدعوى . ونحول الماء إلى بخار جامع للدعوى ولما يقابلها . وهكذا فى كل شئ . تتصوره فيكون دعوى . وتتصور نقيضه فيكون مقابلاً لتلك الدعوى . ثم تتصور ما يشمل الجالتين فيكون جامعاً للدعوى ومقابلها .

وقد خص هيجل الفكر وحده بفلسفته فالعقلان الأول والثالث أمران فكريان وأن توسطهما (الطبيعة) فهى عنده فكرة لأن ما يتعلق بقوانين الطبيعة يسمى عند هيجل بـ (فلسفة الطبيعة) وما يتصل بجامع الدعوى ومقابلها يسمى : (فلسفة العقل) أما ما يتصل بالعقل المطلق وحده (الله) فيسمى عنده : علم المنطق ، أو علم الوجود أو علم الميتافيزيقا . أو ما وراء الطبيعة كما شاع ذلك عند جمهور المفكرين فهذه الفلسفات الثلاث :

• فلسفة الوجود أو الميتافيزيقا .

• وفلسفة الطبيعة .

• وفلسفة العقل .

هذه المظاهر الثلاثة تتعلق كل مظهر فلسفى منها بما يناسبه من مبادئ هيجل التي أخذها عن سلفه فيتشه . فهو إذن جار على منهجه بيد أن هيجل خالف فيتشه فى :

أن فيتشه يرى أن سيادة العقل بعبادة مطلقة على كل شئ آخر فهو الحق على الدين والوحى . بينما هيجل يرى أن سيادته مقصورة على الطبيعة وحدها دون الدين والوحى . ثم يتفق الفيلسوفان فيما عدا ذلك .

والخلاصة :

• أن كلا من فيثشه وهيجل اعتمدا على مبدأ النقيض في بناء مذهبيهما فالشيء يحتوى على نقيضه ثم يصيران : الشيء ونقيضه إلى ما يجمع بينهما وهكذا في صور متعاقبة بين الكائن ونقيضه في دورات متعاقبة لا حصر لها ، لأن جامع الدعوى ومقابلها ليس هو آخر مرحلة في الوجود بل هو نفسه خاضع لقانون النقيض حيث يتحول نقيضه إلى منافس له ، ثم يجتمعان في جامع جديد وهكذا .

• وأن كلا منهما أعمل منهجه في مجال الفسكرة وانتهيا إلى سيادة العقل سيادة مطلقة عند فيثشه . وعلى الطبيعة وحدها عند هيجل .

وأن هيجل ، وهو الذى استعار ماركس فلسفته لم يهدر قيمة الدين بل كان مبالغا في احترامه وتقديره لدرجة أن نحى العقل ولم يجعل له سلطانا على قيم الدين وتعاليمه . والآن قد جاءت المناسبة لمعرفة فلسفة ماركس وتصوراته

ماركس وفلسفته المستعارة :

ليس لماركس أصول فلسفية خاصة به . وإنما أصول فلسفته مستعارة من فلسفة هيجل التى استخدم فيها مبدأ النقيض ، على النحو الذى أوجزناه . وهذا بإجماع دارسى فلسفة هيجل وفلسفة ماركس ، ولن أجد بيانا أوضح للعلاقة بين فلسفتى هيجل وماركس من التمثيل الآتى :

لو تصورنا أن رجلا صاغ بمهارة فادرة ثلاثة إنادات . فأحكم صناعتها وصوغها ثم وضع الألوان الثلاثة على شكل هندسى بديع أحكم فيه العلاقات بين الألوان الثلاثة ، ثم وضع فى كل إناء منها سائلا معيناً . وراعى أن يكون بين السوائل الثلاثة ، نسباً وعلاقات محددة ، تشارك فى بعض الخصائص وتفتقر فى بعض الخصائص . ثم غفل عنها وجاء رجل آخر فسطا على الأنبة بما فيها من سوائل ومواد ، محافظا على العلاقات الموجودة بين الأنبة ، ثم أفرغ

الآنية الثلاثة من محتوياتها ذات النسب والعلاقات الموضوعية وضماً حكماً متقناً .
ووضع بدله محتويات جد غريبة عن الأولى وهي فيما بينها متنافرة لاذوق فيها
ولا بد يعصمه . لذا تصورنا هذه الواقعة فإن الرجل الأول هو هيجل ، والثاني
هو ماركس ، والآنية الثلاثة هي مبادئ وقيم هيجل ، ومحتوياتها هي الأفكار
المجردة أو المثالية التي كسابها هيجل أصول فلسفته ، لذا تصورنا هذه الواقعة
ظهرت لنا بوضوح انتحالية فلسفة ماركس . وأنه لأفضل له إلا في تفريغ
الآنية من محتوياتها . ثم ملأها بمحتويات كلها غرابية وشذوذ كلها حاول
صاحبها أن يؤلف فيها ظهرت له عيوب ومفارقات .

هذا هو ما صنعه ماركس ، فقد سطا على مبادئ هيجل واستخفا وغير كل
معالمها وأدعى أنه هو صاحب مذهب فلسفي ، لم يسبق إليه وهذا إجمال في
حاجة إلى تفصيل :

والتفصيل :

إن هيجل لا يرى وجوداً لغير الفكرة ، وأنها سابقة على وجود الطبيعة .
وإن الطبيعة من خلق وإيجاد الفكرة المطلقة أو العقل المطلق الذي يرمزه هيجل
عن « الله » وأن العقل المطلق الذي هو - عنده - الله قادر على كل شيء . وعنه
انبثقت كل الكائنات .

بينما يرى هيجل ذلك إذا بما ركس وقد سطا على مبادئ هيجل وأساس
فلسفته وهو استخدام مبدأ النقيض ، إذا به يعكس القضية المسطور عليها
عكساً قبيحاً ، فلا يرى في الوجود وجوداً لغير « المادة » ، الطبيعة ، وأنها
سابقة على الفكرة ، وأن الفكرة أي فكرة ديناً أو غير دين إنما هي من خلق
وإيجاد المادة ، ويجعل المادة هي القادرة على كل شيء ، هي الخالقة والأولية
والأبدية أي أن كل ما قال به هيجل في وصف العقل المجرد (الله) أخذه ماركس
ووصف به الطبيعة وراح - بعد ذلك - يطبق مذهبه المسموخ على أحداث

الكون وتطوره ويرجعها كلها إلى عامل واحد هو : «الاقتصاد» وهو عنصر مادي أقامه ماركس ليشرح على هذه تصورات الفلسفة على شكل تطبيقات وهمية ليس له عليها دليل . لافي ما مضى من الأحداث ، ولا في قنبواته عن المستقبل البعيد والقريب على حد سواء .

وماركس لولا هيجل ليس شيئاً ؛ فقد وجد أصول منهج هيجل جاهزة ومبدأ النقيض هو مركز الدائرة فيها ، ولم يصنع ماركس إلا أن أفرغ مبادئ هيجل من محتواها وصب فيها «ماديتة» ، وهي غريبة كل الغرابة عن مبادئ هيجل ولم يبد بينهما أى انسجام .

يقول لينين وهو واحد من أقطاب المذهب الشيوعي ، ومن كبار مؤسسية في بيان الصلة بين فلسفة ماركس ومبادئ هيجل التي سطا عليها ماركس :

« إن كتاب رأس المال لا معنى له بغير مذهب هيجل القائم على تطور النقااض أو التناقضية » (٢٦) .

هذا اعتراف خطير من لينين بتبعية فلسفة ماركس لفلسفة هيجل ، مع الفارق الكبير بين الفلسفتين : فلسفة هيجل مثالية نجر يديّة محضة . وفلسفة ماركس مادية خالصة وماركس نفسه يعترف بهذا الفارق الكبير بين فلسفته وفلسفة هيجل إذ يقول : « لا يختلف منهجى الجدلى في الأساس عن منهج هيجل فقط ، بل هو نقيضه تماماً ، إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التي يحمدها باسم الفكرة هي مبدعة الواقع الذي ليس هو سوى الصورة الظاهرية للفكرة . أما أنا فأعتقد على العكس أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان » .

في هذه الكلمة الموجزة أودع ماركس جماع الأمر كله في فلسفته فبدنا يرى هيجل أن الفكرة سابقة في الوجود على المادة وأنها صانعة المادة بكل (٧) الإنسانية والشيوعية (٩٩) عباس للنقاد .

صورها وهيأتها وأركانها وأشكالها إذا بماركس يقول : إن المادة سابقة في الوجود على الفكرة وأنها - أى المادة - صانعة الفكرة بكل صورها وهيأتها وأركانها وأشكالها .

وترتب على مقولة ماركس هذه ضلال كبير سوف نعرض لأبرز مظاهره عند الماديين الجدليين أو الشيوعيين .

معنى الجدلية :

نقرب - هنا - وقفة قصيرة حول معنى : المادة ، ومعنى الجدلية لنكون على بينة من الموضوع الذى نحن بصددده .

ومعنى المادة فى أبسط صورة أنها ما يدرك عن طريق الحواس : لمس أو ذوق أو نظر . أو شمع ، أو سمع . وقد يعبر عنها بأنها ماله وجود خارج الذهن ، فأنت مثلاً تمسك الآن بهذا الكتاب : فيدك تلمسه ، وعينك تبصره . فهو إذن مادة مدركة بحاسنى اللمس والنظر .

وفى نفس الوقت لهذا الكتاب وجود خارج الذهن ، أى ذهنك وذهنى وذهن كل من يصور كتاباً ، بدليل أنه يشغل جيز من الفراغ .

أما معنى جدل أو جدلية ، فأصل الجدل هو قتل الحبل باليد لا يقوى ويعتمد ، ثم توسع فى هذا المبدلول فصار الجدل يطلق على المناظرات والبحث والاستدلال بإبداء كل خصم ما عنده من أدلة وبراهين والإحتجاج بها على الخصم الآخر ، ثم يبدأ الخصم الآخر بمناقشة ، أدلة خصمه ويكشف عما فيها من تناقضات ، وبهذه العملية الجدلية أو المناظرة يكشف الحق ويندحض الباطل ، هذا هو معنى الجدل (٢) .

ويرادى كلمة الجدل مصطلح : الديالكتيك ، وهو كما يقول ستالين للزهم الشيوعى المعروف :

(٢) انظر الألسان ج ١٢ ص ١٠٣

« أخذت كلمة ديبالكتيك من الكلمة اليونانية : ديبالغور ، ومعناها المجادلة والمجادلة وكان الديبالكتيك يعنى فى عهد الأولين : من الوصول إلى الحقيقة ، باكتشاف التناقضات التى يتضمنها استدلال الخصم ، والتغلب عليها » .

وسميت المادية الجدلية - يعنى الشيوعية - لأن الديبالكتيك أو الجدل هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة... وقد استخدم الجدل أو الديبالكتيك (٤) عند ماركس وأشياعه كمنهج فكرى طبق على حوادث الطبيعة فصار الطريقة ، المألوفة عندهم لمعرفة الطبيعة .

ومعنى هذا فى إيجاز : أن المادية تعنى أمرين :

أولهما . المادة المدركة بالحواس أو ماله وجود خارج الذهن .

وثانيهما : الحوار أو الجدل حول هذه المادة سمعيا لمعرفة حقائق الطبيعة بواسطة القوانين الخاصة بها ، والى أسفر عنها المنهج التجريبي المناوئ للمنهج العقلى والوحي الدينى .

بجاء استخدام هذا المنهج عند الماديين أو الشيوعيين :

لا يبحث عند الماديين إلا حول المادة وفى المادة ؛ لأن المادة هى الأصل عندهم . والبحث المادى عند الشيوعيين له عدة مظاهر يجمعها - فيما أرى - إلتجاهان كبيران :

أولهما : الإلتجاه التاريخى ، وهو المرموز إليه بالمادية التاريخية .

وثانيهما : الإلتجاه الواقعى ، وهو المرموز إليه بالمادية الجدلية وفى هذين الإطارين يقتصر حديثنا عن الشيوعية تصويرا أو نقدا ونقضا ومناقشة . إذ ليس همنا فى هذه المواجهة دراسة الشيوعية من حيث أنها مذهب فكرى وسياسى .

(٤) المادية الديبالكتيكية والمادية التاريخية يتصرف (١٤ - ١٥) .

ولإنما همنا مواجهاً أصولها ومبادئها على ضوء العقل والعلم والواقع وما قرره الإسلام من حقائق وعقائد .

والإسلام قد استخدم كلا من العقل والعلم والواقع ، مصادر حية في جدله الوجداني مع خصوم الحق . وكثيراً ما أدار معارك الجدلية على هذه المصادر فغلب ولم يغلب ، وقهر ولم يقهر ، وإن يقهر إلى قيام الساعة .

المادية التاريخية :

هذا هو أحد الاتجاهين الكبيرين اللذين كانا مجالاً لبحث الشيوعيين أو الماديين في المادة والطبيعة وحول المادة والطبيعة . والعنصر الاساسى فيه هو الاقتصاد ؛ لأنه المحرك - عندهم - لكل أحداث التاريخ ، وهو أول رابطة ربطت بين البشر - عندهم - ولهم في تحقيق هذا فلسفة عجيبة لأنهم يقولون : « لا بد لأجل الحياة البشرية من أن يكون في مقدور البشر تلبية حاجاتهم الضرورية من المأكل والمشرب والملبس والسكن ؛ لذلك فإن المطلب الأول هو إنتاج هذه الوسائط القيمة بسد هذه الحاجات ، » .

ويرتبون على هذه المقدمة هذا الفرض :

« فالرابطه المادية هي الأساس الأول الذي جمع البشر ، وهي قديمة وجدت منذ وجد الإنسان ، وسابقه على كل رابطه أخرى ، » .

وفي ذلك يقول ماركس نفسه :

« وهكذا فإنه من الجلي تماماً منذ البداية أن ثمة رابطه مادية تجمع بين البشر بعضهم بعضاً .. وهي قديمة قدم البشر أنفسهم ... وبذلك تمثل تاريخاً حتى قبل أن يوجد أى هراء سياسى أو دىنى » .

فالاقتصاد - إذن - هو الرابطه المادية الأولى والوحيدة - عند الشيوعيين - جمعت البشر وكونت منهم جماعة إنسانية قبل أن يكون هراء - هكذا - سياسى أو دىنى ؟

وليس هذا بغريب على تفكير ماركس والشيوعيين عند من يعرف أصول الفلسفة الماركسية التي تقوم على أن المادة سابقة في الوجود على الفكر. وسيأتى بيان هذا الرد عليه قريباً بإذن الله . ولما كان الاقتصاد هو المحرك لحوادث التاريخ فإن الشيوعيين يفترضون أن المجتمع مر بعدة مراحل تاريخية مهددة لقيام النظام الشيوعى العالمى . وتلك المراحل عندهم هى :

- المشاعية البدائية ، ثم انتقلت البشرية منها إلى :
- نظام الرق ، ثم انتقلت من نظام الرق إلى :
- نظام الإقطاع ، ثم تحوالت من الإقطاع إلى :
- الرأسمالية . ونحوالت من الرأسمالية إلى :
- الاشتراكية . أما الاشتراكية فهى المرحلة قبل الأخيرة التى سيأتى بعدها النظام العالمى الدائم ، وهو الشيوعية .

ويفسرون المشاعية البدائية بأن الطغام كان مشتركاً بين الناس جميعاً ولم يكونوا يعرفون نظام الملكية الخاصة ، وكان حصو لهم على الغذاء ارتجالياً يومياً ولم يعرفوا نظام ادخار القوت . وحتى المسكن كان مشتركاً بين عدة أسر ، بل القبيلة كانت تسكن تحت سقف واحد ، ولم يعرفوا التوحيد ، فى الزواج فكان للزوج عدة زوجات ، وللزوجة عدة أزواج .. ١٩

يقول الشيوعيون :

• كان القطيع البدائى أول شكل انتقالى للمجتمع ... ولقد ظهر ذلك القطيع عندما انفصل الإنسان عن الحيوان ؟ .. وما زال باقياً حتى تكونت ملامح الإنسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجى البطئ ، (٥) ١٩

هذا النص يدل دلالة واضحة على صلة المادية التاريخية - الشيوعية - بنظرية

داروين الى سبق ذكرها وكانت إحدى دعائم العلمانية التي استمدت الشيوعية مقدمات وجودها منها .

وبانحلال المشاعية البدائية ، وسبب انحلالها عندهم تقدم الفرد ووصل إلى اختراع أدوات الإنتاج ، عرف الأفراد طريق الملكية الخاصة التي نشأ عنها نظام الرقيق وهو التحول الأول بعد المشاعية البدائية . ثم نشأ عن هذا النظام نظام الإقطاع الذي ظهرت فيه المزارع السكيرية والإقطاعيات . وعن نظام الإقطاع نشأت الرأسمالية . وعن الرأسمالية نشأت النظام الاشتراكية . وكل هذه النظام كانت خاضعة لقانون الصراع بين الطبقات ، وبحكمومه بقانون آخر يطبقون عليه :

قانون : نفي النفي أو صلب الصلب . وسيأتي بيانه قريباً إن شاء الله .

أما النظام أو التحول العظيم عندهم الذي ليس بعده نظام يضارعه ويحل محله فهم النظام الشيوعي الذي سيشطر فيه العمال أو البرولتاريا على أدوات الإنتاج . وبعدها تصبح الدنيا جنة بلا متاعب ولا شقاء ١٩

الوسائل والأهداف :

لما كان الاقتصاد عند الشيوعيين هو (الوقود المحرك لعجلة الحياة) وكانت الأوضاع الاقتصادية الآن تنمى إلى نظامين كبيرين هما : الرأسمالية والاشتراكية فإن الشيوعيين يحملون الرأسمالية وهو النظام الاقتصادي المناوئ لنظامهم كل المتاعب والإنقسامات والشروط التي تنمى بها الآن المجتمعات البشرية . وأصبح للشيوعيين أهداف يحملون بها ويعملون من أجل الوصول إليها ، وهى تعميم النظام الشيوعي في العالم وسيادة الطبقة السكادحة والعمال ، الذين يسخرهم أصحاب رؤوس الأموال في مصالحهم ويحرمونهم من ثمرة عملهم ، ويستأثرون هم بفائض القيمة من الإنتاج فيعيشون في بذخ ورفاهية ، ولا يعطون العمال إلا القليل .

إذن لابد أن يسقط النظام الرأسمالي المتطرف وصولا للغاية المرجوة أو الأهداف الكبرى للشيوعية . وللوصول إلى هذه الأهداف فإن الوسائل المرصدة عند الشيوعيين هي :

• الصراع إلى النهاية مع النظام الرأسمالي وعدم مهادنته في أية صورة من الصور .

• القضاء على الملكية الخاصة قضاء تاما ، وتمكين المجتمع أو الدولة من الثروة القومية .

• محاربة كل العوامل التي تساند الرأسمالية وتساعد على بقائها .

هذا وقد انطلقت أحلام الشيوعية على بعض الشعوب وبعض الأشخاص من المثقفين . وذلك يرجع إلى أسباب سلبية في النظام الرأسمالي الغربي قد استغلتها الشيوعية وركزت عليها في الدعاية والترويج لها . ومن أبرز تلك الأسباب :

١ - ظهور مشكلة البطالة والفقر في دول الغرب بعد الحرب العالمية الثانية في ظل النظام الرأسمالي .

٢ - سوء سيرة دول الغرب في الشعوب المستعمرة ، وامتصاص خيراتها وحرمانها من كثير من حقوقها الطبيعية .

٣ - إظهار التحول من الرأسمالية إلى الشيوعية في مظهر ضروري حتمي سيقع نتيجة للتطور التاريخي المزعوم .

٤ - الترويج لمبدأ (عدم الثبات) نتيجة للتطور ، وإشاعة القول بأن القيم والمبادئ غير ثابتة كالدين والأخلاق والعادات والتقاليد .

• - إنخداع الشعوب الفقيرة بأن الشيوعية ستحل كل مشكلات وتقضي على متاعبها قضاء تاما .

تلك هي الأهداف ، وهذه هي الوسائل إلى وسائل أخرى بخلافها ، الرفاق ، لمحاربة الدين ، وتلويت سمعة المفكرين ، وخلق الفتن والاضطرابات ، وشيوع الإباحية والإستهتار بقيمة المرأة ، وجعل وظيفتها خاضعة لخدمة الإنتاج من حيث إنها مصدر لقاح للرجال .

تطور من نوع آخر :

ولدى الشيوعيين تطور آخر غير تطور المجتمع من الزاوية الاقتصادية من المشاعية البدائية إلى نظام الرق ، إلى نظام الإقطاع ، إلى الرأسمالية إلى النظام الاشتراكي إلى النظام الشيوعي العالمي المرتقب .

وإذا كان هذا التطور الاقتصادي خاصا فإن التطور الثاني عاما ولاكنه على ثلاث درجات لا تنس كما في التطور الاقتصادي . والشيوعيون لما كانوا هم الوريث الشرعي للعلمانيين . فإن التطور ذا الدرجات الثلاث مستعار من تصورات العلمانية بالحرف والمعنى . وذلك إنهم يقسمون تاريخ المعرفة الإنسانية لثلاثة أقسام مرحلية ، أعنى أنه تقسيم زمني لا نوعي . وقد تصوره على النحو الآتي :

١ - ... كانت وسيلة المعرفة الأولى في عصور الإنسان البدائية هي الدين . كان الدين عندهم في تلك المرحلة هو مصدر المعرفة .

٢ - ثم حل محل الدين الفلسفة العقلية ؛ وأقرب شاهد معروف على هذا - عندهم - الفلسفة الإغريقية ومن أقطابها سقراط وأفلاطون ، وأرسطو ، وغيرهم .

٣ - وانتهى دور الفلسفة العقلية كما انتهى دور الدين من قبل . وحلت الفلسفة الحسية أو الوضعية القائمة على المادة المدركة بالحواس محل الفلسفة العقلية التي كانت - بدورها - قد حلت محل المعرفة الدينية . وكان أوجسث كوني - هو حامل لواء الفلسفة الوضعية .

وفلسفة كوفت الوضعية الحسية من ملامات الفلسفة المادية الجدلية التي قامت عليها النظم الشيوعية ؛ وذلك لأن كوفت يرى :

« أن المعرفة الإنسانية تستند إلى علاقات الظواهر بعضها ببعض ، وأنه ليس هناك في دائرة المعرفة مطلق يجهل أساسا لمجهول ١٤

والمبدأ المطلق الوحيد الذي له اعتبار عام هو أن كل شيء نسبي ١٥

وإذن ليس هناك فائدة من الحديث عن الأحوال والعامل الأولى للوجود، ولا عن أهدافها الأخيرة وعسى معرفة الميتافيزيقا والدين ، ١٦» .

ولعل القارىء الكريم قد فطن لماذا حدث الإنسجام التام بين تصورات الشيوعيين وفلسفة أرجست كوفت . وأسباب الإنسجام هي :

١ - إن كوفت يحصر مصادر المعرفة كلها في المادة المدركة بالحواس ويدعو إلى سيادة العلم .

٢ - وينفى أن يكون في الوجود (مطلق) يعنى (الله) نفس وجوده المعلوم الأمور المجهولة ويرى :

٣ - إن كل شيء في الوجود نسبي وهذا هو المطلق الوحيد الذى له صفة العموم .

٤ - والمعرفة المادية التى تأتى من المادة عن الحواس (قوانين الطبيعة) كافية في تفسير مظاهر السكون فلا داعى لإذن لمعرفة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) أو الدين .

هذا هو التقسيم ذو الدرجات الثلاث :

من الدين إلى العقل إلى الحواس والمادة .

وبعضهم يعبر عن المرحلة الأولى (الدين) بمرحلة السذاجة أو البدائية

ومعلوم أن المرحلتين الأوليين قد انتهى دورهما في سلم التطور والرقى في
تصورات العلمانيين والعلمانيين الشيوعيين ؟

ومعلوم - كذلك - أن الشيوعية تهدر قيمة الدين وتلغى وظيفة العقل ؟

قانون نفي النفي أو سلب السلب :

كنت قد حدثتك حديثاً عابراً عن هذا القانون . والآن جاء دوره وبيان
قيمته عند الشيوعيين .

هذا القانون هو من صنع العلمانيين الذين ورثهم الشيوعيون . ومعنى نفي
النفي أو سلب السلب أن كل مرحلة من مراحل التطور اقتصادياً كان أو معرفياً
تعقبها مرحلة أخرى هي أرقى منها وأسمى . أى أن المرحلة السابقة تعتبر نفياً
أو سلباً بالنسبة للمرحلة التي لحقتها . فالسابق أدنى واحط ، واللاحق أعلى
وأفضل . أى أن نفي النفي أو سلب السلب هو إحلال ظاهرة فاضلة ، رفيعة
محل ظاهرة مفضولة منهحلة ؟

وتطبق هذا القانون على مراحل التطور الاقتصادي ينتج :

- أن نظام الرق أفضل من نظام المشاعية البدائية . . ؟
- وأن نظام الإقطاع أفضل من نظام الرق .
- وأن نظام الرأسمالية أفضل من نظام الإقطاع .
- وأن نظام الاشتراكية (المعتدلة) أفضل من نظام الرأسمالية .
- وأن نظام الشيوعية أفضل النظم المتقدمة ، ولذلك فلن يأتي نظام آخر
ينفيها ؟

أما تطبيق قانون نفي النفي على المراحل المعرفية الثلاث فينتج .

- أن الفلسفة العقلية أفضل من الدين ؟

• وأن الفلسفة الوضعية أفضل من المعرفة العقلية ، ومن المعرفة الدينية .
وأن الدين حسب هذا القانون هو أحط الدرجات الثلاث ١٩٠٠

ومن يدقق النظر في هذا يلحظ بوضوح استخدام نظرية داروين في التطور والانتخاب الطبيعي : لأن الطبيعة عند داروين تختار الأصلح دائماً والأصلح في التطور الاقتصادي هو : الشيوعية العالمية ١٩

والأصلح في التطور المعرفي هو المعرفة الوضعية الحسية . ١٩٠٠

ولذلك فلن ينفي الشيوعية نظام آخر ؛ لأنها أصلح النظم ؟

ولن ينفي المعرفة الوضعية الحسية معرفة أخرى . لأنها أصلح المعارف ؟

هذه خلاصة موجزة كل الإيجاز للجانب التاريخي من فلسفة ماركس ،
وهذا الجانب مقصور - كما ترى - على التطور الاجتماعي الاقتصادي . وعلى
التطور الاجتماعي المعرفي .

وهذان المظهران لم يسلم واحد منهما من النقد والنقض والإبطال لامن
خصوم الشيوعية حسب ، بل من الشيوعيين أنفسهم مما اضطرهم إلى الانتقال
من وصف القداسة الذي كانوا يصفونه على قس الشيوعية الأول (ماركس)
إلى موقف الدفاع عنه ومحاولة تنقية فلسفته من الأخطاء الجسيمة التي ظهرت
في أثناء التطبيق وعلى أيدي ناقيديه من غير الشيوعيين .

بين الماضي والمستقبل :

قد يهون الخطب إذا اقتصر النقد الموجه إلى فلسفة ماركس على احزاب
التاريخي الاقتصادي منها لأن ما قاله هو فيه مجرد فروض وتخمينات ترجع
إلى عصور لم يعها وعي التاريخ وعيا كاملاً . ولكن ماركس ورط نفسه في
تنبؤات عن المستقبل بامت كلها - تقريباً - بالفشل وما يزال الواقع حتى في
أقوى المجتمعات الرأسمالية يضيف صور بعد صور من فشل التنبؤات الماركسية

عن الواقع الرأسمالى وصلته بالعمال . وبذلك ظهرت فلسفة ماركس وكأنها مهمات محوم غلبه الوجدع وأفقدته القدرة على ضبط لسانه فطفق يقول وهو لا يدري ما يقول .

مناقشة من وجهة نظر إسلامية :

لا نريد أن نطيل في مواجهة ما تقدم من فلسفة ماركس من وجهة النظر الإسلامية لذلك لن نتعرض بتوسع لمراحل التطور الاقتصادى الخمس التى تصورهما هو وأنباعه ، فالتاريخ الموعول فى القدم لا يملك أحد ومن يدعى أنه يملك القول الفصل فيه فقد تشكب سواء الصراط .
أما أول نقطة تتناولها فى هذه المواجهة فهى :

١ - مأخذ علمى خطير :

نعم : مأخذ علمى خطير تورط فيه ماركس وأتباعه ظانين أن خصوصهم لن ينذبوا إليه أو لم يظنوا ولاكنهم فى حالة بأس لم يكونوا يبالون فيها بما يسفر عنه النقبة أو النقض من نتائج .

فماركس كما علمنا سطا على فلسفة هيكل القائمة على استخدام مبدأ النقيض أو الثنائية المادية . ومقتضى فلسفة هيكل عدم الوقوف عند مرحلة معينة من مراحل التطور .

فالدعوى ، ومقابل الدعوى ينتهيان عند الجامع بين الدعوى ومقابلها وبهذا تم دورة واحدة من دورات استخدام مبدأ النقيض . ثم تبدأ دورة أخرى فيها :

دعوى ، ومقابل دعوى ، ثم جامع بين الدعوى ومقابلها . والجامع بين الدعوى ومقابلها يصبح بدوره - فى عملية جديدة - دعوى لها مقابل جديد وجامع بينها وبين مقابلها جديد كذلك .

أى أن النقيض يعمل على شكل مستمر بدون توقف مادامت الحياة لم تتوقف هذا هو عماد فلسفة هيغل . ولكن ماركس بعد أن سطأ عليها أفرغها من محتواها الفكري كما تقدم وصب فيها محتوى ماديا . وهذا قد أخذ على ماركس من كل ناقد به .

ثم أتبع هذا المسوخ خطأ آخر حيث جمد مبدأ النقيض عند الوصول به إلى الشيوعية في التطور الاقتصادي ذي المراحل الخمس ، وعند المعرفة الحسية الوضعية في التطور المعرفي ذي الدرجات الثلاث . وهذا معناه أن ماركس ، ومعهم كل الشيوعيين ، لم يكونوا موضوعيين ولا أمثاء ولا صادقين في فلسفتهم . بل إن الهوى هو الذي كان يسيطر عليهم حيث أعمالوا المنهج فيما حقق لهم غرضهم . ثم جمدوه أو أبطأوا مفعوله فيما وراءه من ثنائيات وتطورات .

ولو كانوا صادقين في فلسفتهم لأفسحوا المجال لتحول الشيوعية حين يصلون إليها من خلال استخدام مبدأ النقيض إلى نقيض لها تصبح معه الشيوعية دعوى ، ونقيضها مقابل لها . ثم يتحولان : الدعوى ومقابلها إلى جامع بينهما ، وهكذا في سلسلة من الدعاوى ومقابلاتها والجامع بينهما . ولكنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا وهذا يلزمهم - جدلا ومناظرة - بوحدة من انتتير لاثالث لها :

أولاهما : أن يعترفوا بأنهم غير موضوعيين ولا أمثاء في البحث والاستنتاج .

وأخراهما : أن يفسحوا المجال لتحويلات أخرى تأتي بعد الشيوعية إلى نهاية المطاف فإن أقروا بالاولى فهم الخاسرون .

وإن أقروا بالثانية فهم الخاسرون .

وإن لم يقرروا بواحدة منهما فهم - أبداً - الخاسرون .

إن الخسران محالف لهم كتحالفه الظل لصاحبه . وذلك عقي كل مبطل معاند .

٢ - الاقتصاد في سلوكيات البشر :

من أبرز الدعائم التي قام عليها التفسير المادى للتاريخ عند ماركس اعتبار الاقتصاد مصدرا لتفسير أحداث التاريخ . وماركس بهذا القول يناقض سنن الحياة . ولم يستمد في تأصيل نظريته إلى أدلة علمية أو تاريخية صحيحة ، فن حيث الزمان استمد ماركس كما يقول الأستاذ العقاد ملاحظاته من خلال ثلاثين سنة سابقة على القول المنسوب إليه ، وثلاثون سنة ليست تمثل شيئا في تاريخ الإنسانية السحيق الذى لا يستطيع أحد أن يحسده متى بدأ . وكيف بدأ ؟

ومن حيث المسكان فإن ماركس لم يستمد ملاحظاته إلا من خلال المجتمع الغربى فى أوروبا .

وأوروبا ليست هى كل المجتمع الإنسانى .

والعامل المادى (الاقتصاد) مع ماله من أهمية فى حياة الأفراد والجماعات والأمم ؛ لأنه عصب الحياة ، ولا ينمكر تأثيره أحد فإنه ليس المطلب الوحيد ولا العامل الوحيد فى حياة البشر أفراداً وجماعات وأما . بل للإنسان مطالب هى أرقى وأبرز من المطلب المادى .

وقد أجمع علماء النفس على أن العوامل النفسية من الألفة والنفرة هى التى تكون الطبقات البشرية وليس المال الذى يحصر فيه الشيوعيون كل أثر فى تكوين الطبقات ونشوء الصراع .

إن مطالب الحرية الفردية والجماعية ، ومطالب السيادة والاستقلال موضوعة بالدرجة الأولى فى حسابات الإنسان ، وهى مكاسب لا يفرض فيها فرد ، ولا تفرض فيها جماعة . وقد نشأ حرب عوان بين أمتين أو دولتين إذا

اعتدت لإحداهما على حرية الأخرى وعلى سيادتها وسلطانها دون أن يكون للمال أدنى نصيب في البواعث والغايات .

فقد شهد العالم قبل تصورات ماركس عدة ثورات قام بها الأرقاء ضد نظم عاتية وكان الباعث على تلك الثورات مطالب روحية ونفسية واجتماعية :

• حدثت ثورة عارمة في مصر بعد الأسرة الرابعة قام بها الفلاحون ضد طلاب السلطان المتنازعين عليه ولم يقيم بها عمال الصناعة الذين يعمل عليهم ماركس في هذا المجال كل التعويل !

• وحدثت حركة الأرقاء في اسبرطة قبل الميلاد بأربعة قرون وقام بها الفلاحون ضد سلطان زمانهم ولم تخمد إلا بعد عشر سنوات ولم يقيم بها عمال الصناعة كذلك لأن الصناعة لم تكن ذات خطر في ذلك الزمان .

• وحدثت حركة الأرقاء في الدولة الرومانية القديمة في القرن الأول قبل الميلاد .

• وحدثت ثورة الأرقاء في العصر الإسلامي بعد منتصف القرن الثالث الهجري ، وهي المعروفة بثورة الزنج .

حدثت كل تلك الحركات لأسباب اجتماعية ونفسية وروحية وأدبية . ولم يكن للعامل المادى فيها وجود . وحتى لو كان فإنه ليس العامل الفعال في قيام تلك الحركات ولو كانت العوامل الأخرى قد انتفت لما صلح العامل الاقتصادى وحده في قيام تلك الثورات .

وبم نفسر الحروب القديمة بين الفرس والروم مثلاً ؟ هل كانت تقوم من

العامل الاقتصادى وحده؟ أم بسط النفوذ والسيادة ، وهما مطلبان أديان كان وراء قيامها ؟

وكذلك النزعات التى وقعت بين معسكرات العالم فى التاريخ القريب والمعاصر لم يكن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد أو الملحوظ فيها بقدر ما نلاحظ عوامل أخرى لا ترجع إلى العامل الاقتصادى فى قيامها .

والثورات الداخلية التى تقوم فى دولة واحدة من بعض بنيتها قد تكون - وقد تكون كثير - لقضاء على فساد استشرى فى الدولة ، أو تلبية لطلب من حرية بنيتها دون أن يكون للعامل الاقتصادى فيها أى دور يذكر .

إن عشرات الوقائع التاريخية فى القديم والحديث تكذب - بصراحة - مدعىات ماركس والشيوعيين وتسقط الفلسفة المادية من حساب الفلسفات الصحيحة والسبب الوحيد عند الشيوعيين فى الإصرار على أن العامل المادى هو السبب فى نشوء الصراعات بين الأمم والشعوب ، أن الشيوعيين لم ينظروا إلى الإنسان على أنه إنسان له بجانب مطالبه المادية مطالب روحية أدبية إذا افتقد شيئاً منها ثار من أجلها ثورة لم يثرها الجوع أصابه . أو حرمان نزل به وحتى ثورته من أجل مطالب مادية سببها أنه يشعر بأنه قد هضم حقه واعتدى على كرامته .

نظر الشيوعيون إلى الإنسان على أنه د حيوان ، يعيش ليأكل ويأكل ليعيش وقد حصر البيان الشيوعى مطالب الإنسان - كما هو معروف - فى ثلاثة : هى فى الواقع مطالب للحيوان الأعجم ، وهى :

المسكن ، والمأكل ، والجنس ، ولم يروا الإنسان مطلباً آخر سوى هذه المطالب الثلاثة .

وقد أخطأ الشيوعيون حين حصروا مطالب الإنسان في هذه الماديات ولو كانت فعلا هي كل مطالبه فما الفرق - إذن - بين الإنسان وبين ذئب يطلب فريسة يملأ بها بطنه ونخبأ يأوى إليه . وصاحبة من بنات جنسه تكون له موضع لقاح ؟

فالفشل لازم للتفسير المادى للتاريخ من الناحية الاقتصادية . فقد سقنا عدة أمثلة على فشله ، وعلمنا أن الفطرة الإنسانية لها مقدمات سوى المال قد تدفع المال ثمننا للحفاظ عليها . وقد أدرك هذا المعنى الفطرى شاعر عربى قديم حيث قال :

أصون عرضى بمالى لأدنسه لا بارك الله بعد العرض فى المال
وعلى نفس المنهج يقول شاعر آخر :

ولم يحفظ مضاع المجد - دنى من الأشياء كالمال المضاع

بحرية العقيدة ، وحرية الرأى والقول ، وحرية العمل ، وحرية التملك ، وحرية التصرف ، هذه كلها مطالب إنسانية خالقة أن تنشب من أجلها الحروب ، وتبطل الدماء ، ويرخص المال .

وما أصدق من قال :

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

٣ - حرية التملك :

ومن أقتل المقاتل التى منيت بها الفلسفة المادية الشيوعية من وجهة النظر الإسلامية أن الإسلام قد لبى مطالب الفطرة الإنسانية ، حين وضع الفرد موضعه اللائق به بين الجماعة الإنسانية . فأباح له فى حدود مناسبة جدأ حرياته الشخصية ومن أبرزها حرية التملك والعمل . ولأنه لا حرج عليه فى تصرف لم يؤد إلى الإضرار بالآخرين .

الشيوعية تلغى الملكية الخاصة لإلغاء تماماً ، وتنسب لإنها كل صنوف الظلم وتمنح الدولة حق السيطرة على كل الموارد الفعالة على أن يكون الفرد أجيراً عندها يعمل بما تمكنه منه طاقاته ومواهبه ، ولا يعود عليه من ثمرة عمله إلا ما يسمح به نظام الدولة من ضروريات ، وتحظر عليه أن يمتلك شيئاً ذا قيمة مؤثرة في عجلة الإنتاج .

بينما أباح الإسلام الملكية الخاصة أو الفردية . وجعلها هي الأصل وما يخرج عنها هو الإستثناء .

ولم يكف الإسلام بإباحة الملكية الفردية بل شرع لها الضمانات الواجبة لحمايتها إذا اعتدى عليها معتد ، فشرع حد السرقة وضمان المسال المتلف على من أتلفه

والملكية الفردية في الإسلام تمنح صاحبها عدة حقوق ترجع في الأصل إلى أربعة حقوق هي :

- ١ - حق الدوام . فله الملك أن يحتفظ بملكه طول حياته .
- ٢ - حق حرية النوع . فله أن يمتلك ما يشاء أرضاً أو زرعاً أو عقاراً أو قدوداً سائلة .
- ٣ - حق المقدار . فليس لما يملكه حدود يقف عندها ولو ملك مدينة بأسرها .

- ٤ - حق التصرف بالبيع والشراء والهبة والصدقة .
- وكل ما يطلبه الإسلام في هذا المجال أن يكون الكسب بطريق مشروع تجارة أو عمل أو غيرهما .
- وأن يؤدي المالك الزكاة الواجبة عليه حسب ما عنده من ممتلكات بالغة ما بلغت . وأن لا يخل به - بعد إخراج الزكاة - على مستحقيه . وأن لا ينفق ما يملك في معصية الله .

وأن لا يحمله غناه على الكبر والطغيان .

وفي هذا الإطار الإنساني المهنذ أباح الإسلام الملكية الفردية أو الخاصة .

وبذلك فتح الإسلام باباً واسعاً لاستثمار المواهب والطاقات أمام الناس . ولم يكبلهم بقيود من حديد كما تفعل الشيوعية التي حولت الأفراد إلى آلات صماء تعمل تحت السيطرة القاهرة لحساب الدولة وهي كارهة أو راضية - أعنى جماعة الأفراد - مع حرمانهم من ثمرة عملهم إلا من العيش الكفاف .

الملكية الفردية أمام المصلحة العامة :

ومع تقرير الإسلام لمبدأ الملكية الفردية ، وجعلها الأصل في النظام الاقتصادي فإنه أباح تقييدها إذا دعت مصلحة عامة لذلك التقييد كأن تقع أرض في مسار طريق رؤى انشاؤه أو بناء معهد للعلم أو مصحة للإستشفاء من كل ما يدخل تحت المصلحة العامة . في هذه الحالات تنزع الملكيات الخاصة مقابل تعويض مناسب لأصحابها إذ لا ضرر ولا ضرار في الإسلام . ومصلحة الجماعة إذا تعارضت معها مصلحة الفرد رجحت مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، بذلك جاء التشريع الإسلامى الحكيم حيث أباح تقييد حريات المقدار والتصرف في بعض الحالات .

وقد عرف الإسلام منذ العصر الأول الملكيات العامة حيث حمى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أرضاً بالربذة وجعل كلاًها حقاً مشاعاً لفقراء المسلمين يرعون فيها ماشيتهم ، وأمر أن يبعد عنها ماشية الأغنياء أمثال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان رضى الله عنهم أجمعين وبين عمر أسباب هذا القرار فقال : د أن تهلك ماشية الغنى رجع إلى ماله . وإن تهلك ماشية الفقير يأتى متضوراً (جائعاً) بأولاده يقول يا أمير المؤمنين طالباً للذهب

والفضة وليس لى أن أتركه فبذل العشب من الآن أيسر على من الذهب والفضة عندئذ .

وصفوة القول : إن الإسلام أباح الملكية الخاصة وجعلها الأصل ، ثم أباح نزعها بلا ضرر إذا دعت إلى ذلك مصلحة عامة أرى بالاعتبار . وعمر لم يكن مبتدعاً فيما فعل . بل له في رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة وأسوة فقد همى عليه السلام قبل عمر أرضاً في منطقة النقيع ووقفها على خيل الجيش ترعى فيه ليجاهد عليها المجاهدون في سبيل الله (٧) .

وهذا جنب الإسلام الفرد من مساوىء الشيوعية التى يصير فيها آلة صماء لا تملك من أمرها شيئاً .

ومن مساوىء الرأسمالية التى يكون المال فيها دولة بين فريق من الناس هم الأغنياء . والإسلام يحذر من هذا الاتجاه فيقول :
« لا كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

فالإسلام ليس شيوعياً يحرم الأفراد من استثمار طاقتهم ومواهبهم وثمرة أعمالهم .

وليس رأسمالياً يجمع الثروة ومصادرها فى أيدي قليلة يتحكمون فى مصائر الأمور ، ويشرعون لحماية ثرواتهم .

ولإنما هو نظام وسط يرعى حقوق الأفراد ، ويصون حقوق الجماعة فلا يلحق الفرد ضرر من قبل الجماعة ، ولا يلحق الجماعة ضرر من فرط حقوق الأفراد .

لأن الفرد لبنة فى بناء الجماعة فيجب أن لا يشعر بأى ظلم أو حرمان

(٧) حقوق الإنسان (٦٤ - ٦٥) د / على عبد الواحد وفى تصرف .

والجماعة هي مظلة الفرد فيجب أن تحترم مقوماتها وترعى حقوقها وليس بعد هذا النظام من مزايا يحلم بها الإنسان ما دام يشعر أنه إنسان .

أيهما أصلح للإنتاج ؟ :

والنظام الشيوعي يقوم على السخرة والقهر وإلغاء المشاعر الذاتية للعامل .
والعامل فيه يؤدي عمله تحت وطأة الخوف والجلد ، ولو خلى بينه وبين العمل
لأدير عنه غير مقبل عليه .

أما في النظام الإسلامي فإن العامل يعمل وهو يشعر أنه سيد نفسه وله
تموق مكفولة وواجبات محددة سواء كان يعمل في ميدان هو يملكه أو يعمل
لحساب غيره بعقد منظم للواجبات والحقوق فإن جار أحد الطرفين على الآخر
فساخة القضاء العادل كفيلة بإعادة التوازن الذي تختفي معه كل أسباب الشكاية
والخصومة .

والفلاح الذي يسهر على رعاية حقله ويبذل أقصى ما عنده من طاقة في
رعايته ، لأنه يشعر بأن ثمرة عمله عائدة إليه هو دون غيره هل هو على استعداد
نفسى لأن يبذل نفس الجهد لو كان يشعر أنه يعمل في مزرعة شيوعية نذهب
حاصلاتها إلى ساداته من الرفاق الكبار ١٤ .

كلا . إن العامل النفسى - هنا - مفقود . والنفوس البشرية
لا تسخو في العطاء تحت عوامل الرهبة بقدر ما تسخو بلا حدود تحت عوامل
الرغبة .

وقل مثل هذا في العامل الذى يدير مصنعا لحسابه والعامل الذى يستخر
لإدارة مصنع تدر أرباحه في د جيوب ، سادة مبجلين لهم من ثمرة العمل كل
ما لذ وطاب وليس للعامل المنتج إلا الفتات ١٥

إن النظام الاقتصادى الشيوعى فيه قتل لمواهب البشر ، وحرمان من

ثمرة الجهد والعرق ، وهذا ضد طبائع البشرية ومصادرة كريمة لتطلعاتها المجهولة عليها سليقة وفطرة .

كذب التنبؤات :

ومن صور الفشل الذريع الذى منيت به نظرية ماركس الشيوعية فى مجال الاقتصاد كذب التنبؤات التى لهج بها واتخذ منها دعاية لترويج المذهب الشيوعى البغيض .

فقد تنبأ ماركس أن اضطهاد العمال وحرمانهم يزيروقتناقم كلما زادت الصناعة وازدهرت . ١٦

وجاء الواقع يكذب هذه الأنبوءة أفضح تكذيب حتى فى ظل اعنى النظم الرأسمالية . فبدلاً من ضياع العمال وانتقاص حقوقهم زادت مكاسبهم فى ظل ازدياد الصناعات الكبرى وازدهارها .

• فأصبح للعامل نصيب من الربح بالإضافة إلى راتبه الذى يتقاضاه بافتظام وزيادة مطردة عاماً بعد عام .

• وقد كفل قانون العمل حقوقاً للعامل لم تكن معروفة من قبل .

١ - حدد له ساعات العمل الأسبوعية فإذا احتاج صاحب العمل إلى بذل وقت أطول فعليه أن يبذل أجراً إضافياً مناسباً للعمل الإضافى الذى يقوم به العامل . وليس لصاحب العمل إرغامه عليه بدون أجر .

٢ - منحه راحة أسبوعية يسترد فيها قواه ويستمتع بوقته فيها . كيف شاء . بالإضافة إلى « إجازة » سنوية يتمتع بها العامل بأجر كامل .

٣ - أجاز له تقاضى حوافز دورية أو غير دورية علاوة عن نصيبه من الأرباح .

٤ — كفل له حق الرعاية الصحية والاجتماعية ، والتعويض عن إصابات العمل . وأمن مستقبله بعد بلوغه السن التي لا يصلح فيها الاستمرار في العمل .
٥ — كفل له الحق لإنشاء النقابات التي ترعى مصالحه وتكون وسيطا بين العامل وصاحب العمل ، بالإضافة إلى ما تقوم به هذه النقابات من خدمات ورعاية للعامل وأسرته مقابل اشتراك رمزي من المال .

٦ — إذا شعر العامل بظلم وقع عليه من صاحب العمل لجأ إلى القضاء العادل عمالياً كان أو غير عمالي . وفي مساحته يسود التوازن وتستعاد الحقوق .

٧ — وبعض النظم تشرك العامل معها في مجلس إدارة المؤسسة عن طريق الانتخاب الحر ليمثل زملاءه من العاملين ويكون صوته حاضراً عند صدور القرار .

٨ — أتيح للعامل أن يكون شريكاً في بعض المؤسسات الصناعية أو الاستثمارية التي يتكون رأسمالها عن طريق الاكتتاب العام في شكل أسهم أو سندات .

هذه المزايا وغيرها كثير اكتسبها العمال في ظل زيادة الأنشطة الصناعية والتجارية والاستثمارية . وبذلك هوت أنبوء ماركس بأن العمال يزداد ضياعهم واضمحادهم بازدياد الصناعات الكبرى . هوت تلك الأنبوء إلى الحضيض .

الرأسمالية ليست أسوأ من الشيوعية :

ومن فشل التنبؤات التي تصورها ماركس أن النظام الشيوعي سوف يخلص العالم من مساوىء الرأسمالية . وعندما أتيح التطبيق للمبادئ الشيوعية ظهر كذب هذه الأنبوء كما ظهر كذب غيرها من تنبؤات ماركس وأتباع

مذهبه من بعده . ووقعت الشيوعية - كما أسفرت التجربة - فيما كانت تأخذه على الرأسمالية من قبل .

فالثروة في النظام الرأسمالى محدوسة فى أبهى قلة من البشر هم أصحاب رؤوس الأموال والمؤسسات الصناعية الكبرى . هذا صحيح .

والثروة فى النظام الشيوعى فى يد قلة لا تتعداهم ، وهم رجال الحزب الشيوعى وسدنته الأعلون .

وإذا كان العمال مستغلين فى النظام الرأسمالى فإن الأثرياء والمهكمين مستغلون فى النظام الشيوعى .

فمكلا النظامين له ضحايا ، وله سادة . ولم يسل نظام منهما من اللمن والهمز ، والوصف بالمعائب والنقائص . ولذلك لم يستطع واحد منهما أن يسكون جديراً بالريادة والتوجيه ، وليس فى حساب أى منهما قضاء على الحققد الدفين وبواعث الثورة والانتقام .

ولا مخرج من هذا وذاك إلا بنظام الإسلام الذى يزواج بين مطالب الأفراد ومطالب الجماعة ، ويستثمر كل المواهب والطاقات الخلاقة فى العمل المستمر المفيد . وتقوم أسس النظام الاقتصادى فى الإسلام على أن المال كله لله .

وأن الناس جميعا عباد الله فهم شركاء فى ماله وفضله . والملكية الخاصة لها اعتباران فى الإسلام :

ففى ملكية فرد دون فرد بالنسبة لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض . ولها ضمانات فى الإسلام تحميها من الإعتداء عن طريق السرقة ، أو الإختلاس أو الإغتصاب ، كفاتها الشريعة على نظام بديع منبع . فليس من حق فرد

أو جماعة أن تسطو على ملكية فرد أو جماعة . وليس له ولا لها حق الانتفاع بها إلا بإذن صاحبه عن طريق الإعارة أو الهبة أو الصدقة أو الإهداء .

أما بالنسبة لعلاقة الفرد بربه فلا ملكية للفرد بهذا الاعتبار بل المالك هو الله ، ومن بيده المال إنما هو مستخلف فيه ، وغير مأذون له فيه بالتصرف إلا في الحدود التي أذن بها المالك الأعلى ، الله ، ونصوص القرآن صريحة في ذلك :

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، .

« وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ، . . .

وفي الحديث : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال ، وذكر منها : « وعن ماله مما اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ، ١٩

فلو كانت ملكية العبد للمال خاصة لكان حر التصرف فيه من كل الوجوه والواقع في الإسلام غير ذلك .

حكمة هذا التشريع

والحكمة في جعل الملكية في الإسلام ملكية خاصة بالنسبة لعلاقات العباد بعضهم ببعض ، ومن جعلها ملكية نسبية مؤقتة بالنسبة لعلاقة العبد بربه :

أنه في الأولى كان الهدف حماية المال من العبث لو اعتقد الناس أنهم شركاء مع المالك فيما يملك . وهذا يحقق الأمن والاستقرار وصون الحقوق في المجتمع .

وفي الثانية كان الهدف الحد من استبداد الملاك لو شعروا أن ملكيتهم للمال ملكية خاصة ، وحملوا لهم على حين التصرف فيه بما يعود على المجتمع .

وعلى الفرد نفسه بالنفع والخير . ولذلك فإن المالك في الإسلام يعمل تحت رقابة الله المالك الحقيقي للمال ولرب المال . فله الأجر إن أحسن التصرف فيه وعليه الوزر إذا أساء .

وللمال - في الإسلام - وظيفة اجتماعية ليس لها مثيل في أى نظام إلا إذا كان نظام الإسلام مستعاراً فيه ، كنظم الاشتراكيات الممتدة التي تمكنني ببعض التدخل في نظم التملك فلا هي إلى الإفراط . كما في النظام الشيوعي الماركسي - اللينيني . ولا هي إلى التفريط كما في النظام الرأسمالي الغربي وخلق النظامين : الشيوعي والرأسمالي من مزايا النظام الاقتصادي الإسلامي هو الفارق بين :

• نظام قائم على هدى الوحي الإلهي المعصوم من الخطأ والإفراط والتفريط .

• ونظام مصدر وضعه اجتهاد البشر وهو عرضة للخطأ والإفراط في جانب والتفريط في جانب آخر .

وينفرد النظام الاقتصادي الإسلامي بمزايا أخرى لم تعرف لنظام سواه عالج من خلالها ما يعرض للمجتمع من عقبات . إذ لا يخلو مجتمع ما من الفقراء والمساكين وغير القادرين على الكسب من ذوى الآفات والعاهات . هذه الفئات لا مكان لها في النظام الشيوعي الذي يسير حسب القاعدة الحديدية « من كل بحسب ما يعمل إلى كل بحسب ما يحتاج » فغير العامل في المجتمع الشيوعي مقضى عليه بالحرمان والموت « ببطى » .

وكذلك المجتمع الرأسمالي الذي لا يجود بأدنى مقدار من المال إلا للعاملين في المؤسسات والمصانع والحقول نظير ما يؤدونه من خدمات لأصحاب العمل أما في النظام الإسلامي فإن هذه الفئات وغيرها لها فيه نصيب كريم وحق واجب .

ومن أجلهم شرع الإسلام الزكاة وجعلها ركناً من أركان الدين لا شعيرة ثانوية يؤديها من يؤديها ويعرض عنها من يعرض عنها بلا حرج في حالتي الأداء والمنع . بل هي واجب على ذى المال وحق للسائل والمحروم والعجزة والذين لا يجدون عملاً .

والمرءى أن الإسلام رصد لهذه الفئات نسبة معينة من الثروة القومية تزيد في بعض الحالات ولا تنقص في أى حال من الأحوال .

هذه النسبة التي رصدها الإسلام لذوى الأعذار لا تنقص في أى حال من الأحوال عن ٢٪ من الثروة القومية ، تخرج كل عام مرة من المال العامل وغير العامل ، ومن عروض التجارة ودخول العقارات . وهي تعادل جزءاً من أربعين جزءاً من إجمال الثروة القومية . فإذا فرضنا أن مدينة صغيرة فيها أصحاب رموس أموال وفيها أصحاب أعذار وكان رأس المال فيها مائتي مليون جنيه . فإن الحق الواجب إخراجه منها لأصحاب الأعذار يبلغ خمسة ملايين جنيه . وإذا فرضنا أن عدد أصحاب الأعذار فيها ألف معدور عذراً يستحق به نصيباً من الزكاة كان نصيب الفرد الواحد منهم ألف جنيه في العام . وهذا القدر يكفي لحاجياته طوال العام ليعيش حياة كريمة .

وتزيد هذه النسبة إلى ٥٪ في نتائج الأرض من المحاصيل الزراعية التي تجب فيها الزكاة .

وكذلك في نتائج الأرض من المعادن الطبيعية كالذهب والفضة والمنجنيز ويلحق بها البترول أو الذهب الأسود كما يحلو للبعض أن يسميه .

كما رصد لهم نسبة في قطعان الماشية والأنعام بأنواعها المختلفة . وبهذا لم يفت نظام الإسلام الاقتصادي أن يسكفل مصادر الرزق لجميع من فيه من طوائف .

ومراعاة العدالة في الإسلام اقتضت أن تعفى أصحاب الممتلكات الصغيرة

من إخراج الزكاة . فوضعت حدا معيناً في كل ما يملك إذا بلغه وجبت الزكاة وإذا لم يبلغه أعفى منها .

كذلك فرقت العدالة الإسلامية بين نوعين من المحاصيل الزراعية . نوع تكون النسبة المخرجة فيه $\frac{1}{5}$ أي العشر إذا كان المحصول مسقياً بدون عناء - بالسيح - ولم يتكلف رب الزرع في سقيه نفقات غير معهودة .

أما إذا كان السقي بنفقات باهظة فالنسبة الواجب إخراجها هي $\frac{1}{2}$ أي ربع العشر . وهذه الدقة في التشريع ومراعاة الظروف لا وجود لها في غير النظام الاقتصادي في الإسلام ؛ لأن الإسلام شريعة أصولها من السماء وليست اجتهادات بشر يخطئون ويصيبون . ١

وأصحاب الأعداء الذين أجاز الإسلام إعطائهم من الزكاة ذكرهم القرآن بطريقة حاضرة جامعة مانعة . وذلك في قوله تعالى :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل . فريضة من الله والله عليم حكيم » التوبة (٦٠) .

للفقراء : وهم الذين لا يملكون ما يقوتهم لقلة دخولهم .

وللمساكين : وهم الذين لا يقدرّون على العمل لعمى فيهم مأخوذ من سكن إذا لم يتحرك فهو مسكين .

وللعاملين عليها : وهم من يعملون على جمع الزكاة وتوزيعها وقد استنفدوا كل وقتهم في سبيلها ولم يعملوا عملاً آخر فلهم منها ما يكفي حاجتهم طول العام .
والمؤلفة قلوبهم : وهم من دخلوا الإسلام يعطون منها تحجيلاً لهم في الدين ولشعاراً بأنهم لم يخسروا شيئاً بسبب دخولهم فيه . وهذا المصروف وإن وقف من عهد عمر بن الخطاب لسبب وجيه كان وقتذاك فإن العمل به الآن واجب ،

لأن كثير ممن يدخلون في الإسلام الآن يضارون في أرزاقهم من قبل أهلهم ويضايقون في حياتهم . هؤلاء يجب أن تسد حاجتهم بإحياء نصيبهم من الزكاة .

وفي الرقاب : وهم الأرقاء الذين يطلب منهم مالكم أن يشتروا أنفسهم بمال يبدلونه لآسيادهم .

ولغارمين : وهم الذين ركبتهم الديون في نفقات وأجبة ولم يجدوا سدادا لديونهم ، ومنهم التاجر يخسر كل ماله في التجارة . والصانع والزارع إذا نزلت بهم جوائح كالحراف المصنع وتلف الزرع وكل صاحب مورد أصيب مورده إصابة بالغة .

وفي سبيل الله : إذا اعمدتم الأعداء السابقة فلا بأس من إنفاق الزكاة في المرافق ذات المنفعة العامة كشق الطرق وعمارة المساجد والمستشفيات ومعاهد العلم والمؤسسات الاجتماعية والوقف الخيري .

وابن السبيل : وهو الغريب إذا فقد ماله حال غربته يعطى من الزكاة حتى يبلغ مأمنه أي بلده أريحصل على مورد رزق ولو في غربته هذه الأعداء لا اعتقد أنها تركت عنرا لإنسانيا إلا وله فيها وجود فقـ تتبع القرآن أمهات الأعداء التي يستحق أصحابها الزكاة ونص عليها ، وهذا لا يعرف خارج دائرة الإسلام .

القرض الحسن :

ومن صور المرونة والاتساع في الاقتصاد الإسلامي أن المحتاج إلى المال للاتفاق معه في غرض شريف مشروع إذا لم يكن من دوى الأعداء المذكورين في آية الصدقات فإنه يستطيع أن يحصل على حاجته عن طريق القرض الحسن ، وعلى القادر إقراضه مع ضرب موعد للسداد أو إطلاقه . فإذا جاء وقت السداد استرد المقرض «قدار قرضه بلا زيادة ولا نقص .

، على المقرض أن يصدق في الوفاء ولا يماطل . فإذا حان وقت السداد وعجز المقرض عن الوفاء فالإسلام يتوجه إلى المقرض برجا جميل ، وهو أن يفسح المجال للمقرض فيسد قرضه في الوقت الذي يستطيع فيه الوفاء .

وفي هذه الحالة إذا تكرر العجز عن الوفاء فإن الإسلام يمرض على المقرض «وقفين» إنسانين فليعلمين :

أحدهما : أن ينتظر السداد حتى يحصل المقرض على ميسرة من أمره مهما طال الانتظار .

وثانيهما : أن يتصدق به على المقرض مادام عاجزا . وفي كلا الأمرين هو مثاب وما جور قال سبحانه :

«وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسره» وإن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ، البقرة (٨٠) .

إن الاقتصاد الإسلامي قائم على دعائم إيمانية وخلقية ، لذلك كان النموذج الوحيد القادر على إسعاد البشرية والوفاء بمطالبها في ظل عقيدة صادقة وخلق كريم .

وكلاهما : العقيدة الصادقة ، والخلق النبيل يصنعان مجتمعا قويا متآلفا متحابا لا يشعر فيه الفقير بضيق أو حرمان لأنه فقير ، ولا يحس فيه الغني بحقد أو حسد من المحرومين والمعوذين . لأن جميع أفراد المجتمع اشتركوا في نعم الله بفضل التوجيه الإسلامي الحكيم .

ميزان أخريان :

من مزايا نظام الاقتصاد الإسلامي ميزتان أخريان نشير إليهما في إيجاز .

إحداها : الإنفاق الحر غير المقيد بمقدار مخصوص أو زمن مشروط .

وهو رصيد احتياطي من فيوضات الإسلام الشعورية النبيلة يواجه به الأغنياء الظروف الطارئة في المجتمع ، كأن يجهزوا جيشا لقتال واجب ، أو يخففوا شدة أصابت الناس . مثلما صنع الأغنياء في عهد عمر بن الخطاب عام الرمادة فقد سخا الأغنياء واستطاع عمر أن يحتاز بالمسلمين تلك اللازمة بسلام ، وقد خرج المسلمون منها بدرس عملي تجلت فيه روح الإيثار وصار مضرب الأمثال في التاريخ ومثلما فعل عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر الصديق حيث أنفق كل منهما جل ماله في سبيل الدعوة .

ومثلما فعل المسلمون في تجهيز جيش العسرة كل حسب مقدراته المالية وأثلجوا صدر رسول الإسلام بكرم ونخوة لم يسبق لهما نظير في أمة غير أمة الإسلام .

ومثلما فعل عثمان بن عفان حين اشتد القحط بالمسلمين في المدينة وجف الغيث واستغل يهودى تلك الظروف ، وكان يملك برأ وأخذ يبيع الماء بثمان بهيظ فتقدم عثمان واشترى - بحيلة وذكاء فادر - البئر من اليهودى ووقفها على منافع المسلمين .

ومثلما صنع عثمان رضى الله عنه وقد نزلت بالمسلمين مجاعة فجلب القوات من الشام في قافلة غنية بما طاب واذ ، وتقدم له التجار وبذلوا له أرفع الأثمان ولكنه كان يقول لهم : هناك من بذل لى ثمننا أكثر . وقالوا له : ليس بالمدينة تاجر غيرنا فن الذى أعطاك ثمننا أكثر ؟ قال : الله ثم تصدق بما فى القافلة على المسلمين ولم يبع منها بدرهم واحد .

هذا هو الرصيد الاحتياطي الضخم فى نظام الاقتصاد الإسلامى . وسيظل هذا الرصيد مادام فى الدنيا لإسلام ومسلمون ، وليس فى النظام الشيوعى ولا فى النظام الرأسمالى رصيد مثل هذا الرصيد ، لأنهما نظامان - مهما قيل فيهما - احتكاريان . أما نظام الإسلام فهو نظام له رسالة نبيلة يؤدبها فى الحياة

حسب الخطة الإلهية الموضوعة له بكل إتقان وحكمة . لذلك فاق كل النظم ،
وليس في الوجود نظام مثله .

أما الميزة الثانية : فإن النظام الاقتصادي في الإسلام خلا من كل سمّة من
سمات الاستغلال البشع والغش الخادع . لذلك حرم الله الربا بكل أشكاله
سواء كان في القروض أو الأعمال التجارية أو في استغلال الأرض . فمن
أقرض فليقرض الله قرصاً حسناً لا تزيد فيه المقادير المستردة بحال من
الأحوال .

والله قد ضمن للمقرض قرصاً حسناً ثواباً جزيلاً بدل الزيادة الربوية التي
قد يتقاضاها المرابون في أى نظام من النظم .

وحذر الله المرابين بطرق عدة . حذرهم بلعن المرابين من اليهود . وحذرهم
بسوء مصير المرابين حتى لو كانوا مسلمين . وحذرهم بخراب ثروات المرابين
ولو بلغت عنان السماء .

وحذرهم بحرب من الله ورسوله على المرابين إذا لم يتوبوا ويستقيموا
على الجادة ومن يقرأ أخريات سورة البقرة تبدوله سمات المنهج الإسلامى
الذى هدف فيما هدف إليه إلى :

- ١ - حظر تكوين الثروات عن طريق الربا أو الغش الخادع .
- ٢ - حماية صغار الملاك من استغلال أصحاب رؤوس الأموال الضخمة .
- ٣ - حماية ذوى الأعداء من برائن المرابين الجشعين .

وقد أعلن هذه المبادئ صاحب الدعوة في حجة الوداع ، وقرر حقوقاً
كثيرة للإنسان قبل أن تعرف المنظمة الدولية تلك الحقوق بأكثر من أربعة
عشر قرناً من الزمان

ذلكم هو الإسلام . وهذا هو نظامه المالى والاقتصادى ، قائم على العدل
والرحمة والتوازن ومحاربة الجشع وسوء الاستغلال وحماية الملكيات الصغيرة

وأصحاب الأعداء . وتستجد البشرية هذا النظام إذا أتيح لها فرصة التعامل به . ولن نحمد نظاما سواه لأنه قائم على أسس العقيدة الصادقة . والخلق النبيل . وغيره قائم على الجشع أو الحرمان شيوعيا كان أو رأسماليا .

مراحل تاريخ المعرفة :

فرغنا من مناقشة مادية ماركس التاريخية في المجال الاقتصادي وانتهينا في هذا المبحث إلى تعريه فلسفة ماركس في هذا المجال ، وأن العامل الاقتصادي ليس هو المسئول وحده عن تفسير حوادث التاريخ . وأن من يحصر مطالب الإنسان في العنصر المادي وحده قهين بأن يوصف بأنه جاهل بطبيعة الإنسان من أن يوصف بأنه رائد من رواده ، وملهم يرسم له معالم الطريق . وقد ذكرنا كثيرا من الشواهد الكاشفة عن دجل ماركس والمجموعة الشيوعية . شواهد استقيناها من حركة التاريخ الإنساني نفسه ، وشواهد استقيناها من الواقع الإنساني المعاصر . وقارنا بين نظام الاقتصاد الإسلامي ، وبين ما وضع على أيدي ماركس من تصورات أرادوا حمل الاقتصاد العالمي عليها وظهر لنا بالدليل القاطع أن النظام الاقتصادي الإسلامي هو المساوق لمتطلبات الفطرة الإنسانية الخلاقة ، وأنه موضوع على أسس حكيمة مبنية على العدل والرحمة والموازنة بين الحقوق والواجبات وأنه لا ضرر فيه ولا ضرار . بزواج بين حقوق الفرد وواجباته وحقوق الجماعة وواجباتها وأنه وضع حسابا دقيقا لحاجيات كل فرد في المجتمع القادر منهم على العمل والكسب ، وغير القادر على العمل والكسب ، وأصحاب الأعداء الموجبة لإعانتهم وتوفير أسباب الحياة النكرية لهم بحيث يستفيد الجميع ، من نعم الله ويعيشون بلا أحقاد ولا أضرار بفضل التوجيه الإسلامي الرشيد ، لأن نظام الاقتصاد في الإسلام ذو رسالة عالمية إنسانية ولم يوضع لحساب طبقة علي طبقة . بل هو عام النفع يجلب من مصادر مشروعة وينفق في مصارف مشروعة . ومالك المال الأول هو الله ، وهو

سائل كل راع عما استرقاه أما النظم الاقتصادية الأخرى فموضوعه . على
أسس غير سليمة تؤدي إلى الاحتكار حيناً ، وقتل المواهب الإنسانية
حيناً آخر .

وبقى علينا أن فنافش ماركس والماديين جميعاً من وجهة نظر إسلامية في
التقسيم الثلاثي لمراحل المعرفة وهي :

المرحلة الأولى : وكان مصدر المعرفة فيها هو الدين .

المرحلة الثانية : وكان مصدر المعرفة فيها هو العقل .

المرحلة الثالثة : وكان مصدر المعرفة فيها - وما يزال - هو العلم الوضعي
أو ما كان وسيلته الحواس الخمس .

هذا ما تصوره الوضعيون بدءاً من أوجست كونت . وقابعهم عليه الماديون
وأول ما يقال في هذا التقسيم إنه رجم بالغيب وتضمنين بغير دليل . هذا إذا
أرادوا بهذا التقسيم التاريخ للمعرفة الإنسانية جمعاء، وهم قد أرادوا هذا فعلاً .

رجم بالغيب لأن التاريخ الإنساني مجهول ، ولم يملك أحد ولن يملك
الوسائل التي تضع أمامنا الحقيقة خالصة من كل احتمال ومعلوم أن منهج البحث
في نشأة الحياة عامة ، والحياة الإنسانية بخاصة يعتمد على محورين كبيرين
معروفين عند علماء الإنسانيات وهما :

الأول : عصور ما قبل التاريخ .

والثاني : عصور ما بعد التاريخ .

وقد أصاب الباحثون حينما انتهوا إلى هذا التقسيم المعقول ولا بكل منهما
طريقة في البحث والاستكشاف .

فطريقة البحث في عصور ما قبل التاريخ تعتمد على الفروض والتخمينات
ولا يقطع فيها برأى حاسم .

« وطريقة البحث في محصور ما بعد التاريخ تقوم على الروايات ودراسة الآثار والحفريات . ويمكن - إذا صححت الرواية وصدقت الدراسة - أن يقطع فيها برأى حاسم .

وأوجست كوفت وأنصار المذهب الوضعي الحسي والماديون قد ورطوا أنفسهم حين أرادوا بهذا التقسيم شمول مراحل التاريخ كله ، سواء ما وقع تحت الضبط وما لم يقع . وهذه ورطة لا يمكن أن يبرأهم منها باحث منصف . إذ ما الذي أدرهم بأن تاريخ الإنسانية كلها كان على هذا النمط ؟ هذه دعوى تحتاج إلى دليل ، وليس من سبيل إلى دليل سوى الحدس والتخمين .

والذي لا جدال فيه أن أوجست كوفت لم يستق تقسيمه الثلاثي لمراحل المعرفة الإنسانية إلا من تاريخ المسرفة في أوروبا وحدها . لأن تقسيمه الثلاثي على الوجه الذي حدده صادق على مراحل المعرفة في أوروبا كل الصدق . فقد مرت أوروبا فعلاً بهذه الأدوار في المعرفة ؛ لأنها :

١ - سادت فيها المعرفة الدينية من القرن الأول الميلادي ، وهو القرن الذي عرفت فيه أوروبا الدين المسيحي . وصارت المعرفة الدينية هي السيطرة على أوروبا إلى أواخر النصف الأول من القرن الثامن عشر كما تقدم في مبحث المسيحية في هذا الكتاب .

٢ - ثم عرفت أوروبا ما سمي بـ « عصر التنوير » بدءاً من أوائل النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى نهايته . وهي المرحلة التي عرفت بمرحلة سيادة العقل . والتي كانت معبراً قصيراً اجتازته أوروبا من السيادة الدينية إلى سيادة الفلسفة الجديدة وهي :

٣ - سيادة الحس أو الفلسفة الوضعية الحسية ، أو المادية الواقعية . وقد علت خلال هذه المرحلة أصوات انتزعت القيادة من الفلسفة العقلية

المثالية إلى ما يدرك بالحواس ويمكن خضوعه للتجربة والملاحظة والفحص المعملي . وقد قاد هذه الفلسفة الجديدة أوجست كونت نفسه ، وتلاه فير باخ وآشتين تال وغيرهما .

وقد اهتمدى أوجست كونت إلى هذا التفسير من دراسة أطوار المعرفة عند الإغريق القدماء كما يرى فندلبند في نقده لفلسفة كونت أو تقسيمه الثلاثى على وجه التحديد .

- فمذ كانت المعرفة عند الإغريق في أولى مراحلها ذات طابع ديني .
- ثم صارت عقلية على أيدي سقراط وأفلاطون .

• ثم صارت واقعية حسية تعتمد على التجربة والملاحظة على يد أرسطو فكوئت على صواب إذا قصر تقسيمه هذا على معارف أوروبا في تاريخ محدد معروف . وليس على صواب إذا أصر على أن هذا التقسيم شامل لتاريخ المعرفة عند كل الأمم والشعوب ، وفي كل العصور ما دخل منها تحت الضبط ومالم يدخل .

فتاريخ الإنسانية كلها منذ أقدم عصورها إلى أحدثها أجل وأكبر من أن يقع تحت حصر ، فضلا عن أن يحيط به باحث واحد . والمعروف عند علماء الإنسانيات مخالف لما يرى كونت وأشباعه . فقد رصدوا في سير المعرفة الإنسانية عدة مراحل يمكن إيجازها في الآتي :

- مرحلة الأديان البدائية التي لم تستند إلى وحى سماوى ، وهى أولى مراحل المعرفة عند الباحثين ، ومن مظاهرها تقديس الظواهر الطبيعية كعبادة الكواكب ، ثم الطوطميات ، ثم عبادة الأسلاف ، وكذلك عبادة بعض أعضاء الجسم (أعضاء التناسل) وعبادة الأوثان والأصنام . وقد انتشرت الديانات البدائية بين أمم الحضارات القديمة كعصر وفارس والهند والصين واليونان واليابان والعبرانيين .

هـ مرحلة الفلسفات العقلية الأولى وكان مهدها نفس الأمم الحضارية التي أشرنا إليها، ولمع في هذه المرحلة أعلام ما يزال التاريخ يذكرهم ويذكر خلاصة أرائهم مثل كوفوشوت وأختافون وزرادشت وغيرهم .

٦ ثم أعقبت هذه المرحلة مرحلة الأديان السماوية من اليهودية والمسيحية، والإسلام .

هـ ثم نشأت في أحضان الأديان الكتابية الثلاثة فلسفة أو فلسفات عقلية متعددة المشارب والمنازع . وصار لكل دين فلسفة متعددة . ومنهم في الإسلام علماء الكلام ومن أبرزهم مدرستا أهل السنة والمعتزلة ومن أعلامهم الإمام الغزالي وابن رشد وابن سينا . ومن فلاسفة اليهود موسى بن ميمون وسبينوزا ، ومن فلاسفة المسيحية كانت وديكارت وديجل وفلونير وغيرهم .

هـ ثم نشأت في أحضان هذه الفلسفات الفلسفة الوضعية ومن أعلامها فرنسيس بيكون، وصقوارت ميل ووليام جيمس وهنري برجسون وأوستن كوفت نفسه فظهور الأديان الكتابية لم يقض على الفلسفات العقلية المثالية ، ولا حتى على الأديان البدائية التي ما تزال قائمة عند بعض الشعوب إلى الآن والفلسفات الوضعية لم تقض على الأديان الكتابية ولا الأديان البدائية ولا على الفلسفات المثالية الميتافيزيقية . بل إن هذه الانجذامات تتجاوز في تآلف مرة وفي تنافر مرة . وما أكثر وجود الاختلاف عند الأمم والشعوب بل عند أبناء الأمة الواحدة . ومن يزعم أنه يمكن أن يحصر سير المعرفة الإنسانية في مضامين أو أشكال محددة ففسد أبعد في الدعوى كن يدعى أنه قادر على أن ينزح ماء المحيطات بدلو مصنوع من شبك الحديد ؟ .

وهذا التقسيم الثلاثي لسير المعرفة الإنسانية تلقفه الشيوعيون

عن كونت لينينوا عليه شرعية موقفهم من الدين كما تلقفوا من قبل كل الأفكار المريضة لتكون البسات في بناء الشيوعية المتداعى للسقوط أو الساقط فعلا .
وقد حملهم حبهم للإغراب والتذندق أنهم إذا احتاجوا إلى استعارة مناهج فكرية صحيحة من غيرهم أنهم لا يأخذونها إلا بعد أفسادها بأى مسح أو تعديل كما صنع ماركس بمبادئ هيجل على النحو الذى تقدم بيانه فـهيجل وضع فلسفته لدعم الإيمان الله الخالق العظيم ، ولكن ماركس لما رأى نفسه فى مسيس الحاجة إلى أصول فلسفة هيجل استخدمها - مكرها لها - فى هدم الإيمان باقه وبالدين وبكل ما هو موصول بالدين .

إصرار على الكفر والإلحاد :

إن ماركس كما سجل عنه الباحثون فى فلسفته أصولها وغاياتها كان مصراً على الكفر والإلحاد من قمة الرأس إلى أخمص القدمين .
فالمادية التى اختارها ماركس سماها المادية الثنائية ، لأنه أراد أن يميزها عن مذاهب مادية أخرى كانت شائعة فى عصره .
منها المادية الميكانيكية ، وهى تتخيل الكون على شكل مسكنة مدارة قد ركبت كل أداة منها فى موضعها وتدور كلها كما تدور الآلات .
وقد رفض ماركس هذه المادية الميكانيكية ، وسبب رفضه إياها قد فطن إليه الباحثون يقول أستاذنا العقاد فى توضيح هذا السبب :
« وهى - يعنى المادية الميكانيكية - مذهب يفتح الباب لتصور المدير ، الذى يركب تلك الآلة ويحرك دواليها . ويضع كل جزء منها فى موضعه ويديره بالتوافق مع الأجزاء الأخرى لإنجاز عملها ، وبحقيق أغراضها ومثل هذا الباب قد أتى منه الرحمة ، وقد ينفضى إلى افتراض القدرة المدبرة الحكيمة . فلا ينبغي أن يفتح ولا بد من إغلاقه وإن لم نهم فى المذهب الميكانيكى حجة واحدة على إغلاقه ، .

أى أن ماركس عدل عن المادية الممكنية ، لأنها صالحة لأن تكون طريقاً للإيمان بالله وقدرته ، وماركس لا يرى للكون خالقاً غير الكون نفسه ١٩

ويستشهد العقاد بكلام ماركس يقول فيه ناقداً لمادية فيورباخ أحد دعاة الوضعية فيقول :

« يقول ماركس في رسالته عن الفيلسوف فيورباخ : أن العيب الأكبر في مذاهب المادية الموجودة ، ومنها مادية فيورباخ أن الموضوع والحس إنما تفهم على أنها موضوعات للتأمل ولا تفهم على أنها عمل لإنسانى يحس ويتصرف ، وأنها هى صاحبة الفاعلية » .

وماركس - هنا - يعيب على فيورباخ أنه جعل المادة الطبيعية موضوعاً للتأمل فقط ، بينما التأمل عند ماركس عمل لإنسانى . أما الطبيعة نفسها أو المادة فهى صاحبة الفاعلية ، يعنى الخلق والإيجاد والابداع ١٩٠٠

ثم يعلق أستاذنا العقاد على عبارة ماركس بما يكشف مرادة بكل وضوح فيقول :

« فلا بد عند ماركس من فكرة تدبر نفسها من باطنها ولا يمكن أن تدار من خارجها على فرض من الفروض . ولهذا يجب أن تسقط المادية الممكنية من الحساب على أى احتمال » .

الأستاذ العقاد لم يتجن على ماركس فى هذا القول ؛ فعبارة ماركس نفسه نص قاطع فيه .

المادية الناموسية :

ويرفض ماركس ، وهو يصير على الكفر والإلحاد مادية أخرى غير المادية المسكنية ، وهي المادية الناموسية ، وهي التي يقول أصحابها : إن ظواهر الكون المحسوسة كلها مادية تديرها النواميس - بمعنى القوانين - المركبة في طبائعها ، وتتحرك في نظامها بأمر خالق المادة ، وخالق النواميس . .

يقول الأستاذ العقاد :

« وإذا كانت المادة المسكنية مرفوضة في رأى ماركس ، لأنها قد تفتح الباب لافتراض المدير المدير ، فالمادية التي تؤمن بوجود الحقيقة من وراء الظواهر والناواميس مرفوضة من باب أولى ، (٦) .

إن كارل ماركس كان يحمل في يده معولا وهو يطالع الفلسفات التي هاصرهما فيحطم بذلك المعول كل الأشعة التي تقود إلى الإيمان بحقيقة الحقائق الكبرى وهو د الله ، الباري الخالق المصور . ولم يحمله على هذا إلا إصراره على الكفر والإلحاد مهما كانت قوة الأدلة والبراهين الداعية إليه .

وحركة التمرد على الإيمان الديني التي سادت في عصر التنوير في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأت أولا بالنسبة إلى العقيدة الإلهية بتجسيم د الله ، عن الكون . وشبهته - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - شبهته بصانع الساعة . ومرادهم من هذا التشبيه أن الكون - الآن - يعمل بدون احتياج إلى خالقه كما تعمل الساعة ، وهي في معصم لا بسما بدون احتياج إلى صانعها . ١٩٠٠

وبعد عصر التنوير خطا العلمانيون في أوروبا الخطوة الأخيرة في طريق

(٦) للشبوعية الإنسانية في شريعة الإسلام (١٠٧ - ١٠٨) .

الكفر والإلحاد . ورفضوا فكرة الإله صانع الساعة إلى فكرة الساعة التي صنعت نفسها . بل تفاخروا بهذا القول وقالوا : إن في السكون إلهاً واحداً هو قوانين الطبيعة ولا نداء لهذا الإله إلا النداء المتكرر منه وهو : لا تؤمنوا بإله . ١٤

وماركس اختار فكرة الساعة التي صنعت نفسها ، وهي آخر صيغة كان قد وصل إليها العلمانيون الذين قامت فلسفة ماركس المادية على تصوراتها الواحدة .

وهكذا تبنت الشيوعية كل الأفكار الميتة ، وارتبنت في أحضان شياطين الإنس والجن بوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا وضللاً وجهلاً .

هذه المقدمة تقودنا إلى الاقتراب من تفسير الشيوعيين للدين بوجه عام . ولكن قبل التعرض لهذا الفرع نرى من الواجب أن نقف وقفة أخرى أمام المدخل الذي اتخذته الشيوعيون مبرراً لتدكران الدين وكل ما انبثق عنه من عقائد وسلوكيات وأخلاق وآداب ، فالشيوعيون لم يهجموا على الدين بدرن مسوغات لفقرهما تليفياً شأن المذهب الشيوعي نفسه من التليف والترقيع من شواذ الأفكار وضلالات الآراء والمذاهب .

المادة السابقة في الوجود على الفكر ١٥

هذه العبارة المكونة من هذه الكلمات الست هي أس الضلال والتضليل المتفشى بين الشعوب والدول والأفراد من انطلت عليهم كدوبة الشيوعية فحسبوا فلسفة ومذهباً وما هي بفلسفة ، لا مذهب ؛ لأن الفلسفة يراد منها محبة الحكمة ولا حكمه ولا محبة فيما يؤمن به الشيوعيون الآن أو قبل الآن وإن رفضوا حوله وطلبوا وملأوا ربوع السكون نهائياً وخواراً .

وكان ماركس وهو يسطو على مبادئ هيجل يعمل لهذا التحول الطير

كل حساب ، فرفض استخدام مبادئ هيجل في الفكر واستخدامها في المادة كما رفض كل من المادية الميكانيكية والمادية الناموسية ليطلق لفلسفته العنان فيما أراده لها من وسائل وغايات من أجلها كان الفكر الشيوعي - بل استغفر الله - كانت المادية الشيوعية .

ما هي المادة ؟

من اليسير أن نعرف المادة بأنها ما كان لها وجود خارج ذهن ، وتدرك بواسطة واحدة من الحواس الخمس . ولكن هذا التعريف غير مرضى عند الشيوعيين ، لذلك ترى لينين يقول في تعريفها :

« هي مقولة فلسفية تخدم في تعيين الواقع الموضوعي المحطى الإنسان في إحساساته التي تصنعها ، أي تصنعها - ؟ تصوره ، تنكسه ، والموجود بصورة مستقلة عن الإحساسات ، (٧) .

وبخلاصة هذا التعريف أن لينين يتابع نفس المادية الأكبر (ماركس) ويحدد دور المادة بعد كونها موجودة وجوداً مستقلاً عن ذهن الإنسان بأنها هي التي تصنع الواقع الذي يحسه الإنسان ، فهي إذن الفاعلة كما سبق أن قال ماركس في تعليقه على فلسفة فيورباخ ١٩

« يتابع ستالين سلميه ماركس ولينين في هذا المعنى فيقول :

« تقوم المادة لفلسفية على مبدأ آخر ، وهو أن المادة والطبيعة والسكان هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك أو الشعور وبصورة مستقلة عنه . وأن المساعدة هي عنصر أول ؛ لأنها منبع الإحساسات والإدراك والتصور ، بينما الإدراك هو عنصر ثان مشتق ؛ لأنه انعكاس للمادة ؛ لانعكاس السكان . وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت في تطورها درجة عالية من السكان ،

(٧) الدهانز الفلسفية (١ / ٣٢) نقلاً عن : موقف الإسلام من نظرية ماركس .

(٢٣) مكة المكرمة .

أو بتعبير أدق : أن الفكر هو نتاج الدماغ ، والدماغ هو عضو التفكير ، فلا يمكن بالتالى فصل الفكر عن المادة دون الوقوع فى خطأ كبير . (٨) .

ولإنجلز صديق ماركس ذهب هذا المذهب من قبل فقال : لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة ؛ لأن المادة هى جوهر التغيرات التى تحدث ، (٩) .

فماركس وإنجلز ، ولينين وستالين هم مؤسسو المذهب الشيوعى ، وهما فى أراؤهم فى المادة وصلتها بالفكر . فالمادة سابقة - عندهم - فى الوجود على الفكر ، وهى - أى المادة - منبع الفكر وخالقه إلى أبعد الحدود . وقد منحوا المادة أو الطبيعة أو الكائن على حد تعبيراتهم ، منحوها صفات أخرى لتكتمل دائرة الإلحاد حسبما تصوروا .

وبناء على هذه التصورات التى تخيلوها بل توهموها حول المادة أنكروا كل وجود ماعدا وجود المادة . وقالوا أن ما وراء المادة من تصورات أو غيبات إنما هو وهم من الأوهام . وإليك أولا نص عبارته :

« ليس للكون نهاية ، ولا حدود ؟ . العالم أبدي ؟ وليس له أى بداية ولن يكون له أى نهاية ؟ ومن هنا فأى عالم غيبى غير مادى غير موجود ولا يمكن أن يوجد ؟ وفى واقع الأمر أنه إذا لم يوجد شيء غير المادة فلا يوجد غير عالم مادى واحد . . . » (١٠) .

ومالى هذا الكلام فى إيجاز :

« أن المادة أزلية لم يسبق لها بداية ١٩٠٠ »

(٨) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (٢٩) أنلاعن : موقف الإسلام من

نظرية ماركس (١٢٤) .

(٩) نفس المصدر .

(١٠) أسس المادية الديالكتيكية . . . (٣٩) مرجع سبق ذكره .

- أن المادية أبدية فلن تكون لها نهاية ١٩٠٠٠
- ليس في الكون وجود غير وجود المادة نفسها ١٩٠٠٠
- أن كل ما وراء المادة وهم من الأوهام ١٩٠٠٠
- أن المادة هي الخالق لما سواها ، إنسانا وغير إنسان ١٩٠٠٠

هذا صريح معنى كلامهم . وهذه الصفات التي منحوها للمادة هي الصفات الواجبة لله عند المؤمنين سطا عليها الماديون كما سطوا على أفكار غيرهم من العلماء والفلاسفة والمتعلمين والمتفلسفين . وأصفوها على كافرينهم ، كما ترى .

من التعميم إلى التخصيص :

في النصوص التي نقلناها عن كبار مؤسسي المذهب الشيوعي تعميم في إنكار كل وجود عدا وجود المادة الطبيعية . وها نحن أولا . أمام كلام لقس المادة الأكبر ماركس يقترب فيه من التخصيص بدل التعميم ، ويبدأ بالهجوم على الحقيقة الإلهية في أسلوب مباشر فيقول :

« إن العزة الإلهية والهدف الإلهي هي الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ . والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئا ، (١٩) ١٩ هذا الكلام لم يقله ماركس وإنما قاله : « الشيطان » الذي استذله وأنخذ منه بوقا بشريا ينبعث من خلاله ضلالات الكفر والإلحاد . وليس في هذا غرابة ، ولا هو مجرد تخيل منا . بل هو حقيقة جاء بها صريح القرآن في قول الحق سبحانه وتعالى :

(١٩) أصول الفلسفة الماركسية (٢٠٦/١) نقلا عن موقف الإسلام من نظرية ماركس (١٧) المؤسس للفلسفة (١٢٣) .

« هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أنيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » .

والشياطين تنزل في كل حين على أوليائهم ، وأولياء الشياطين هم الأفاكون الآثمون . وكارل ماركس ضاليع في الأفك والإثم . وسيأتي يوم القيامة وهو يحمل أوزاره وأوزار خلق كثيرين تسبب في ضلالهم وإضلالهم .

وأستاذنا العقاد في تحليله الرائع لشخصية ماركس انتهى إلى أنه مريض مرضاً نفسياً هو المسئول - يعنى مرضه النفسى - عن كل أروامه وضلالاته وهذا يتسق تماماً مع ما أضفناه - هنا - من أن ماركس كان يتولاه شيطان ويوحى إليه زخرف القول غرورا .

ذهب الشيوعيون - تطبيقاً لفلسفتهم - إلى إنكار وجود الله سبحانه وإلى إنكار الأديان جملة وتفصيلاً وإلى إنكار الأخلاق الفاضلة والقيم والعوائف الدينية ، وإلى إنكار البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب . وحصروا مطالب الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، ولم يروا من ورائها شيئاً .

ولما فتح لهم ماركس باب الهجوم على الحقيقة الإلهية تبحرأوا وقالوا :
« يجب القول بأن الله والديانة هما ظاهرتان إنسانيتان لأن العنصر الإلهى هو من إبداع الإنسان . وليس الإنسان من إبداع الله ، ١٩

منهج الاستدلال :

من حق القارئ أن يسأل : وما هى طريقة استدلال الشيوعيين على أن المادة سابقة على الفكر في الوجود حتى رتبوا على هذا السبق مارتبوه من أروام ١٩

والجواب :

ها أنتذا تمسك الآن بكتاب تقرأه . وحين أمسكت به نار في ذهنك بمجموعة من الأفكار . فهذا الذى تمسك به في يدك كتاب . لون غلافه كذا ولون الورق الداخلى كذا ، وموضوع الكتاب كذا . وعلاقتك بهذا الكتاب كذا .

هذه الأفكار لو لم تكن لك صلة بهذا الكتاب ، ولا أنت تعرف عنه شيئاً ، أو تعرفه معرفة سابقة وأنت لاه عنه الآن ، لو كان الأمر كذلك لم يثر شيء في ذهنك من الأفكار التى ذكرناها .

وهب أنك ألفت الكتاب من يدك ، ووقفت في شرفة منزل لك المطلة على الشارع فأبصرت العربات تسير فيه . وهاهى ذى عربة تسير أمامك لونها أحمر مثلاً ، وماركها مرسيدس ، وموديلها كدا . فإن أفكاراً من نوع آخر تقفز إلى ذهنك خاصة بالسيارة التى ركزت عليها ملاحظتك .

هذان مثلاً وغيرهما كثير ، ومن أكثرها غنى بإثارة الأفكار إذا كنت - مثلاً - تستقل وسيلة من وسائل النقل لتصل إلى مكان بعد عشرة كيلومترات . فأنت تجلس على مقعد يتاح لك منه أن تبصر كل المناظر التى تقع على جانب الطريق الذى تسير فيه السيارة . فإن عدة مناظر ومرئيات تلاحظها ، وكل منظر منها يثير في ذهنك فكرة خاصة عنه . وإن كانت عابرة عبور البرق ، وأنت تنتقل من مشهد إلى مشهد ، ومن فكرة إلى فكرة إلى نهاية القوط . وكل فكرة تقفز إلى ذهنك ومشاعرك تكون نتيجة للمنظر الذى شاهدته أياً كان نوعه ، وحجمه ، وصورته ، وشكله . ولستكنك لو قدر لك أن لا تقوم بتلك الرحلة فإن شيئاً مما ذكرت لك لن يحدث على الإطلاق وقيل مثل ذلك في المذوقات ، والمسمومات ، ومسموعات ، والملبوسات كل عنصر منها يترك عند التجربة فكراً أو شعوراً خاصاً به عندك أما إذا لم تر شيئاً ، ولم تلمس ولم تشم ولم تسمع فلا يثور عندك شيء على الإطلاق .

إذا تأملت هذا جيداً ظهر لك :

١ - أن كل حاسة من حواسنا الخمس عندما تحدث صلة بينها وبين أي نوع من أنواع المادة تثير فينا شعوراً خاصاً عنها بحسب الحاسة التي اتصلت بها :

لونا في المرئيات ، وطعماً في المذوقات ، وحدة ورقة أو غلظة وخشونة في المسموعات ، ورطوبة أو حرارة في الملموسات ، وطيباً أو قبحاً في المشعومات . وهكذا . وهذه المشاعر التي تثيرها فينا الحواس عند اتصالها بالمادة هي : الفكرة ، الواردة في كلام الشيوخ .

٢ - أن هذه الفكرة - فعلاً - متأخرة عن المادة والمادة سابقة عليها في الوجود ؛ لأن المادة سبب ، والشعور المثار عنها مسبب ، والسبب دائماً - مقدم على المسبب إلا في بعض الحالات فيكون السبب والمسبب مقترنين في الزمن ^(١١) .

هذا هو منهج الشيوخ في الاستدلال على أن المادة سابقة في الوجود على الفكرة . وقد ضربت لك هذه الأمثال لأوضح لك معنى هذا الكلام فحسب ، لا أقول لك أن الشيوخ صادقون فيما نحن بصددده من البحث وإن كانوا صادقين في هذا النوع من الصلة بين المادة وبعض الآثار الناتجة عنها . وستعلم كذبهم وخطأهم بعد قليل .

(١١) لاقتراح المسبب بالسبب في الزمان الواحد صور كثيرة ، مثل حركة القلم وأنت تكتب . فهي مسببة عن حركة يدك ومع هذا فإن الحركتين تحدثان في وقت واحد . ومثل حركة الخاتم في الإصبع ، فهي مسببة عن حركة الإصبع وزمانهما واحد .

مواجهة إسلامية لهذه الأوهام :

ها نحن أولاء قد عرضنا وجهة نظر الشيوعيين بكل أمانة وصدق . وجاء
- الآن - دور المواجهة والمناقشة من وجهة النظر الإسلامية التي تتأخى فيها
حقائق العلم والواقع والعقل مع النصوص الدينية . فلنأخذ في المواجهة ومن
الله التوفيق .

قبل البدء في المواجهة نعيد مرة أخرى مزاعم الشيوعيين فيما تقدم ومرآدم
من هذه المزاعم ليسهل علينا مضمون المواجهة فيما يستحق المواجهة منها .

ومزاعم الشيوعيين التي تقدمت ليست على درجة واحدة ، بل منها ما هو
أساسي في مذهمهم ، ومنها ما هو مبنى على ذلك الأساس بحيث إذا انهار الأساس
انهار ما بنوه عليه . ولإليكم رصد المزاعم من جديد :

١ - مزعم سبق المادة على الفكرة . . ١٩٠٠

٢ - مزعم أن المادة أزلية ليس لها بداية . . ١٩٠٠

٣ - مزعم أن المادة أبدية ليست لها نهاية . . ١٩٠٠

٤ - مزعم أن المادة هي الخالقة وليست مخلوقة . . ١٩٠٠

٥ - مزعم إنكار وجود ما وراء المادة المحسوسة ، وهو الله والدين والقيم
الروحية

وعلى هذا الترتيب نتمضى - بعون الله ومدده - في تفنيد هذه المزاعم .

مزعم أسبقية المادة على الفكرة في الوجود :

هذا المزعم هو قطب الرضى الشيوعى ، فقد بنوا عليه كل أوهامهم التي
لغطوا بها طول حياتهم وما يزالون يلغطون ؛ لأنهم لما توهموا أن المادة
سابقة في الوجود على الفكر ، نسبوا إليها كل ما في حياة الكون فالإنسان
والحيوان والنبات من مخلوقات المادة ١٩

والإنسان هو الذى اخترع فكرة الإيمان بالله والقيم الروحية والأخلاق
والحياة الآخرة . ١٩

وما دامت المادة سابقة فهى أزلية لم يخلقها خالق سواها ١٩

ومادامت المادة أزلية فهى - إذن - أبدية لا تنهى ، لأن ما ليس له بداية
فلن تكون له نهاية ١٩

وبناء على هذا فليس وراء وجود المادة وجود بل هو وهم من
الآوهام ١٩٠٠

فأنت ترى أن مزعم أسبقية المادة فى الوجود على الفسك هو قطب الرحى
الشيوعى ، ومداد الأمر كله عندهم .

وحين يثبت خصوم الشيوعية بطلان القول بأسبقية المادة على الفسك
فى الوجود فإن البنين الشيوعى ينهار فى لحظة على من بناء وخصوم الشيوعية
من وجهة نظر البحث الموضوعى غير مطالبين بجد يدقوله فى أبطال الشيوعية
بعد إثبات كذب القول بأن المادة سابقة على الفسك فى الوجود إلا إذا
أرادوا أن يرفعوا الانقباض المنهارة فوق رموس البعثة ١٠٠

الفكر نوعان :

وأول ما تواجه به دعواهم أن المادة سابقة على الفسك فى الوجود ،
وهى كما تقدم مرات أصل أصول مذهبهم ، أننا نقول لهم مجتمعين ومتفرقين ،
من مات وهلك منهم ، ومن ما يزال حيا يأكل كما تأكل الأنعام والنار
مشوى لهم .

نقول لهم : أن الفكر نوعان :

فكر سابق وفكر لاحق ، أو بلغة الفلاسفة : فكر فاعل وفكر منفعل
والشيوعيون على طريقتهم في الهروب والمسح فروا من أحد نوعي الفكر
واحتضنوا النوع الآخر .

فروا من الفكر السابق أو الفاعل ، واحتضنوا الفكر اللاحق أو
المنفعل . ونحن نعرف لماذا فروا مما فروا منه ، ولماذا أقبلوا على ما
أقبلوا عليه ؟

نعرف أنهم فروا من الفكر السابق أو الفكر الفاعل ؛ لأنهم لو وقفوا
أمامه لما خطوا خطوة واحدة في طريق الهاوية التي هووا إليها .

ونعرف أنهم أقبلوا على الفكر اللاحق أو المنفعل لأنهم وجدوا فيه
مركبا زلولا حمائم ، وهم سكارى ، إلى ملائكة الشياطين ، وأحلمهم دار البوار .
نعم : إن الفكر نوعان :

سابق ولاحق ، أو فاعل ومنفعل . وقد تمسك الشيوعيون في استدلالهم
على أسبقية المادة على الفكر بشواهد عما تثيره المادة بعد إيجادها من مشاعر
وأفكار في الأذهان . وهذه هي الأفكار اللاحقة للمادة ، أو المنفصلة بها .
استمدوا الشيوعيون من الواقع الملبوس المشاهد ، وهم في استدلالهم هذا قد
ابتعدوا عن « الحقيقة » وإن كان مصدرهم جانباً من جوانب الواقع .

ونحن في مواجهتنا لهذه الدعوى نتمسك بأصل « الحقيقة » ونبدأ من أول
خطوة في الطريق ونستمد أدلة إبطال دعواهم من جانب من جوانب الواقع .
ولكنه الجانب الذي يجب على طالب الحق أن يبدأ منه وهذا ما سنراه الآن :

شواهد من الواقع تبطل دعوى الشيوعيين :

١ - أنت الآن تقرأ هذا الكلام المكون كل كلمة منه من حروف
مسطورة على ورقة . والكلام من حيث هو رسم وتصوير مادة مرئية ،

وكذلك هذه الورقة التي سطر هذا الكلام عليها . والكلمة عندما تقرأها
تثير عندك فكرة بلا محالة . ولكن الفكرة التي تثيرها الكلمة عند قراءتها
ليست هي الفكرة الوحيدة المتعلقة بالمادة أو الكلمة . لأن الكلمة كانت
ثمرة لفكرة تقدمت بل ثمرة لأفكار تقدمت عليها ، وكذلك مجموعة الكلمات
التي تألف منها كلام مفيد طال أو قصر ؛ لأن الكلام هو الظل الخارجى
للأفكار ، وإذا لم تتكلم ظل الفكر معانى نفسية مجردة لا يعلم ولا يحس به
إلا من تجول تلك المعانى فى نفسه .

أى أن الكلام سواء كان مقروءاً أو مسموعاً يكتنفه نوعان من الفكر
نوع تقدم عليه وهو النوع الفاعل المبدع الذى كان الكلام مسبباً عنه ، وهو
العملية النفسية التى جالت فى نفس المتكلم فصدر الكلام معبراً عنها . وكان
ظلالها وصدى ونوع تأخر عنه وهو المشاعر أو الأثر الذى أثاره الكلام عند
قراءته أو سماعه فى ذهن القارئ والسامع . وهذا هو النوع المنفعل . كأن
يشير فينا الكلام المقروء أو المسموع مشاعر بهيجة سارة ، أو حزينة مقبضة .

وكل من نوعي الفكر له صلة بالمادة ، ولكنها مختلفة عن نوع إلى نوع
فالفكر السابق على المادة صلته بها صلة السبب بالمسبب أو الفاعل بالمنفعل
ولولا سبق هذا النوع عن الفكر ما كانت المادة ولا الآثار المترتبة عليها
والفكر اللاحق لوجود المادة له بها صلة ، وصلته بها صلة المسبب بالسبب
أو المنفعل بالفاعل أو المعلول بالعلة .

فالفكر السابق هو سبب وجود المادة وفاعلها ولولاه لم يكن .

والفكر اللاحق هو مسبب عن وجود المادة ومنفعل بها ولولا
لم يكن .

ومعنى هذا أن المادة نفسها والفكر اللاحق المشار بسببها كلاهما مسببان
عن الفكر الفاعل الذى تقدم عليهما ولولاه لم تكن المادة ولا الفكر
المشار عنها .

ونستعين لإيضاح أكثر بالعملية الآتية :
إذا رمزنا للفكر السابق على المادة بـ (أ) .
ورمزنا للمادة نفسها التى تسببت عنه بـ (ب) .
ورمزنا للفكر اللاحق المشار عن المادة بـ (ج) .

فإن صلة د ب ، بـ د ، أ ، صلة المعلول بعلمته أو المفعول بفاعله أو المسبب
بسببه . والمعلول لا يكون إذا لم تتقدم عليه علمته ولو تقديمًا ذهنيًا كحركة
القلم الناشئة عن حركة اليد .

إذن د ب ، مدين فى الوجود لـ د ، أ ، .
وصلة د ج ، بـ د ب ، مثل صلة د ب ، بـ د ، أ ، صلة المعلول بعلمته . إذن
« د ج ، مدين فى الوجود لـ د ب . ولولا د ب ، لم يكن د ج ، » .
وعلى هذان فإن : د ب ، و د ج ، مدينان فى الوجود لـ د ، أ ، ولو لم يكن
« أ ، لانتفى وجود د ب ، وإذا انتفى د ب ، لزم منه ضرورة انتفاء د ج ، » .

والخلاصة : أن كل صورة مادية لها ثلاثة عناصر :
• الفكر الفاعل المتقدم عليها . وهو الفكر المبدع الخلاق .
• والمادة نفسها من حيث هى مادة ، وهى المبدعة المخلوقة .
• والفكر المنفعل المتأخر عنها ، وهو الفكر الثانوى التقليدى .

والعنصر الأول هو الفكر السابق الفاعل الذى لولاه لما كانت الصورة
المادية ولا الفكر الناشئ عنها .

والعنصر الثاني هو المادة نفسها .

والعنصر الثالث هو الفكر الناشئ عنها . أى أن الترتيب الوجودى بين عناصر الصورة المادية هكذا .

أ - ب - ج : بحيث لا يتقدم ب ، على د أ ، ولا يتقدم د ج ، على ب ، وإلا اختل التكوين أو انعدم .

ونسأل - الآن - هذا السؤال :

أى نوعى الفكر وقف عنده الشيوعيون ١٩

والجواب :

إنهم وقفوا عند النوع الثانى من نوعى الفكر ، وترتيبه الوجودى هو الثالث فى تكوين الصورة المادية .

وهذا النوع الذى وقفوا - عنده - لا تأثير له فى عملية التكوين بل هو د سالب ، دائما ، لأنه منفعل أى مفعول وليس بفاعل ولا مفعول .

وليس له وجود مستمر ، لأنه يتحقق إذا حدثت صلة لحاسة من حواسنا بالمادة . أما إذا كانت المادة معزولة عن صلة الحواس بها مع وجود المساعدة فلا وجود لهذا الفكر وتظل المادة أثرأ من آثار ، الفكر الأول « الفاعل » .

وهذا يبين لك فى وضوح أن الشيوعيين إنما توقفوا عند « فكر » ميت لاصلة له بعملية التكوين والإيجاد وبنوا على هذا الأساس المنهار مبدأهم القائل أن المادة سابقة على الفكر فى الوجود .

وها انت هذا قد عرفت أن الفكر الذى كان ينبغى أن يستخدم فى الاستدلال هو الفكر الأول « الفاعل » . ويترتب على هذا التحليل الواقعى

العلمى الذى مر بك أن استدلال الشيوعيون باطل . . باطل . . . منهار .
منهار .

ومثال آخر :

٢ - إذا وقع بصرك على حديقة زاهية ، نسقت فيها الأشجار ، فى نظام
بديع ، وجرت بين ربوعها أنهار صغيرة يجرى فيها الماء الصافى الفضى
اللون . وفرشت ساحاتها بالحشائش الخضراء ، تدفقت خلالها نوافير المياه ،
وازدانت بالأزهار ما بين أبيض وأحمر وأصفر . وفاح أريجها عبقاً يركى
الأنوف ويبعث البهجة والسرور فى النفس . هانت - لا شك - أمام صورة
مادية ساحرة وسرعان ما تعكس عليك آثاراً ومشاعر طيبة من حيث ما فيها
من نظام بديع . ومناظر أخاذة تسبح بالنفس فى جورحب فسيح هذه الصورة
المادية المبهجة ترجع إلى العناصر الثلاثة التى مر بنا حديثها . . .

(١) نقدم عليها فمكر كان السبب فى إخراجها على الصورة التى
رأيت . فمكر من حطاط هندسية ومنعت وهى أفكار مجردة رسمت الصورة
جزءاً جزءاً .

وكم من يد عملت فى تسوية الأرض وتهذيبها وغرس الأشجار وتركيب
الآلات والأجهزة ، والحديقة ، التى رأيت كانت جنتينا فى غيب الغيوب ثم
تفاعلت الأسباب مع المسببات . وخرجت الصورة من الفكر المجرد إلى
الصورة الحسية بكل ما فيها من أشكال وألوان وتذسيق بديع . وصارت
منبها لإثارة المشاعر المناسبة لدى من يشاهدها ويتأملها .

ولولا الفكرة الأولى ما كانت الثانية ، ولولا الفكرة الثانية ما كانت
الثالثة . ولولا الفكرة الأولى الفاعلة ما كانت الثانية المنفعلة الفاعلة ولا الثالثة
المنفعلة دائماً .

وأنت خبير أن الشيوعيين يتمسكون بالفكرة الثالثة المنفعلة دائماً وهى
لا تأثير لها فى عملية التكوين بل هى أثر من آثاره .

إذن فالشيوعيون يقفون عند « وجود ، واحد من الوجودات ،
الثلاثة محددين الصلة بينه وبين الوجود الأوسط ضاربين عرض الحائط
بالوجود الفاعل .

أى أنهم وقفوا عند تحديد الصلة بين (ب ؛ ج) وألفوا وجود (أ)
وهو أول خطوة في عملية التكوين (ب - ح) وأسسوا على هذا
التصور الفاسد أسبقية (ب) على (أ) ومن هنا بطل استدلالهم
على مبدئهم .

وهكذا كل صورة من صور المادة حين تعكس مشاعر على إحدى حواسنا
فإن تلك المادة توسطت فكرياً : ففكر سابق هو فاعلها ، وفكر لاحق
هو منفعل بها سواء كانت تلك المادة مما يرى أو يذوق ، أو يشم أو يسمع
أو يلمس :

عمارة ضخمة ، سيارة ، خضرة ، طعام شهى ، شراب لذيق ، رائحة طيبة ،
صوت رخيم ، ملمس ناعم ، إلى آخر ما يمكن تصوره من مدركات .

فالعمارة الضخمة : البديعة المصنعة سبقها تصميم هندسى وهو فمكر مجرد
قبل رسمه على الورق ، صممه المهندس جزءاً جزءاً حتى صار وحدة كاملة .
وقد سبق أن رمزنا لهذا الفكر بـ د أ .

ثم برزت العمارة في الوجود كثمرة لذلك الفكر فكان د ب .

ثم أثارت هذه العمارة مشاعر خاصة عند كل من رآها فكان د ج .

والممول عليه علمياً وعقلاً وواقعاً من هذه العناصر الثلاثة : (أ - ب - ج)
هو (أ) وحده ؛ لأن فرض انتقائه يترتب عليه انتفاء كل من د ب ،
و د ج .

وبعد هذا الترويض والتحليل نصل إلى هذا المبدأ الذى يقر به العلم والعقل
والواقع وهو :

إن الفسك أسبق فى الوجود من المادة :

وهذا المبدأ يهدم من الأساس مبدأ الشيوعيين القائل :

إن المادة أسبق فى الوجود من الفسك ؟

فهذا مبدأ باطل ، لأن العلم يبطله ، والعقل يقر بفساده ، والواقع يشهد بسكذبه . والدين يؤيد ما أجمع عليه العلم والعقل والواقع . .
ولكن هل مبدؤنا الذى وصلنا إليه خالص الثبوت مائة فى المائة حتى هذه الخطوة من البحث ؟

والجواب :

إن هذا المبدأ من حيث الحقيقة خالص الثبوت مائة فى المائة . أما من حيث البحث الجدلى فما نزال أمامنا شبهتان قد يتمسك بها الخصوم . ولا بد من إزاحتهما عن الاعتراض أو الاستدلال الذى قد يلجأ إليه الخصم .

الشبهة الأولى :

تد يقول الخصم : إن صانع السيارة كان فى يده دكتالوج ، قبل صنعها ، كما كان فى ذهنه صورة السيارة السابقة التى تقدم صنعها .

والمهندس الذى صمم العمارة الضخمة كان فى ذهنه عشرات بل مئات الصور لعمارات قامت بالفعل . فكل من صانع السيارة وصانع العمارة حاكى أنموذجا كان قد رآه وأرسمت صورته فى تخيلته . إذن فالمادة هى السابقة على الفسك ، وليس الفسك هو السابق على المادة . ؟

والجواب :

أفنا لا نعتمد على الفسك الذى هو رد فعل لمادة سابقة ، وإنما نعتمد على الفكر الذى لم تسبقه مادة .

ففي مثال السيارة نحن لا نعتد بالفكر الذي أنتج السيارة رقم اثنين أو ثلاثة أو ألف في ترتيب الموديلات ، وإنما نعتد بالفكر الذي أنتج أول سيارة في الوجود فهو بلا نزاع ففكر فاعل غير مسبوق بمادة قط أما الفكر الوسيط بين صنع صورة وصورة فلا نعتد به والإعتماد به ساقط عندها وعند الخصوم على حد سواء .

وفي مثال العمارة الضخمة البديعة النظام نحن لا نعتد بالفكر المسبوق بتصور عن مادة سابقة ، فهذا الفكر ساقط في هذا المجال . وإنما نعتد بالفكر الأول الفاعل الذي صنع أو تقدم على صنع أول عمارة أنشئت في الوجود .

وهو بلا شك فكر لم يسبق بصورة مادية قط . نحن نعتد بالفكرة التي أنشئت أول مثال مادي في الوجود من تلك الأنواع التي ذكرنا طائفة منها .

أما الأفكار الثواني فلا يتعلق لنا بها غرض ولا نعتد بها . وهذا هو المطلوب .

ومن الصور المادية ما لم يتكرر له مثال قبله ولا بعده . مثل الأهرامات التي أنشأها الفراعنة القدماء . فهم استوحى الفراعنة تلك الأشكال ، إنها وليدة فكر غير مسبوق بمقال مادي . ولم يتكرر لها مثال في قوتها وخصامتها حتى الآن ؟ .

ومثل برج بيزا المائل إنه وليد فكر غير مسبوق بمادة من نوعه ولم يتكرر له مثال .

إذن فالشبهة التي يتمسك بها الخصوم - هنا - ساقطة ولا تقـدح في صحة المبدأ الذي توصلنا إليه .

إن الفكر سابق في الوجود على المادة :

والمراد بالفكر - هنا - هو الفكر الفاعل الأول ، وليست الأفكار الثواني فهي لا قبعة لها في أصل الموضوع .

الشيبة الثانية:

وللخصم أن يقول : إنكم تتحدثون عن مادة وصنعة ، ونحن نتحدث عن مادة وصنعة غير التي اتخذتموها أنتم طريقا للإستدلال .

أنتم تتحدثون عن مادة أو صورة مادية صنعها الإنسان .

ونحن نتحدث عن مادة أو صورة مادية لم يصنعها الإنسان .

وأنتم تتحدثون عن مادة صغيرة وصنعة صغيرة ، ونحن نتحدث عن مادة كبيرة هي الأصل وعن صنعة كبيرة وجدها الإنسان وليس له عمل فيها . بل هي عاملة فيه .

إذا قال الخصوم - الشيوعيون والعلمانيون - هذا قلنا لهم :

إن الذي تقولونه - الآن - لم يكن مفاجئاً لنا . بل له عندنا ألف حساب وحساب . وكنا واثقين كل الثقة ونحن نصوغ المبدأ الحق الذي توصلنا إليه بعد تحليل صورة المادة الصغرى وهو :

أن الفكر أسبق من المادة في الوجود : كنا واثقين بما ستقولون وواثقين أن قولكم هذا لن يؤثر في صحة هذا المبدأ ، لأن قولكم هذا باطل - كذلك - بشهادة العلم ، وإقرار العقل ، وحكم الواقع ، وتأيد الدين .

ولأيكم البيان :

إذا أبصرنا أمامنا ناراً موقدة ولسكن في حيز ضيق ، ثم أبصرنا على مسافة منها ناراً موقدة ولسكن على حيز واسع عميق ، ومع اختلاف النارين في المقدار فإننا - بناء على التجارب المخزنة في أذهاننا - نثبت للنار الموقدة في حيز ضيق نفس الخصائص التي نثبتها للنار الموقدة في حيز واسع تمتد وعميق فكلتاها جسم ملتهب مضيء ، يحرق .

هـذا هو حكم العلم والعقل والواقع ؛ لأن الشئيين اللذين بينهما تماثل تام من كل الخصائص الذاتية غير العارضة ما يثبت لأحدهما يثبت قطعاً بالضرورة للآخر ، إذ لا مرجح لأحدهما على الآخر حتى يقع بينهما تفاوت ما .

وحين نأخذ قطعة من الحديد ونضعها في النار فإنها تلمين وتمتد ويحمر لونها بعد أن كان داكناً .

وهذه التغيرات التي حدثت لقطعة الحديد نعلم بالضرورة أنها ستحدث لكل قطعة حديد من نوعها ، لأن ما يثبت لبعض أفراد الجنس أو النوع من التغيرات الذاتية يحدث لكل أفراد الجنس أو النوع ما دامت الماهية والحقيقة واحدة .

وإذا وضعنا مقداراً ما من الماء تحت درجة حرارة منخفضة فإنه بعد فترة معينة من الزمن يتكثف ويصبح ثلجاً ويزداد حجمه ويصفو لونه فإذا وضعناه تحت درجة حرارة مرتفعة انحلت كثافته وعاد إلى السائلة مرة أخرى . فإذا تركناه لمدة أطول تبخر شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منه شيء .

وهذه التغيرات نعلم بالضرورة كذلك أنها ستحدث لكل مقدار من الماء إذا وضعناه في نفس الظروف المذكورة . وليس حدودها وقفاً على المقدار الذي أجرينا عليه تلك التجارب ، لأن الماء كله له طبيعة واحدة فما يثبت لبعضه يثبت لسله بهذا قضى العلم ، وشهد الواقع وأقر العقل .

إذن فالأشياء المتماثلة تماثلاً تاماً في الخصائص الذاتية فإن ما يطرأ على بعضها من العوارض يطرأ ضرورة لكل شيء منها إذا حدثت الظروف والمؤثرات التي حدثت فيها تلك التغيرات . وهذا قانون لم يتخاف وإن يتخلف ، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ونعود فربط بيننا مثلاًنا به الآن وبين الإجابة على الشبهة الثانية التي من حق الخصوم أن يثيروها ، وهي :

إن تمثيلنا بصنعة البشر غير تمثيلهم بما ليس للبشر صنعة فيه وهو
الكون بما فيه من أرض وسما. وأنهار وهواء ومعادن وأفلاك فالهارة
الضخمة البديعة النظام ، والسيارة ، من قبيل المادة الصغرى والكون مادة
كبيرة .

وصنعة الإنسان صنعة صغرى ، وصنعة الكون صنعة كبرى ، والفرق
جد كبير بين المادة الصغرى والمادة الكبرى ، وبين الصنعة الصغرى والصنعة
الكبرى .

قلنا إن من حق الخصوم أن يقولوا : إن المادة الصغرى كتشبيد الهارة
الضخمة أو صنع السيارة ، أو بناء الأهرامات ، أو برج بيزا المائل إذا سلطنا
لكم أن الفكر فيها سابق على المادة في الوجود فلن نسلم لكم بأن المادة
الكبرى والكون أو الطبيعة ، قد سبقها فكر بل هي التي سبقت الفكر ؛ لأنها
كانت ولم يكن لإنسان فلم يكن - إذن - فكر ؟ !

هذا قصارى ما يقوله الخصوم ، وليس لهم بعده من مقال . فلنأخذ في
إبطال دعوىهم هذه بما يأتي :

إبطال هذه الدعوى :

علمنا بما سبق أن ما يطرأ على بعض أفراد الجنس أو النوع تحت ظروف
ومؤثرات معينة يطرأ بالضرورة على بقية أفراد الجنس أو النوع إذا وضع
تحت تلك الظروف والمؤثرات . لافرق بين صغيرها وكبيرها . فما يخضع له
أقل جزء يخضع له أكبر جزء بل والوحدة الكاملة التي تتكون من جميع
الأجزاء .

وقد علمنا أن العقل والعلم والواقع هذه المصادر الثلاثة أجمعت على أن
" الهارة المشيدة " هي صورة مادية قد سبقها فكر صادر عن مفكر كان
(١٧ - النصوص المقدسة)

ذلك الفكر واحدا من أسباب تشييد العبارة وهى الصورة المادية الماثلة أمام العيان . ويستحيل فى حكم العلم والعقل والواقع أن تكون تلك الصورة المادية قد أوجدت نفسها .

والكون أو الطبيعة صورة مادية كالعبارة المشيدة وإن اختلفت الصورتان فى المقدار . فإنهما متحدتان متماثلتان فى الخصائص المادية :

فالعبارة المعقدة صورة مادية مصنوعة على شكل مخصوص .

والكون أو الطبيعة صورة مادية مصنوعة على شكل مخصوص واختلاف الشكل بين الصورتين لا يـمدح فى أنهما متماثلتان فى الخصائص الذاتية ، فـكل منهما :

مادة + صنعة = صورة مادية ماثلة للعيان أما اختلاف الشكل فهو من العوارض الطارئة على المادة من حيث أنها مادة ترى أو تسمع أو تلمس أو تشم أو تذاق .

وقد علمنا - يقينا - أن ما يخضع له أقل جزء من مادة متماثلة تماما فى الخصائص الذاتية يخضع له - ضرورة - كل أجزاء المادة أو الوحدة الكلية المكونة من جميع الأجزاء .

والعبارة المشيدة ، وهى صورة مادية صغيرة بالنسبة للكون كله قبل خضعت فى إيجادها لفكر سابق عليها صادر من مفكر ذى علم وإرادة وقدرة .

وكذلك الكون كله ، وهو المادة الكبرى خاضع فى إيجادها لفكر سابق عليه من مفكر ذى علم وإرادة وقدرة . هذا هو حكم العقل ، والعلم ، والواقع وليس بعد هذه المصادر مصدر آخر - غير الدين - يحتكم إليه .

لأن ما يخضع له جزء من المادة المتماثلة ينتقل - بالسراية - إلى جميع أجزائه .

ومن يفرق بين المتماثلين تمام التماثل في الخصائص الذاتية فقد قال بما لم يصدقه أحد .

وهنا - بحق لنا أن نقول : إن المبدأ الذي توصلنا إليه وهو : إن التفكير
أسبق من المادة في الوجود : صحيح مائة في المائة صحيح من حيث معطيات
العلم . ومن حيث شواهد الواقع ، وصحيح من حيث إقرار العقل ،
وصحيح من حيث إزالة كل الشبهات المؤثرة في إثبات صحته . وصحيح من
حيث يحى الوحي الأمين به . وهنا نحن قد وقفنا على معطيات العلم وشواهد
الواقع ، وإقرارات العقل وسلامة المنهج البحثي المزبل لكل الشبهات . فإذا
قال الوحي الأمين إذن ؟

بلاغات الوحي الأمين :

بلاغات الوحي الأمين القاضية بنسبة خلق الكون ومن فيه وما فيه لله
خالق كل شيء . أجل من أن يخصها في هذا الكتاب . فلا بد إذن من التمثيل
دون الاستقصاء . ولنبدأ بهذا النص الآتي لأنه كأنه صيغ خصيصاً لمواجهة
الماديين المعاصرين من علمانيين وشيوعيين ووضعيين والنص هو قوله تعالى :

« قل أنتم كنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له
أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها
أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها
واللأرض إنئيأ طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في
يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك
تقدير العزيز العليم ، فصلت (٩ - ١٢) .

فالأرض والسموات وما بين الأرض والسموات مخلوق لله تعالى ، فهو
- وجده الخالق ، وهو - وجده - رب العالمين ، والخلق - كله - من تقديره ،
لأنه هو - وحده - العزيز العليم .

ويقول سبحانه :

« خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلدكم تسكنون بالفيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرهوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين . وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب . ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يتذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم مهتدون . أفمن يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم ، النحل (٣ - ١٨) .

إننا - مع هذه النصوص - أمام لوحة خالدة كلها دلائل ناصعة . إنها كلياته ولكنها ليست رسوما جامدة . بل هي صورة حية للحياة التي نشاهدها ونحن بين أركانها كالذرات الهائمة في الفضاء . فكل كبة فيها تقابلها حركة من حركات السكون المدار بتدبير الخالق العظيم ترى فيها أقطار السموات والأرض ، وحركات الأفلاك السابحة في مداراتها التي صنعتها يد القدرة . وترى الماء نازلاً وجارياً على الأرض ، وترى الأرض جنة فيحاء فيها من كل زوج بهيج . وترى ما خلق الله لنا من أنعام تجود بما أودع فيها الخالق من خيرات وعطاءات هي طعامنا وشرابنا صباح مساء . ومع ما فيها من خيرات فهي مبعث السرور والجمال والبهجة . والبحار والأنهار تمدنا بمصدر الحياة : الماء ، وتقذفنا بما

أودع الله فيها من لحم شيء ، وملبس غنى . وتعبر عليها السفن والبواخر العملاقة . كطريق ميسر ممد للتجارة والنقل ، بالإضافة إلى الوسائل البرية من خيل وبغال وحمار . المهيئة للركوب والمستخدمة كوسائل للزينة وتعاقب الأفلاك السماوية لإمداد الكون بالطاقة والضوء والنور والهداية . كل هذا هو من خلق الله . وهذه البراهين الساطعة . والأدلة القوية القاطعة . والشواهد الماثلة الناطقة إنما يخاطب الله بها من عباده من كان له عقل يتفكر ويتذكر . ولكن الذين هم كالأنعام أو هم أضل أعرضوا عنها وسروا بين الخالق وغير الخالق فضلوا وأضلوا . فأراهم النار فتمسوا لهم .

ويقول جل في علاه :

« الله الذى رفع السموات بغير عمد - ترونها - ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم تلبقوا . ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، الرعد (٢ - ٤) .

فى هذه الآيات دلائل خارقة على عظمة قدرة الخالق ، إنها فى الواقع تتحدث عن معجزات باهرة أولاها رفع السموات بدون أعمدة . وفى هذا تحد لقدرات الخلق جميعا ؟ لأنهم يعجزون عن رفع « ريشة » تثبت فى نقطة من الفضاء فلا تميل ولا تتحرك ، ولا تعلو ولا تسفل . وماذا يكون وزن الريشة فى وزن السماء الواحدة ، بله السموات السبع .

إن هذا الكون كله ، مسير بقدرة الله وعلمه وتديره وإرادته . وليس هناك وسائل مادية تدير هذا النظام البديع الباهر :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، وإثن زالتا إن أمسكهما
من أحد من بعده . إنه كان حليما غفورا ، (١٢) .

وفي التعبير بالمضارع « يمسك » ، ما يفيد استمرار هذه الظاهرة الإلهية
المعجزة فهو - سبحانه - يمسكهما الآن ، كما أمسكهما قبل الآن ، وكما يمسكهما
بعد الآن إلى أن يأتي الأجل المسمى المؤذن بزوال هذه الحياة الدنيا .

« ألم تر أن الله سخر لَكُمْ ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ؟
ويمسك السماء أن تقع على الأرض بإذنه ؟ إن الله بالناس لرؤوف
رحيم ، (١٣) .

أجل : إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولا تاما أو تضطربا .
ومسكها بماها مسك قدرة وأمر ، فهما الآن غير مأذون لهما بأن تزولا ، وحين
يصدر الأمر لهما بالزوال زالتا . أى أن كلمة من الله صدرت فمسكنا بلا عمد
ولا حوامل ولا جسور ولا روافع . وبكلمة من الله يؤذن لهما بالإزالة أو
الزوال فتزولان ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

فإذا تركنا السموات إلى الشمس . والشمس حجم صغير جدا بالنسبة
للسماء ولغير السماء من الكواكب الأخرى . ونحن نراها الآن في حجم دائرة
بالغة الصغر تحت أديم السماء والسماء ممتدة حولها من كل جانب إلى منتهى
قوة البصر . هذه الشمس التي نراها صغيرة هكذا لأنها تبعد عنا بمقدار ١٥٠
مليون كيلو متر هي أكبر من الأرض إذ يبلغ قطرها ١٣٩٢٠٠٠ أي مليون
واثنان وتسعون وثلاثمائة كيلو متر . أى أنها أكبر من قطر الأرض ١٠٩

(١٢) فاطر (٤١) ومعنى أن الثانية في « إن أمسكهما » التي . أى إذا زالتا فلا
يستطيع أحد من بعده أن يمسكهما .

(١٣) الحج (٦٥) .

مرات وأثقل من الأرض بـ ٣٣٣.٠٠٠ ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ألف مرة (١٤) :
هذه الكتلة الضخمة محمولة بالقدرة الإلهية في الفضاء الكوني الفسيح ،
وكذلك السموات الطباق .

هذه الصنعة البديعة التي ليس للبشر تأثير فيها كيف يسوغ في عقل عاقل
أو علم عالم أو وهم وأهم أنها وجدت قبل أن يكون شيء في الوجود غيرها .
وأنا هي أول خطوة في الـكون كله . لم يتقدم عليها فـيـكـر ولا مـفـكـر ذو علم
وقدرة وإرادة ١٩

إن حديث القرآن عن الكون حديث الخبير العليم بكل أسرار وقوانينه
وظواهره وكواشيه ومبادئه ومقاصده ومصيره . وصاحب كل صنعة دقت
أتم جللت هو وحده صاحب الكلمة عنها .

فصانع الإبرة لا يحق له أن يتحدث عن سر صنعة الطيارة ، وإذا تطفل
وتحدث عنها هذى - نذيان المحموم ، وصار ، بهلولا ، من د البهاليل ، يثير
الضحك العميق عند الناس ، وقد يحملهم كبهايل الشيوعية - على الاشتيزاز
والتقزز . وحديث القرآن الصادق كل الصدق ، والباهر كل الانبهار عن الكون
دليل على أن صاحب هذا الكلام (الله) هو صانع هذا الكون بكل ما فيه من
أسرار ودقائق سواء ما ظهر لنا منها ، وما بطن منها عنا ، وما نزال مباحث العلماء
في كل فن من فنون المعرفة الكونية يأتى الصنواب والصادق منها مطابقا
للإشارات أو التفصيلات العلمية الواردة في القرآن الحكيم العظيم العزيز .

والعقل الإنسانى بدلالات العلم والواقع المحسوس لا يسعه إلا الاعتقاد
اليقيني بأن موجود هذا الكون هو الله ، لا شريك له . إن العقل يسلم في رضا
بالغ واقتناع شديد بهذه الحقيقة ؛ لأنه لم ولن يعثر على حقيقة سواها . هذا هو
حكم العقل في كل زمان ومكان . وهذا هو حكم العقل فيما أشبه هذه
القضية .

مثال وتوضيح :

هـ أن اثنين تنازعا حول جهاز من أجهزة العلم الحديث . يدعى كل منهما أنه هو صانع هذا الجهاز فيجب أن تكتب براءة الاختراع له دون صاحبه . ثم احتسبا إلينا . وقد وقفنا أمامنا أحدهما ممسك بالجهاز والثاني لم يتجاوز حدود الدعوى باللسان .

إن موقف الخصمين هنا غير متعادلين فالممسك بالجهاز حائز ، والحيازة قرينة قوية من قرائن التلك . فلو أننا حكمنا بأحقية المسك بالجهاز لكنا على شعبة من صواب .

ولكن هـ أننا أردنا أن نستوضح أكثر وأكثر فطلبنا من كل من الرجلين - على حدة - أن يشرح لنا حقيقة الجهاز المخترع المتنازع عليه . فأجاد أحدهما الرجلين وفصل الحديث عن تصميم الجهاز الداخلى ، ووضع أجزاء ، وعلاقة كل جزء بالآخر ، ووظيفة كل جزء فى الحركة الكلية للجهاز مع رسم واضح للدوائر الكهربية التى فيه ، وكيفية تشغيل الجهاز وكيفية توقيفه ، والمهمة التى يؤديها الجهاز وهكذا .

ثم سألنا الآخر فلم يستطع إلا أن يصف الجهاز وصفا ظاهريا مثل لونه وشكله الهندسى مربع أو مستطيل ، وعجز تماما أن يقدم لنا أية معلومات عن تصميم الجهاز الميكانيكى الداخلى ، ولا عرف كيف يعمل ولا متى يتوقف عن العمل ، وقد جهل كل الجهل الوظيفة التى يؤديها الجهاز ما هى ؟

إذا حدثت هذه الواقعة فلن نحكم بأحقية الجهاز المتنازع عليه . ١٩
ليس أمامنا إلا أن نحكم به لجائزه الخبير بأسراره ودقائقه . أما الآخر فهو مدع كذاب وقف به كذبه حيث يقف الكذب أمام الصدق .

والشيوعيون - قاتلهم الله - يدعون أن الطبيعة هى الخالقة ، ولم يأتوا بدليل واحد يقوى هذه الدعوى .

والوحى يقول : « إن الله هو الخالق . ويقدم مئات الأدلة الصادقة على صحة هذا القول ، فلميس للعقل ولا للعلم ، ولالواقع المشاهد إلا الإقرار القائم على كل اقتناع بأن الله هو الخالق المصور . لأنه هو الخبير العليم بأسرار الكون القادر على كل شيء . »

أما الطبيعة فلم تدع أنها خالقة ، ولا تصلح لأن تدعى هذه الدعوى . وإنما الذى ادعاهما لها قوم آخرون . وهذا يجعل دعوى الشيوعيين أضعف بكثير من دعوى الرجل الكذاب الذى نازع فى شيء لبس له وهو به جاهل ١٩ .

والناظر فى حديث القرآن عن الكون والطبيعة يفرج بنتيجة واحدة على وجه الإجمال . فإذا ريم شرحها اتسع البحث والمقال . وتلك النتيجة الواحدة على وجه الإجمال :

« إن الكون أو الطبيعة أو المادة مقهورة لله ، مصنوعة لله ، طائعة لله مستخرة لمنافع العباد . الله هو خالقهم قبلا - والله هو المتصرف فيهم قبلا والآن وبعداً . »

فليست المادة خالقة ، بل هى مخلوقة ، ولا قاهرة ، بل هى مقهورة ، ولا مسخرة بل هى المستخرة . ولا متصرفة بل هى المتصرفة . وإنما الخالق القاهر المسخر المتصرف هو الله « الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

هذا كاف :

أجل . هذا كاف فى تقويض دعوى الشيوعيين . فإن دعواهم الطويلة العريضة قد بنوها - ولسوء حظهم - على أن :

المادة سابقة فى الوجود على الفكر : هذا هو أساسهم الذى أقاموه على شفا جرف هار فانهم - أربهم فى نار جهنم . وها نحن - بحمد الله - قد أثبتنا - فى يقين لا يقبل الشك - أن الفكر سبق من المادة فى الوجود . بل

ليس الفكر وحده . وإنما مع الفكر السابق مفكر أسبق ذو علم وإرادة وقدره
وسبقنا على هذا المبدأ الإيماني الراسخ العظيم عشرات الأدلة والبراهين فكان
يكفيها هذا في ففض أيدينا من غبار الشيوعية ومادها دون أن نقف وقفات
أخرى أمام فرعيات من ااعمهم التي بنوها على هذه الدعوى التي انهارت فانهارت
معها ما بنوه عليها من فرعيات . كان يكفيننا هذا كما قلنا من قبل . ولست كنا
نملك وقتا لا نبخل به على ماهاوى من أنقاض البناء الشيوعى المنهار .
فلنرفع من تلك الأنقاض - كى تتم عملية التطهير - ما يسمع به الوقت . ومن
الله - وحده - العون والساداد .

أزلية المادة :

لا أرانا ونحن نواجه فرية الشيوعيين القائلة بـ : « أزلية المادة » .
لا أرانا أننا أمام فكرة جديدة لم تواجه من قبل . بل قدمر بنا
مضموتها ومعناها وإن لم تكن بهذا العنوان « أزلية المادة » ، لأن مبدأهم
الذى تقدم وأسبقية المادة على الفكر فى الوجود ، متضمن لهذا المعنى
« أزلية المادة » .

ويريدون بـ « أزلية المادة » ، قدمها وأنها وجدت بلا بداية . وقد نقضنا
فيما تقدم مبدأهم المذكور ، وأثبتنا بالأدلة القواطع أن المفكر أسبق
من المادة فى الوجود ، وأن ما من صورة مادية أبأ كانت صغيرة فى
حجم علبة الكبريت ، أو كبيرة ضخمة مترامية الأطراف بعيدة الغور
متعددة العناصر دقيقة التركيب كالسكون . ما من صورة من هذه الصور المادية
إلا وقد تقدم عليها فكر هو سبب فيه أو واحد من أسبابها إن أردنا تحرى
الحقيقة وضبط الموضوع .

وفى قولنا : الفكر أسبق فى الوجود من المادة ، مجازاة للنخيم فى أصل
القضية لأن قولنا : الفكر أسبق فى الوجود من المادة ، هو العكس المنطوق لقولهم ،

والمادة أسبق في الوجود من الفكر ، نعم أنه مجازاة جدلية . وإلا فأتينا
لا نكتفي بتقديم الفكر على المادة ، فالصورة عندنا لها عناصر أخرى بها
تتم عملية التكوين لأى صورة من صور المادة صغيرة كانت أو كبيرة .

ولنأخذ من هذا الكتاب الذى تقرأه - الآن - مثلاً ، لأنه أقرب المدركات
إليك وأنت تقرأ :

هذا الكتاب صورة مادية بلا نزاع . وقد تقدم عليه من حيث أنه كلام
مؤلف خمسة عناصر :

مؤلف + فكر + علم + إرادة وقدرة ، وقد جرى منهج الشيوعيين على
اعتبار الفكر فى هذا المجال . ولكنه كما علمت فيما تقدم الفكر اللاحق
لا الفكر السابق .

فهذا الكتاب سبق على تشكيله فى هذه الصورة المادية التى تراها العناصر
الخمس المشار إليها ، وهى :

المؤلف ، والفكر الذى تعلق بتصوير الكتاب قبيل البدء فيه . والعلم
الذى أهل للسير فى تحرير المادة العلمية والإرادة الحرة التى لم يعقها عائق
عن ممارسته العمل المطلوب لهذا التصور . ثم القدرة المنفذة لإخراج ذلك
التصور فى هذه الصورة المادية على الشكل الذى صارت به كتاباً يقرأ .

إذن فلا بد - ضرورة - قبل تكوين أية صورة مادية من توافر هذه
العناصر قبل إخراجها فى صورتها الماثلة ، وهى :

- * الفكر الذى يتصورها .
- * والمفكر الذى يصدر عنه الفكر .
- * والعلم المحيط بذلك التصور الموضوع .
- * والإرادة الحرة التى تتعلق بإنجاز ذلك التصور .

• ثم القدرة المنفذة لذلك التصور على الهيئمة التي أريدت .

وهذا السكون بما فيه من أسرار ودقائق وأرض وسما، وفضاء وأفلاك وبحار ومحيطات وأنهار ، وزروع وجبال وصحارى وملائكة وجن ولانس وأنعام وطيور . هذا السكون إنما هو صورة مادية كبرى مجتمعة في تفرق ، ومتفرقة في اجتماع .

وقد علمنا أن كل صورة مادية لا بد أن تسبق بعناصر خمسة لأنها مصنوعة وهى :

الصانع ، والمسكر ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة . ولكل صنعة صغرى عناصرها المناسبة لها . أما صورة الكون أو المادة الكبرى فإن الله وحده - هو صانعها بتدبيره وعلمه وإرادته وقدرته فهى إذن ليست أزلية ، لأنها حادثة قد تقدم عليها فاعلمها المدبر العالم المريد القدير .

هذا دليل من أدلة حدوث المادة ولها أدلة أخرى نذكر منها :

• إن الأزلى هو الفاعل غير المنفعل ، أو المؤثر فى غيره ولا يتأثر هو بغيره . أو كما يطلق عليه بعض العلماء : هو المحرك الأول الذى لا يحرك . ويقصدون به لا يحرك ، لا يؤثر فيه غيره أو هو العلة الأولى التى يفسر بها غيرها ، ولا تحتاج هى إلى تفسير لاستغنائها بذاتها عن سواها ، .

وهذه الضوابط كلها لا تنطبق على ، المادة أو الطبيعة .

أما أولا ؛ فلأنها منفصلة غير فاعلة فى غيرها فعلا يعتد به فى هذا المجال .
وأما ثانياً ؛ فلأنها متأثرة غير مؤثرة فى غيرها نائراً يعتد به فى هذا المجال .
وأما ثالثاً ؛ فلأنها محركة غير محركة لغيرها حركة يعتد بها فى هذا المجال .
وأما رابعاً ؛ فلأنها معلولة غير معللة لغيرها تعليلاً يعتد به فى هذا المجال .

لأنها منفصلة لعلم الله وإرادته وقدرته ، وخاضعة لتدبيره وتصرفه .
ولأنها متأثرة بعلم الله وإرادته وقدرته وخاضعة لتدبيره وتصرفه .
ولأنها محرك بعلم الله وإرادته وقدرته ، وخاضعة لتدبيره وتصرفه .
ولأنها معلولة لعلم الله وإرادته وقدرته ، وخاضعة لتدبيره وتصرفه .
وهذه كلها صفات الحوادث فالمادة حادثه وأبست أزلية .

• ودلائل ثالث : إن المادة التي يزعم الماديون والشيوعيون أنها أزلية هي إ
أحط أنواع المادة ؛ لأن أنواع المادة أربعة :

- ١ - ما يحس وينمو ويتحرك بالإرادة الحرة ويعقل . وهو الإنسان .
- ٢ - ما يحس وينمو ويتحرك بالإرادة ولا يعقل ، وهو الحيوان
الاعجم .
- ٣ - ما ينمو ولا يحس ولا يتحرك بالإرادة ، وهو النبات .
- ٤ - ما لا ينمو ولا يحس . وهو الجناد كالارض والجبال والصخور
وهكذا .

هذا النوع هو الذي يعنيه الشيوعيون وأضرابهم . ويقولون إنه أزلي
وهو الخالق لكل شيء . . وهو منهم دعوى في منتهى السخف إذ كيف يهب
الحياة ما هو ليس بحى . إن فاقه الشيء لا يعطيه . فلو كانت المادة أزلية وهى
الخالقة لكان الأولى أن تهب لنفسها الحياة قبل أن تمنح غيرها حياة ١١٩

أبدية المادة :

المراد من أبدية المادة أنها ستدوم أبدا بلا نهاية ، لأن المادة عند من
يقول بأبديتها : لا تنفى . هكذا قال الماديون فى العصور الحديثة ، والقول بأبدية
المادة قديم . فقد كان ممن قال به فى القديم الحكيم اليونانى « جالينوس »
ودليله على أبدية العالم ظاهرة جزئية من ظواهر الكون ، وهى ثبوت الشمس
على حالتها دون أن يطرأ عليها تغيير . قال : لو كانت الشمس تقبل الإنعدام
لظهر عليها ذبول فى مدة مديدة ، قال : والأرصاد الدالة على مقدارها منذ

آلاف السنين لا تدل الآن إلا على ذلك المقدار واستدل جالينوس بهذه
الملاحظة على أبدية العالم . ١٩٠

ثم جاء الفلاسفة من بعده ونمسكوا برأيه هذا . وقد تصدى لهم الإمام
الغزالي رحمه الله في كتابه « تهافت الفلاسفة » وأبطل رأيهم « عليها » من
ثلاثة وجوه :

الأول : أن هذا الدليل - وغيره - على فرض صحته هو دليل بقاء طويل .
وليس دليل أبدية (١٥) .

الثاني : الجزم بانتفاء ذبول الشمس غير مسلم ولا هو صحيح لجواز أن
يكون قد حدث لها ذبول واسكنه خفي علينا

الثالث : وهذا الدليل كان يمكن النمسك به لو كانت أسباب الفناء محصورة
في الذبول ، ولكن أسباب الفناء ليست محصورة في الذبول فلا يصح أبداً
النمسك بهذا الدليل . [تهافت الفلاسفة : (١٢٦) وما بعدها] .

وحجة الإسلام الغزالي موفق كل التوفيق في نقض أدلة الفلاسفة على أبدية
العالم ، وقد كان رحمه الله قد نقض أدلتهم - بوضوح - على أزلية المادة .
وذكر في تصديده لبطلان الأزلية أن ما ذكر في بطلان الأزلية المأخوذة هو بعينه أدلة
بطلان الأبدية وهذا لم يمنعه رحمه الله من التصدي من جديد لنقض أدلة الأبدية .

والذي ذكره الإمام الغزالي في تساوي الأزلية والأبدية في أدلة إبطاءهما
تمسك به النقاد المعاصرون . فقالوا بعد إثبات فساد أزلية المادة حين تصدروا
لنفي الأبدية :

(١٥) فالهوام الطويل له نهاية كمر نوح عليه السلام . وعمر السكون نفسه .
والهوام والبقاء بمعنى واحد . أما الأبدية فنناهاها ما لانهاية له . وذلك تفهم ففرقة
للغزالي بين الأبدية والبقاء .

إن الماده بطل القول بأزليتها وثبت أن لها بداية ، وكل ما له بداية فله حتما نهاية . فالمادة ليست أبدية لأنها حادثة .

وأنت خير أن هذا من قبل الجدل النظري القائم على المسلمات العقلية .
وبقى من مصادر البحث :

دلالة العلم الواقعي .

ثم دلالة الوحي الديني . ونذكرهما على هذا النظام :

دلالة العلم الواقعي :

كانت المادة قبل تطور العلوم محتفظة بذاتها فالحجر حجر ، والصخر صخر ،
والأرض أرض واسكل كتلة مادية ثلاثة أبعاد كما قال آشتين صاحب النظرية
المعروفة بالنسبية . وتلك الأبعاد هي :

الطول + العرض + العمق . ويضاف عند صاحب النسبية بعدد رابع هو :
الزمان . ولكن الزمان غير داخل في نظام التركيب الذاتي للمادة .
وبتلك الأبعاد الذاتية الثلاثة شغلت الكتلة المادية وحيزا ، من المكان متناسبا
مع حجمها تناسبا طرديا .

وهذا حمل الناس قديما بل وإلى عهد قريب أن يقولوا : إن المسألة لا تعني
وإعمل هذه الملاحظة هي التي أوحى إلى الفلاسفة وإلى الماديين من الشيوعيين
والعلمانيين والوضعيين من بعدهم بأن يقولوا : إن المادة أبدية وسيطر هذا
الفهم على العقول ردحا من الزمن . وظنوا أنها حقيقة لا تقبل الزوال .

العلم يبدد هذا الاعتقاد

ولكن العلم جاء بما يبدد هذا الاعتقاد ، ويذرع ذلك الفهم المخدوع
الذي وثق فيه الناس حينئذ . ودعا العلم بوقفه أجديد إلى تغيير النظرة العتيقة
وإحلال العقيدة الصحيحة ، محلها .

فبعد أن وقف الناس حينئذ عند الذرة ، وظنوا أنها وحدة الوجود المادى
وأنها غير قابلة للإنقسام لفرط صغرها ، سرعان ما تبدت الحقيقة عارية من
كل ليس فإذا بالعلم يقول : أن المادة قابلة للإنقسام ، وأنها تتحطم ؛ لأنها
مركبة من شحنتين كهربيتين سالبة وموجبة ، والشحنة الكهربائية مجردة عن كل
حامل مادى . وأن المادة إذا حطمت تحولت إلى قوة إشعاعية هائلة يمكن أن
تستخدم في تعمیر الكون أو تدميره على حد سواء . وهكذا ظهرت المفاجأة
الكبرى :

هكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار ، وتتكشف المادة عن أصلها الأصيل
فإذا هي ، طاقة ، أى قوة مجردة يلزم البحث عن مصدرها خارج ذلك الهيكل
المادى المحطم ، وذلك الصنم الساقط المهدم ، وهكذا يقترب عالم المادة رويدا
رويدا من عالم المجردات ، ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده
الأدنى كما يتصل به من جهة حده الأعلى . وهو غيب يؤمن به العلم وإن لم يره ؛
لأنه يحس أثره ، ويكاد يلمس خطره . أجل ، لقد أصبح العلم اليوم يؤمن بأن
فى الوجود قوى لا يناهها الحس المجرد ، ولا الحس المجزئ بأقوى المجاهر ،
المزود بأدق المقاييس والموازين (١٦)

ومعنى هذا :

- ١ - المادة تعنى فهم إذن ليست أبدية ولا أزلية .
- ٢ - وحين تفنى المادة تتحول إلى طاقة مجردة من أشكال الماده تماما .
- ٣ - إن الإعتماد على التجارب الحسية - وحدها - ليس هو مصدرا لمعرفة
الوحيد ، فإن فى الوجود عالما أو عوالم لا يمكن إدراكها عن طريق الحواس .

٤ - إن العلم يؤمن عن اقتناع ورضى تامين بحقائق خارج الـكون المادى
يسر كها العلم بمعونة العقل فلا يسمعه إلا الإيمان اليقيني بها .

ومع العلم فى دليل آخر :

إن مبدأ تعظيم الذرة ونحوها إلى إشعاع هائل هو إحدى الوسائل العلمية
التي بددت وهم الواهمين بأن المادة لا تنفنى ، وأنها أبدية ليست لها نهاية .
والعلم وسائل أخرى غير "تعظيم" في إثبات فناء المادة ، عليها ، ومن تلك
الوسائل الكشف العلمى الآتى :

الانتقال الحرارى :

يقول إدوارد لوثر كيمبل فى الرد على القائمين بأزلية المادة أو الـكون أو
الطبيعة . . . ولكن القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ
هذا الرأى الأخير . فالعلوم أثبتت بكل وضوح أن هذا الـكون لا يمكن أن
يكون أزاليا . . فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة (كالشمس)
إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تترد
الحرارة من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة (١٧) .

، ومعنى ذلك أن الـكون يتجه إلى درجة تقاوى فيها حرارة جميع الأجسام
وينتصب فيها معين الطاقة . ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيميائية أو طبيعية ،
ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الـكون ، ولما كانت الحياة لا تزال
قائمة ، ولا تزال العمليات الكيميائية والطبيعية تسير فى طريقها فإننا نستطيع

(١٧) لإيضاح هذا نقول : إذا وضعنا جسما باردا بجوار جسم ساخن فإن الحرارة
تنتقل من الحار إلى البارد تدريجيا حتى تتساوى درجتا الجسمين الحرارية ثم نأخذان
فى الانخفاض بتوقف المصدر الماد بالحرارة . ويستحيل عودة الحرارة من البارد إلى
الحار مرة أخرى . بل ستزول الحرارة منهما معا .

أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، وإلا لاستهلك طاقته من زمن بعيد ، وتوقف كل نشاط في الوجود .

« وهكذا توصلت العلوم - بدون قصد - إلى أن لهذا الكون بداية ، وهي بذلك تثبت وجود الله : لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ، ولا بد من مبدئ أو من محرك أول أو من خالق هو ، الله ، (١٨) .

ويقول جون كليفلاند كوثران :

« وتدانا العلوم الكيميائية على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة بطيئة ، أي أن المادة ليست أزلية وليست أبدية كما يزعم الماديون .

فالعلوم الكيماوية والطبيعية - وغيرهما - تخطوان خطوات كبيرة يوماً بعد يوم بما يكشف عن الحقيقة التي غابت عن الأذهان على أمد طويل . ونحنو العلوم الآن إلى ما يؤيد حقائق الإيمان ، ويثبت خطأ الاستنتاجات الفطرية التي يتمسك بها الماديون ، وما تقدم بدا لنا واضحاً أن الشيوعيين الآن تائهون بين خبر كاذب ، وتنبؤ أكذب :

بين خبر كاذب حيث قالوا بأزلية الكون . وقد أثبت العلم والعقل والواقع كذب قولهم .

وتنبؤ أكذب ، حيث قالوا : بأبدية الكون . وقد أثبت العلم والعقل والواقع كذب ما قالوا .

إخبار الوحي الديني :

في الوحي الديني نعمل كل التعويل على ماورد في القرآن الكريم وحده دونما سواه من التوراة والانجيل .

أما التوراة المحرفة فإن عقيدة البعث فيها لا فسكاد نهثر عليها في نص صريح .

(١٨) الله يتجلى في عصر العلم (٢٧) .

بل أن من أوضح الواضحات في التوراة أن الثواب والعقاب مقصوران على هذه الحياة الدنيا . فالثواب إما خير تجود به الأرض ، أو كثرة في الذرية وسيادة اليهود على كل الأمم من غير اليهود .

وأما العقاب ، فهو إما حرمان من الخيرات الدنيوية ، وإما في الذرية أو هزيمة أمام الأعداء .

أما الأناجيل فإن ثقة الباحثين فيها قد اهتزت ، حتى أخرجوها من دائرة النصوص المقدسة ووصفوها بأنها تهجير بشري غير أمين عن حقيقة كبرى لا يشك أحد في وقوعها ، وهي رسالة السيد المسيح عليه السلام . إن الأناجيل هي تدوين لتلك السيرة النبوية لم يراع فيه المدونون أمانة النقل ولا صدق التعبير .

ولذلك . فليس أمامنا سوى القرآن الكريم والنصوص القرآنية التي تدل على زوال الحياة الدنيا وتبدل المادة الكونية وزاوها فأكثر مما يحاط به - هنا - ومن ذلك :

«يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات» . وبرزوا لله الواحد القهار» (١٩) .
فهذا نص قاطع بأن مظاهر الكون المألوف لنا - الآن - سوف تزول وتحل محلها عناصر أخرى . فتبدل الأرض يتبعه تبدل ماله صلة بها من جبال وأنهار وزروع ومعادن وأشكال وصور لا حصر لها .

وتبدل السموات يلزم منه تبدل كل الأفلاك ؛ لأن السموات أعظمها فيما ترى . الأبهار وانظر هذا النص :

«إذا الشمس كورت» . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العرش عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا الأنفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا

السماء ، كسحطت . وإذا الجحيم سمعت . وإذا الجنة أزلقت . علمت نفس ما أحضرت ... ، (٢٠) في هذا النص أخبار صادقة عما سوف يصيب بعض عناصر الكون من تبدل فالشمس تكور وينتهي دورها ، والنجوم يذهب نورها . والجبال تسير وتفسف . والبحار تشتهل نيرانا . والسماء تزال منها زينتها ولونها . والنار تبرز مستعرة . والجنة تظهر دانية من أهلها .

وفي نصوص أخرى السماء تنشق ، ويتبدل لونها . والنجوم تنتثر وتزول والجبال تفسف نسفاً وتكون كالصوف المحلوج ، والأرض تخرج ما فيها من ودائع كانت أمينة عليها .

ثلاثة قوانين :

وصفوة القول : أن نصوص القرآن الكريم تضع الكون بين ثلاثة قوانين لله سبحانه وتعالى :

- الأول : قانون الخلق والإبداع على غير مثال . فالكون له بداية وغير أولى .
- الثاني : قانون التصرف والتدبير بعد الخلق والإبداع . فأنه هو المدبر الآن لهذا الكون وشئونه وليس له فيه شريك ولا ولي من الذل . فالكون محتاج لله في ذرة من حياته . وليس الكون مكتفياً بنفسه .
- الثالث : قانون الإفناء والإبادة . فأنه هو الذى سيفنى الوجود الدنيوى ثمينة للحياة الأبدية . فالكون له نهاية وليس أبدياً .

وليس بين ما يقرره القرآن من نهاية هذا العالم وما يقرره العلم من نهاية العالم حين يتوقف مصدر الطاقة . ويصل الكون إلى « الصفر المطلق » وتعدم الحياة ويختل الوجود . ليس بين ما يقرره القرآن وما يقرره العلم من تناقض . مادام العلم لم يدرك متى يصل الكون إلى « الصفر المطلق » فقد يكون هذا « الصفر غير المدرك » هو نهاية حياة وبداية حياة أبدية .

لا وجود لغير المادة . . . ١٩

أعود فأذكرك بالأساس المتهاوى الذى بنى عليه الماديون (الشيوعيون)
مذهبهم - استغفر الله - بل تصوراتهم حول قضايا الوجود . ذلك الأساس
المتهاوى هو - كما هلمت - : المادة أسبق فى الوجود من الفكرة .

وقد رتبوا على هذه المقولة التى ظهر لك فسادها عدة تصورات واهمة مثل :
أولية المادة ، وأبدية المادة . وقد فرغنا من بيان فساد هذين التصورين فى
إيجاز كما عرفت .

والتصور الواهى الذى نقف أمامه الآن اعتقادهم أن لا وجود لغير المادة .
ويسمون ماعدا المادة عدة مسميات :

غيبيات + ما وراء الطبيعة + الميتافيزيقا . وقد حصروا وسائل المعرفة
فى معطيات الحواس الخمس . وهذا لازم تصورهم ، إذ ماداموا لا يؤمنون
بشئ سوى المادة فليس لهم وسائل معرفة إلا الحواس الخمس . فهم فى مادتهم
سجناء كما ترى . أما المعانى والحقائق المجردة فلا صلة للشيوعيين بها ، فهم يعيشون
فى حالة طغولة دائما . وأعنى بها طفولة المعرفة لا طفولة الطهارة والنقاء .

وفى مواجهتنا لهذه الجهالة العمياء التى لا ترى وجودا لغير المادة تسير على
نفس المنهج من الإحتكام إلى العلم والواقع والعقل والوحى الدينى الآمين ،
وهى مصادر الفكر والمعرفة الإنسانية الراشدة .

دلالات العلم والعقل :

خذ إليك . مثلا - الرقم (٢) مكررا تمسيدا لإيجاد قيمته على الطريقة
الرياضية أى :

$2 + 2 = 4$ فطريقة الجمع هى إحدى وسيلتين من وسائل الرياضة
فى إيجاد قيمة العدد (٢) مكررا . أما الطريقة الثانية فهى طريقة الضرب ،
أى : $2 \times 2 = 4$

فإذا استعرنا الأسلوب المنطقي لهذه العملية بنوعيتها جمعا وضربا نستطيع أن نقول إن المقدمتين في كلتا العمليتين هما : النتيجة ؛ لأن الرقم المراد إيجاد قيمته مكرر في كل من العمليتين كما ترى :

$٢ + ٢ = ٤$ أو $٢ \times ٢ = ٤$ وقد اشتركت الحواس مع العقل في إدراك عناصر العملية سواء كانت جمعا أم ضربا .

فالعين ترى العدد مفردا (٢ ، ٢) وتראה مجموعا (٤) . وليس للحواس هنا من دور سوى الإدراك المادى . أما العقل فهو الذى توصل إلى القيمة (٤) وكل ما ندركه الحاسة هنا هو الانتقال من رقم إلى رقم : ٢ ، ٢ ، ٤ .

وخذ إليك - مثلاً ثانياً - العدد (٣) مكرراً (٣ ، ٣) وطبق عليه نفس العمليتين في إيجاد قيمته هكذا .

$٣ + ٣ = ٦$. هذا في عملية الجمع ، أما في عملية الضرب فيكون :

$٣ \times ٣ = ٩$. فإليك تجد الحواس في العملية الأولى (الجمع) أدركت العدد المطلوب مفرداً (٣ + ٣ + ٣) ومجموعاً ($٩ =$) فالنتيجة هي المقدمتان وهما ماثلات أمام النظر .

أما في عملية الضرب فإن شيئاً قد طرأ لم تدركه الحواس ؛ لأنها في العدد المفروق لم تجدوها أمامها إلا (٣ ، ٣) أما في العدد الجمعى فقد فاجأها الرقم (٩) فاختلقت النتيجة مع المقدمتين . فنأين جاء تكرار العدد (٣) ثلاث مرات في النتيجة (٩) ؟

إن حاسة الإبصار ليس أمامها إلا (٣ ، ٣) ومع هذا فإن النتيجة صحيحة . ولكن صحتها جاءت من طريق آخر غير طريق الحواس جاءت عن طريق العقل . فالعقل - وحده - هو الذى يفهم من ضرب العدد (٣)

في نفسه أولاً لمجموع = ٩ وعمل العقل - هنا - عمل ذهني لا تدركه الحواس
بداهة .

ويمكننا أن نكرر هذا في ميدان العمليات الرياضية آلاف آلاف
المرات فنجد العقل يدرك من المعاني الذهنية المجردة ما لا حصر له . ولولا
تدخل العقل بمسكاته لضاعت أكثر حقائق الرياضة أدراج الرياح
« إن الإحساس (الحواس) إنما تحمل إلى عقولنا صور الأشياء فقط ،
أما العلاقات القائمة بين الأشياء ، سواء في ترتيبها المكاني أو الزماني أو تسبب
بعضها عن بعض ، فإنها إدراكات وأحكام عقلية لا وجود لها في صور
الأشياء المحسوسة .. » (٢١) .

ومثال آخر :

وقد ترى إنساناً ويده حروق ظاهرة فيسمع منك العقل في الحال بأن يد
هذا الإنسان قد مستها النار أو جسم ملتهب مما له صلة بالنار أو مولدات
الحرارة المرتفعة . يسمعك العقل بهذا الحكم ، وأنت لم تر الواقعة التي تسببت
عنها تلك الحروق . فأين شاهد الحواس هنا ياترى ؟ إن الحاسة اقتصر دورها
على أن تريك الحروق معزولة تماماً عن سبب حدوثها ثم تتوارى وقد أدت
دورها ليقولى العقل وحده ربط المسببات بأسبابها .

والحكم الذى أقره العقل حقيقة مجردة تماماً عن التقييد بقيود المادة وصورها
المحسوسة .

وقد تسمع وأنت مار في طريق طفلاً يبكي بصوت مرتفع ، أو إنساناً
يشن أنيناً عالياً ، فتدرك في الحال - بعمل العقل - أن هذا الطفل يبكي من
أمر أساءه ، خوف ، أو جوع ، أو ضرب .
وأن الإنسان الذى يشن إنسان يتألم من وجع أو ألم نزل به . . .

تدرك هذا بحكم العقل الذى يحاول - دائما - وفى صمت وهدوء أن يربط كل ظاهرة يدركها بأسبابها المناسبة . ويحدد العلاقات بين المسببات وأسبابها وقلما يخطئ فى هذا المجال .

وقد تلتقى فى طريق باثنين تعرف أحدهما ولا تعرف الآخر ، فيقول لك الذى تعرفه أن هذا شقيقى فلان ، فتدرك من هذه العبارة أنهما ولدا عن أب وأم فهما ينتميان إلى شجرة نسب واحدة . وأنت لم يتفق لك أن رأيت أباهما أو أمهما . ولم تعرف العلاقة التى كانت بينهما من قبل . ولكن العقل استطاع حين أدير مفتاح عمله أن يحدد تلك العلاقات ويؤلف بينهما وهى غائبة عنه .

فكيف يستقيم لأولئك الحتمى أن ينفوا وجود غير المحسوسات ، ووجود غير المحسوسات أكثر بكثير من وجود المحسوسات . فهما من مدرك حسى إلا وقد تولد عنه مدرك غير حسى . فهما بهذا الاعتبار متساويات . ولكن المدركات غير الحسية لها مصادر أخرى غير التولد عن المدركات الحسية . وبهذا الاعتبار فإن الموجودات غير الحسية تفوق بكثير المدركات الحسية وهذا ما غفل عنه سجناء المادة المظلمة .

والعلم مع تسليمه بوجود حقائق يعرفها بآثارها يعترف بأن ماهياتها لا تدخل تحت الضبط العلمى من أى نوع كان ذلك العلم .

فالآثير يسلم به العلم ؛ ولكن ما هو الآثير ؟ لا أحد يعرف .

والروح التى هى قوام الحياة ، حقيقة لا ينازع فيها العلم ، ولكن ما هى الروح ؟ لا أحد يعرف .

بل والعقل تلك المملكة الهائلة ، ما هو ؟ وأين موقعه من جسم الإنسان ؟ وكيف يعمل ؟ لا أحد يعرف .

والأشعة الحمراء ، والأشعة فوق البنفسجية التى يستخدمها العلم ما هما ؟ لا أحد يحيط بهما ؟

إن الوجود غير المادى أكثر من أن يحيط به الإنسان . ونحن لا ندرك إلا ظاهراً من الحياة الدنيا - كما جاء في الكتاب العزيز - فكيف نذهب قطعاً من البشر إلى نفي كل وجود خارج وجود المادة ؟

وبهم نسمى هؤلاء إلا أنهم يعيشون - دائماً - في طفولة المعرفة فالطفل - وحده - وإن شاركته العجמות - لا يدرك إلا ما وقع تحت واحدة من حواسه المدركة ، وهو عن إدراك الماهيات المجردة بمعزل . وقد فات الشيعوعيين أن وراء كل معلومة حسية مادية حكماً عقلياً لا يتخلف وأن الحواس جميعاً إنما هى أسلاك منهبة حول ذلك « العملاق » العجيب لتقذف إياه بالمعلومات « الفجة » فتتصرف فى « بوتقته » ثم يصدر العقل فى الحال حكماً به تتم عملية المعرفة فى حدودها المألوفة عند البشر ، ولا صلة للحواس فيما كان من شأن العقل وداخله فى سلطانه .

فالعين ترى - مثلاً - جماعة من الناس قوامها خمسة أفراد مثلاً . والعقل يصدر حكمه بأن هذه الجماعة « قليلة » .

وترى العين جمعاً من الناس لا يدخلون تحت حصر ، فيسارع العقل ويصدر حكمه ويقول أن هذه الجماعة « كثيرة » .

فرؤية أحياء هى عمل العين ، والقلّة ، والكثرة هى عمل العقل .

ويذوق اللسان شراباً يتقزز منه فيقول العقل هذا « مر » ، ويذوق شراباً آخر يتلذذ منه فيقول العقل هذا « حلو » ،

وتلمس اليد جسماً مضرراً فيقول العقل : هذا « خشن » .

وتسمع الأذن لحناً مفرحاً فيقول العقل : هذا « طيب » .

وتسمع صوتاً مقبضاً متفراً فيقول العقل : هذا « ردى » .

ويشم الأنف رائحة ، مبهجة فيقول العقل : هذه رائحة « زكية » .

ويشم رائحة مقزرة تشمئز منها النفوس فيقول العقل : هذه (منته) .
وترى رجلا حسن البزة وجيه الطلعة فيقول العقل : هذا (ثرى) .
وترى آخر رث الثياب هزيل الجسم فيدرك العقل أنه رجل (فقير) .
وهكذا دواليك ما من ظاهرة حسية إلا وللعقل فيها (حكم) .

والظاهرة الحسية ظاهرة محددة ، أما الحكم العقلي فقاعدة كلية مجردة
كانت تلك الظاهرة أحد (ماصدقاتها) أو أهرادها فالعالم (غير المادى) أرحب
أفقا من العالم المادى الضيق وبما اختص به العقل طائفة من (الكليات المنعوية)
يصعب حصرها ومنها التفرقة الدقيقة بين :

الصدق والكذب ، والصحة والبطلان ، والحسن والقبح ، والشرف والخسة ،
والأمانة والخيانة ، والوجود والعدم ، والتآلف والتنافر ، والتلادة والطارفة ،
والخصور والمضى ، والغنى والفقر ، والعلم والجهل ، والكمال والنقص ،
والوفاء والغدر ، والكرم والبخل ، والبطولة والجبن ، والحلم والطيش ،
والاعتماد والتطرف ، والاستقامة والانحراف ، والإيمان والكفر .

هذا ولو رحنا نتبع هذه المتقابلات لما وقفنا عند نهاية قريبة . وإكفنا
نكتفى بهذا القدر من الموجودات (المثالية) التي لم يدركها من رزوا طغولة
المعرفة ، فسجنوا أنفسهم في حدود (المادة) المظلمة وحسبوا أنهم هم (الفهماء)
من بين الناس ، وهم أغبي أغبياء البشر . ١٩

دلالة الوحى :

وحى الله الأمين يتحدث عن العالمين حديث الأمانة والصدق . والعالمان
الذان يتحدث عنهما هما :

عالم الحياة الدنيا وعالم الحياة الآخرة . وحديثه عن عالم الحياة الدنيا جامع
بين الحسيات والمثاليات . فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر ، والقيم الفاضلة التي دعا إليها ، ورغب فيها هي قيم روحية مثالية
لا تستقيم حياة البشر إلا بانتمدق بها .

وحديث القرآن عن الحياة الآخرة وما فيها من بهت وحشر وحساب
وثواب وعقاب ، وجنات وارفة تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلمها
وفار تملأ لا يصلاحها إلا الأشفى . هذا كله تجسيم وإبراز للعالم الآخر
الذي لم يدخل في حيز المادة الضيقة التي يدور في فلكها الشيوعيون .

ومن الحقائق الإيمانية قوى الخير ، وهم الملائكة . وما أكثر ما يحدث
عنهم القرآن وقوى الشر ، وهم الغياطين ، وللقرآن عنهم حديث متواتر ،
والجنة والنار هذه هي معالم العالم غير المادي في القرآن الكريم . وهو عالم زاهر
فيماض لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الأمين من الحديث عنه لإجمالاً أو
تفصيلاً أو إشارات لائحة ، وفي النصوص الآتية قطوف من حديث القرآن
عن العالم غير المادي :

(شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ، لا إله
إلا هو العزيز الحكيم) (٢٢) .

(فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة
أعدت للكافرين) .

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار
كلما رزقوا منها من ثمره رزقا قالوا: هذا ما رزقنا من قبل ، وأنوا به متشابهة
ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) (٢٣) .

(٢٢) آل عمران (١٨) .

(٢٣) البقرة (٢٤ - ٢٥) .

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا ... » (٢٤).

« قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشد فأمنّا به وإن نشارك بربنا أحداً ، » (٢٥) .

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .. » (٢٦) .

« ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، » (٢٧) .

توخينا في هذه الآيات أن تكون دالة على أمس الإيمان بالعالم غير المادى ففيها الحديث عن الإيمان بالله وهو الأصل الأصيل للحقائق كلها . ثم الملائكة ثم النار وصفاتها ، ثم الجنة ونعيمها ، ثم الرسل ، والكتاب ، وهو اسم جنس يشمل الكتب السماوية كلها ، ثم الجن والشياطين ، ثم لمحّه عن يوم القيامة . والشيوعيون ينكرون هذه الحقائق كلها ؛ لأنها ليست من الصور المادية . وهب عن بزي القارىء أن الشيوعيين عذرا في كفرهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وجمته وناره واليوم الآخر ؛ لأنهم لم يروا شيئا منها . هب أن لهم عذرا في هذا فكيف يكون لهم عذر في إنكار الشياطين والكفرة بهم . إن الكفر بالشياطين معناه أن الشيوعيين يكفرون بأنفسهم هم ١٤ وهل يرجى من أناس يكفرون بأنفسهم خير قط ١٤ .

• (٢٤) البقرة (٢٤)

• (٢٥) الجن (١ - ٢)

• (٢٦) الملك (٥)

• (٢٧) الزمر (٦٨)

حديث القرآن عن العالم المادى :

الحياة الدنيا فى القرآن وسيلة لا غاية . ففى ليست مطلوبة فى نفسها ، وإنما هى وسيلة للحياة أخرى أطيب وأخلد وأبقى . وقد طالب الله فيها عباده بعدم الركون إليها وأن يتخذوها معبراً للنعم المقيم . فن أحسن فيها كان له جزاء الحسنى . ومن أساء فقد خسر الدنيا والآخرة . وحديث القرآن عن الحياة الدنيا وما فيها من مظاهر وصور مسوق لغرضين إذا افترقا اجتماعاً .

أحدهما : الإمتنان على الخالق بمظاهر النعم المساعدة لإيمانهم من الخالق ليذكروه ويقدروا نعمه حق قدرها .

والآخر : أن يلفت الأنظار إلى بديع صنفته سبحانه ، وبلغ حكمته وجليل قدرته فيما صاغت يد القدرة مما ليس للبشر إياه سبيل ليكون فى ذلك دلائل قوية من دلائل الإيمان اليقيني بالله وامتنال أمره واجتناب نواهيه .

هذان الغرضان نحسب أنهما محيطان بكل صور الحديث عن الخسبات فى القرآن الكريم . ولذا نرى على هذا ما يؤيده ويقويه :

أولاً : أفرايتم ما نمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمماليكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأخرى فلولاً نذكرون . أنرايتم ما نحرثون . أنتم تزرعون أم نحن الزارعون ؟ . لو نشاء لجعلناهم حطاماً فظلمتم أنفسكم . إنما لمفرمون . بل نحن محرومون . أفرايتم الماء الذى تشربون ؟ . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرايتم النار التى توردون ؟ . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسيح باسم ربك العظيم .

فى هذا البيان الساحر الأسر عظام بالغات استظهرها البيان الحكيم من بعض الصور المادية المحسوسة التى يعيها البشر فى الأحوال الخاصة والأوضاع

العامة بدأ بظاهرة التناسل ، ووقف الإنسان عند طرفيها الأدنى والأعلى .
فالطرف الأدنى هو « وضع ذرة الماء في الرحم ، وفي هذا عملان ، عمل ساذج
حيواني للإنسان ، وهو مجرد القذف ، وعمل حكيم لعلم الله وإرادته وقدرته ،
وهو الخلق والتكوين والتنشئة . وجانب الإنعام — هذا — ظاهر في العملين
البشرى والإلهى . بيد أن البيان الحكيم يقفز قفزة سريعة من تمثيل هذه
الصورة الحسية إلى إبراز أثر القدرة والحكمة الإلهية التي تعجز عندها قدرات
البشر . فهي الخالقة — أعنى قدرة الله — وإذا كان الخلق هو « الحياة ، والله
واهبها . فإنه — كذلك — قدر الموت ليكل حى . والقدرة الإلهية لا تقف عند
هذا الحد المألوف ، بل هي قادرة — إذا تعلققت بالقدرة لإرادة — أن تبدل
الأوضاع التي عليها الخلق . وتنشئها في أوضاع أخرى لا تقع تحت سمع وبصر
البشر . دليل ذلك أن النشأة الأولى ظاهرة جليلة . والله الذى أنشأ النشأة
الأولى قادر على نشآت أخريات ، لأنه على كل شىء قدير .

وهذا مع أنه بيان للإنعام الإلهى على الخلق ، فهو دليل من أدلة الإيمان
بالحقائق العظيمة .

ثم أنتقل إلى صورة أخرى عامة تتكرر كثيراً وتنفذ من جزء كبير من
الأرض وتقوم عليها حياة الإنسان والطيور والإنعام . ويتصدر هذه الصورة
استفهام وما هو باستفهام . وإنما لتمثيل الصور في الذهن ليتحدث عنها البيان
وهي ماثلة للعيان :- « أفأرىتم ما تحرثون ، أنها جملة تضع فلاحه الأرض
كلها على مسرح متحرك .

أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . إن عمل الإنسان في فلاحه الأرض
يتمى بوضع « الحب ، وسقيه ، ثم تتولى العناية الإلهية النباتات والإنعام
والتشكيل والتصوير والتكوين والإثمار والإنباج ، والتهيئة للإنتفاع بهضوب
من المنافع التي تفيد الإنسان في حياته .

والقدرة الإلهية معادل أو معادلات أخرى . فهي قادرة على أن تجعل الزرع
حطاما قبل أن تصل إلى درجة التهيئة للإنفعا . وإذا أراد الله هذا جحدت
أرادت البشر ، وكلت قدراتهم إلا من التجسر والتندم ، وهكذا تأخت
مظاهر الإنعام ودلائل الإيمان والتوحيد أمام صور حية لا يملك المخاطب
أمامها إلا التسليم والإذعان طوعا أو كرها .

ثم ينتقل البيان الحكيم إلى الماء ، الذى جعل الله منه كل شىء حى : له
ينزل من السماء من جبال فيها من برد . ويتوجه البيان بهذا الاستفهام : ، أفرأيت
الماء الذى تشربون ، ليصور حقيقة الماء فى الالهن وكأنه حاضر مائل ينظر
إليه المخاطبون وهى يجرى سهلا طبعاً بين أيديهم ، وقد كان فى الأفاق العالمية
لاذنا له يد مخلوق ولو طالت . ويعاد الاستفهام مرة أخرى ليذكر الإنسان
بضعفه وبجلائل نعم الله عليه : أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، ؟ .

ثم يجمع إلى هذه الصور صورة النار ، ومنافعها عند الإنسان لا تحصى
عند حد معلوم فهى د الطاقة ، الثانية بعد الماء تستخدم فى الأغراض الصغيرة
كطهو الطعام وفى الأغراض الكبيرة كصهر الحديد والنحاس والمعادن التى هى
قوام الصناعات العملاقة . ويسأل البيان الحكيم : د أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن
المنشئون ، .

ونلاحظ ، أن البيان القرآنى حرص على حذف الجواب فى كل استفهام
فى فواصل الآيات التى ترددت فيها نسبة د الظاهرة الملفوت إليها النظر ، بين
فاعل ليس هو بفاعل . وفاعل هو حقا - الفاعل .

وسر هذا الحذف أن هذه الاستفهامات جوابها معلوم . فالخالق هو الله
والزارع هو الله ، ومنزل الماء من المزن هو الله ، ومنشىء النار هو الله .
فليس السؤال عن الفاعل من هو ؟ بل هو تذكير وتقرير بحقائق أدت وتودى
غرضين جليلين .

أحدهما لفت الأنظار إلى جلائل نعم الله ودقائمه . ومنوفها وصورها .
والآخر سوق الأدلة والبراهين على صحة الإيمان بالله وما بعث به رسوله .

فالمادة أو الطبيعة أو الكون موضوعات للتأمل والغذاء الروحي الإيمانى
من جهة . ووسيلة الإغاشة من جهة أخرى . إنها طريق الإيمان بالخالق ، ووسيلة
للإمتاع الذوقى الجمالى أكثر منها مطعما وشهيا وملذات . فهذه زائفة ، وتلك
باقية . هذا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثانياً : ونحن الآن على مقربة من لوحة صنعت بريشة المبدع الخبير فافت
كل صور الإبداع فى صوره وأشكاله البشرية . لوحة جمعت مساحات شاسعة
من خريطة الكون المرئى وغير المرئى بمقياس رسم تمثل وحدة القياس فيه ،
وهو أبعاد ومساحات على الورق واحداً من المليون من عمق المشاعر ، وأضعافاً
مضاعفة بلا حصر من المساحات الواقعية التى تمثلها تلك اللوحة البديعة حقاً .
وتلك اللوحة هى :

قال الحق تبارك وتعالى :

« قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، آله خير أما يشركون .
أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق
ذات بهجة . ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أله مع الله ، بل هم قوم
باعدلون . أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى
وجعل بين البحرين حاجزاً ، أله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمن
يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أله
مع الله قليلاً ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل
الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ أله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون .

أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أله مع
الله ؟ قل ها أنذا برهانكم إن كنتم عاقلين . قل لا يعلم من فى السموات

والأرض الغيب إلا الله . وما يشعرون أيا ن يعيشون . بل إدراك قلوبهم في الآخرة . بل هم في شك منها . بل هم منها عمون ، (٢٨) .

هذه اللوحة المبدعة جمعت أقطار السموات والأرض وما بينهما ، لقطات عميقة فسيحة تنقلات سريعة خاطفة ، ولكنها شديدة التأثير ، حيث نرى قدرة الله - وحدها - هي المهيمنة على كل ذرة من ذرات الكون ، هي المحركة ، وهي الخالقة ، وهي الواهبة ، وهذه المناظر الحسية تخللها وقذات تتجاوز مظاهر النعمة لتعود بالحقيقة إلى مصدرها ، وتضعها موضعها بين حقائق الإيمان ، فالله - وحده - هو الله وليس له شريك لقد امتازت مظاهر الإنعام الحسى وغير الحسى هنا بدلائل الإيمان الناطقة ، ولولم يكن فى الوحى إلا هذه المجموعة من الآيات لكانت كافية فى تقرير عقيدة التوحيد ؛ لأن موضوع هذه اللوحة كما ترى هو موضوع الكون والحياة ، بطول الكون وعرضه وعمقه وبطول الحياة وعرضها وامتدادها .

وهكذا يوظف القرآن المشاهد المادية المحسوسة للفرضين الكبيرين اللذين هما :

- ١ - الاعتنان على العباد بجلال النعم ودقائقها ، ظاهرها وباطنها .
 - ٢ - إبرازها كدلائل على عقيدة التوحيد ، وهى - فى الواقع - كذلك .
- دلائل مستورة بحروف واضحة يقرأها كل الناس - بكل سهولة ويسر - ، وتقوم الحجة لله على خلقه .

فالمادة مخلوقة لا خالقة ، لها بداية وليست أزلية ، ولها نهاية وليست أبدية وهى موضوع للتأمل واستخلاص العبر الداعية إلى الإيمان بالخالق العظيم وليس الوجود المادى هو كل ، الوجود ، بشهادة العلوم ، وإقرار

العقول ، ودلالات الواقع ، وتأيد الوحي . وهذه هي أسس الفكر والمعرفة الإنسانية وليس وراءها إلا الوهم .

والذين لا يتجاوز إيمانهم المادة وصورها خلقاء بأن يسلكوا في عداد العجموات . هذا نزلهم عند الله وعند الناس . وإن رفعنا من قدرهم ولم نخطئهم في وصفهم ، فهم يعيشون في طفولة المعرفة . وقد قطع الناس - غيرهم - أشرطا واسعة الخطو في الرقي والتسامي وصدق النظر ، وبعد الإدراك . وصدق الله العظيم :

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة . ولهم عذاب عظيم » .

ولنكرر - معا - قول الشاعر في وصف البلادة :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج التماس إلى دليل

الله ذو الجلال والإكرام :

الله ذو الجلال والإكرام ، هذا العنوان ، آثرنا أن نجعله هو العنوان ، الذي نناقش تحته فكرة الألوهية عند الشيوعيين ، وهو مناقض تماما لتلك الفكرة عندهم ، والعنوان الذي كان ينبغي وضعه على هذا المبحث ، ولكنتنا ناديا مع « الله » ذي الجلال والإكرام آثرنا وضع هذا العنوان ، ولم ننضج لما يقتضيه البحث من وضع عنوان مطابق للفكرة التي نبحث في ظله ؛ فالشيوعيون ينكرون وجود الله عملا بمذهبهم المادي ، والعنوان الذي كان مناسبا لهذه الفكرة أن يقال « الله لا وجود له » - سبحانه عما يقول الظالمون - ولو أننا صنعنا هذا الصنيع لسكان لنا مندوحة ، فنأقل الكفر على سبيل الحكاية - ليس بكافر . ولكنتنا لم ننظر لطبيعة الاعتقاد الشيوعي في الله ، والذي سنعرض له - هنا - بل نظرنا إلى الواقع والمسأل فأثرنا على « الالابات »

على معنى « النقي » ، لأن هذا « النقي » لا وجود له إلا في أذهان أوفى أفواه الملحدين .

هذه مقدمة كان لابد منها حتى يسكن القارئ على بينه من الأمر . ولا ريب أن حسن التأدب مع الله أولى بالرعاية من أدب البحث نفسه وبخاصة إذا كان التصور المراد درسه وهما من الأوهام ، وهو ما عليه الشيوعيون في كل تصور فضلا عن تصورهم في فكرة « الألوهية » التي هي مدار الإيمان عند المؤمنين .

..... (٢٩) :

إن تصور الشيوعيين أن الله غير موجود . كان الهدف من وضع أناس المذهب المادى عندهم . وأساس مذهبهم كما تقدم مرات تلك الفكرة الواهمة التي قالوا فيها :

« إن المادة أسبق في الوجود من الفكرة :

وقد وقفنا على حقيقة المادة وهي ما يدرك بإحدى من الحواس الخمس ولبناء على هذا التصور الواهي قالوا بكثير من التصورات الواهمة . منها ما تقدم من قولهم بأزلية المادة وأبديتها ، وأنها هي الخائفة ، وقد أخذوا هذا القول عن داروين الذي قال : « إن المادة هي الخائفة ، وأنها ليست لها نهاية في الحلقى ١٩ »

ثم قالوا : « إن الوجود الحقيقي هو للمادة وأن ما وراء المادة من غيبات وروحانيات لا وجود له . وإنما هو « ما وراء المادة » انعكاسات للمادة في ذهن الإنسان وليس له وجود في الواقع ١٩ »

(٢٩) هذا الفراغ هو موضع عنوان فكرة الألوهية المنفية عند الشيوعيين أننا تركناها هكذا « فراغا » لأن نفي الألوهية لا وجود له إلا في خيالهم .

ومعلوم أن في مقدمة الغيبيات ، التي لم تقع تحت الحس ، سبحانه وتعالى الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير .

فإنه في التصور الشيوعى الوام لا وجود له ؛ لأنه ليس مادة فلا يقع عليه الحس بأى صورة من الصور . وما دام هذا شأنه فهو - عندهم - غير موجود ؛ لأنه - عندهم - لو كان موجوداً لأمكن أن يقع تحت الإدراك بواسطة الحواس :

يرى ، أو يسمع له صوت ، أو يجس ، أو تشم له رائحة ، وهذا لم يقع فهو إذن غير موجود عندهم ؟

ثم راحوا يتوسعون في هذا التوهم فقالوا : إن الله انعكاس من تأثيرات الطبيعة فهو من ابتداع الإنسان ، وليس الإنسان من ابتداع الله . وكذلك كل العلوم والفنون والآداب والقيم الأخلاقية والعادات والتقاليد والقوانين والوطنية ، كل أولئك أمور ابتدعها الإنسان متأثراً فيها بانعكاسات الطبيعة أو المادة ، إذ لا وجود لغير الطبيعة أو المادة المحسوسة ، وأنها كانت ولم يكن الإنسان ثم كان الإنسان من خلقها وابتدعها والإنسان هو الذى ابتدع كل تلك الأشكال والصور الذهنية وقسمها ونوعها كيفما شاء . ١٩٠٠

ثم ذهبوا بعد ذلك إلى أن كل القيم غير المادية خاضعة للتغير حسب تأثير الإنسان بظروف المادة . فإذا طرأ عليها تغيير تغيرت تبعاً لها قيم الإنسان الدينية والخلقية وسائر آرائه ومعتقداته . فليس في الوجود شيء ثابت قط ، بل كل ما فيه خاضع للتطور والتبدل والتغير . ١٩٠٠

يقول كارل ماركس في البيان الشيوعى :

« إن الشبهات التى تلقى على الشيوعية من جانب الدين ، أو جانب الفلسفة ، أو جانب الأفكار النظرية على العموم غير جدية بالجد فى تمحيصها واختبارها .

فهل يحتاج الأمر إلى بدهة عميقة لنعلم أن خواطر الإنسان وآراءه ومداركه ، أو بكلمة واحدة وعيه ، يتغير مع كل تغير يطرأ على كيانه المادى وعلاقاته الاجتماعية وحياته العامة ، (٣٠) .

ماركس يذهب إلى أن تغير كل القيم والآراء تبعاً لتغير المادة أمر بدهى ظاهر لا يحتاج إلى شرح وتدلil . هكذا يثق كل الثقة كما ترى ، وكأنه يتكلم عن معادلة رياضية أو بديهية عقلية ، أو ظاهرة حسية جارية . وفاته كما فاته قبل ذلك كثير أنه يقف مع الفروض المثيرة ، والأوهام الزائفة . ولا أعتقد أن القارئ في حاجة - بعدما تقدم من هدم الأساس الذى بنوا عليه هذه التصورات - من مواجهة جديدة لفكرة نفى الألوهية عند الشيوعيين . ومع هذا الغنى ، عن المواجهة فإننا نقف أمام هذه الفكرة بالمرصاد نرى زيفها - من جديد - بحكم العقل ، والعلم ، والواقع والوحى . فتعال معي والله يرعانا ويسدد خطانا فإننا من أجل نصرة حقه نعمل وفي مسيله نجاهد .

العقل والإيمان بالله :

العقل أعظم المملكات الإنسانية في إدراك الحقائق واتخاذ القرارات والأحكام ، ومن وسائل تغذية الحواس وتجارب العلوم ، ومن موجبات العقل ومرشداته الوحى الإلهى والحقائق الدينية . ومعلوم أن دور العقل يأتي في أعقاب مدركات الحواس ومحصلات العلوم ، فهو القضاء العالى - بعدها - والحقائق الدينية عاصم للعقل من الانحراف والزيغ . والعقل يصل إلى أحكامه ، عن طريق عملية التفكير والسير والقياس والموازنة والترجيح والتمييز .

وموقف العقل من قضية الإيمان بالله موقف قديم قدم العقل نفسه . فهو

(٣٠) الشيوعية الإنسانية (١٩٢) مرجع سابق ذكره .

منذ وجد متطالع نشط في السعى وراء هذه الحقيقة التي لا مناصر للعقل من
التعلق بها والأخذ في الحزم حول حماها حتى في عصور الجمعية منذ أول أطوار
التاريخ الإنساني الذي يدرك بانظنة قبل الضبط والتحديد .

ثلاث مراحل للعقل :

وعلماء الإنسانيات والمقارنة بين الأديان قد أجمعوا على أن العقل الإنساني
مر بثلاثة مراحل - قبل الأديان السماوية - في مسألة العقيدة الإلهية . وأن
تلك المراحل كانت تنمو نموًا رأسيًا كل مرحلة منها كانت تعلو التي قبلها تبعها
لتطور العقل ونضجه حتى بلغت في المرحلة الثالثة مرحلة القرب من
الكمال .

والمراحل الثلاث هي :

الأولى : مرحلة التعدد ، وفيها لم ير العقل حرجا في أن يكون لهذا الكون
أرباب متعددون لا رب واحد .

الثانية : مرحلة الترجيح والتمييز ، وفيها تنبه العقل إلى ضرورة المقارنة
بين الآلهة والأرباب وتقديم إله على إله والركون إليه دون سواء مع إبقاء
« سواء » على أنه رب أو إله ، ولكنه في حكم المعزول أو الموقوف .

الثالثة : مرحلة التوحيد ، وفيها عزل العقل الإنساني الآلهة أو الأرباب
الذين كانوا موقوفين أو معزولين في مرحلة الترجيح والتمييز ، أو كانوا
آلهة احتياطين ، عزلهم العقل في مرحلة التوحيد ، وصار يؤمن بإله واحد
كاملا أو قريبا من الكمال حسب الجهد العقلي المبذول .

هذا ما أجمع عليه علماء المقارنة بين الأديان (٣١) .

(٣١) انظر كتاب « الله » (٧١) للأستاذ عباس محمود العقاد ط دار
المعارف .

ونرى أن سمة أخرى من سمات البحث في العقيدة الإلهية كان يجب أن
يشار إليها - هنا - وتوضع في مرتبتها اللائقة بها بين هذه المراتب الثلاث
وهي - فيما نرجح من خلال القراءات الطويلة في هذا المجال - مرحلة
الانتقال من :

التجسيم والتشبيه إلى التجريد والتنزيه . ونعتقد أنها رابعة المراحل في
الترتيب .

وهذا التدرج كان ثمرة للنظر العقلي المستمر ، وكان التوحيد
والتجريد هو أرقى مراحل الاعتقاد ، وقد جاءت الأديان السماوية
بصدق ما انتهى إليه العقل مضيئاً إليه ما كملت به عقيدة التوحيد والتجريد
في أسى صورة .

فالعقل أدرك منذ البدء - ضرورة الإيمان بالخالق . واهتدى إلى بعض
صفاته التي رأى أنها لازمة من لوازم الألوهية ، .

وكان دور الوحي محصوراً في دائرتين كبيرتين في مجال العقيدة الإلهية :
إحدهما : سوق الأدلة والبراهين القاضية على وجود الله سبحانه ونفى أن
يكون للكون خالق سواه ، أو مشارك له أو معين :
والثانية : إثبات الكمال المطلق لله وأنه ليس كمثل شيء .

لماذا اتجه العقل نحو عقيدة الألوهية . ؟

للعقل -- بوجه عام -- موقف أمام كل الظواهر والجوانب يحاول فيه أن
يكون بينها وبينها انسجام مستمر يضيء العقل من خلاله ما يمكن أن نطلق عليه
، شرعية الوجود ، وإذا استعصى على العقل فهم ظاهرة من الظواهر ولم يحدث
انسجام بينها وبينها ظل يفكر فيها إلى أن يصل إلى تحقيق ذلك الانسجام من
خلال تفسير مقنع لإضافته ، شرعية الوجود ، عليها . وإلا ظلمت مصدر
قلق واضطراب مستمر عند العقل .

وهذا الإنسجام الذي يسعى العقل لتحقيقه بينه وبين المكائنت والظواهر ينقسم قسمين كبيرين :

الإنسجام القابض :

أحدهما : إنسجام ثابت ومطرد بين جميع العقول لقياسه على أسباب وتفسيرات واضحة كاشتداد الحرارة عينا ، واشتداد البرودة شتاء ، واستواء سطح سائل كالماء في أران متجاورة بينها اتصال من الداخل [الأواني المستطرفة] ورؤية الأجسام الطويلة قبل القصيرة إذا كانت على بعد واحد من الناظر ، قبل الوصول إليها . وهكذا .

الإنسجام المتردد :

والآخر : إنسجام غير ثابت وغير مطرد عند كل العقول . وهذا القسم خاص بكل ظاهرة أو كائن له تفسيرات مختلفة ، وتعليلات متباينة ناتجة عن خفاء في حقيقته ، وتعدد الاتجاهات حوله تبعاً لقوة الخفاء وضعفه . فالروح - مثلاً - شديدة الخفاء لدرجة أنها يتأني على العقول فهمها ، ومع ذلك فإن كثيراً من العقلاء قد حاولوا وضع تصور لها . ولكن على سبيل الظن لا اليقين مع أن العقل يؤمن بخروج الروح ، عن دائرة بحثه .
ومثل القيم المثالية كالخير والجمال والحق والإلزام الخلق ، وقد مر بنا الإشارة إلى المذاهب في مصدر الإلزام .

ومثل البحث عن مصادر المعرفة فقد اختلف البحث العقلي والوضعي حولها . وقد ناقشنا هذا في شيء من التفصيل فيما تقدم .

وكل هذه المحاولات كان الهدف منها تحقيق الإنسجام بين العقل وبين الظواهر والمكائنت وفهم القيم فيها ، هو خارج عن دائرة البحث الحسي الوضعي .

ذاك هو - إجمالاً - موجز موقف العقل من حقائق الأشياء فيما كان

الإنسجام فيه ثابتاً مطرداً كالقوانين الرياضية والطبيعية وما كان الإنسجام فيه غير ثابت وغير مطرد .

وسبب اختلاف العقول حول تفسير بعض الكائنات راجع فيما يرى إلى مصدرين لاثالث لهما ، وهما :

١ - خفاء وغمرض محيط بجانب من جوانب الظاهرة موضوع البحث ، أو محيط بكل جوانبها كالروح والعقل .

٢ - عظمة الكائن أو الظاهرة موضوع الدراسة . ومن أبرز الأمثلة على ذلك البحث حول : لماذا اتجه العقل أول ما اتجه إلى البحث عن ومن العقيدة الإلهية . وهو موضوع الدراسة في هذا الفرع الذي سبقتم الترجمة منه منذ قليل .

نموذج من العمل العقلي :

قد تكون جالسا في مكتبك تقرأ أو تكتب ، وفجأة نسمع د جرس التليفون ، يرن بجوارك . فتتوقف عما كنت فيه وترفع سماعة التليفون ، وتستعد لعملية إرسال واستقبال ؛ لأنك قد جاءت إشارة سرية من العقل بأن أحدا قد طلبك ويريد أن يتحدث في شأن ما .

فإذا لم تجد أحدا على الطرف الآخر وإن حرارة الجهاز عادت ترنرات داخلية متتالية وضعت السماعة . ولكن العقل يعطيك تصورا آخر يفسر به هذه الواقعة . وهي أن أحدا لم يطلبك ؛ لأنه لو كان الأمر كذلك فإن واحدة من حالتين كان يجب أن تحدث :

فإذا أن الذي طلبك لم يجارك في الحديث بل امتنع لأمر ما . مع استمرار رفع السماعة من الجهاز الطالب . وفي هذه الحالة لا نسمع إلا صمتا فلا الجهاز يعطيك علامة المشغول ، ولا الرنين المتواصل الداخلي الذي نسمعه عادة عندما نرفع سماعة الجهاز لتتصل بجهاز آخر ولما أن الطالب سارع ووضع سماعة الجهاز وفي هذه الحالة نسمع الصوت الخافت المتقطع [أوو - أوو] وهي علامة الجهاز المشغول .

ومعنى هذا أن ماساً كهربائياً غير مقصود قد مس جهازك ثم زال أثره عند رفعك سماعة التليفونك .

ويأبى العقل كل الإباء أن الرنين الذى سمعته وكان شخصا آخر قد أراد الإتصال بك . يأبى العقل أن هذا الرنين ، قد حدث بدون مؤثر قط .

والعقل فى مثل هذا الموقف يمارس عمله فى حرية كاملة حول تفسير الظواهر لتحقيق الإنسجام وإضفاء شرعية الوجود ، علمها وهو حين ما يفشل هذا يستند إلى قوانينه وبدهيته ومنها قانون :

العالية أو السببية . وهذا القانون تسلم به كل العقول أيا كان مصدرها . اللهم إلا فريقاً من الناس ينتفون مبدأ السببية وسوف نشير إليهم فى موضع قادم بإذن الله . وهذا المثال الذى قد مناه للعمل العقلى حول ظاهرة بسيطة ، أو جزئية ، ولكن العقل يعمم هذا العمل فى كل الظواهر والحقائق حقيرها وعظيمها ومن عظيم الحقائق التى حاولت العقول - قديماً وحديثاً - تفهمها ودرسها بغية الوصول إلى معرفة أسبابها ومكوناتها ودواعيها تحقيقاً لإيجاد الإنسجام بينها وبينه :

حقيقة الدين قبل نزول الأديان السماوية : هذه الحقيقة هى التى قد ترجمنا لها من قبل به :

لماذا انجبه العقل نحو العقيدة الإلهية : وكنا قد أرجأنا الحديث عنها حتى نخرج من التمهيد الذى قد مناه . ونبدأ الآن - بعون الله - فى الإجابة على هذا السؤال الذى شغل ويشتغل العقلاء من مفكرين وفلاسفة وعلماء منذ أقدم العصور إلى الآن .

وغير خاف على القارئ أن هذه الحقيقة من الحقائق العظيمة ، ولذلك

كان لاختلاف الآراء حولها بحولات واسعة كما سيتضح في غضون البحث .

قدم النزعة الدينية :

دل البحث الحديث في تاريخ الإنسانيات أن النزعة الدينية قديمة منذ أقدم العصور ، لافرق بين القبائل الهمجية والتي أخذت بقسط من الحضارة . فقد كثرت الرحلات إلى خارج أوروبا في القرن الثامن عشر ، وقد اكتشفت من دراسة الأساطير والعوائد والتقاليد أن فكرة التدين فسكرة مشاعة لم تخل منها أمة من الأمم القديمة ، رغم التفاوت في ترقى . وأما أقدم من الحضارات المسادية . ولم يكن السبب فيها خداع الرؤساء وتضليل لدهاة من الحكمان . وليست أسبابها طارئة على الإنسان بعد قطعه أشواط من أشواط التاريخ . بل كانت تعبر عن نزعة أصلية مشتركة عند جميع الأمم والشعوب على مدى التاريخ الإنساني كله .

فقد أثبت لانج وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية في كل من أوستراليا وأفريقيا وأمريكا . وأثبتها شريدر عند القبائل الآرية القديمة . وأثبتها بروكلان عند القبائل السامية قبل الإسلام .

وأثبتها لرواه ، وكاترفاج عند أقزام أواسط أفريقيا . وأثبتها شميدت عند بعض الأقزام وعند سكان أوستراليا الجنوبية الشرقية .

وانتهت بحوث شميدت إلى أن فسكرة الإله الأعظم ، توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية^(٢٢) .

ويقول معجم لاروس للقرن العشرين : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية وإن

(٢٢) الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان (١٠٨) ينصرف .

الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالية الخاصة للإنسانية .

ويقول : « إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي ولا تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة ، وعند عدد قليل جداً من الأفراد » .

هذه الحقائق التي تمكشفت للدارسين تولدت عنها نظرية في مجال نشأة العقيدة الآلهية ، عرفت باسم :

« فطرية التوحيد وأصالته » ، وقد ناصرها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ، منهم من أشربنا إليهم منذ من قبل .

وقد قضت هذه الدراسات التي قام بها لانج وزملاؤه على فكرة واهمة روج لها فولتير محيياً بها رأى السوفسطائيين القدماء الذين كانوا يقولون : إن ظاهرة التدين عرفت متأخرة في تاريخ الإنسان الذي كان يعيش ذهراً طويلاً بلا دين فعمت الفوضى الناتجة عن الحرية المطلقة ثم امتدى بعض العباقرة إلى فكرة إيهام الناس بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شيء ، وتسمع كل شيء ، ونهبهم بحكمتها على كل شيء ، بخلاف فولتير وقال :

« إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قرناً متطاولة في حالة مادية خالصة قوامها : الحرث ، والنحت ، والبناء ، والحداقة ، والنجارة قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات ... وإن فكرة التأليه إنما اخترعها الدهاة الماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الخلق والسخفاء ، (٣٢) » .

(٣٢) المرجع السابق (٨٠) هذا وقد ردد ماركس وأنجل نفس هذه العبارة في نقيل نشأة المسيحية . وسيأتى ذكره فيما بعد .

هذه الفكرة التي تابع فيها فولتير السوفسطائيين ما هي إلا مجرد دعوى واهمة عارية عن كل دلائل يقربها من التصديق . وقد عرفنا أن مباحث لافنج وزملائه وافتئاتها إلى « فطرية التوحيد وأصالة » قد قضت على تصور فولتير والسوفسطائيين . وبات من المسلم به عند الدارسين الموضوعيين أن ظاهرة التدين بوجه عام صاحبت رحلة الإنسان من أول عهده بالحياة . ولم يخل منها عصر ولا شعب ولا أمة يقول هنري برجسون في تأكيد فطرية التدين :

« لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم ولا فنون ولا فلسفات . ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

ولهذا فإن دراسى تاريخ الأديان لم يكن مهم - كما نرى من مباحثهم - البحث عن ظاهرة التدين وجدت أم لم توجد ، وإنما كان مهم البحث عن أسباب وجودها ومعرفة أشكالها وصورها . أما وجودها في نفسه ، فقد كان حقيقة عندهم لم يناع فيها منصف ، وإن وجد نزاع كما رأينا عند السوفسطائيين وفولتير ، وكما عند الشيوعيين ، فهو نزاع ساقط ؛ لأنه لم يقيم على دليل قط .

المذاهب في تفسير نشأة التدين :

تتعدد المذاهب في تفسير نشأة التدين ، واقترب البشر من الإيمان بالله ، تتعدد أظاهرا . ونوجد فيما يأتى الحديث عن أهم المذاهب في هذا الشأن .

١ - التأمل فى الكون :

من البديه والمعقول جداً أن يكون النظر والتأمل فى الكون أو الطبيعة من المصادر الملهمة عند الباحثين فى أسباب نشأة التدين والإيمان بالله . فالكون يراه الإنسان أكبر وأعظم منه ، مصداق هذا قوله جل فى علاه : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس »

والكون كما نرى - ليس ساكناً بل تتوالى فيه حركات منتظمة كحركات

الأفلاك الظاهرية وحركات غير منتظمة كالرياح والسحب والرعد والبرق والأمطار والسيول وهو - بهذا - مدعاة للفت الأنظار ، ومسرح للفكر . هذه الحركات التي يحس بها الإنسان بشعر - وهو يحس بها - أنه ليس فاعلاً لها ، وهو أعجز ما يكون أمامها فليس هو قادر على وقف حركات الأملاك ، ولا إسكان الريح ، ولا إسكات الرعد ، ولا إخماد البرق ، ولا دفع الأمطار والسيول ، ولا على تلطيف حرارة الشمس إذا اشتدت ، ولا تعديل برودتها بل هو كائن حقير بين هذه القوى الغالبة القاهرة المستقلة عن إرادة البشر ، المستأبدة على قراره .

وهذا بالطبع يولد عنده الدهشة والإعجاب ، ثم يدفعه تفكيره إلى التساؤل أَر السَّوَال عن مصدر هذه والمعجزات ، التي لا حول ولا قوة له أمامها إلا أن يتقى بعضها بالهرب منها كأن يأوى إلى مغارة أو ظل شجرة يتقى بها من الشمس .

والتساؤل أو السؤال ينتهى به إلى أن د فاعل ، هذه الظواهر يجب أن يكون ذا قدرة تفوق قدرات البشر ؛ لأن أحداً من البشر كائناً من كان لا يدعى أنه أهل لإحداث هذه الظواهر . وإذا ادعى فإنه لا يصدق أحد ، بل لا يصدق هو نفسه . وهذا العجز الظاهر عند الإنسان هو طريق الإيمان بالله ، وهو سبب التدين منذ القدم . ومن أشهر الفائلين بهذا المذهب العالم الألماني ماكس مولر . وقد استخلص هذا الرأى من دراسة قام بها حول الأساطير والتمائيل القديمة . وقد جاء من بعده من العلماء وعلماء كيف اهتدى الإنسان إلى الإيمان بالله من التأمل والنظر في ظواهر الكون والطبيعة . ولعجبني في هذا التعليل عبارة الأستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز إذا قال :

فالصواب في هذه النقطة الفكرية من المادة إلى الروح . أنه انتقال من المكنن إلى المكنون ، (٤٤) .

لقد أصاب الشيخ دراز أيما إصابة . فإننا ما نزال إذا أعجبنا بصنعة ما انتقل من الإعجاب بها إلى الإعجاب بصانعها . وقد قاد التفكير في السكون الإنسان الأول إلى معرفة مكنون السكون وخالفه . والمعتبر في هذا المجال إدراك الحقيقة الإلهية دون الوصول إلى دقائق الصفات والخصائص المتعلقة بها .

ويرى المرحوم دراز أن الإهتمام إلى الحقيقة الإلهية من خلال التأمل في السكون مصدره النزاج بين مبدئين نفسيين هما :

غريزة عقلية جبل عليها الإنسان ، وهي غريزة التطلع لفهم ما في السكون من عجائب وأسرار . كما يتأمل الناقد أثر أديبا رائعا ليقف على سر الجمال فيه ، وحاسة وجدانية ، وهي حاسة التذوق الفني لما في الطبيعة من جمال وجلال وهذا شرح طيب جدا . ونضيف إليه إن التذوق وحده غير كاف بل لابد من سبق الفهم عن أعمال حركة العقل في الآثار موضوع الدراسة .

التأمل في السكون نوعان :

بعض الدارسين يطابق على المذهب الذي تقدم : مذهب الطبيعة العادية لأن صاحبه ، ماكس مولر لاكتفى بمظاهر الطبيعة العادية الهادئة في تفسير مذهبه ، ويرى هؤلاء الدارسون أن مذهب الطبيعة العادية هذا يقابله مذهب طبيعي آخر ، هو : مذهب الطبيعة الشاذة الغريبة ويعزون هذا المذهب إلى العالم الإنجليزي : جيفروس . لأن جيفروس يرى أن مظاهر الطبيعة العادية لا تكفي في إبقاء فكرة الدين والإهتمام إلى الحقيقة الإلهية ؛ لأن تكرارها على الحواس يجعلها مألوفا عند الناس فلا تحتاج إلى تفسير وعلل .

أما الظواهر الغريبة المفاجئة - غير المنتظمة - والعوارض النادرة التي يضطرب بها النظام العادي : كالزلازل المدمرة ، والبرق الخاطف ، والعواصف الهوجاء ، والصواعق المدمرة ، والزلازل الغريبة ، والخسوف والكسوف والأماطر الغزيرة والسيول الهادرة هذه الحوادث لها تأثير قوي في المشاعر

يولد الذعر الشديد الذي به يظهر ضعف الإنسان ويتلمس سبل النجاة بأى ثمن ويتطلب قوة تحميه وتؤمن حياته ،

هذه خلاصة مذهب جيفونوس ، وقد تدخلنا بعبارات من عندنا لإيضاحه على أن جيفونوس لا يمنع دور الظاهر العادية في تكوين النزعة الدينية وإنما يعول على غير العادية بشكل ملحوظ .

والمذهب الطبيعي بنوعيه ، أو المذهبان الطبيعيان اللذان قال بهما كل من ماكس وجيفونوس أشيرت حولهما ملاحظات لاداعى لذكرها كلها هنا ؛ لأن هدفنا وضع تصوير موجز لقدم ظاهرة التدين وتفسير أسبابها في مواجهة دعوى الشيوعيين الواهمة بأن « الله » غير موجود ١٩

ولكن اعتراضنا واحدا أثّرنا ذكره تنميها للصورة ، وهو صالح لأن يكون مذهباً طبيعياً ثالثاً بعد مذهبي ماكس وجيفونوس .

نقد سائب :

فقد نقد بعضهم « ساباتيه » ، مذهب جيفونوس بأن شعور الرهبة والخوف من القوى « العلوية » لا يمكن وحده في تفسير ظاهرة التدين . وأنه لا بد له من شعور آخر يوازيه ويلطف من حدته ؛ لأن الخوف إذا استبد بالإنسان أهدر إرادته وشل حركته ورلد عنده اليأس والقنوط . إذن لا بد لتحقيق الشعور الديني من مقاوم للخوف . وذلك المقاسوم هو الرجاء والامل الجميل البسام . وبالخوف والرجاء يصبح المرء في موقف متعادل يستثمر في ظله كل طاقاته وملاكاته .

وهذا مذهب محمود ، وقول شديد من « ساباتيه » وكأنه نظر إلى قوله تعالى : « يدعوننا رغبا ورهبا » والخوف والرجاء هما حقيقة التدين الصحيح في أرق مظاهره وأسمى درجاته . فالجلال في الـكون يبعث على الرجاء . والجلال في الـكون يحمل على الشفقة والخوف . وهما - أعنى الرجاء والخوف - أشبه ما يكون بالـدائرة الكهر بائية العالم ، وهى لا تعمل إلا بطرفيها الموجب

والسالب ، وإذا فصل أحدهما عن الآخر توقفت تمامًا فالخرف كما قال ساباتييه
يولد اليأس ويقتل الإنسان إذا انفرد عن الرجاء . والرجاء - وحده - يولد
الفرور والإنخداع ولاصلاح للإنسان إلا بخوف يقتل غروره، ورجاء يبدد
بأسفه . ويعيد توازنه وتعادله .

هذا ، وقد أصاب ساباتييه في نقد وتقويم مذهب جيه ونس . وهو في قوله
هذا تسنم الذروة العليا في هذا المجال

المذهب الروحي :

إرجاع ظاهرة التدين إلى سبب روحي مضاد في ظاهر الأمر إلى المذاهب
التي أرجعتها إلى أسباب مادية . وعند التأمل والنظر تجد هذه المذاهب تلتقي
عند نقطة واحدة .

لأن المذاهب الطبيعية التي عزت ظاهرة التدين إلى التأمل في الصور المادية
والأشكال السكونية عادية ، كانت أو عقيدة أو معتقداً على نحو ما مر عند كل
من ماكس مولر وجيه ونس . وساباتييه ينتهون إلى الاعتقاد في روح عظيمة
(الحقيقة الإلهية) ولا يفقهون عند الصور المادية الصماء .

والمذهب أو المذاهب الروحية تلتقي مع المذاهب الطبيعية في الغاية التي
انتهت إليها وهي الروحية ، ويظهر في الفرق بينهما في طريقة الإبتداء فقط .
أما العاية فواحدة .

فالمذاهب الطبيعية تنتقل بالظاهرة الدنيوية من المادة إلى الروح والمذاهب
الروحية تنتقل بالظاهرة الدنيوية من روح إلى روح فالمرآة واحدة - كما ترى -
والإختلاف في نقطة التحرك أو الإبتداء ولكن مبدأ الإنتقال من روح إلى
روح يقذف بسؤال حاصله ما هو الفارق بين الروح المنتقل منها والروح
المنتقل إليها ؟

وكيف يكون هذا الانتقال من الروح الأولى إلى الروح الثانية
يا ترى ١٤

وفي الإجابة على هذا السؤال ، وبخاصة في الشق الأول منه محاولات شتى
يفرق بعضها في التفلسف ، ولذلك فإننا نختار أيسرها في الإيضاح وأبسطها
عن التعقيد ، وهو :

إن الأصل في هذه الطريقة هي عبادة الأسلاف أو أرواح الموتى . ويقول
أصحاب هذا الرأي أن الإنسان الأول تكلمت عنده عقيدة من مبادئ كان
أحدهما سبباً في الآخر :

المبدأ الأول : أن شيئاً لا يكون من لا شيء . وترتب على هذا المبدأ
اليقيني .

المبدأ الثاني : أن الشيء لا يكون لا شيء . وبذلك اعتقد الإنسان أن الروح
بعد انفصالها عن الجسد تصبح روحاً خالصة له وجود مستقل عن وجود
الجسد ، بل هو وجود أرقى ؛ لأنه في حالة تلبس الروح بالجسد لا تكون
الروح روحاً خالصة ، ولذلك تسمى « النفس » لأنها محكومة بمادة الجسد ،
وبعد انفصالها تستقل بالوجود الروحي الخالص وهو وجود خالد لا يطرأ
عليه عدم .

هذا الذي تقدم صالح لتفسير عبادة الأسلاف أو أرواح الموتى . ثم
كانت مرحلة الانتقال من عبادة أرواح المرنى إلى الإيمان بالروح العظمى
« الحقيقة الإلهية » ، فهنا لم يكن الانتقال من « مادة إلى روح » كما في المذاهب
الطبيعية . بل كان الانتقال من روح إلى روح . من روح كان لها تلبس
بالجسد في زمن ما . إلى روح خالصة لم تلبس بجسد ، وهي « الحقيقة الإلهية » ،
مدركة على نحو من الأنحاء .

وأصحاب هذا الاتجاه يتوسعون في أدلة ، الإثبات ومجال التطبيق ، فمن

أدلة الإثبات ظاهرة الأحلام والرؤى ، فهي شعبة من شعب الحياة الروحية الخالصة قوت الاعتقاد بإمكان وجود الروح بعد الانفصال عن الجسد بالموت (٢٥) أما في مجال التطبيق فقالوا إن عبدة السكواكب لم يعبدوها إلا بعد أن تخيلوا فيها أرواحا حية عاقلة (٢٦) . وقد نبى الفلاسفة من بعد هذا التخيل وورقوا به إلى درجة الاعتقاد ، ولم يرتضه حجة الإسلام الغزالي ونقدته نقدا وجيها (٢٧) .

وتهذى هذه النظرية والنظرية الروحية ، إلى فيلسوفين كبيرين : هما تايلور وهربرت سبنسر ، وتايلور هو أول من قال بها وتابعه سبنسر في شيء التعديل .

ومهما اتسع مجال التطبيق أو تعددت أدلة الإثبات فإنها في مجملها قد أسفرت عن تكوين الاعتقاد في أمرين :

الاول : أن في الوجود كائنات عاقلة لا تقع عليها الحواس ، سواء أكانت في الأصل أرواحا إنسانية انفصلت عن أبدانها . أم كانت منذ البداية أرواحا مستقلة . أم كانت روحاً أبجلاً من ذلك وأسمى .

الثاني : إن هذه الكائنات الغيبية قد تتصل بالعالم النفسى أو الحسى من الناحية الإنسانية ، وتترك فيه أثرا من آثارها العجيبة .

ومن هذه الاعتقادات توصل الإنسان إلى الإيمان بـ « الحقيقة الإلهية » على أنها « الروح العظمى ذات القدرة الخارقة ، التى خلقت الكون ومن فيه وما فيه ، وهى وراء كل التغيرات التى تحدث إما منتظمة . وإما مفاجئة آنى الشئ لا يكون عن لا شئ . فلكل مصنوع صانع ، ولكل مخلوق خالق هو « الروح الأعلى ، أو الله ، جل في علاه .

(٢٥) انظر « نشأة العقيدة الإلهية » للعقاد مع نقد وجيه له (٧٥) .

(٢٦) (المدن) (٦٤) للمرحوم دراز مرجع سابق

(٢٧) تهافت الفلاسفة (٩٠) للإمام الغزالي .

٣ - المذهب النفسى :

المذاهب أو المذهب النفسى فى الكشف عن أسباب ظاهرة التدين والاقتراب من إدراك الحقيقة الإلهية ، قائم على رفض ما تقدم من مذاهب طبيعية وروحية .

وقد ذهب هذا المذهب كل من أوجست ساباتيه ، وهنرى برجسون مع اختلاف فى بعض التصورات .

وتتلخص نظرية ساباتيه أن العقيدة الإلهية تتولد عن بعض الملاحظات النفسية وبخاصة عن تجربة الإرادة الإنسانية مع المؤثرات الخارجية التى تهدر قيمة الإرادة - أحيانا - فيختلف ما يريد الإنسان ويقع ما لا يريد .
أى أن تختلف ما يقصده الإنسان ويحد فى طلبه يترك فى نفسه أثرا قويا بأن فى المحيط الخارجى عن الإنسان قوى أخرى تقف أمام إرادات الإنسان فإذا وافقت إرادتها إراداته حصل المطلوب ، وإذا لم يوافق إرادتها لم يحصل مراد الإنسان .

وما يراه ساباتيه قد أحس به أعرابى قديم فى بساطة ووضوح . فقد سئل هذا الأعرابى : هم عرفتك ربك ؟ قال : « باختلاف الظنون ، أى أن المرء يعتقد أو يظن أن شيئا ما سيكون لتوافر أسبابه ، ثم يفاجأ بأن اعتقاده أو ظنه تخلف ، ووقع ما لم يكن فى الحساب .

ومع بساطة ما عبر عنه الأعرابى . ووجازة ما صورنا به نظرية ساباتيه فإن هذه التجربة تكشف عن حقيقة عظيمة لا تقع تحت حس . تلك الحقيقة ماثلة فى أن هذا السكون تسيره إرادة أكبر من إرادتنا ، وتسيطر عليه وتوجهه رغبنا نحن أم أبينا .

ومع تلك الإرادة قدرة هائلة جبارة تسحق كل ماعداها من قدرات إذا وقفت فى طريقها .

ووراء تلك قوة قاهرة جبارة هي ، الحقيقة الإلهية ، أو هي : الله ،
رب العالمين .

ومن هنا يتبين أن المبدأ العالمى الذى يخضع له الإنسان ليس هو ذلك
الـكون المادى (لأن الـكون غير عاقل) بل هو الروح العالمية التى تدبره . ذلك
أن القوة العاقلة لا تخضع إلا لسلطان قوة عاقلة أجل منها تسيطر عليها وعلى
العالم بأسره على السواء . . . فلا تملك الإنسانية إلا أن تخضع لهذا السلطان
الأعلى .

أما برجسون فخلاصة رأيه أن ظاهرة التدين والإيمان بالحقيقة الإلهية ولدتها
حاجة الإنسان إلى التعادل والتوازن بين رغبات الفرد ومصلحة الجماعة ، فلم
يكن الفرد ليضحي ببعض رغباته حارماً منها نفسه مقدماً مصلحة الجماعة على
منافعه إلا بتصور أجل وأعلى من المحافظة عن حقوق الجماعة ومن هنا تولدت
عقيدة الإيمان ، بالله ، وهو أهل للتضحية والطاعة .

نظرية ديكرت :

ومن شعب المذهب النفسى فى تعليل ظاهرة التدين نظرية ديكرت وإن
لم يقدمها هو لتعليل الظاهرة بل قدمها كدليل على وجود الله - سبحانه وتعالى -
وخلاصة نظريته أن الإنسان إذا قارن بين النقص وبين السكال الذى يسعى
هو للحصول عليه ، وبين السكال المطلق ، فإن ذلك يقوده - ضرورة - إلى
تصور الحقيقة الإلهية .

لأن فكرة السكال المطلق ليست فكرة خيالية ولا اختراعاً ولا فرضاً .
بل هي ضرورة تفرض نفسها على كل العقول .

فهى - حقيقة لا بد لها من مصدر ؛

ولا يجوز أن يكون مصدرها الـعدم ؛ لأن الـعدم لا يحقق الوجود ، كما أن
الصفير لا يتولد عنه عدد إيجابى .

ولا يجوز أن يكون مصدرها النفس فالنفوس هي مصدر النقص الذي يحاول العقلاء التخلص منه .

فلم يبق إلا أن تكون صورة منعكسة على مرآة النفس من حقيقة إيجابية خارجية ، هي مادة الكمال المطاق ومصدره ، وهي المثل الأعلى وهذا المثل الأعلى هو : الله .

ومؤدى قول ديكارت ينتهى بنا إلى مبدأ عام أدركه الإنسان منذ فجر التاريخ الإنسانى وإن عبر عنه ديكارت تعبيراً فلسفياً . ذلك المبدأ هو محاولة إسناد الحقائق إلى من يناسبها من : الفاعلين ، وهو مبدأ : السببية ، أو قانونها المعروف . ومصادق هذا أن ديكارت نفسه لم يرض أن يكون فاعل : الكمال المطلق ، العدم أو النقص الكامن فى النفس . واهتدى إلى أن مصدره حقيقة إيجابية ليخرج بهذا القيد (العدم المحض) خارجية ، ليخرج بهذا القيد أن النفس هي مصدر الكمال . وعمل عدم صلاحية العدم والنفس لأن يكون واحد منهما مصدراً للكمال المطاق بأن العدم لا يصدر عنه وجود وأن النفس الناقصة لا يصدر عنها كمال مطلق ؛ لأن فاقد الشيء فى الحاليتين المذكورتين لا يعطيه . وهذا قانون ثابت من قوانين الواقع والعقل .

ويوضح لنا هذا الفهم بصورة أحكم قول ديكارت نفسه فى الاستدلال المباشر على وجود الله مستخدماً مبدأ أو السببية :

د أنا أفكر . فأنا - إذن - موجود . فمن أوجدنى ؟ ومن خلقتنى ؟ لافنى لم أخلق نفسى ، فلا بد لى من خالق . وهذا الخالق لابد أن يكون واجب الوجوده وهو الله بارى كل شيء (٣٨) .

(٣٨) قصة الإيمان بتصرف يسير (٣٣٠) .

المذهب الأخلاقي :

يمزى هذا المذهب إلى الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت وله في تقرير هذا المذهب شرح ليس بالقصير ، ونأمل أن نلخصه في عبارات موجزة تحاشيا للإطالة . ومن يرد أن يطلع على كلامه فليستظره في مظانه (٣٩) .

هذا المذهب شبيه بمذهب ديكارت الذي أوجزناه فيما تقدم ، وخلاصة مذهب « كانت » أو النهاية التي انتهى إليها من شروحه المستفيضة نصورها فيما يأتي :

* إن في حياتنا مبدءاً أو دستوراً أخلاقياً فطرياً يحس به حتى الأطفال حيث يستحسنون أشياء ويستقبحون أشياء ، ويفرقون بين ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك .

• وهذا القانون الأخلاقي (الأدبي) له من القوة والسلطان ما للقانون الطبيعي في التعبير في كل منهما عن شيء موجود . (لحسن الصدق وقبح الكذب وهما حكمان من أحكام القانون الأخلاقي الأدبي بهران عن شيء له وجود مثل أحكام القانون الطبيعي كشمعد الحديد بالحرارة ونقلصه بالبرودة) (٤٠) .

* القانون الأخلاقي يسعى بنا لتحقيق « الخير المطلق » ، والحياة الدنيا لا تتسع لتحقيق هذا الخير المطلق ، فلا بد من حياة لانهائية يتم فيها هنا التحقيق (يعني الحياة الآخرة) ويريد بالخير المطلق انتصار الفضيلة والسعادة على الرذيلة والشقاء .

• وبعد تحقيق الخير المطلق يبقى من مطالب العقل تحقيق « الخير الأعلى » ، الذي تتوزع فيه درجات ، البؤس والشقاء ، والسعادة والنعيم على حسب الأعمال والبواعث والمقاصد . فلا بد إذن من مبدء أعلى يحقق هذا

(٣٩) ينظر قصة الفلاسفة لول ديورانت (٢٦٤) والدين المرحوم دراز (١٤٩)

وقصة الإيمان لنديم الجسر (٨٤) .

(٤٠) هذه زيادات من عندنا للإيضاح والبيان .

التوازن ، مبدأ تخضع الطبيعة لإرادته ، ويصير هو في تصرفاته على وفق قانون عادل ، وما ذلك (المبدأ الأعلى) إلا حائق الطبيعة والإنسان جميعاً ، وهو « الله تعالى » .

تشابه نظريتي كانت وديكارت :

هذه خلاصة موجزة جداً وأرجو أن تكون أمينة ووافية بالمعنى .
وتشابه نظرية « كانت » بنظرية « ديكارت » ، أن « الكمال المطلق » عند ديكارت يناظر « الخير الأعلى » عند « كانت » ، وتنفرد النظر بتان في أن ديكارت يرجع فلسفته إلى « النفس » و « كانت » يرجع فلسفته إلى « العقل » ، لذلك يرى « كانت » أن « وجود الذات الإلهية » ليس موضوع علم ومعرفه بحيث يثبت بالبرهان أو التجربة بل هو « إيمان عقلي » يحكم العقل به لدعم فكرة الأخلاق أو مسؤولية الأخلاق (٤٠) .

وعلى كثرة ما وجه إلى مذهب « كانت » من نقود فإنها انصبت على المقدمات التي وضعها . أما النتيجة فصحيحة كما ترى ولم يناع فيها منصف قط . ويشفع لكانت رايه من الباحثين والدارسين أن « الحقيقة » التي دارت حولها دراساتهم وبحوثهم وفلسفاتهم هي « الحقيقة الإلهية » ، كل منهم التمس لها أدلة وبراهين ومنازع صدروا عنها تقرير تلك الحقيقة وإقامة الأدلة والبراهين عليها . و « الحقيقة الإلهية » أعظم حقائق الوجود . فكان الاختلاف في رسم الطرق الموصلة إليها أمراً وارداً بل هو الواقع الذي لا مناص عنه . فكمال الله وجماله وجلاله فوق كل العقول والعلوم والمدارك . « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

(٤١) هذه المذاهب التي رصدناها لم يحل واحد منها من نقد . وبخاصة مذهب « كانت » ونحن - هنا - نسكت في إبرادها وحدها دون الإطالة في ذكر النقود ؛ لأن هدفنا التبدلي على أن الحقيقة الإلهية نالت حقها من الإدراك والذوق وليست هي تصوراً وهمياً كما قال الشيوعيون موضوع الدراسة .

المذهب الاجتماعي :

ينسب هذا المذهب إلى عالم الاجتماع المعروف دوركايم . وهو مذهب تذكره لأنه واحدة من الفلسفات التي ظهرت في تفسير أسباب التدين ، وإن كان صاحبها قد هبط به إلى أحط مظاهر الدناة ليولد عنها أسى ظاهرة عرفها الإنسان منذ أقدم العصور .

فهو بعد أن مهد القول لصنع نظريته بادئا بالتوهم وهو الملقب الأسرى . لأنه يفترض أن لكل أسرة لقب يجمعها عند الإنسان الأول . وتعز كل أسرة بالقب ، وتعتقد أن من يحمل شارة الملقب ينهر بفضلها في الحروب . وكان الناس يجمعون في مواضع خاضعة لهم مرحلة وصداخية ينسون فيها أنفسهم ويطلقون العنان لمزاجهم العنيفة على دقائق الطبول وأنغام المزمار حتى يصابوا بالذهول الذي يقضى بهم إلى انتهاك سياج المحرمات الجنسية التي كانوا في حياتهم العادية يحترمونها كل الاحترام وقد ينسبون هذا التطور الخطير إلى حضور روح الأجداد . ظنا منهم أن الذي يحدث كان سرا من أسرارها .

ويخلصون من ذلك كله إلى تقديس الاجتماع الذي وقعت فيه تلك النشوة الشيطانية لأن كل نفس انسلخت في ذلك الاجتماع ، من مقرماتها ومشخصاتها الفردية وانمجت في شخصية واحدة ، هي ذلك الاجتماع ، ولهذا سارت الجماعة تبعث نفسها من حيث لا نشعر .

هكذا تصور دوركايم أصل التدين . فقد بدأ به من الدناة ، وانتهى به إلى عيادة الجماعة نفسها ، وهي واهمة أنها تعبد غيرها .

ودوركايم أدلى برأيه هذا في عصور ازدهار المعرفة ، وانتشار مذاهب وفلسفات راقية في تصور أسباب التدين في عصور التاريخ القديم . ولكنه عرفضها وقال ما قال على النحو الذي رأيت .

والعلماء قد أشبهوا مذهبهم نقداً بل نقضاً ؛ لأنه انحرف بالحقيقة انحرافاً لا يصدر عن من له مسكة من عقل ، أو نصيب من حياء .

ولا غرابة في هذا فدور كاييم عريق في اليهودية . فلا غرابة أن يقول ما قال لخدمة المخطط الصهيوني في تدمير الأخلاق وتحقير الدين بتحقيق بواعثه ومصادره وكل إناء بالذى فيه ينضح كما يقول المثل .

مذهب الوعى الكونى :

ويرى الأستاذ عباس العقاد بعد أن ألم بمخلاصة مربعة الآراء في التعريف بأسباب التدين أن هذه الظاهرة ، ظاهرة التدين عند الإنسان الأول لها سبب واحد لا يشكرك ولا يستبعد مع جواز أن يستبعد غيره من الآراء وهذا السبب الذى يذكره المرحوم العقاد ترى أن غيره من الأسباب الصحيحة أو التى يقل الخلاف حولها ترجع إليه ؛ لأنها إذا صحت فهى منهقة عنه .

إنه : الوعى الكونى . هذا هو السبب الذى ذكره المرحوم العقاد ، ولاح بالوم على الباحثين الذين لم يهتدوا إليه وكان ينبغى أن يهتدوا إليه ؛ لأنه أظهر الأسباب . يقول رحمه الله :

« فلا بد من صلة بين الكون وبين كل موجود فيه ولا بد من أن تنزج هذه الصلة بالوعى والشعور متى كان الموجود من أصحاب الوعى والشعور . ومن العجيب أن يعرف العلماء شيئاً يسمى الغريزة النوعية ، بل شيئاً يسمى غريزة الجماعة ولا يعرفون شيئاً يسمى الغريزة الكونية أو السليقة الكونية . »

وفى المحقق أن الصلة بين الكون وموجوداته هائلة فى جميع الموجودات ؛ ومن المحقق أن الوعى لا يخلو من ترجمان لهذه الصلة لا يحصره العقل ؛ لأنه سابق له ، محيط به ، غالب عليه ، (٤٢) .

(٤٢) الله (٢٥) وما بعدها .

والوعى السكونى كما يرى العقاد ملكة قابله للترقى ، وسلطانة فوق مدركات
الحواس جميعا ، وفوق مدركات النفوس والعقول والمملكة المدركة وأن
هذا الوعى السكونى هو الذى قاد الإنسان فى مسألة الديانات منذ أقدم
العصور .

فالدyanات فى كل قبيل تترجم هذا الوعى السكونى منذ انقدم ، وتمثله بما
تشاء من الرموز والعبارات .

هذا ما ارتضاه المرحوم العقاد . وهو فهم صائب ولا يقف ما قاله العقاد
عند حد ظاهرة التدين ، بل يحوز - تميمه - فى كل مجال صال فيه فكر الإنسان
وجال فى مجال المعارف والعلوم ، بل والآداب والفنون وماصح من الفلسفات
فى كل عصر ومصر .

المذهب التعليمى :

فى المذاهب المتقدمة ترى الإنسان قد وصل إلى « التدين » بنفسه ، من
خلال التأمل فى السكون وربط المسببات بأسبابها ، وما أشبه هذان الدواعى
التي قيل إنها هى أوجدت ظاهرة التدين عند الإنسان فى عصوره الأولى
كوفية كانت أو روحية أو نفسية أو أخلاقية أو اجتماعية ، والتدين على هذه
المناهج هدف سعى إليه الإنسان ولم يسمع هو إليه .

وهناك مذهب آخر يقابل تلك المذاهب جميعاً يرى فيه أصحابه أن الدين
عرف عند الإنسان فى كل العصور عن طريق « التعليم » من الوحي الأمين
الذى لم يخل منه عصر ولا أمة من عهد آدم إلى ختام رسالات السماء . فالناس
لم يعرفوا ربهم بنور العقل ، ولكن بنور الوحي وهديه .

والواقع أن لامنافة بين هذا المذهب « التوقيفى » وبين ما عده من مذاهب
اجتهادية . لأن دعوة الوحي لا تنحصر على حركة الفكر والعقل ، بل هى
أدعى لإثارة الفكر والعقل ، وكثير من نصوص الوحي استحضت العقول

على البحث ، والنفوس على التأمل ، والعواطف على التحرك ، والفكر على العمل فهناك قدر مشترك بين المذهب الاجتهادية والمذهب التعليمى . ولا يخفى عنا هنا أن رسالات السماء كانت تحث بينهما فترات تطول أو تقصر . وما سجله العلماء والدارسون فى العصر الحديث من أوضاع القبائل والشعوب البدائية يؤكد أن الصلة بين هذه المذاهب جميعاً قائمة فى بعض النواحي وأن الفكر الإنسانى قمين بأن يتجه نحو « الحقيقة الإلهية » حتى ولو لم يوجهه إليها وحى . ولا فائدة إليها رسول . ولذلك التفتى قرار العقل « الواعى » مع أحكام الوحى . من أن الإيمان « بالله » ضرورة عقلية مثلما هى ضرورة من ضرورات الوحى . وحقيقة لا تستقيم الحياة بدونها والعقيدة التى يجمع عليها النقل والعقل هى من أرسخ العقائد على الإطلاق .

العمدة فى المذاهب الشارحة :

المذاهب الشارحة لمنشأة ظاهرة التدين التى قدمناها مختارة من جملة مذاهب فى هذا المجال . لأن هناك من يقول إن سبب ظاهرة التدين هو « السحر » ؟ ومن يقول : إن السبب فيها حساسة دينية مركبة فى مشاعر الإنسان . ومن يقول : إن العقيدة الدينية غذاء الروح مثل الطعام والشراب فى تغذية الجسد ، والروح مباللة - بالطبع - للبحث عن غذائها مثل الجسد .

والعمدة أو المرتكز العام الذى استندت إليه جميع المذاهب الشارحة لمنشأة ظاهرة التدين هو المحاولة الجادة للتعرف على « سبب » مناسب للوجود الكونى كله . أو هو محاولة لايجاد ، الإنسجام ، بين حقائق الكون وبين عقل الإنسان ومشاعره وقلبه . فقانون « السببية » أو العلمية ، هو الناظم لشتات ما تفرق من مباحث وآراء . ظاهر فى بعضها ، وخفى فى بعضها الآخر .

وقد وقف الفكر الإنسانى من حقيقة الكون والحوادث العظمى التى تجري فيه عما هو فوق تدبير البشر وقدراتهم عدة مواقف .

« فاعلماء الدين يرون - وهذا حق - أن الكون وما يجري فيه من حوادث عظمى مخلوقة لله سبحانه . فهو سببها وعلتها . ولا سبب ولا علة لها سوى الله باري الكائنات .

والنصوص الدينية ، متضافرة على هذه العقيدة ، وفيها من الأدلة والبراهين ما لا يمكن دفعه أو الوقوف أمامه . وأن أداة الخلق والتكوين كله « كن » إذا قضى أمراً . فإذا قال « كن » (٤٣) كان في الحال ما أراد أن يكون . وعملية الخلق الإلهي تتوقف على ثلاث مقدمات :

« عليه المحيط . وإرادته المخصصة . وقدرته المنفذة لما أحاط به علمه ، وخصصته إرادته الحرة المطلقة من أية قيود تفرض عليها من مصادر أخرى .

« والفلاسفة الإلهيون (المؤمنون) يذهب علماء الدين إلى أن السبب الضرورى والنهائى فى خلق الكون وما فيه ومن فيه هو الله جل جلالته ، ولكنهم يختلفون مع علماء الدين فيقولون إن الخلق لا يقع مباشرة من الله ، بل بوجود وسائط فى شكل علل أو أسباب .

فالله يخلق العلل والأسباب ، وهى تؤثر فى وجود ما يترتب عليها تأثيراً مباشراً ، ١٩ .

والأسباب عندهم ، تؤثر بطبيعتها ، أو بعلة فيها أو بقوة مودعة فيها أو بجبت حدوث ما يترتب عليها . وعلماء الدين يردون هذا القول ويردون أن المؤثر الحقيقى المباشر هو الله . والأسباب مجرد علامة دلالية ، لا قدر لها على التأثير . وفى ذلك يقول بعضهم :

(٣) « بعض العلماء يقول إن كلمة « كن » تحقيقى للإرادة غير مشروط أن يقول « كن » ففى أرشد شيئاً كان على الوجه الذى أراده سبحانه .

ومن يقل بالطبع أو بالعلّة فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقسوة المودعة فذاك بدعي فلا تلتفت
والخلاف بين علماء الدين والفلاسفة الإلهيين ربما كان يسيراً كما ترى .

هـ أما الفلاسفة الماديون ، ومنهم ماركس والشيوعيون فلا يرون للكون خالقاً . ويرون أن الكون هو الذي خلق نفسه ، وهذا باطل عقلاً وعلمياً وواقعياً . لأن المعلوم لا يؤثر في نفسه بالوجود . لأن تأثيره في نفسه يقتضى كونه مخلوقاً قبل التأثير وهذا لم يقل به أحد حتى المادّيون أنفسهم . وإنما كان باطلاً لأنه يفهم منه - بجملة - أن الشيء كان معدوماً وجوداً في رقت واحد . ولا يوجد عقل مهم ما كان حظه من الوعي والإدراك يسلم بهذه الدعوى المنكرة بكل مقياس .

وبعضهم يقول إن الكون خلق صدفة . وهذا القول يعادل أن الكون خلق نفسه في الفراية والخروج عن المعقول ، ود المعلوم ، وكذلك عن الواقع ، أن أبسط العقول وأدناها ذكاء ينكر كل الإنكار أن يرى - مثلاً - مثلثاً مرسوماً على ورق ويقال له : إن هذا المثلث لم يرسمه راسم وإنما المثلث رسم نفسه ، أو أن هذه الخطوط والأبعاد تآلفت وتضامت هكذا عن طريق الصدفة ، فإذا كان هذا بالنسبة إلى المثلث ، فكيف بمن يقول : إن الكون خلق عن طريق الصدفة ، مع ما في هذا الكون من نظام وإحكام وأمرار ودقائق أسرت لحول العقلاء ، وسمت فوق كل المعارف والعلوم . ومنها ما حير العقول جميعاً ، وأعجز العلم والعلماء (٤٤) .

سؤال هذا موضعه :

قد يفور في نفسك سؤال ، ولا بد أن يفور ، ومن حقه أن يفور . ذلك السؤال مؤداه :

(٤٤) سيأتى لهذا بيان واف قريباً إن شاء الله .

لأننا نحن - معاشر المؤمنين - رفضنا كل الرفض أن يكون الكون أو المادة على حد تعبير العلمانيين والشيوعيين - خلق نفسه . واستقندنا في هذا الرفض إلى قاعدة وهي أن الشيء لا يمكن أن يؤثر في نفسه بالخلق والايجاد وهو لم يكن موجوداً ، ولنا إن كون الشيء معدوماً موجوداً في وقت واحد مستحيل عقلاً . وأن كل مخلوق لا بد له من خالق متقدم عليه هذا ما قلناه ، وهو حق ، أفليس من حق الماديين أن يواجهونا بنفس المشكلة في مسألة أولية الله - سبحانه - إذ كيف سمح لنا أن نعتقد أن الله خالق غير مخلوق ؟ وماذا نقول لهم إذا قاروا : أن دعواهم أن الكون خالق غير مخلوق ، = قولنا : إن الله خالق غير مخلوق ، فما الفرق بين القولين إذن ؟

وجواب هذا أوانه :

نبادر فنقول : إن الفروق بين عقيدتنا ودعواهم أوضح من الشمس في رابعة النهار ، وهذه الفروق ترجع إلى عدة اعتبارات وليس لاعتبار واحد . فمنها فروق ترجع إلى تحرير المناط ، أعني - هنا - لخص وتحديد أطراف الدعوى أو القضية عندنا نحن معاشر المؤمنين ، وعند عبدة المادة وجهلاء العلمانية . ومنها فروق ترجع إلى الوضع الاستدلالي ، أو المركز القانوني بلغة المحامين المعاصرين .

فالدعويان وإن بدتا متكافئتين أمام النظرة الساذجة العجلى فإنهما جدد مختلفتين عند الدرس والفحص ، فلننظر فيهما من خلال الإطار ذي الجناحين الذي رسمناه منذ قليل ، وهو :

• لخص الدعويين من حيث تحرير المناط أو المقابلة بين الأطراف .

• لخص الدعويين من حيث الوضع الاستدلالي أو المركز القانوني . كما أسلفنا . وبالله التوفيق ومنه السداد .

أولاً : من خيف تحرير المناط أو المقابلة بين الأُطراف :

تختلف الدعويان بهذا الاعتبار اختلافاً بيننا يتضح لك من خلاله أن دعوى الماديين من علمانيين وشيوعيين لا تصلح قط أن تكون طرفاً قاهراً لعقيدة المؤمنين . بيان ذلك في إيجاز :

١ - أن الله في عقيدة المؤمنين نسب خلق السكون إلى نفسه ، وهو أهل للخلق .

٢ - أما المادة أو السكون في دعوى الماديين فلم تدعى أنها خلقت نفسها ولا تملك حتى مجرد الإبانة عن هذه الدعوى . وإنما الماديون أدعوا لها هذه الدعوى ، وهي خرساء لا تتكلم ، عمياء لا تبصر ، صماء لا تسمع ، جامدة لا تتحرك وبليدة لا تحس ولا تشعر عاجزة لا تقدر على شيء .

٣ - إن المادة أو السكون في عقيدة المؤمنين هي دليل الدعوى وسندها . وبراهين صحتها الباطنة بأفصح بيان ، وأجلى عبارة .

٤ - أما المادة أو السكون في دعوى الماديين فهو موضوع الدعوى ، عندهم ، وسجل الدليل عند قوم ، هو الدعوى عند آخرين مفقود إلى دليل جديد لا وجود له .

٥ - إن المادة أو الطبيعة هي « المصروفة » - اسم فاعل - عند الماديين ، مع أن « المصروف » واقع عليها . وقاهر لها .

٦ - إن المادة أو الطبيعة هي « مصروفة » - اسم مفعول - عند المؤمنين ، والمصروف هو « الله » جل في علاه .

فها أنت ترى فروقا جد متباينة في الدعويين . قوة ورسوخ في جانب ، وضعف في جانب آخر . وتلك القوة ، وذلك الضعف يظهران لك بوضوح في الوضع الاستدلالي لكل منهما .

ثانيا : يخص الوضع الاستدلالي أو المركز القانوني لسكنا الدعويين :

الظاهرة المتنازع حولها :

من البديه أن تقول : « إن الظاهرة موضوع النزاع هي : الكون أو المادة أو الطبيعة » .

فنحن - معاشر المؤمنين نقول : « إن خالق الكون وما فيه ومن فيه هو « الله » جل في علاه .

والماديون يقولون : « إن المادة خلقت نفسها وخلقت ما فيها ومن فيها » ؟
ومن حيث الوضع الاستدلالي أو المركز القانوني فإننا نملك مئات الأدلة والبراهين على صحة « عقيدتنا » .

أما الماديون فلا يملكون نقيراً ولا فتيلاً على صحة دعواهم . فدعواهم معرأة من كل دليل . ومن أية جهة تصدى لهم خصومهم فإنهم سرعان ما يكشفون عن بطلان تلك الدعوى دون الاحتياج إلى أن ينتقلوا إلى جهة أخرى

ونحن - معاشر المؤمنين - نملك أمامهم نوعين من الأدلة :

• النوع الأول : أدلة هجومية ساحقة :

• والنوع الثاني : أدلة دفاعية سامقة .

والماديون لا قدرة لهم على أن يقفوا أمام أى من النوعين هم لا يملكون ولا يقدرّون أن يقفوا أمام الأدلة الهجومية المقوضة لدعواهم .

وهم لا يقدرّون أن يقفوا أمام الأدلة الدفاعية الفاصلة لعقيدتنا .

ما هي المادة :

المادة هي ماله وجود موضوعي خارج الذهن ، او هي ما يدرك بواحدة من الحواس ، وقد مر بنا هذا المعنى قبل ذلك مرات ولكتنا أعدناه لترتب عليه هذا السؤال .

ما هي أقسام المادة :

المادة قسمان كبيران أحدهما متنوع إلى ثلاثة أنواع . أما قسمها الكبيران فهما :

١ - المادة غير العضوية أو الجماد ، وضابط هذا القسم أنه : ما لا ينمو ولا يتكاثر (لا يتوالد) ولا يتحرك حركة إحرة أو ، ما ليس له إرادة ، وقد تعرف بأنها « الكائن غير الحي » .

٢ - المادة العضوية أو الكائن الحي ، وأنواعه الثلاثة هي :

(أ) ما ينمو ويتكاثر وليس له إرادة ولا إحساس ، وهو « الثبات » بكل أضافه .

(ب) ما ينمو ويتكاثر ويحس وليس له عقل ، وهو « الحيوان » ، من ماشية ودواب وزواحف وطيور وأسماك وهوام إلخ .

(ج) ما ينمو ويتكاثر وله عقل وإرادة حرة ، وهو « الإنسان » .

ترتيب هذه المواد ، ترتيباً تنازلياً :

حين يراد ترتيب صور المادة تنازلياً تأتي على هذا النسق :

- الإنسان .
- الحيوان .
- النبات .
- الجماد .

فأعلاها شأنًا ومنزلة الإنسان . وأحطها وأدناها الجماد . ولو فرضنا جدلا
أن بعض هذه الكائنات ، له في البعض الآخر تأثير بالخلق والإيجاد
والتكوين فإلى أى مرتبة من هذه المراتب الأربع يشجعه العقل ؟

هذا سؤال مهم جدا . والخلق والإيجاد والتكوين عملية شاقة في أعلى
درجات المشقة لأنها تشوقف على ثلاثة عناصر وهي :

• العلم ، وليس مطلق علم ، ولكنه علم من نوع خاص .

• الإرادة وليس مجرد إرادة ، ولكنها إرادة من نوع خاص .

• القدرة وليس أية قدرة ، ولكنها قدرة من نوع خاص .

وإذا تسامحنا واكتفينا باشتراط مطلق علم ، ومطلق إرادة ، ومجرد قدرة ،
فمئذ من نعتز على هذه العناصر من كائنات المادة ؟

إننا لن نعتز عليها إلا عند الإنسان ، وحده .

أما الحيوان فلا .

وأما النبات فلا .

وأما الجماد فلا . لا ، لا ، واحدة ولا إثنان .

معنى هذا التحليل :

أردنا من هذه التحليل أن تبين لك إلى أى مدى عرق الماديون من
عالمائهم وشيوخهم في الضلال والجهل ؛ لأنهم منحوا الطبيعة الجمادية ،
صفة الخالقية ، لما عداها من كائنات عضوية [النبات - الحيوان -
الإنسان] ؟

وما جعلوها خالقة إلا وقد جعلوها : عالمة علما من نوع خاص ،
ومريدة إرادة من نوع خاص ، وقادرة قدرة من نوع خاص ؟

والطبيعة الجهادية لا توصف بشيء مما وصفوها به لأنها ليست، حية . ١٩
بل هي « موات » ، لأنها لم تذق - قبلا - طعم الحياة (٤٥) وفقد الشيء لا يعطيه ،
والحيث لا يهب غيره الحياة ، ولا يهب نفسه الحياة ١٩ .

والماديون يقولون : إن المادة الجهادية هي الخالقة لنفسها ولغيرها مما هو
أعلى منها شأنًا من نبات ، وحيوان ، وإنسان ١٩ قالوا هذا مخالفوا كل
معروف ومألوف ، وأقوا بمنكر من القول وزورا .

• اهدروا كرامة العقل وقوضوا سلطانه ١٩ .

• وخانوا أمانة الثلم وسواوا سمعته ١٩ .

• واستهانوا بدلالات الواقع ووادوا شواهد .

• وصدق عليهم إبليس ظنه فهم في جهلهم وكفرهم يعمهون .

وصدق عليهم قول الحق علام الغيوب :

« ومن الناس من يجادل في آفة بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير »

ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله . له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب

الحريق . ذلك بما قدمت يداك . وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

هم الأخسرون من أول جولة :

هذه هي الجولة الأولى مع أئمة الكفر كانوا هم فيها الأخسرين و
الأخسرين أمام العقلاء وأمام العقل . والأخسرين أمام العلماء وأمام العلم ،

(٤٥) لذلك نلاحظ أن الفرق بين « ميت » و« موات » - أن الأول يطلق على من

سبقت له حياة . والثاني يطلق على ما لا عهد له بالحياة مطلقا . كالأرض ، والحجر ،
والرمل ، والنرى . فإن وصفت عيشا منها بميت فعل المجاز لا الحقيقة .

بل هم الاخسرون أمام أنفسهم . وقولهم هذا إن كان له دلالة فدلالته بكل وضوح :

أن الماديين من علمانيين وشيوعيين ليسوا بعقلاء ولا بعلماء وأن العقل والعلم منهم براء .

د أولئك كالأنعام بل هم أضل :

دعوى لا دلائل عليها :

تبين لك - أيها القارئ الكريم - أن قول الشيوعيين مردود عليهم ، ولا ينطلي إلا على من كان على شاكلة من الجهلاء ومذهوبي العقول ومع ارتداد قولهم عليهم ، ووآد دعواهم في مهدها فإنهم لا يمكن أن يكون دليلاً واحداً يؤازره العلم ، ويعاضده الواقع ، ويقبله العقل أو حتى يمنحه قليلاً من المهادة . ومع هذا فإن دعواهم موهلة في البطلان من أى جهة نظرت إليها . فقد ظهر لك بطلانها فيما تقدم سرات . أخرها كان حيث جعلوا فاقداً الشيء معطياً له . وهذه مقولة من أشد المقولات فساداً بلا أدنى نزاع ؛ لأن ، فاقداً الشيء ، لا يكون معطياً له بأية حال من الأحوال . وهلم بنا - الآن - نثبت معاً بطلانها من جهة أخرى .

مسبب بلا سبب ١٩ :

إن دعوى الشيوعيين أن المادة هي التي خلقت نفسها وخلقت غيرها من كائنات حية إنما هي تتمثل في النهاية في أن دعواهم محصورة في وقوع مسبب بلا سبب وهذا باطل ، لأن العقلاء أجمعوا على أن كل موجود - ماعدا الله والمعجزات - لابد له من سبب أو علة قد تقدم عليه .

والمادة عاجزة كل العجز عن أن تصلح سبباً في إيجاد نفسها وإيجاد ما عداها . وعجز المادة نفسها يرى إلى الشيوعيين أنفسهم حيث عجزوا كل

العجز من إقناع خصومهم حين سألهم : وكيف خلقت المادة نفسها ؟ فيسلم
يزيدوا في الجواب على : خلقت نفسها لأنها هي الخالقة .. ١٩ وبعضهم جاهر بأن
هذا السؤال لا يجوز وروده . وذلك هي المشكلة الصعبة التي لم يستطع الماديون
- ولن يستطيعوا - أن يجتازوها ؛ لأنهم يرون أن في اجتيازها إقرارا بالإيمان
بأفق الخالق العظيم .

حصار قاتل :

هذا وقد عرفنا من قبل أن الشيوعيين ينسبون الخلق والإيجاد إلى أحط
أنواع المادة (الجماد) ولم يسندوه إلى أعلاها (الإنسان) وفعل الإنسان
أرقى وأكمل من فعل المادة - غير الإرادية - (٤٦) .
وهم مضطرون في ذلك اضطرارا ، ومقهورون قهرا ، وذلك لأسباب
بارزين :

أولها : أن العلم يجمع على أن الكون المادي موجود قبل خلق الإنسان .
وثانيهما : أنهم لو ادعوا أن الإنسان هو خالق المادة لحوصروا من
جهتين قاتلتين :

(أ) أن يقال لهم : وأين كان الإنسان قبل أن يقع منه خلق الكون ؟
(ب) وأن يقال لهم : أقيموا الدليل على صحة هذا بأن يخلق إنسان
الآن - من الشيوعيين - كائنا حيا ليثبت أن الإنسان - فعلا - قادر
على الخلق ١٩

وفي كتابنا الحاليين فلا حيلة أمام الشيوعيين إلا إظهار العجز واليأس
بالخسران المبين .

(٤٦) ليس المادة (الجماد) فعل إرادي على الإطلاق لذلك قلنا - غير الإرادي -
وهو وصف للفعل لا تمييز بين أنواع فعل لها .

ستالين وفشل التجربة :

واكاد اعتقد أن الشيوعيين بعد أن ثبت عجزهم في نسبة الخلق إلى المادة « الجمادية » كانوا على استعداد بتعديل مذهبهم بنقل « الخلق » من المادة الجمادية ، وهي أحط أنواع المادة كما علمت ، إلى « الإنسان » وهو أرقى أنواع المادة ؛ ولسكن الواقع المؤلم لم يساعدهم على الإفصاح بهذا التعديل والسبب في هذا تجربة فاشلة كل الفشل كانت قد وقعت في عهد ستالين خلاصتها :

محاولة للخلق عن طريق الإنسان :

فقد عهد ستالين إلى « أوبارين » رئيس الأكاديمية العلمية السوفيتية أن يثبت علميا أن الحياة نشأت « تلقائيا » من المادة دون الاحتياج إلى فرض قوة أخرى (الله) وراء عمليات الخلق .

وأصدق ستالين على « أوبارين » وزملائه من أعضاء الأكاديمية بما لاذ وطالب من المتع ظنا منه أن ذلك سيوصلهم إلى نجاح التجربة . وظل « أوبارين » وزملاؤه في العمل يواصلون العمل ليلا ونهارا طوال عشرين سنة في محاولات مستمرة بلا جدوى . وفي عام ١٩٥٥ خرج أول تقرير علني قال فيه أوبارين :

« إن النجاح الذي حققته علوم البيولوجيا (الأحياء) السوفيتية حديثا يؤيد الوعد بأن مسألة خلق كائنات حية بطرق صناعية ليس بممكننا لحسب ، بل سيتحقق عما قريب ، ١١٤

وظل العالم ينتظر تحقيق الوعد ، ومات ستالين ولم يتحقق شيء . وفي عام ١٩٥٩ أعلن أوبارين في مؤتمر دولي للبحار عقد بنمويورك هذا القرار الخطير :

« إن جميع المحاولات التي أجريت لتوليد الحياة من مواد غير عضوية

(أى غير قابلة للتولد) سواء تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل قد بادت بالفشل ، الله أكبر ، الله أكبر .

هذا القرار الخطير كان جديرا بأن يفتح أمام أعلاج موسكو باب الإيمان بالله . ولكن الشيطان سارع وأمل على أوبارين هذا الإستدراك ، وإن فى الإمكان توليد الحياة بشرط أن تكون المحاولة على كوكب غير الأرض . وذلك نظراً لأن ظروف الأرض الحالية لم تعد مهيئة لذلك ، ؟ (٤٧) .

فانظر كيف زين الشيطان لأوبارين طريق الهروب من الإيمان ؟ وماذا كان على الرجل لو استسلم لتلك الحقيقة الجبارة بدلا من التماهى فى الضلال والإرتواء فى أحضان الشيطان ؟

نعم : إن الشيطان هو الذى أمل على هذا العلاج اللاحق ما أملى لتحييط به خطيئة فيكون من أصحاب النار .

وما أحلى أن نتلو - هنا - قول الجليل :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ، ويهديه إلى عذاب السعير » .

وقوله تبارك وتعالى :

« وإتلى عليهم نبال الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكننا أخذنا إلى الأرض واتبع هواه ، فثله كمثل السكب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

متابعة حق النهاية :

إن الهدف من وراء ذلك التكليف الذى عهد به ستالين إلى رئيس الأكاديمية وزملائه أن تصل التجربة إلى « نتيجة » تساعد عقيدة الدولة فى الكفر والإلحاد . وهلك ستالين وخيبة الرجاء كانت لحته وسداه ولعنة الكفر كانت كفنه ومشواه .

أما رئيس الأكاديمية فقد استطاع أن يزحزح قليلا من وصمة الخزي والعار عن وجهه أمام المؤتمرين فى نيويورك إذ ذاك . وظن أنه نجح وما نجح .

والآن ، وقد عرفت روسيا غزو الفضاء ، ووصلت إلى الكواكب غير كوكب الأرض . فلماذا - وقد تهيات لها الظروف التى كان قد تمنىها أوبارين - لم تعد لإجراء التجربة من جديد ، ليمتحن لها توليد الحياة عن طريق علمائها ونهرهن للدومنين بالله أنهم على خطأ جسيم ؟

إن روسيا - الآن - خطت خطوات جبارة فى العلم المادى بعد ما يقارب ثلاثين سنة من تجربة أوبارين فما الذى جعلها تصمت صمت الأموات عما كانت تحاوله من قبل ؟

إنه انتصار الإيمان على الكفر ، والحق على الباطل . إن أمامهم صخرة عاتية تحطم قرون الوعول والبغال وإن غلظت ، إنها سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا .

وما أحلى وأجمل أن تردد معاً قول القوى الجبار ذى الجلال والإكرام .

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله

لن يخلقوا ذبابا - ولو اجتمعوا له - وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه .

ضعف الطالب والمطلوب .

تلك هي حقيقة الإيمان التي يجب أن يؤمن الناس بها في الدنيا . ومن لم يؤمن بها - هنا - آمن بها في النار ، وساءت النار مستقراً ومقاماً .

تأديب . ونعم التأديب :

كان الفشل الذريع الذي منيت به أكاديمية الكفر والإلحاد في محاولة توليد الحياة بعيداً عن الله ، كان ذلك الفشل تأديباً حكيماً ومؤملاً لأئمة الكفر والضلال من العلماء والشيوخ . فقد كانوا يتطاولون من قبل بأنهم قادرون على الخلق والتكوين وتوليد الحياة في المواد الميتة . . حتى لقد قال بعض العلماء من قبل :

« أعطني وقتاً ومواد أخلق لك إنساناً » (٤٨) .

وما أكثر المواد التي تجمعت بين « أصابع » أوبارين وزملائه . . .
وما أطول الوقت الذي قضاه أوبارين وزملاؤه في محاولة توليد الحياة التي بامت بالفشل قاهر . وبعده توقف ذلك التطاول وحزت تلك « الألسنة » وخفت صوت الباطل « إلى الأبد » ، أجل فقد كان ذلك الفشل تأديباً لهم ونعم التأديب . ولو كان أولئك المتطاولون صادقين لكان أولي بهم أن يحتفظوا بالحياة لأنفسهم بدل أن يمنحوها لغيرهم . ولكن أمر الله الذي خلقهم نفذ فيهم جميعاً ولم يستطع أحد دفعه . ثم تعال وردد معي قول الفحال لما يريد فهذا أوانه :

« كل نفس ذائقة الموت » . . .

« قل : فادرأوا عن أنفسكم الموت أن كنتم صادقين » .

إن « الله » هو مفتاح النور والهداية في هذه الحياة . ومن عاش وليس

في قلبه ، هذا المفتاح عاش وأبواب النور أمامه مغلقة . وخرج من الحياة
وأبواب الجحيم أمامه مفتحة ، « تلك عقبي الذين أنقوا . وعقبى الكافرين
الفار » .

عودة للإيمان بالأسباب :

من المواقف التي حمل الإفلاس المذهبي والعلمي الشيوعيين عليها هذا
الموقف الذي تم كشفه - الآن - عما فيه من خزي وإفلاس وتردد . ذلك أن
الدارس لأصول الشيوعية يجد الشيوعيين يتذبذبون بين الشيء ونقيضه
ويتبعون « الشبهات » ظانين أن الناس لا عقول لهم ، وفي الواقع أنهم ليس
لهم عقول .

فقد رأينا منذ قليل أنهم أهدروا قيمة قانون « السببية » حين ادعوا أن
المادة قد خلقت نفسها ثم خلقت غيرها من الكائنات . وذهبوا إلى أن المادة
مكتفية بنفسها دون احتياجها إلى سبب أو علة أولى تفسر إيجادها فهي إذن
« مسبب لا سبب له » ، ١٩

وقد وقف الشيوعيون عند القول بأن المادة مكتفية بنفسها غير محتاجة
إلى سبب خارج عنها قرارا من « الإيمان » بالله ؛ لأن الخطوة الأولى بعد هذا
لا بد أن تقضي إلى « الإيمان » وهو أعدى أعداء الشيوعيين فها هم قد كفروا
بالسبب ، وزعموا أن « المادة مسبب لا سبب له » ، أو هي السبب والمسبب في
آن واحد .

ولكنهم عادوا للإيمان بالسبب أو الأسباب بعد ذلك في تفسير ظواهر
جزئية داخل إطار المادة نفسها . وكان مقتضى مذهبهم أن لا يقيموا
للأسباب وزنا في مجال آخر قط . فكان كفرهم بالأسباب في المسألة « الأم » ،
وجود المادة . وإيمانهم بالأسباب في الظواهر الجزئية دليلا على إفلاسهم
المذهبي والعلمي في آن واحد .

المجال الذي أعملوا فيه الأسباب :

لأنهم كفروا بالأسباب في خلق المادة وتكوينها ؛ لأن الإيمان بالأسباب في هذا المجال ينصر قضية الإيمان ١٩ .

وآمنوا بالأسباب في مجالات أخرى ، لأن الإيمان بالأسباب في هذه المجالات يهدم - في نظرهم - قضية الإيمان ١٩

فعداؤهم الإيمان بالله كان وراء كفرهم فيما كفروا به ، ووراء إيمانهم فيهما آمنوا به . وذلك ديدنهم أبداً .

والمجالات التي آمنوا فيها بالسببية هي الظواهر الكونية ، أو ما يجري في الكون من عمليات ، ثانوية كتحويل الماء إلى « جليد » مرة . وتحويله إلى « بخار » مرة أخرى .

وكجىء الولد جامعاً بين ملامح لونية وغير لونية خاصة به ، وملامح موروثة عن أبيه أو أمه أوهما معاً .

مثال الولد :

يفسر الشيوعيون مجىء الولد جامعاً بين ملامحه الخاصة والتقليدية بأن هذه الظاهرة ترجع إلى صراع دار بين قانونين من قوانين المادة وهما :

• قانون الوراثة .

• قانون التنوير .

فقانون الوراثة يقتضى « النمطية » أى أن الولد يكون شبيهاً بأبيه تماماً أو بأمه .

وقانون التنوير يقتضى أن يكون الولد مخالفاً تماماً في ملامحه الظاهرة وغير الظاهرة لكل من أبويه .

ولكنه - في الواقع الأغلب - يأتى وسطاً بين بين . فلا هو مشابه لهما تماماً ، ولا يخالف لهما تماماً .

والسبب - عندهم - أن الصراع الذي دار بين القانونين لم يكتب فيه الفلاح لأحد القانونين على الآخر . لحقق قانون الوراثة بعض الانتصار ، وحقق قانون التغير بعض الانتصار فجاء الولد جامعاً بين الملاح والخصائص الموروثة ، وبين الملاح والخصائص الناتجة عن قانون التغير . وهذا عند الشيوخ هو السبب الأول والأخير في تفسير هذه الظاهرة ، ولا يطلبون لها تفسيراً آخر أبعد من هذا التفسير خشية أن تنزلق أقدامهم في طريق الإيمان بالخالق العظيم ١٩٠٠

ومثال الماء :

وظاهرتا تحول الماء إلى جليد أو بخار ، وظاهرة بقاءه على حالة السيولة يفسره عندهم أن هناك قانونين يتصارعان ؛ قانون الإنسجام وقانون التفرقة :

فحين تتعادل درجة الصراع بين القانونين يبقى الماء في حالة السيولة . إذ لا غالب ولا مغلوب حينئذ .

وحين ينتصر قانون الإنسجام على قانون التفرق يصبح الماء جليداً .

وإذا انتصر قانون التفرقة على قانون الإنسجام صار الماء بخاراً وبهذا ترى الشيوخ قد سروا سروراً عظيماً ؛ لأنهم استطاعوا أن يفسروا كل التطورات في عالم المادة تفسيراً لا يفترض - عندهم - معه وجود إله خالق متصرف في السكون ومن فيه وما فيه . وقد استسمنوا ورم هذا التفسير وذهبوا إلى أن قوانين المادة أو الطبيعة كافية جداً لتفسير أسرار الطبيعة . وأن الإيمان بوجود قوة أخرى فوق الطبيعة ، الله ، لاتدعو إليه ضرورة قط ١١٩ .

يقول هيكل صاحب نظرية الأثير :

« الطبيعة تحتوى في ذاتها على كل القوى المطلوبة لإحداث جميع صور الوجود فيها ، والأنواع ينشأ بعضها من بعض بالتحول طبقا لقوانين وتبعها الترتيب في الإمكان كان منذ الآن تحديده . ١٤ فلاشئ في الطبيعة لا يفسر بالطبيعة ١٤ ولاشئ تقدم على الطبيعة ولاشئ يسمر عليها . فالطبيعة عند من يعرف قوانينها ، وبخاصة الانتخاب الطبيعي والتطور هي في ذاتها التي خلقت نفسها ، ١٤ (٤٩) .

هكذا توهم الماديون الملحدون أن الطبيعة قد خلقت نفسها . وهذا تعبير قواطع عليه كل من داروين وهيكل في محاولات يائسة لاغتصاب عمليات الخلق والتكوين من القدرة الإلهية . وهو - أي هذا التعبير - يرادف تعبيراً آخر كانوا يطلقونه في وجه المؤمنين بالخلق الإلهي وهو « التولد الذاتي » وقد باء كلا التعبيرين بالفشل أمام نقود علمية كشفت عن زيف الملحدين فاضطروا إلى أن يعدلوا عن خلق الطبيعة نفسها ، وعن نظرية التولد الذاتي إلى القول بأن المادة خلقت مصادفة ، وهي محاولات - كما ترى - تفر من الإيمان بالله .

ونظرية الصدفة قد أبطلها العلماء تماماً لأن صدقها مساو لضعف القول بالتولد الذاتي أو أن الطبيعة هي الخاتمة . فهذه المزاعم كلها لا تستند لها قط لأن العلم ١٤ .

ولأن العقل ١٤ .

ولأن الواقع ١٤ .

أما فقدان سندها من العقل والواقع حقيقة لا تحتاج إلى دليل . وأما فقدان سندها من العلم فإننا إذا نجحنا الإحتكام إلى نقود المؤمنين فإن في اعتراف الملحدين أنفسهم بهذه الحقيقة ما يثلج صدورنا نحن المؤمنين أكثر مما يثلجها أقوال المؤمنين ؛ لأنهم قد يرمون بالتعصب .

(٤٩) انظر العلمانية (٣٣٨) سفر عبد الرحمن الحوالى - مكة المكرمة .

ومن شواهدنا على ما نقول أن نحيل القارىء إلى التجارب الفاشلة التي وقعت في الأكاديمية العلمية السوفيتية في عهد ستالين . وفي فترة رئاسة أوبارين للأكاديمية . وقد مرت منذ قليل .

ومن شواهدنا الجديدة موقف « جورج والد » وقد كان من القائلين بنظرية « التوالد الذاتي » أو المصادفة كبديل للتـوالد الذاتي ولخلق الطبيعة نفسها . .

فقد حاول هذا الرجل (جورج والد) مرات أن يثبت صحة الخلق بعيداً عن قدرة الله ، وكان يموء بالفشل في كل مرة . ثم اعترف - أخيراً - بفشله بالمتكرر ، وانتهى إلى نفس النهاية التي كان قد انتهى إليها أوبارين من قبل في مؤتمر البحار الدولي عام ١٩٥٩ م .

فقال : « إذا عجزنا عن تحقيق ما نتمناه فليس معناه أننا فقدنا كل شيء . فسلالتنا البشرية سوف نحاول مرة أخرى في غير هذا المسكان » (٥٠) .

فانظر - هداك الله - كيف اعترف هذا الرجل بعجزه . ولكنه - بإيحاء من الشيطان - حاول أن يزيح عن وجهه - مثل أوبارين - قليلاً من سحج الخزي والمهانة ، وقال : « إن البشر سيحاولون في غير هذا المسكان أن يبيدوا التجربة من جديد ١٩ »

إن هذا « الوغد » من حقه أن يعترف بفشله . ولكنه ليس من حقه أن يتنبا عن عمل سيقوم به البشر من جديد . ولو كان هذا التنبؤ صادقاً لقام البشر فعلاً بما توهم هذا « الجورج » وليس كل البشر مثل أوبارين أو جورج مخدوعين وجملة .

الأسباب بأثر رجعى :

لم يكتف الماديون المحدون بالوقوف بالأسباب عند الظواهر الجزئية التى تفسرها مثل التشابه بين الأولاد وآبائهم ، والأحوال الطارئة التى تعرض للماء كما تقدم بل أرادوا أن يعودوا بالأسباب بأثر رجعى فيفسروا بها تصورهم الواهم حول خلق المادة نفسها . وذلك ظاهر كل الظهور فى النص الذى نقلناه عن هيكى صاحب نظرية الأثير العلمانى المادى .

ونقطة الضعف الظاهرة كما ترى أنهم - أى الماديين - رفضوا أولاً أن يكون وراء المادة سبب فى خلقها حيث كان تسليمهم بالسبب هناك مفضياً إلى الإيمان . ثم عادوا فأرادوا أن يستدلوا بالأسباب اللاحقة لخلق المادة الخاصة بتفسير بعض الظواهر الجزئية - على صدق دعواهم أن المادة هى ، الخالقة لنفسها ، ١٩

وهذا ساقط - علمياً - لأن الأسباب اللاحقة لا تفسر ولا تكون علّة فى الأشياء السابقة عليها ؛ لأن السبب مقدم - عقلاً - على المسبب . فلا يكون سبب الشئ متأخراً عنه ، ولا المسبب عن الشئ متقدماً عليه . وهذا يعضد العقل العلم فى سقوط استدلال الماديين بالأسباب اللاحقة على المسببات المتقدمة . فهو إذن ساقط عقلاً كما سقط علمياً .

فالنار - مثلاً - سبب فى الإحراق . فلا يكون الإحراق سبباً فى إيجاد النار والجار سبب فى النهيق فلا يكون النهيق سبباً فى إيجاد الجار ١٩

والشيطان سبب من أسباب الضلال فلا يكون الضلال سبباً فى إيجاد الشيطان .

والشيوعية سبب فى ، الإلحاد ، فلا يكون الإلحاد سبباً فى إيجاد الشيوعية

فكيف يكون الصراع - مثلاً - بين قانون الوراثة والتغير - إذا سلمنا به جدلاً - سببا في إيجاد المادة الجملدية ١٩ .

وكيف يكون الصراع بين قانوني الإنسجام والتفرق - إذ سلمنا به كذلك جدلاً - سببا في إيجاد المادة ١١٠٠ ؟

محاصرة في كل طريق :

وقوانين الطبيعة أو المادة الجملدية وغير الجملدية التي سردها الماديون وعزوا إليها تفسير أسرار السكون كله حصروها في أربعة قوانين رئيسية وفروعها قوانين فرعية لا حصر لها . والقوانين الأربعة الرئيسية هي :

الترابط - الحركة - التناقض - التطور :

وقد خضعت هذه القوانين لخمالات نقد ونقض لا حصر لها ، وحامت حولها سحب من التشكيك حملت الشيوعيين أنفسهم على التراجع حيناً ، وعلى التعديل حيناً آخر ، وانبرى علماء متخصصون لمناقشة هذه القوانين من كيمائيين وطبيعيين ، ورياضيين . ولا سبيل هنا لمناقشة كل ما قيل في هذه القوانين . لذلك نوجز الحديث عن أثر النقود والدراسات التي قامت حولها وهي تنلخص في الآتي :

١ - أسفرت الدراسات والنقود عن التسليم بصحة ثلاثة من هذه القوانين وعن بطلان واحد منها هو الأساس الذي قامت عليه فلسفة ماركس والماديين والعلمانيين جميعاً . وهو قانون التناقض ، ومن الطريف أن تكون الفلسفة المادية قائمة على هذا القانون ، الذي يمكن تفسيره عندهم بأن الشيء يحتوي على عناصر بقائه وعلى عناصر فناؤه من آن واحد وأن هذه

العناصر في صراع دائم لا يتوقف ، ..

وقد أثبت العلم خطأ هذه المقولة وأن الصحيح أن ظواهر الوجود قائمة على التوازن والتعادل فأتج عن حركة حول محور ثابت . فالتوازن هو الأصل ويحدث الصراع عند الإخلال بهذا التوازن .

ومن الخير أن نسوق مثالا على تطبيق قانون التناقض عندهم ، وهو مأخوذ من قول انجلز : إن كل كائن عضوى هو فى كل برهة ذاته لغير ذاته ١٩ فهو يتمثل فى كل برهة المادة التى يتزود بها من الخارج - يعنى كالطعام والشراب وما يدخله إلى الرئتين عن طريق الشهيق - ويتخلص من مواد أخرى - يعنى مثل الفضلات التى يطردها عن أحد السبيلين ، والعرق الذى يفرزه جسمه ، وما يخرججه عن طريق عملية الزفير - كما أن بعض خلايا بدنه تموت فى كل برهة ، وخلايا أخرى تتكون من جديد ، وإن مادة بدنه لتتجدد كلياً خلال فترة زمنية تطول أو تقصر ، وتحل محلها ذرات أخرى من المادة بحيث أن كل كائن عضوى يظل هو نفسه بصورة دائمة . ومع ذلك فهو كائن آخر ، (٥١) .

وإذا دققت النظر فى قول انجلز لا نجد تناقضاً أبداً فيما قال . فأخذ الإنسان العناصر الصالحة لحياته من طعام وشراب وغيرهما ، وطرد العناصر الضارة من فضلات وعرق وغيرهما ، واستنشاق الأوكسوجين وطرد ثانى أكسيد الكربون . وإماتة خلايا وتوليد خلايا أخرى إنما هى عمليات تجرى فى غاية النظام والإنسجام لإحداث التوازن فى الكائن العضوى ومنه الإنسان . والتناقض عما ذكر بمنأى . ولكنه الجهل والعناد وعمى البصيرة .

إن التناقض فيما ذكر إنجلز كان يمكن أن يكون لو كان الإنسان يأخذ عناصر بقائه ثم يلغظها هى بعينها ، ولو كانت الخلايا التى تموت هى هى

(٥١) انظر موقف الإسلام من نظرية ماركس (٣٣٩) والمعارات الموضوعية بين شرطين هكذا (- ٥٥٥ -) زيادة من عندنا للإيضاح ولشرح .

التي تحيا ، والأوكسوجين الذي يأخذه في عملية الشيق هو الذي يخرج
في عملية الزفير . ولا كـ شيئا من ذلك لم يحدث ، فالإنسان يتمثل العناصر
الصالحة ثم يتخلص من العناصر الفاسدة ، فأين التناقض إذن ؟ إن القوم
- الشيوعيين - قد لفهم الجهل من كل جهة . جهل بالألفاظ ، و جهل بالمعاني ،
وخلط بين هذا وذاك . وصدق الشاعر الذي قال :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ

وصدق ما يعتاده من توهم

والشيوعيون لما ساءت أفعالهم ساءت ظنونهم وسرايرهم وصدقوا ما يترادى
لهم من أوهام .

والخلاصة :

إن مذهب الشيوعيين قد بنوه على أسس منها النقيض أو التناقض ، ولما
أثبت العلم والواقع فساد هذا المبدأ أو على الأقل عدم جدواه لبناء صرح
الشيوعية - بالوني - عليه تشقق ذلك الصرح وتبدد ما فيه من محتويات هي
في الواقع شبيهة بالهواء الفاسد المخزن في جوف « بالونة » لها حجم الفيلة
ويوزن « الخفاش » والبالونة مهما اتفخت فإنه يكفي لإفسادها أن تشقها يد بوس
صغير فإذا هي ضامرة كأن لم تكن شيئا من قبل .

٢ - والدراسات العلمية والنقود الموضوعية التي دارت حول قوانين
المادة وأوضاعها عند الشيوعيين أقرت صحة قوانين الترابط والحر كوالتطور .
وهذه القوانين لم يكن فيها الشيوعيون . بل هي حقائق معلومة عند الخاصة من
العلماء بدقائقها وأسرارها ، وعند عامة الناس بآثارها .

والكن الذي أنبته الدراسات أن هذه القوانين لم تخدم قضية الكفر
والإلحاد التي تبناها الشيوعيون والعلمانيون والماديون . وإنما هي براهين

حق ، ودلائل صدق صحة عقيدة الإيمان بالله الخالق العظيم وهذا ما دعت إليه الفطر السليمة ، وقواه العلم الصحيح ، وسائده الواقع المشاهد ، وأيده العقل المتزن المستنير .

ونثبت - هنا - أمام القارىء فصوصا سجلها العلماء من غير المسلمين من اهتدوا إلى الحقيقة التى لا متناهى عنها . فإذا بالإيمان يفيض من خلال ما كتبوه وسجلوه بأمانة وصدق .

يقول كليفلاند كوتران معلقا على دقة النظام السكونى وما فيه من عجائب مذهبة وحكم بالغة ، وأسرار فاطقة :

« وعلى ذلك فإن السكون المادى الذى يسوده النظام وليس الفوضى ، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبط . فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد وجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ، أو أنها هى التى وجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرصته على نفسها ؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيا بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة ، أو تتحول الطاقة إلى مادة فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة المعروفة التى وجدت قبلها . فإذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها . فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدره كائن غير مادى . (٥٢) »

هذا ما انتهى إليه هذا المفكر ، حين سار مع الفكر فى مساره الصحيح فالخالق هو كائن غير مادى ، لا محالة ، ومن هو ذلك الكائن غير المادى يا ترى ؟

إنه دالله، وليس شيئاً آخر غير الله . ولكن الذين كفروا بربهم يعدلون .
وصدق شاعرنا الذى يقول :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وفى نفس المعنى ، وبه نفس القوة والوضوح يقول إدوارد لوتر :

« والواقع أن الكون لا يزال فى عملية انتشار ، تبدأ من مركز نشأته
واليوم لابد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة الخلق أيضا وهى
فكرة تستشرف على سبيل الطبيعة . لأن هـذه السنن إنما هى ثمرة الخلق .
ولابد لهم أن يسلّموا بفكرة الخالق الذى وضع قوانين هذا الكون ، لأن
هذه القوانين ذاتها مخلوقة . وليس من المعقول أن يكون هناك خلق دون
خالق هو الله ، .

فإدوارد لوتر ينتهى بنتائج العلوم الحديثة إلى ما هو ثمرة شرعية لها . وهى
النهاية التى تقف على عتبة الإيمان . فالعلم - رضى الشيوعيون أم كرهوا -
وسيلة من وسائل الإيمان . ودعامة من أقوى دعائمه . ولا عبرة عند العلماء
بالإنتكاسة الشنيعة التى تورط فيها العلمانيون ثم ورثها عنهم الشيوعيون أئمة
الكفر والإلحاد .

٣ - وانتهت الدراسات والنقود التى قامت حول مادة ماركس
وأشياعه إلى :

١ - إن المادة لا تصلح سببا فى خلق نفسها ولا فى خلق غيرها بل لابد من
سبب قد تقدم عليها هو « سبب الأسباب » الله ، .

٢ - إن قوانين المادة التى تسكن وراء الظواهر الجزئية بعد عملية الخلق
الكونى كقانون الجاذبية وقوانين الأنسجام والتفرق ، والوراثة والتغير
لا تصلح دليلا على خلق المادة نفسها ، فهذه القوانين هى نفسها مقترنة إلى

سبب في إيجادها يفسرها لأنها مخلوقة ، ولا يحتاج هو إلى تفسير لأنه سبب الأسباب ، وهو « الله » سبحانه وتعالى .

٣ - إن العلوم وتناقضها تدعو إلى الإيمان « بالله » ، ولا يمكن أبدا أن تكون ضد الإيمان ، ولا سنداً لبدعة « الإلحاد » ، التي تنادى بها العلمانية الجاهلة والشيوعية العمياء !

٤ - وأسفرت الدراسات أن المادة قائمة على التوازن والتعادل وليس على التناقض كما ذهب الشيوعيون ، كما أثبتت الدراسات جمل الماديين بالتناقض علما وعبرة .

٥ - وأثبتت الدراسات أن المادة ليست أزلية لأن لها بداية ، وليست أبدية لأنها تنفى وتضيق إشعاعاً فلها نهاية كما كانت لها بداية .

٦ - وأثبتت الدراسات أن الفسكرة هي السابقة على المادة وليست المادة هي السابقة وإن وهم واهمون ، وضل في فهمها ضالون .

٧ - وأثبتت الدراسات العلمية والنظر العقلي أن المادة غير صالحة لأن تكون هي العلة الأولى في الوجود لأنها مفتقرة إلى موجد أعلى غنى بنفسه عن سواه ، وهو « الله » ، وهي مقهورة لا قاهرة ، ومفتورة لا فاطرة ، وموضوع للتصرف لا متصرف .

٨ - وأثبتت البحوث والدراسات أن المادة ليست هي « الموجود » الوحيد ، ولا هي - وحدها مصدر المعرفة . فمع وجود المادة توجد معارف عقلية لا صلة للحواس بها كالإعتقاد بأن الشمس أكبر من الأرض مع أن قصارى ماتعطيه الحواس أن الشمس أصغر من الأرض وترجع حقائق إيمانية منها ما يدرك العقل « ماهياتها » ، ومنها ما لا يدركها ولا يسمعه إلا التسليم بوجودها لإقامة الدليل تلو الدليل عليها .

لقد نشط العلماء في كل مجال ، وتقصروا مقولات الماديين وخصوها بواسطة

وسائل المعرفة الإنسانية وخطأوا الماديين إما في بعض الأسس والنظريات وإما في النتائج التي رتبها الماديون على بعض الأسس التي لا نزاع في صحتها وإنما في ما أرادها منها الماديون وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن التعصب والمغالاة والتحكم والسطو وقلب الحقائق هي سمات الفلسفة المادية ، التي تناسب لإيها شيوعية ماركس ومن دار في فلكه من حق الفكر وسقيمي العقول .

الوضع الاستدلالي لعقيدة الإيمان :

ما مضى كان من أدلة الهجوم المقوضه لشبهات الكفر والإلحاد الذي انتهت إليه الأيديولوجيات المادية ومن أبرزها الشيوعية ، إن كل قوانين الفكر السليم ومصادر المعرفة وحقائق العلوم في كل مجال ، قد أجمعت على فساد التصور الشيوعي لا في مجال العقيدة الإلهية وحدها بل في كل التصورات الشيوعية الواهمة . فلم يملكوا وسيلة واحدة من وسائل الإقناع . وصاروا أضحوكة يتندر بها العلماء والعقلاء .

وجاء الآن دور الدفاع عن العقيدة الإلهية ، أو الوضع الاستدلالي على أن هذا الكون مخلوق لله وليس له خالق سواه . وليست دعوى الماديين من العلمانيين والشيوعيين بأن « المادة هي الخالقة » مكافئة لعقيدة المؤمنين « أن الله هو الخالق » .

فقد تباينت الدعويان من حيث « تحرير المناط » ومن حيث الوضع الاستدلالي لكل منهما .

وقد مر بنا الحديث عن دعوى الشيوعيين ، ووقفنا فيه على أن المادة أو الطبيعة هي :

موضوع الدعوى عندهم .

ومن حيث الوضع الإستدلالي فإن الشيوعيين لم يملكوا دليلاً واحداً على صدق دعواهم . إلى جانب أن العلم والعقل والواقع والفطرة ، كل أولئك أثبتت فساد التصور الشيوعي في جملته وتفصيله . وفقدت كل التصورات المادية ما يساينها في مجال الحجاج والجدل .

وحاصرتها سهام الحق من علماء ينتمون إلى كل جنس وصقع ، وما تزال جهود العلماء تصنيف جديداً في هذا المجال ، وإن تتوقف .

موضوع الدعوى في عقيدة المؤمنين :

موضوع الدعوى في عقيدة المؤمنين هو « الله » وكان موضوع الدعوى في تصور الشيوعيين هو « المادة » أو « الطبيعة » والمقابلة بين موضوعي الدعوى - هنا - تسفر عن ضعف جانب وعن قوة جانب ، فالقوة في جانب عقيدة المؤمن ، والضعف في جانب عقيدة أو تصور المادى الملحد . وذلك من جهتين :

أولاهما : أن موضوع الدعوى عند المؤمن وهو « الله » قد نسب إلى نفسه خلق الكائنات جميعاً .

أما موضوع الدعوى عند الشيوعيين ، وهو « المادة » فلم تدعى هذا قط ، ولا تصلح لهذه الدعوى ، وإنما الذي ادعاها لها هم الشيوعيون .

ثانياً : أن الله أقام أنصح البراهين ، وأقوى الأدلة على صحة « الدعوى » وصدقها .

والمادة - موضوع الدعوى عند الشيوعيين - فضلاً عن أنها لم تدعى قط - فإنها ليس لها أدلة على دعوى هي لم تدعيها . ولم يستطع من ادعاها لها ، وهم الشيوعيون ، أن يقيموا دليلاً واحداً أو شبه دليل على صدق دعواهم كما رأينا فيما تقدم .

ونقرب لك المعنى بمثل :

هـب أنك قاض وعرضت عليك الخصومة الآنفة :

رجل فى يده حقبة ، وهو طبيب .

ورجل آخر يمسك بيد رجل فلاح يفلح الأرض .

الرجل الأول يقول إن الحقبة التى فى يده هى ملكه وليست لأحد غيره .
والرجل الثانى يقول إن الحقبة التى فى يد الطبيب هى ملك للفلاح
وليست للطبيب . والفلاح واقف لا يتكلم ولم يدع أن الحقبة له . ولكن
الرجل يصروىجزم أن الحقبة التى بيد الطبيب هى ملك للفلاح بما فيها . وأنه
أى الرجل المدعى يستطيع أن يقيم الدليل على صحة دعواه .
هذه هى خيوط الدعوى قد نسجت أمامك على هذه الصورة التى صورتها
لك . فإذا أنت فاعل ؟ .

لا بد أنك ستطلب من الخصوم أن يقدم كل منهم بينته .

هـ وهب أنك بدأت بالرجل الذى ادعى أن الحقبة ملك للفلاح .

فقال : إن الحقبة فيها كذا ، وكذا ، أخذ يهدد أسماء لآلات زراعية .

هـ ثم ثنيت بالطبيب فقال : إن الحقبة فيها كذا وكذا ، وكذا من آلات

الطب الذى هو مهنته .

ثم أخرج (فانورة) شراء الحقبة ، و (فواتير) شراء الآلات الطبية
التي بها ، وهى - جميعا - محررة باسمه الذى أثبت تسميته به ببطاقة تحقيق
الشخصية .

ثم فتحت الحقبة وتبين لك كذب (المدعى) غير الطبيب ، ووجدت
ما فى الحقبة مطابقا تماما لما ذكره الطبيب .

هنا أصبحت القضية جاهزة للحكم ، فلمن تحكم ياترى ؟ وما هى حيثيات

(الحكم) العادل ؟ وفى جانب من تحققت ؟

إنها تحققت في جانب من قويت بيئته . وساندها قرائن الأحوال والبيئة القوية كانت في جانب الطبيب .

وساندها قرائن الأحوال - وهي الحيازة ومناسبة ما في الحقيقة لمهنة الطب - وليس الزراعة - كانت في جانب الطبيب فالحكم العادل الذي يتعين عليك إصداره أن الحقيقة ملك الطبيب وليست ملك الفلاح . أما الذي ادعى أنها للفلاح فخاله لا يخرج عن واحد من احتمالين :

فإما أن يكون مجنوناً ، وليس على المجنون حرج .
ولما أن يكون كذوباً مزوراً ، فيجب أن يعامله الناس على هذا الأساس .
وهذا التمثيل ينطبق على ما نحن فيه كل الانطباق :

فالطبيب الصادق = حقيقة الايمان ؛ لأن الله نسب الخلق والإيجاد لنفسه ،
وصدق كل الصدق في وصف البيئة ، وساندها قرائن الأحوال من إقرارات العقول وحقائق العلوم ، وشهادات الواقع ، وإحساسات الفطرة والمدعى الكذوب المزور = الشيعيين . والفلاح = المادة . والحقيقة = قضية الايمان الصحيح . والشيعيون لم يصدقوا في وصف البيئة . ولم تساندهم قرائن الأحوال . بل أخفقوا كل الاخفاق في دعواهم ،

دليل الدعوى عند المؤمنين :

إن دليل الدعوى عند المؤمنين هو موضوع الدعوى عند الشيعيين وقد عرفنا من قبل أن موضوع الدعوى عند الشيعيين « هو المادة » وليس مطلق مادة بل المادة الجمادية . وهي أحط أنواع المادة من حيث ما يريد منها الشيعيون ، وهو « الخلق والإيجاد » .

وهذا - إذا تأملت - دعامة قوة عند المؤمنين . وعلامة ضعف عند الماديين الملاحدين .

فقد التهمت قضية الإيمان موضوع الدعوى عند الملحدين ، وسيطرت عليه بكل قوة . وحولته إلى مصادر أدلة ، على صدق قضية الإيمان ، وتركت الإلحاد والملحدين مهلكين في الهواء لا يلبون على شيء إلا أن تتخطفهم الطير ، أو تهوى بهم الريح في مكان سحيق .

أجل : إن الكون بما فيه ومن فيه من كائنات حلوية ، وسفلية ونضائية هي في الواقع مصادر براهين وحجج وأدلة على أن :
الله موجود .

الله هو الخالق المصور .

الله هو الواحد الذي لا شريك له .

الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

الله هو المتصرف في الكون .

ظاهرة جليلة لا بد لها من تفسير :

هذه الظاهرة الجليلة هي الكون أنه حقيقة مدهشة لا يمكن إنكارها ولا التوهم من شأنها ، ولا يمكن للعقل أن يقف منها موقفا سلبيا دون أن يصل إلى تفسير لها يحدث الإنسجام التام بينها وبين العقل ، ويتحقق هذا التفسير وذلك الإنسجام حين يصل العقل إلى معرفة صانع هذا الكون ، وتقوم بين يديه الأدلة القاطعة على تعيين ذلك الصانع ، الأعظم من الكون ومن في الوجود كله .

هذا ، وقد ثبت بكل يقين أن :

• الكون أو المادة أو الطبيعة لم تصنع نفسها . ولم يصنعها الإنسان ؛ لأنه لا يتصور وجوده إلا تاليا لوجودها . هذا هو حكم العقل الذي لا نزاع ولا تراجع فيه .

• إذن فلا بد لهذه الظاهرة الضخمة العظيمة من صانع ، تطمئن إليه النفوس ، وتقنع به العقول .

ذلك الصانع ، هو الله - سبحانه - فهو سبب الأسباب وعلة العلل التي تفسر غيرها ولا تحتاج هي إلى تفسير . وقد تمكن القرآن الكريم بإيراد الأدلة القاطعة على صحة هذه العقيدة وصدقها ، والنظر المتأمل في آيات القرآن العظيم يجد أدلة هذه العقيدة مبثوثة فيه على نسق عجيب ، وفي عرض محكم يدركها الخواص يظواهرها وبواطنها ، ويدركها العوام بآثارها وظلالها فتتيسر أسباب الهداية أمام الممتدين ، وتقوم الحجة لله على الملحددين . ويحيا من يحيا عن بيته ، ويهلك من يهلك عن بيته لئلا يكون للناس على الله حجة بعد البيان .

مناهج أو كيفية عرض الدلائل في القرآن الحكيم :

للقرآن في عرض الدلائل على الحقيقة الإلهية ، مناهج أو كيفية متعددة كلها تؤدي إلى هدف واحد ، هو الإيمان بالله الواحد رب العالمين . وندير حديثنا - هنا - عليها في إطارى منهجين اثنين :

أحدهما فتابع فيه العلامة ابن رشد . والثاني هداانا إلية النظر ، ولنبدأ بمنهج العلامة ابن رشد :

منهج ابن رشد :

نظر العلامة ابن رشد في مناهج الأدلة التي سلكها أهل الفكر والنظر من قبل ، وهم حسب كلام ابن رشد :

الاشعرية ، والمعتزلة والباطنية ، والحشوية ولم يراض ابن رشد تلك المناهج وقال إن معظمها مبتدع بعد عصر الصحابة ؛ ولا تصلح لهداية جميع الناس إلى الإيمان بالله ، لأنها غالبا أقيسة عقلية مركبة ، وهي وإن أدركها بعض العباد - العلماء والخاصة - لم يدركها عوام الناس ثم ذهب العلامة ابن رشد بوضع منهجا استدلاليا يستوى في فهمه الخاصة والعامة ، فهداه النظر إلى منهج

قال إنه مستفاد من الكتاب العزيز ، وأن الصحابة كانوا يعملون عليه (٥٣) .
وخلاصة منهج ابن رشد هو ما يأتي :

لأن النظر في كتاب الله العزيز يفيد أن في كتاب الله طريقاً للدلالة على وجود الله ، وهذا الطريق محصور في جنسين كل منهما يعتمد على أصلي (٥٤) :

١ - الجنس الأول ويسمى دليل العناية ، أى العناية بالإنسان حيث خلق الله لمنافع الإنسان جميع الموجودات من أرض وسما ، وما فى الأرض من نبات وحيوان ومعادن وهواء ونار . الخ .

ويؤيد كلام ابن رشد قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً منه » البقرة (٢٩) وهذا الجنس يعتمد عند ابن رشد على أصليين :

أحدهما : أن جميع الموجودات موافقة لمنافع الإنسان ، والعناية به .

وثانيهما : أن هذه الموافقة مقصودة قصداً لفاعل حكيم مختار . هو الله .

٢ - الجنس الثانى ، سماه ابن رشد دليل الاختراع . ويدخل فيه خلق الحيوانات كلها ، وخلق النبات ، وخلق السموات والأرض وكل ما بينهما . وهذا الجنس يبنى - عنده - على أصليين كذلك :

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة على غير مثال سابق . وهذا كما يقول ابن رشد مفهوم فى نوعى النبات والحيوانات (ومنها الإنسان) لأننا نشاهد وجودها بعد عدمها بالتكرار .

أما السموات والأرض والأفلاك فمستدل - كما يقول ابن رشد - على أنها مخترعة مخلوقة من قبل حركاتها التى لا تنفتر ، فهى مأمورة بالعناية ، ومسخرة لنا .

(٥٣) لاكتشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة (٤٦) دار الآفاق الجديدة بيروت .

(٥٤) لأننا نلتزم بحرفية كلام ابن رشد - هنا - بل سنتدخل ، بمحذف ما تدعو الحاجة إلى حذفه ، وإضافة ما تدعو الحاجة إلى إضافته ، توخياً للإيجاز والإيضاح معاً .

والأصل الثاني من أصلي دلالة الاختراع بقول فيه ابن رشد : فهو أن كل مخترع فله مخترع - (اسم فاعل) والأول (اسم مفعول) - من قبل غيره ضرورة (يعني لزوما) عملا بقانون السببية .

هذا هو منهج العلامة ابن رشد^(٥٥) . وفي أهمية هذا المنهج يقول ابن رشد بالحرف الواحد : « ولذلك كان واجبا على كل من أراد معرفة الله حق معرفة أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات ، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع » . « وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » . »

وكذلك أيضا من تتبع معنى الحكمة في موجود ، أعنى معرفة السبب الذي من أجله خلق ، والغاية المقصودة به ، كان وقوفه على دليل العناية أتم . فهذان الدليلان هما دليل الشرع ، .

ويعمم ابن رشد منهجه هذا ويدرج تحت مفهومه كل آيات الكتاب العزيز الواردة في الاستدلال على الحقيقة الإلهية . يقول :

« وأما أن الآيات المنبهة على الأدلة المفهنية إلى وجود الصانع سبحانه في الكتاب العزيز هي منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة ، فذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى ،^(٥٦) .

وعند التمثيل على المنهج نوع العلامة ابن رشد ورود آيات الاستدلال على وجود الصانع العظيم ثلاثة أنواع :

« آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية . »

(٥٥) أنظر: الكشف عن الأدلة في عقائد أهل الملة (٥٨-٦٠) مرجع سبق ذكره.

(٥٦) نفس المرجع (٦١) .

• آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع .

• آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعا .

وشهادة حق نقولها : إن العلامة ابن رشد كان موفقا في تأصيل هذا المنهج ، صادقا في فهم الكتاب العزيز ، حكيميا في التصور والعرض والتفدير .

تمثيلات ابن رشد :

مثل ابن رشد بآيات من القرآن الكريم للأشياء الثلاثة التي ذكرها ، تذكر منها ما يأتي :

• دلالة العناية :

أول ما مثل به على دلالة العناية الآيات الآتية :

« ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل أبسا . وجعلنا النهار معاشا . ونبتنا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا وقبانا . وجنات ألفافا ، النبا (٦ - ١٦) . »

أصاب ابن رشد بهذا التمثيل على دلالة العناية . لأن كل ما امتن الله به على عباده في هذه الآيات داخل في منافع العباد . ومن مظاهر عناية الله بهم . وإن شئت فقل : هذه المذكورات من لوازم تأييد البيت الكبير الذي هو « السكون » وتثبيتته للمعاش والراحة :

فالأرض مهيأة للزراعة والحراث والسير ، ومثبتة بالأثقال الموزعة على سطح الأرض توزيعا حكيما بحيث تساوت كتل الجبال التي في شرق الأرض بالتي في غربها لتتعاادل كفتها كما تتعاادل كفتا الميزان بدون اضطراب (٥٧) ،

(٥٧) انظر الإسلام في عصر العلم (٢٧٠) د / محمد أحمد النمرأوى .

وجعل الانسان صنفين (زوجين) ايسكل أحد الزوجين الآخر ، وفي النوم راحة وتجديد للقوى . والليل ظarf مناسب (جداً) للخلود للراحة وترك العمل وآية النهار مبصرة فهي مجال للسعى والكسب . والسموات واقيات حافظات وهي «سقف» البيت الكبير . والشمس تمد الكون بالطاقة والضياء ، والماء حياة الحياة . وفي الحب والنبات والزروع والحدائق ما لذ وطاب من مأكل شهى ، ومذاق هنى .

هذه المدكورات هي قطعاً موجودات ، وموجودها - لا بحالة - هو الله فأنه - إذن - موجود ، ووجوده أولى أبدي لا يحتاج إلى موجود ولا معين وصنعتة هذه صنعة بدیعة فيها من الألفاف والعناية والإنعام ، الا يصدر إلا من الله ، الخالق العظيم ، والوهاب الكريم .

• دلالة الاختراع :

وبما مثل به لدلالة الاختراع قوله تعالى : « فلينظر الإنسان بما خلق ؟ » .
خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب ، الطارق (٥ - ٧) .

وقف الله الإنسان على حقيقة خلقه ، ومبدأ تكوينه . ومبدأ تكوين الإنسان القريب هو الماء الدافق . وله رافدان : صلب الرجل وترائب المرأة هذا ماقرره القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً . ثم جاء العلم مطابفاً للخبير الوحي . فالإنسان لم تصنعه يد غير يد الله ، ولا قدرة غير قدرة الله . وذلك مظهر من مظاهر الاختراع الإلهي . وكل مخترع مخلوق له مخترع وخالق . ذلكم هو الله ، فأنه - إذن - موجود . والوجود الكوني الدائم دليل من أدلة وجوده . والخلق المتكرر (نبات - حيوان - إنسان) من أدلة وجوده الغنى عن كل القوى .

دلالة العناية ودلالة الاختراع :

الآيات التي تجمع بين دلالتى العناية والاختراع يقول ابن رشد عنها

أنها أكثر من آيات العناية وحدها ، ومن آيات الاختراع وحدها ، وهذا صدق وصواب . وعما مثل به للجمع بين الدالتين قوله تعالى :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، البقرة (٢٢٢) .

فالذي خلقكم والذين من قبلكم فيه دلالة 'اختراع ظاهرة وجعل الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به للعباد فيه دلالة عناية واضحة فأنه لم يخلق شيئا عبثا ، ولم يكن له في الخلق شريك ولا معين وصنعتهم كلها حكمة وإبداع . والسكون دليل وجوده الأزلي الأبدي فلا بد لهذا النظام البديع من خالق ، ولا خالق له غير الله .

ابن رشد يعقب :

وبعد لإيراد هذه التمثيلات نرى ابن رشد يعقب فيقول :

« فقد بان من هذه أن الأدلة على وجود الصانع منحصرة في هذين الجنسيتين : دلالة العناية ، ودلالة الاختراع . وتبين أن هاتين الطريقتين هما طريقة الخواص ، وأعني بالخواص العلماء . وطريقة الجمهور ، وإنما الاختلاف بين المهرفتين في التفصيل . أعني أن الجمهور يقتصرون من مسرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبينة على الحس . وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان ، (٥٦) .

(٥٦) نفس المرجع (٦٣)

انتهى القول على منهج ابن رشد ، وقد وفقه الله فيه إلى كثير من الصواب أو إلى صواب يكاد يكون خالصا ، أقول يكاد يكون خالصا ؛ لأن ابن رشد جعل أدلة وجود الصانع دالة ، محصورة في دلالات العناية والإختراع ولكننا مع إعجابنا بمنهجه وأفهمه له وتوظيفه للدلالة على الصانع العظيم وتحليله للدلالات - لا نجاريه على فكرة الحصر هذه ، لأن المتأمل في الآيات التي يطلق عليها الدعاة المعاصرون مصطلح (آيات الدعوة) وهي الواردة في شأن العقيدة ، وآيات الدلالة على وجود الصانع شعبة من شعب آيات الدعوة . المتأمل في هذه الآيات تظهر له بوضوح أجناس أخرى غير الجندسين الذين ذكرهما ابن رشد ، وحصر الدلالة فيهما على الوجه الذي تقدم .

والعلامة ابن رشد بالضوابط الدقيقة التي وضعها لمنهجه أخرج أجناساً من دائرة الاستدلال على وجود الصانع ، ماثلة في آيات الكتاب العزيز ، وهي على طرف الثمام لمن يريد . وأكاد أجزم - مرة أخرى - أن الذي بقي بعد منهج ابن رشد من الدلالات القرآنية على وجود الصانع العظيم ، أدخل في باب الإلزام للمشكرين من دلالات العناية والإختراع اللتين حصر فيهما منهجه على الصورة الدقيقة التي رسمها فأحكم رسمها .

وها نحن أولاء نكشف - بدورنا - عن بعضها لآ عن كلها توخيما للإيجاز والإبانة معاً . ومن الله نستمد العون ، ونستلم الرشاد .

دلالة التحدي والإعجاز والقهر :

هذه واحدة من الدلالات التي غفل عنها العلامة ابن رشد عفا الله عنه وأثابه .

وضابط هذه الدلالة أن بين في كتابه العزيز أن الخلق خاضعون له في أمور كثيرة أرادهم بها ، فصنت فيهم سنته ، ولم يستطع أحد من

الخلق - كائننا من كان - أن يرد قضاء قضاء الله فيه ولو استعان بكل الإنس ، وكل الجن .

وشواهد هذه الدلالة في الكتاب العزيز كثيرة . ويحسن بنا أن نقف أمام ظاهرة عامة يستوى في الإيمان بها الملحدون والمؤمنون وهي ظاهرة .

الموت :

إن هذه الظاهرة القاهرة حقيقة لا مرأى فيها . وقانون إلهم نافذ في كل حي . وسنة ربانية لا تدفعها قوة من قوى البشر . هي في نفسها ظاهرة تحد وإعجاز ، وفي توقيتها ظاهرة تحد وإعجاز . وفي ختام أمرها ظاهرة تحد وإعجاز . وهي قسيمة الحياة في أنهما عمل خالص لله فمعجز البشر وكل الخلق عن إيجاد الحياة في شيء . كعجزهم عن دفع الموت عن أراد الله به الموت . وقد ساق القرآن هذه الحقيقة في صيغة قضية موجبة كلية على حد تعبير المناطقة . وذلك في قوله تعالى : كل نفس ذائقة الموت

فهذا قضاء الله في خلقه . وهو خير . وجلال الخبر وكاله في صدقه وإطراده في أفرادة : وشموله لكل متعلقاته . وهو - أعنى هذا الخبر بالذات - لا يصدر إلا عن يده الأمر كله ، وكان أهلاً للتنفيذ دون أن تهوق إرادته أية قوة مضادة .

وهذا القضاء المبرم القاهر النافذ ورد في القرآن الكريم . والقرآن كلام الله رب العالمين . والخبر صادق كل الصدق ، لأننا لم نر حياً خالداً بل في كل يوم ، وفي كل ساعة نرى كأس الموت يحتسى . وأعناق الأحياء تنساق ، وأجسادهم إلى التراب تعود .

فاين ماركس ؟ واين إنجلز ؟ واين لينين ؟ واين ستالين ؟ واين وأين إلى ماشاء الله ؟ لقد رمت أجسادهم وبليت عظامهم وضلوا في الأرض ربما يبهشون ويحاسبون .

أجل : كل نفس - هكذا بالسور السكلى الحاصر - ذائقة الموت . إنها سنة الله في خلقه وإن تجسد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا . إلا إننا نهيىب بالملحدين - جميعا - ليجتمعوا فى صعيد واحد ويجمعوا كل قواهم وشياطينهم ليدفعوا الموت عن نفس حان أجلها . ولو كانت تلك النفس ذبابة أو فيلا ، فهل هم - ياترى - قادرون أم هم عاجزون ١٩

إن الجواب معلوم ، إلا فليعلموا أن صانع الحياة هو صانع الموت فليقروا به إن أرادوا لأنفسهم خيرا . وإن عاندوا فالحجة قائمة عليهم . وهذا دليلها : الله الذى أجرى سيف الموت فخر الرقاب هو الذى خلق الحياة فى كل حى وهو - وحده - خالق المادة ومسخرها والمتصرف فيها وفى من عليها وما عليها . فهل - بعد هذا الدليل - يا أئمة الإلحاد - أنتم ما تزالون هكذا ملحدين ١٩

إن الله هو صانع الحياة وليس غيره . وإن الله هو صانع الموت وليس غيره فمن ينسكرك وجود هذا الصانع . فليعد من مات إلى الحياة ، وليدفع الموت كل حى . أو بعبارة أكثر إعجازا : عليه - ليسكون صادقا فى دعواه - أن عن يميت الموت ١٩ .

مظاهر التحدى والإعجاز والقهر فى آيات أخرى :

- « قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ، آل عمران (١٦٨) .
- « أينما نمكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة ، النساء (٧٨) .
- « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت ... الأحزاب (١١) .
- « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ... المالك (٢) .
- « قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ... الجمعة (٨) .
- « نحن قدرنا بينكم الموت والحياة وما نحن بمسبوقين ، الواقعة (٩٠) .
- « إنك ميت ، وإنهم ميتون » .

هذه الآيات لها دالتان :

إحداهما : أن الموت خلقه الله فهو من أمره ، كما خلق الله الحياة ولم يدهط سرها لمخلوق ، « قل الروح من أمر ربي » .
والثانية : أن الموت قضاء مبرم لا ينجو منه أحد ، ولو كان نبيا أرسولا إنسانا وغير إنسان .

الموت لا يدفع :

وفي آيات أخر يقرر الجليل إعجازا آخر في ظاهرة الموت غير لإبرام وغير الشمول . فالمت حين يحيى الأجل فهو واقع لاحالة ، ولا قوة لأحد تدفعه كلية أو ترجئه إلى حين . والآيات التي قررت هذا التحدى والإعجاز منها قوله تعالى :

- « ولئن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » ، (٥٧) .
- « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » ، (٥٨) .

صورة تحد وإعجاز مباشر :

وترد صورة فيها تحد ظاهر ، وإعجاز مباشر للخلق أن يدفعوا عن النفس الموت ساعة احتضارها .

« فلولوا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إياه منكم ولاكن لا تبصرون . فلولوا إن كنتم مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين ، الواقعة (٨٣ - ٨٧) .

هذه صورة لنفس حضرته الوفاة فبلغت الروح الحلقوم . والناس حولها

• (٥٧) المنافقون (١١)

• (٥٨) الأنعام (٦١)

جالسون ، والعيون تنظر . والحيلة عاجزة ، وأمر الله فافذ والملائكة حضور
يباشرون عملهم المكلفين به في صمت رهيب . وجد لا يعرف التواني . وهم
أقرب شيء إلى النفس ولكن أحداً لا يبصر وإن كان ينظر [في هذه الساعة
الحرجة الجارية يتحدى الله الناس جميعاً ، ويتحدى الملحدين خاصة فيقول لهم :
إن زعمتم أن ليس لكم رب خلقكم وأنتم مقهورون له فأمامكم هذه التجربة
الصعبة : أرجعوا الروح التي نخرجها إلى مكانها من الجسد الذي خلا منها .
ووزعها فيه . كما كنا قد وزعناها من قبل . لتعيدوا له الحياة . فإن استطعتم
فأنتم صادقون . وإن لم تستطعوا . وإن تستطعوا . فهذا واحد من أدلة الإيمان
يتكرر كثيراً بعدد الأحياء منكم فآمنوا . وإن لم تؤمنوا فقد قامت عليكم
الحجة فلا تلوموا إلا أنفسكم .

ونحن نتوجه بهذا التحدى والإعجاز القاهر لأئمة الإلحاد في كل عصر
ومصر ، ونقول بلاء أفواها هذا دليل من أدلة الإيمان يثبت صدق عقيدتنا
أن الله موجود ، وأنه هو خالق المادة والكون والمتصرف في المادة والسكون .
وخالق الأسباب والمسببات . بوجوده نفس كل حقائق الوجود . ووجوده
هو غنى عن كل تفسير .

الأمم كالأفراد :

والأمم والجماعات أجل محتوم كما آجال الأفراد ، إذا جاء لا يرد ولا يدفع
ولا تنفع فيها الشفاعات والحيل :

« لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ،
يونس (٤٩) .

وما هو أجل الأمة يا ترى ؟ هل هو توفى أفرادها فرداً فرداً كل في حينه
المضروب : حتى يفنى آخرها وتكون الأمة - هنا - بمعنى الجميل .

أم هو سقوط الأمم وتدهورها كما تسقط الأمم ذات الحضارات وتموت معها حضارتها ؟ العالم لله وحده . ولكن موطن العبرة - هنا - أن اىكل أمة أجلا مضروبا معلوما اعلام الغيوب . فإذا جاء الأجل نفذ بكل دقة فلا يتأخر لحظة من الزمن ، ولا يتقدم لحظة . وصدق الشاعر الذى قال :

والمنايا رصد للفنى حيث سلك
كل شىء هالك حين تلقى أجلك

والخلاصة : أن من أدلة وجود الصانع العظيم (الله) أن الإحياء والإماتة من اختصاص الإرادة والقدرة الإلهية . فإذا أراد الله حياة نفس فلا يستطيع قوة مهما بلغت أن تسلب تلك النفس الحياة . وما كان للنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ، وإذا أراد الله إماتة نفس حية فلان يستطيع قوة مهما كانت أن تدفع عنها الموت : « وان يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها » .

فمن نازع فى وجود الصانع العظيم ، فليعطل هذا القانون الإلهى . وما هو بفاعل . فسمجناك ربنا فأنت كما قال رسولك الأمين صلى الله عليه وسلم :
« ماض فينا قضاؤك ، عدل فينا حكمك ، يا أحكم الحاكمين ، لا ينفعك إيمان مؤمن . ولا يضرك إلحاد ملحد ؛ لأنك أنت الله ذو الجلال والجلال والىكال والسلطان ، « إن الله بالغ أمره قد جعل الله اىكل شىء قدرا » .

وقل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك من تشاء ، وتضر من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تخرج الليل فى النهار وتخرج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب .

دلالة النظام والإطراد :

هذه الدلالة . دلالة النظام البديع ، والإطراد المحكم من الدلالات التي لم يتنبه لها العلامة ابن رشد . ونعني بها : أن الله نظاما ، طارداً في الكون ومن فيه ، وما فيه .

هذا النظام يجري بوضوح حسب الإرادة الإلهية . ولا توجد قوة في الأرض تعوق هذا النظام أو تعطله أو تبدله . وفي القرآن الكريم آيات لفتت الأنظار إلى هذا النظام ، واتخذت منه دليلاً قوياً على وجود الله وتفرد به بالكمال . وسمو إرادته فوق كل الإرادات . وقدرته فوق كل القدرات . وعلمه فوق كل العلوم .

وتجئ في سياق الكلام آيات فيها توقيف وتحدد - كذلك - بأن هذا النظام المحكم البديع المطرد ماض حسب إرادة الله قاهر غير مقهور . وفيما يلي البيان :
« سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نساخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ، (٥٩) »

تشير هذه الآيات إلى النظام البديع المحكم المطرد في مجالين جليين :
أولهما : مصادر الخلق والإيجاد المتكرر من نبات وحيوان وغيرهما .
وثانيهما : حركة الأفلاك العظمى اليومية وما يترتب عليها من آيات كونية مذهشة .

فمصادر الخلق محصورة في ثلاثة : إنبات الأرض ، وتوالد الإنسان ومصدر ثالث لا يعلمه الناس ويعلمه الخالق سبحانه . وقد يرد هنا

سؤال مؤداه أن هناك ، صدراً رابعاً للخلق أغفلته الآية الأولى وهو خلق الحيوان من دواب وزواحف وطير . والجواب : أن هذه الأنواع داخلة في مما تنبت الأرض ، والإنسان - بدوره - كذلك ، ولكن المآل مبرزه وفضله عن المخلوقات الدنيا .

فمذا هو نظام الخلق والتكوين والإيجاد ، أيس له إلا خالق واحد ، ويد مبدعة واحدة . هو الله الذي أحسن كل شيء خلقه . فهل في مقدور أحد أن يعزل هذا النظام . فليبدع المادون مادتهم . وليركبوا في محرابها ويتولوا إليها أن تحدث تغييرا في هذا النظام . وليتظاهروا عقابها إن كان لها عطاء وتأثيرها إن كان لها تأثير ؟ وليبحثوا عن القبة السوداء التي لا وجود لها في غرفتهم المظلمة . . . ١٤

حركة الأفلاك :

أما حركة الأفلاك العظمى اليومية فمعجب عجب ، وإعجاز دائم . فالليل والنهار يتعاقبان في نظام بديع حقا . كأن الليل يطلب النهار ، وكأن النهار يطلب الليل طلبا حثيثا في كليهما . وأحيانا يطول الليل على النهار باقتطاع جزء منه . كما يطول النهار - أحيانا أخرى - على الليل باقتطاع جزء منه . وهذا الاقتطاع أو قل التداخل المسمى في الكتاب العزيز بالإيلاج وقسار تماما وبكل دقة . كأن أحدهما يقتصر من الآخر ، جزءا ، في زمن ، ثم يردّه موزونا بموازين الذرة ، في زمن مماثل تماما لزمن الاقتراض . ويتساوان - الليل والنهار - في يومين اثنين على مدى العام كله - أحدهما في الاعتدال الربيعي والآخر في الاعتدال الخريفي - وهذا ناشئ عن أوضاع حركة « الفلك » الدائبة التي قدرها العزيز العليم ، والشمس تجري لمستقر لها لا يعلمه إلا الله ، والقمر مقدر منازل تقديرأ حكيماً فهو يسير في مداره ويجراه من يوم خلقه الله دون اختلال ، عفوى ، أو توقف .

هذه الأفلاك العظمى تسبح في الفضاء في مسافات وأبعاد مقدرة تقديراً

حكيمًا حتى لا يحدث بينها اصطدام فتقع كوارث لا عهد للناس بها . . . وليست الشمس والقمر هما وحدهما يسبحان في الفضاء الكونى الهائل بل تسبح بحوارهما بلايين الكواكب والنجوم كل في مداره الخاص به ، محكومة بقدره الله وقدرته دون احتياج إلى حركة تنظيم أو آداب وقواعد مرور . ولكنها تسبح - هكذا - فى يسر وسهولة واتزان دون أن يعوق حركاتها شيء : « صنع الله الذى أتقن كل شيء » . . .

هذا النظام البديع واحد من الأدلة لاعلى وجوده الصانع العظيم ، فحسب وإن كان على وجوده وكمال قدرته وبلغ حكمته وتفرد بالسلطان الذى ليس فوقه سلطان . فليدع عبيد المادة الجمادية مادتهم ؟ ولينظروا هل تجيبهم إذ يدعون ؟ أو هل تسمعهم إذ ينادون ، الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور . ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

السماعة الكونية :

« وجعلنا الليل والنهار آيتين . فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبينوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلا ، الإسراء (١٢) .

جعل الله الليل والنهار آيتين هو أس النظام الكونى فى أجلى مظاهره فهما - الليل والنهار - آيتان عظيمتان خالدتان ما خلدت الحياة ، وناشتان عن عمل صنع لا فاعل له سوى العلى القدير . فدوران الأرض حول نفسها دون أن يشعر أحد باختلال أو اضطراب فى سكونها وقرارها يترتب عليه آيتا الليل والنهار . ودورانها حول الشمس ينشأ عنه الفصول الأربعة المعروفة . ولو ظلت الأرض جامدة لا تتحرك لتوقف تعاقب الليل والنهار ، ولما استطاعت قوى البشر جميعا أن تحركها ، ولتوقفت الحياة على ظهرها . فالناس ينامون والفلك يتحرك ، ويعملون والفلك يتحرك . ولا تأثير لهم ناموا أو عملوا فى إدارة الأفلاك بل ذلك نظام الذى بيده ملكوت كل شيء . ولكل

من آتني الليل والنهار خاصة ووظيفة خاصة الليل هي الإظلام المعبر عنه في الكتاب العزيز به ، المحو ، لأن الرؤية تختفي بالليل فكأن الأشياء التي كانت ترى نهاراً قد دُمجت ، فهي لا وجود لها كما يمحو الكاتب أسطراً كان قد كتبها .

ور وظيفة الليل الراحة والجمام والسكون ، وما أحوج الخلق إلى الراحة والجمام ؟ وخاصة النهار ، الإبصار ، ووظيفته النشاط والعمل والضرب في الأرض وما أحوج الناس إلى العمل بعد الراحة ، والسعي بعد الكلال ؟ إن للكون ساعة تدق بقدم الليل فيركن الناس إلى الراحة ، وتدق مرة أخرى بقدم النهار فيدشط الناس للعمل .

وهذه الساعة تعلم الناس الحجاب ليصرفوا المواعيد المناسبة لكل شيء ويحسبوا الأعمار ، ويضبطوا المعاملات وهو اسم الحرت والحصد . وفي هذه الساعة الكونية مؤشرات هائلان : الشمس والقمر ، بالإضافة إلى مؤشرات ثانوية ، دقيقة تضبط بها مواعيد أخرى لمن احتاج إليها . وعمل المؤشرين الهائلين موزع توزيعاً دقيقاً ومحكماً ورائماً . أنهما يتعاونان في ألفة وإحكام لتحديد الأيام والشهور والسنين ، وإليك البيان :

وظيفة الشمس والقمر :

فالقمر يحدد بداية الشهر ونهايته . والشمس تحدد بداية اليوم ونهايته كما تحدد بداية النهار (الوقت المضي فحسب) ونهايته . وتحدد بداية الليل (الوقت المظلم فحسب) ونهايته . والقمر تحسب به السنين (الكونية) والشمس تعين الجهات الأربع ، فهي تظهر من الشرق ، وتغيب في الغرب ، والواقف تجاه شروق الشمس يكون الجنوب ، عن يمينه ، والشمال ، عن يساره ، والواقف تجاه الغروب يكون الغرب ، أمامه ، والشرق ، خلفه ، والجنوب ، عن يساره ، والشمال ، عن يمينه . وبتحديد الجهات الأربع الأصلية ، يسهل تعيين الجهات الأربع الفرعية ، وهي : الجنوب

الشرق ، والشمال الشرق ، والجنوب الغربى ، والجنوب الشرق . كما تحدد الفصول السنوية الأربعة بدوران الأرض حول الشمس . وبحركة الأرض حول نفسها تعرف مواعيت العبادات اليومية فالفجر يبدأ بسطوع عمود النور الساكر المؤذن بشروق الشمس . والظهر حين ينعدم الظل ، وقد توسطت الشمس كبد السماء . والعصر إذا بلغ ظل كل شىء مثله ، وبغروب قرص الشمس يكون المغرب وباختفاء الشفق الأحمر يكون العشاء .

وبالقمر تتحدد العبادات السنوية من حج وصيام كما تستعين النساء عن طريق حركته الدائبة ضبط بعض الأحوال الخاصة بهن (العادات الشهرية) والسنة القمرية معدودة بأيام لا تزيد ولا تنقص ، وشهورها تتراوح بين حد أعلى ثلاثون يوماً ، وحد أدنى تسعة وعشرون يوماً ، وليس فى الأشهر القمرية شهر كامل دائماً ، ولا شهر ناقص دائماً . فقد يكمل شهر فى سنة وينقص فى سنة ثانية .

وهكذا تتفاوت الأشهر القمرية الإثنا عشر السكال والنقص . وهذه ظواهر تحدث بعيداً عن تدخل الخلق ، وتدبيرهم وتقديرهم . لأنها تدبير العزيز العليم . وهذا النظام المحكم البديع لم يتخلف وإن يتخلف . وهذه الساعة الكونية الكبرى لم يصبها عطل ولا فساد منذ خلق الله السموات والأرض ، ولا هى بحاجة إلى صيانة ، ولا قطع غيار ولا إشراف مهندسين ولا رقابة خبراء ؛ لأنها مصنع الله الذى أتقن كل شىء ، والذى أحسن كل شىء خلقه ، وسبحانه فى علاه . بديع السموات والأرض ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

والمؤشرات «الثانوية» من النجوم ، مثل سهيل ، والنجم القطبي علامات واضحة تهتدى بها قوافل التجارة فى البر ، والسفن والبواخر فى البحر ، ومنها ما يعرف به بدء الفصول ونهايتها . أليس وراء هذا النظام البديع المحكم يد مبدعة وصانع حكيم ليس كمثل شىء ١٩

مراحل الإنسان وتنشئته ومصيره :

« هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتسكنوا شيوخاً ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . »

وهذا نظام خلق الإنسان وتنشئته ومصيره . خلقه على مراحل : المرحلة الترابية ، والمرحلة النطفية . والمرحلة العلقية ، ثم التدرج فى الطفولة حتى بلوغ الأشد ، ثم مرحلة الشيخوخة بيد أن بعضها تعاجل المنيّة فى مرحلة مبكرة من العمر . ولكن مع هذا التفاوت فى الأعمار فإن لكل منا أجلاً مسمى هو بالغة . ومن يتأمل هذا النظام يعلم أن وراءه إرادة حكيمة ، وقدرة فائقة . وراء هذه القدرة وتلك الإرادة قادر مريد هو « الله » جل فى علاه .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقية . خلقنا العلقه مضغة . خلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . »

ذلكم هو الإنسان صنع الله . فكيف يرتاب لإنسان فى وجود صانعه ؟ « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ » لا هذا ولا ذاك . فهم لم يخلقوا من غير شيء ولم يخلقوا أنفسهم . وهم عقلاء كماله . بل خلقهم الله ، فكيف يقال : إن المادة الجاذبة هى الخالقة . لو جاز أن يصدر خلق عن غير الله لسكان الإنسان وهو أرقى وأكمل من المادة والنبات والحيوان ، هو الخالق . والإنسان مقر بأنه (مخلوق) وليس له خالق إلا الله . ولكن الإنسان ، أو بعض بنى الإنسان أسلبوا قيادهم للشيطان فأضلهم وأفسد بالهم « خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . »

لا تبديل لسنة الله :

هذا النظام لبديع المحكم ، والإطراد المدهش دليل على وحدة الصانع جل وعلا . وإذا تعلقت إرادة الله بوقف هذا النظام (السكوني) عجزت كل القوى عند إعادته أو تبديله . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ، موقفا عباده على سعة سلطانه ، وبلوغ أمره ، ونفاذ ما يريد :

(قل أريتكم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون . قل أريتكم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم باليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون) .

إن إرادة الله وقدرته الذي أبدع هذا النظام وأحكمه . وجعل تعاقب الليل والنهار سنة محكمة ، لهما صلاحية أخرى تتحقق - إذ أراد - بجعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة . وإذا أراد ذلك كان وليس في مكنة أحد - غير الله - أن يعيد تعاقب الليل والنهار . لأنه لا يستطيع ذلك إلا ، إله ، ولا إله إلا الله .

وإذا أراد جعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، فلا يستطيع أحد غير الله أن يعيد تعاقب الليل والنهار ، لأنه لا إله إلا الله (إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده) .

بطلان الصدفة :

فالله - سبحانه - موجود - وهذه حقيقة الحقائق - ؛ لأن هذا السكون لا بد له من خالق ، ولا يصلح له خالق إلا الله ، ومحال عقلاً وواقعاً أن يكون هذا السكون العجيب الدقيق الصنع قد (وحد) من لا شيء ، لأن (لا شيء) لا ينتج شيئاً . وليس هو قد خلق نفسه فهذا باطل عقلاً وواقعاً . ولا خلقته الصدفة ؛ لأن الصدفة بفرض التسليم بها تجرى بين أشياء

موجودة . والمشكلة - هنا - لا تتعلق بالنظام والتنسيق بين أشياء عملت فيها (الصدفة) وإنما المشكلة هي مشكلة الخلق والإيجاد نفسه . ولا عمل للصدفة في الإيجاد بل هي تعمل ، وفي نطاق ضيق جدا ، في أشياء سبق وجودها قبل عمل الصدفة نفسها فمثلا قد تتكون كلمة من حروف طباعة مثل (ولد) إذا تناثرت الحروف من يد تحملها . فالصدفة هنا عملت في أشياء موجودة ، وهي حروف الطباعة ولكنها هي - الصدفة - لم تصنع أشكال حروف الطباعة ، ولا المادة التي شكلت منها .

ومع هذا فإن الصدفة تستحيل عقلا إذا زعم زاعم أن كتابا يقع في ١٠٠ صفحة مثلا وبه ثلاثون ألف كلمة قد صنعتها الصدفة . والاستحالة العقلية هنا أسباب :

أحدها : إن الصدفة لا تخلق مادة وإنما يمكن أن يقع تنظيم ضئيل منها لشكل مادي . مثل تجمع الحروف : الواو ، واللام ، والدال في المثال السابق . وثانيهما : أن العلماء - بعد الدرس والتجربة والسبر وضعوا قانونا للصدفة قالوا فيه (إن حظ المصادفة من الاعتبار (النجاح) يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزايدة) . أي كلما قل عدد الأشياء المتكافئة المتزايدة ازداد حظ المصادفة من النجاح وكلما زاد عددها قل حظها من النجاح .

وتطبق هذا القانون أنك إذا رأيت حجرين - مثلا - أحدهما فوق الآخر كأنهما بناء لاستبعد أن المصادفة - بمهونة عامل آخر كالريح ، أو سقوط أحد الحجرين من عل - قد أحدثت هذا الشكل لقلة التوافق فيه .

أما حين تمر على حجرة مكونة من أربعة جدران ولها باب نافذ وفتحات لتبرير الهواء فإن العقل يستبعد - بكل قوة - عمل الصدفة لكثرة الأشياء المتزايدة ولا بد أن يسلم العقل بوجود صانع يريد وراء هذا البناء قد أقامه لقصد أراده .

وماذا تكون الحجرة أمام هذا الكون العظيم الهائل ذى النظام البديع الذى لم يحط به علم الإنسان حتى مع تقدم البحوث والعلوم وأنهم كلما ازدادوا علما بعض أمراره ازدادوا جهلا وتبين لهم أن ما ظهر لهم منه لا يساوى شيئا مما لم يظهر . وأن هذا الموقف قد فُتح لهم أبواب الإيمان بالخالق العظيم على مصاريحها يقول آفشتين صاحب قانون النسبية وقد عمل فيه هذا المكثف العلمى عمله قال : (إن أجل هزة نفسية تشعر بها هى تلك الهزة التى نمر ونأ عندما نقف عتبة الخفاء من باب الغيب ؛ إنها الذوابة لمعرفة الحق فى كل فن وعلم وإنه لميت ذلك الذى يكون غريباً عن هذا المصور فيعيش مستغلقاً رعباً من غير أن يحد روعه التعجب إلى نفسه سبيلاً . إن جوهر الشعور الدينى فى صميمه هو أن نعلم بأن ذلك الذى لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته (الله) موجود حقاً . ويتجلى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال التى لا تستطيع ملكائنا العقلية المسكينة أن تدرك منها إلا بصورها (الظاهرة) دون الدقائق فى الأعماق) .

أجل : ما أصدق هذا الكلام وما أحلاه . ولا نملك أمامه إلا أن نتلو قول الحق تبارك وتعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ثالث الفروض :

وبقى فرض ثالث يدعيه الماديون فى أصل الحياة ، بعد فرضيهما السابقين

• إن المادة هى الخالقة . . ١٤

• إن المصادفة هى الخالقة . . ١٤

ويقولون فى الثالث : إن ذرات المادة قد تجمعت من تلقاء نفسها فنشأ

عنها هذا الكون وبدأت حركة الحياة ؟ ١٤

وهذا الفرض باطل كما بطل سابقاه لأن القائلين به محاصرون بهذا السؤال ؟

ومن الذى خلق الذرات وأوجدها . ١٤ . ولهذا السؤال شق ثاى هو :

ومن الذى منحها الحركة فتجمعت فكان الكون . ١٤ .

فإن قالوا : خلقت نفسها رددنا قولهم هذا إلى قولهم الأول : المادة هى الخالقة ولفقتنا ههنا معاً بكفن واحد ، ولحدناهما فى لحد واحد .

وإن صمتوا ولم يحییوا فقد لزمتهم الحجة ، وباءوا - وهم دائماً بآءون - بالخسرات .

تلك هى مقولة الكفر والإلحاد بكل صورها قد ثبت بطلانها من كل جهة لها اختصاص بالصحة والبطلان . ثبت بطلانها بحكم العقل ، وثبت بطلانها بشهادة العلم ، وثبت بطلانها بدلالات الواقع . فأى سند بقی للمادیین والعلمانیین والشیوعیین ؟ ١٤ منهم حزب الشیطان ملعونین أينما وجدوا .

« قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله . قل أفأخذتم من دونه أولياء لا یملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل هل یتسوی الأعمی والبصیر ؟ أم هل تستوی الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق علیهم ؟ قل الله خالق كل شیء وهو الواحد القهار ، .

« ولقد زرأنا الجنةم كثيرا من الجن والإنس . لهم قلوب لا یفقهون بها ، ولهم أعین لا یبصرون بها ، ولهم آذان لا یسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ، .

« إن شر الدواب عند الله الصم البکم الذین لا یعقلون ، ولو علم الله فیهم خیرا لآسمعهم ، ولو آسمعهم لتولوا وهم معرضون ، .

النظر في ملكوت السموات والأرض :

في مواجهتنا لدعوى الشيوعيين إنكار وجود الصانع العظيم ، قدمنا منهمج العلامة ابن رشد . وألحقنا به منهمجين وهما : دلالة التجدي والإعجاز والقهر . ودلالة النظام البديع والإطراد المحكم ، وكان منهمج العلامة ابن رشد قائما على دلالة العناية ثم دلالة الاختراع . وهذه الدلالات الأربع مجالها (الكون العظيم) الذى صنعه (الصانع العظيم) ؛ لأن الكون كتاب مقروء لكل ذى عقل وفكر ونظر والواقع أن دلائل الإيمان والتوحيد فى الكون لا تقع تحت حصر مطلقا فهى يدرك بعضها ولا تدرك كلها . وهذه قاعدة قد توصل إليها كل العقلاء .

وبعد هذا كله أردنا أن نقف أمام قائمتين من قوائم دلائل الإيمان والتوحيد فى ملكوت الله .

أولهما : النظر فى ملكوت السموات والأرض .

والثانية : النظر فى خلق الإنسان . وفى كلتا القائمتين سنتوخى الإيجاز الشديد نظرا للشعب البحت فيهما . فلهن بنا ومن الله التوفيق .

الكون موضوع للتأمل :

يقول الحق تبارك وتعالى :

(أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شئ) .
النظر - هنا - هو التفكير والتأمل والإعتبار ، وملكوت : أى ملك .
زيدت فيه الوار والتأمل للدلالة على عظمته وضخامته . والسموات والأرض
المضاف إليهما (ملكوت) هما موضوع النظر والتدبر . وما خلق الله من شئ :
كل مخلوقات الله التى تقع تحت الحس والإدراك ؛ لأن دلائل الإيمان بالله
وتوحيده مأخوذة من هذا الصنع المدهش العظيم . بكل مظاهره .

لماذا الحياة على الأرض ؟ :

الأرض هي أحد الكواكب السيارة : وقد جعلها الله - بعله وحكمته
وتدبيره - مسرحا صالحا لحياتنا دون الكواكب الأخرى وهي مرتبة حسب
بعدها وقربها من الشمس :

عطارد ، الزهرة ، المريخ ، المشتري ، زحل ، أورانوس ، نبتون ،
ثم بلوتو .

لقد توصل العلماء إلى الأسباب التي جعلت هذه الكواكب غير صالحة
للحياة كما توصلوا للمزايا التي احتضنت بها الأرض فكانت مسرحا صالحا لحياتنا
زروعنا وحيواننا وبشرنا .

وجهة الأسباب التي صارت بها الكواكب الأخرى غير صالحة للحياة
يمكن إيجازها إجمالاً في :

• قرب الكواكب من الشمس أو بعده عنها ، فقربها يتسبب عنه ارتفاع
في درجة الحرارة لا تطاق معه حياة ، وبعدها يتسبب عنه برودة تدمر
كل حياة .

• خلو هذه الكواكب من عناصر أخرى لازمة للحياة . وفيما يأتي موجز
عن أسباب عدم الصلاحية للحياة لكل كوكب على حدة .

عطارد :

هو أكبر الكواكب حجماً وهو غير صالح للحياة ، لأنه أقرب الكواكب
إلى الشمس ، فالمسافة بينه وبينها ٥٨ مليون كم - ويومه ٥٩ يوماً من أيام
الأرض وسنته ٨٨ يوماً لسرعة دورانه حول الشمس . وطول اليوم ممل جداً
كما ترى ويتسبب عنه إحراق الزروع وصهر المعادن وإماتة الأحياء أطول
يوميه وارتفاع درجة الحرارة فيه لقربه من الشمس - وأحد وجهي عطارد
مواجه للشمس دائماً فهو مشمس على الدوام والوجه الثاني لا يرى الشمس

دائماً فهو زمهرير شديد . وليس فيه هواء ولا ماء وجاذبيته ضعيفة (تنصفه
جاذبية الأرض) لذلك كان غير صالح للحياة ونظام الفصول فيه قصير لا يساعد
على الإنبات والنضج . [الفصل إثنان وعشرون يوماً] ؟

الزهرة :

هي أقرب إلى الشمس من الأرض إذ تبلغ المسافة بينهما وبين الشمس ١٠٨
ملايين ك - مقرات . وسنتها مثل يومها (٢٢٥) يوماً من أيام الأرض . أحد
وجهها مواجه للشمس دائماً وحرارته ٩٠ درجة مئوية . والوجه الثاني لا يرى
الشمس قط وحرارته ٢٠ درجة تحت الصفر . ولا هواء فيها ولا ماء ، فلا يصلح
واحد من وجهيها للحياة .

وبعد الزهرة تأتي الأرض وسيأتي الحديث عنها في موضعه . أما الذي
بعدها فهو .

المريخ :

يوم المريخ مثل يوم الأرض (٢٤ ساعة) بيد أن السنة تزيد على سنة
الأرض الضعف تقريباً = (٦٨٧) يوماً من أيام الأرض . ويبعد عن
الشمس بمقدار ٢٢٨ مليون ك - م وحرارته نهاراً ينضج درجات فوق الصفر
أما ليلاً فتبلغ ٧٠ درجة تحت الصفر (١٩) وجاذبيته ثلث جاذبية الأرض
ويرجح العلماء خلوها من الهواء وعدم صلاحيتها للحياة .

المشتري :

يبعد عن الشمس ٧٧٨ مليون ك - م وسنته ١٢ ساعة ، ويومه عشر
ساعات إلا عشر دقائق (٩ س و ٥٠ ق) وهو بارد جداً إذ تبلغ درجة
حرارته ١٣٠ درجة تحت الصفر (١٩) وجاذبيته ربع جاذبية الأرض ويرى
العلماء أنه غير صالح للحياة . وهذا يديه جداً .

زحل :

بعده عن الشمس ١٤٢٧ مليون ك - م وسنته طويلة جدا (٢٩) من سنى الأرض ويومه قصير (١٠ س و ١٤ ق) وهو شديد البرودة إذ يصل إليه جزء من ٩٠ جزءا من حرارة الأرض . والمرجح أنه لا حياة فيه .

أورانوس :

ويبعد عن الشمس بمقدار ٢٨٧٠ مليون ك - م وسنته أطول من سنة زحل (٨٤) سنة من سنى الأرض (١٤) ويومه (١٠ س و ٤٩ ق) ١٤

نبتون :

بعده عن الشمس : ٤٤٩٧ مليون ك - م . وسنته متناهية فى الطول إذ تبلغ ١٦٥ سنة من سنى الأرض ؛ أما يومه فثقل أيام الأرض صيفا (١٥ ساعة و ٤٨ دقيقة) . فكيف يكون صالحا للحياة ؟

بلوتو :

أبعد الكواكب عن الشمس : ٥٩٠٧ ملايين ك - مترات . وسنته أطول سنى الكواكب إذ تبلغ ٢٤٨ سنة من سنى الأرض ؛ أما يومه فيبلغ ٦٦ سنة أيام ونصف يوم من أيام الأرض .

لهذه الأسباب مجتمعة لم تكن هذه الكواكب صالحة للحياة زرع ولا حيوان ولا إنسان . وهذه الأسباب أمبط الله آدم وزوجه من الجنة إلى الأرض ، ولم يمهله إلى كوكب آخر ولا لماعاش آدم ولا جواء ساعة واحدة . ولما كنا نحن شيئا يذكر على الإطلاق . والآن نستطيع أن نفهم سر تخصيص الأرض دون غيرها من الكواكب فى الأمر الإلهى الحكيم حين قال لأدم وخواء وإبليس :

« قلنا امبطوا منها جميعا بمضكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

لقد هيأ الله الأرض للحياة ، وأعدّها للراحة وأودع فيها ما هو لازم لحفظ الحياة والنمو والإستمرار ، واللفظ القرآني « مستقر » يوحي بمان كثيرة ومزايا عظيمة خص الله العليم الحكيم الأرض بها كما قال سبحانه :

« قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها روافي من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » ، وما أكثر ما وصف الله الأرض بالقرار والمهد والخير والبركة . ويحيى الآن هذا السؤال : ما هي المزايا والصفات التي خص الله بها الأرض فصارت صالحة للحياة الطبيعية التي نعيشها فيها ؟

مزايا الأرض وصفاتها الطيبة :

للإجابة على هذا السؤال صورتان :
أحدهما موجزة كل الإيجاز .

وثانيتهما مفصلة بعض التفصيل . في الموجزة نقول :

إن الله تبارك اسمه أبعد عن الأرض كل الصعوبات المنافية لقيام الحياة واستمرارها بما قد وقفنا عليه في الكواكب الأخرى ومنها :
• القرب والبعد عن الشمس : فأولها تشد معه درجة الحرارة وثانيتهما تنخفض معه جدا .

• لاندأام الجو ، الصالح للحياة (أعنى الهواء) واندأام الماء وهما قوام الحياة .

• ضعف الكثافة الذي ترتب عليه ضعف الجاذبية وهي من لوازم الحياة .

• عدم مناسبة الدوران حول الشمس الذى ترتب عليه طول السنة أو قصرها كما مر .

• عدم مناسبة الدوران التى تدورها الكواكب حول نفسها الذى ترتب عليه طول اليوم أو قصره .

سبع مزايا للأرض :

وفى الإجابة المفصلة بعض التفصيل نقول: إن العلماء بعد بحوثهم الفلكية والحياة والجيولوجية والفضائية وغيرها وقفوا على سر اختصاص الأرض بصلاحياتها للحياة ورصدوا سبع مزايا لها لم تعرف لغيرها من الكواكب وهى:

١ - القرب المناسب من الشمس :

لأن المسافة بينهما تبلغ ١٥٠ مليون ك - م طولى فليست هى قريبة منها قريبا مضرا كعطارد والزهرة ولا بعيدة عنها بعدا مفسدا كالمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو . لذلك صلحت للحياة من هذه الجهة .

٢ - اعتدال الحرارة على سطحها :

اعتدال الحرارة من أنسب ملائمت الحياة . وقد اكتسبت الأرض اعتدال حرارتها من موقعها المناسب من الشمس . ويقول الفلكيون إن أقصى درجة تصل إليها الحرارة على سطح الأرض هى ٥٠ درجة مئوية . وهى حرارة محتملة نوعا ما ولها مواسم وللناس عهد بها وتحفظ منها .

٣ - اعتدال كثافتها ومناسبتها للأجسام . ويقول العلماء أن كثافة الأرض تفوق كثافة كل كوكب حتى كثافة الشمس نفسها .

٤ - اعتدال جاذبيتها :

بين الكثافة والجاذبية صلة وثيقة . ولما كانت كثافة الأرض معتدلة اعتدلت تبعاً لها جاذبيتها . ويقول العلماء أن جاذبية الأرض لو قلت على ما هي عليه الآن - لطار من وما عليها في الهواء . ولوزادت للصق الناس بها فلا يستطيعون حراكا . فسميحان الذى قال : د الله الذى جعل لكم الأرض قراراً .

٥ - اعتدال دورتها حول نفسها :

يوم الأرض هو ٢٣ ساعة و ٥٦ دقيقة شاملاً الليل والنهار وهى دورة معتدلة جداً توزعت فيها فترات العمل (النهار) وفترات الراحة (الليل) توزعها حكماً توازنت فيه الواجبات والحقوق على النحو الذى نحسه ونراه وهذا عمل رائع للإرادة الإلهية الحكيمة يظهر أثره إذا قارنا يوم الأرض بيوم غيرها من الكواكب التى تتفاوت فى الطول والقصر .

٦ - اعتدال دورتها السنوية حول الشمس :

ومن أروع مزايا الأرض اعتدال دورتها السنوية حول الشمس التى تنقسم عنها الفصول الأربعة (الشتاء والربيع والصيف والخريف) وتعاقب هذه الفصول فيه خير كثير للأحياء فكل فصل يمتد ثلاثة أشهر وتقبل الأحوال الكونية تبديلاً تدريجياً من البرودة إلى الحرارة ومن الحرارة إلى البرودة حتى لا يضار الأحياء الذين عليها . كما تساعد هذه الفصول على إنبات الزروع كلا فى وقته المناسب . ونحن نعلم أن بعض النبات لا ينمو إلا تحت درجة عالية (النباتات الصيفية) وبعضها لا ينمو إلا شتاء . وهكذا وأسرار الحكمة الإلهية فى هذا المجال لا تحصى ولا تعد . فسميحان الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . وكيف كان سيكون الخان لو كان عمر الفصل الواحد اثنين وعشرين يوماً كما كان فى بعض الكواكب ١٤٠٠

٧ - غناء جو الأرض ،

في الأرض ماء مسلوك في البحار والأنهار والمحيطات والآبار والعيون
ومن الماء جعل الله كل شيء حي ، ولو خلت الأرض من الماء هلكت الزروع
وجفت الخضوع ومات كل حي كان على ظهرها .

وفي الأرض غلاف هوائي يمد النبات والإنسان بعناصر الحياة ويخفف
من حدة حرارة الشمس . واحتياج الأحياء إلى الهواء ألزم من احتياجهم
إلى الماء . فالإنسان - مثلاً - يحتاج إلى مقادير محددة من الماء يتناولها في
فترات متقطعة بينها مدد زمنية تطول في الشتاء وتقصّر في الصيف ، وللإنسان
صبر على الماء وبخاصة في عبادة الصيام . كما أن له استغناء عن تناوله تماماً
في الليل حين يأوي إلى فراشه وينام .

أما الهواء فحاجته إليه دائمة ليلاً ونهاراً صائماً ومفطراً ؛ لأنه في عملية
الشهيق (إدخال النفس في الصدر) يأخذ من الهواء (الأوكسجين) الذي
تشتد الحاجة إليه . وفي عملية الزفير (إخراج النفس من الصدر) يطرد
(ثاني أوكسيد الكربون) وهو عنصر سمي قاتل ، هاتان العمليتان (الشهيق
والزفير) لا يتوقفان إلا عند الموت . ويحتاج الإنسان في الأواحل العادية
إلى إجراء العمليتين إلى ما يقرب من عشرين مرة في الدقيقة الواحدة .

وهما تجريان بدون تدخل من الإنسان (أتوماتيكياً) ولو توقف - دوماً -
على عمل الإنسان كما حثّاه الماء لما وجد الأحياء وقتاً للعمل ولا للنوم .
لذلك يسر الله اللطيف الكريم حصول الأحياء على عمليتي (الجذب والطرْد)
ليتفرغ الإنسان للأعمال الأخرى . وليجد وقتاً للنوم مع ضمان استمرار
العمليتين بشكل منظم ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظالم
كفار ، ١٩

إعادة تصنيع العادم :

علمنا أن حصول الأحياء على عنصر الأوكسوجين ، وطرده (ثاني أوكسيد الكربون) ضرورة ملحة من ضرورات حياتهم . ونريد أن نعلم أن الله تدبيراً آخر في تيسير هذه النعمة واستمرار مواردها على شكل مذهب للقاية .

عملية التمثيل الضوئي :

لإحتياج النبات والزرع للعنصر (ثاني أوكسيد الكربون) كإحتياج الأحياء لعنصر (الأوكسجين) وثاني أكسيد الكربون يعتبر بالنسبة للإنسان (عادم) على حد التعبير الاقتصادي المعاصر ، أى انتفع به مرة ولا يمكن انتفاعه به مرة أخرى وهو على حالته تلك ، وعلماء الاقتصاد لديهم مبدأ معروف هو (إعادة تصنيع العادم) ليمكن الإنتفاع به مرة أخرى كإعادة طبع ، ورق الصحف والمجلات وصقلها لاستعمالها مرة ثانية . وهكذا . هذه العملية يجريها الله الحكيم الخبير دون إحتياج إلى أجهزة وآلات ومصانع ومهندسين وأيد ماهرة . فثاني أوكسيد الكربون السام الذى يطرده الإنسان فى عملية الزفير هو غذاء لازم للزرع والنبات ، يقوم بامتصاصه من الجو ، ثم يتمثله ، وبعد حصوله على حاجته منه يطرده وقد أعاد تصنيعه (أوكسوجين) مرة أخرى فيعود الإنسان يتناوله فى عملية الشهيق ، وهكذا تتم هذه (المبادلات) فى هدوء تام فى كل لحظة ، ونحن لا نشعر ؛ لأنها عمل قدره هائلة ليست قدرتنا وإنما هى قدرة (الصانع العظيم) وتدبير حكيم ليس تدبيرنا ، وإنما هو تدبير (الحكيم) ١٩٠٠

فهل هذه التدابير والحكم من صنع المادة الضياء العمياء البكماء ؟ كلا وبارئ السكائنات . بل من صنع الله الذى أتقن كل شئ . ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

لنا كل شيء خلقناه بقدر:

الهواء الذي نستنشق في يسر وسهولة ففجيا وننمو ونعمل . هذا الهواء مكون من عنصرين عظيمين: (الأوكسوجين والنيتروجين) ونسبة الأوكسوجين فيه تبلغ ٢١٪ ونسبة النيتروجين تبلغ ٧٨٪ فهل وراء تحديد هذه النسب الدقيقة من سر وحكمة ؟ .

أي وربي إن من ورائها سرأ عظيما وحكمة بالغة مذهلة . يقول علماء هذا الشأن : إن نسبة الأوكسوجين لو قلت عن هذا المقدار لمات كل الأحياء اختناقاً ؟ .

ولو زادت عن هذا المقدار لساكن عود كهريت صغير يشعله رجل في أحد أطراف الأرض كفيلا بإحراق كل ما على الأرض من زرع ونبات وحيوان وإنسان ؟ .

« وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم »

ميل الأرض على محورها :

جربى بنا أن نشير هنا - إلى عجيبة من عجائب الصنيع الإلهي المتقن الحكيم فقد رصد علماء الهيئة انحرافا أو ميلًا للأرض على محورها قدره ٢٣ درجة . ولم يكن هذا الميل اعتباطا وإنما لحكمة جليلة من حكم الصانع العظيم (الله) .

إذ لو لا هذا الميل الذي ترتب عليه حدوث زاوية في وضع الأرض على محورها قدرها ٢٣ درجة لاختل نظام الفصول الأربعة المنتقلة على الأرض ولا أصبح وسط الأرض صحراء محترقة في صيف دائم . وأصبح شمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام من الثلج .

ولو زاد هذا الميل عما هو عليه - الآن - لأصبحت المنطقتان المعتدلتان

كالقطين . إما في ليل وشتاء طويلين . أو نهار وصيف طويلين . لهذا كان الخير كله والكرم كله ، والحكمة كلها فيما قدره الله وأراده .

وباجتماع هذه الأسباب كلها : من السرعة إلى المسافة إلى المدة إلى شكل الأرض ، وشكل مدارها ، إلى الميل على المحور كانت الفصول الأربعة وتم الاعتدالان ، وحصل التبخر في مياه الأرض ، وحملت الرياح الأبخرة وكثفتها الأجواء الباردة في الأفق ، وسيقت إلى البلاد الميتة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . واصلحت الأرض للحياة فكانت مهذا وذلولاً نمشي في مناكبها ونأكل من رزق الله وإليه النشور .

أهذا الصنع المحكم البديع صنع المادة ؟ أم صنع الصدفة ؟ كلا ربارىء الكائنات . إنه صنع الله الذى أنقذ كل شئ خلقه ، وذلك تقدير العزيز العليم .

الإنسان موضوع للتأمل :

عرفنا أن فى ملكوت السموات والأرض (الكون) رصيداً زائراً من دلائل الإيمان بالله ، لا على أنه موجود لحسب ، بل على كمال علمه وإرادته وقدرته وكرمه وتديبه ، وأنه ليس كمثل شئ .

والواقع أن قضية وجود الله ، لما كانت دلائلها ظاهرة جليلة فإن القرآن - فيما أرى - واجه قضية التوحيد ، أكثر مما واجه قضية الوجود ، وذلك فيما أرى لسببين :

أولهما : الإشارة إلى أن مبدأ وجود الصانع العظيم (الله) ينبغى أن لا ينازع فيه عاقل فدلائله أظهر من أن يبحث عنها ، فهو مبدأ مفروض مكمل وينبغى عدم النزاع فيه .

ثانيهما : أن إثبات أدلة التوحيد ، تقتضى لزوماً إثبات قضية الوجود ،

وهذا موضوع أشير إليه هنا مجرد إشارة ، وهو جدير بأن يفرد ببحث خاص من واقع رصد النصوص القرآنية وتحليلها ودراساتها . وآمل أن يهيء الله لنا أسبابه فنمضي فيه على هدى منه .

والإنسان كالمكون فيه من دلائل الإيمان بالصانع العظيم رسيد زاهر . ولو أن إنسانا النفس براهين الوجود والتوحيد وتفرد الله بالجلال والجمال والجمال من داخل نفسه (نفس الإنسان) وأحسن التبصر والاعتبار لما احتاج إلى دليل آخر يهديه ، اللهم إلا إذا أراد تكرار النظر في براهين فكرة هو بها مؤمن من طريق آخر أصدق إيمان . ومفتاح أقبال الإنسان على نفسه ليستخرج منها قواطع البراهين على الإيمان بآله هو قوله تعالى :

« وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

أجل . ما أبدع الصنعة الإلهية في خلق الإنسان . وما أحكم وأدق تخطيطه وتكوينه .

فالإنسان موضوع دراسات عميقة ومتعددة لكثير من فروع العلم الحديث من طب وعلم نفس ، واجتماع ، وأخلاق . إلخ ، إلخ . ويمكن في علم الطب أن يقف الإنسان على علم التشريح ، فيرى من الداخل أصول ملكة إلهية تسحر العقول وتأخذ بالآليات ، ويمكن أن يعلم الإنسان بما وقف عليه العلماء من حقائق مذهلة في تركيبية الإنسان . وما يستفادوه منها في واقع الحياة العملية المعاصرة .

فن وقوفهم على تصميم جهاز الإبصار ، العين تعلوا تصميم آلات التصوير ومن وقوفهم على تصميم جهاز السمع ، الأذن تعلوا تصميم آلات ميسرات الصوت ومن وقوفهم على تصميم جهاز التخليق ، الرحم تعلوا تصميم

أناييب أطفال الأناييب ومن وقوفهم على تصميم رسم الأنامل، اهدوا إلى وسيلة الكشف اليقينية ، أخذ البصمات ، واستعانوا بهما على معرفة ، الفاعل المجهول .

ومن وقوفهم على تصميم جهاز الشم ، تعلموا صنع أجهزة إدراك الروائح مع الفوارق العظيمة بين الخلق الإلهي والتقليد البشري (٦٠).

ومن وقوف العلماء على تصميم الذاكرة ، تعلموا صنع « الكمبيوتر » لتخزين المعلومات وتنظيمها وتزويدها في وقت الحاجة إليها .

ولكن صنع الله الذي أتقن كل شيء معجز كل الإعجاز . فهذه الأجهزة الإلهية مكرنة من عصب ودم وشحومات وعظم ولحم . بينما صنعة البشر تقوم على الضخامة وتصنع من المعادن . فكيف يبلغ حجم العين ، من حجم آلة التصوير ؟

وكيف يبلغ حجم الأذن من جهاز آلة تكبير الصوت ، وكيف يبلغ حجم الأنف من جهاز تمييز الروائح الست ؟

صنعة لا تحاكي :

وإذا كان الإنسان قد استفاد من وقوفه على تصميمات أجهزة الهيمنة في الإنسان فحاكها ومنخرها لمصلحته . فإن كثيراً من « صنائع الله » تتأبى على التقليد والمحاكاة .

فمثلاً ظاهرة الصوت تختلف من إنسان إلى إنسان لدرجة أنك متى سمعت صوت إنسان لك به معرفة من قبل فإنك تعرف أنه « فلان » قبل أن يقع عليه بصرك . فالإنسان يعرف عن طريق السمع بصيرته كما يعرف عن طريق

(٦٠) ورد في برنامج « العلم والإيمان » التليفزيوني أن العلماء تمسكوا من صنع جهاز للشم لا يعيز أكثر من ست روائح مع أن آلاته ثلاث غرف كبيرة !

البصر بملاحظته ولونه فما هو السر في اختلاف أصوات الناس مع أن العضو الناطق (اللسان) واحد في الجميع ؟

واختلاف الألوان حتى بين الأشقاء ما سره وما مصدره ؟

قد يقول بعض الناس من المتعجلين المخدوعين بظواهر العلوم إن اختلاف الأصوات قد يرجع إلى طبيعة الأحبال الصوتية ، وأن اختلاف الألوان قد يرجع إلى عامل الوراثة (الجينات) والبيئة هذه التفسيرات وإن شاع الأخذ بها فإن القائلين بها يجهلون حقيقة اللغة الأهمية . فبالرجوع إلى القرآن الكريم نرى أن اختلاف الأصوات والألوان من بدائع صنع الصانع الحكيم وأن الله معوي بينهما في أنهما من إبداءه كإبداء السموات والأرض وفي ذلك يقول :

« ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ،
إن في ذلك لآيات للعالمين » الروم (٢٢) .

وحق لو أرجعنا هذه الظواهر الخارقة إلى أسباب معلومة فن الذي خلق تلك الأسباب وربط بينها وبين مسبباتها ؟ أله غير الله تعالى الله عما يشركون .

عمليات الهضم والتمثيل :

لا بد للإنسان من طعام يهره ، وشراب يرويه . وليس للإنسان من عمل إلا أن يجلس على المائدة فيتناول الطعام ويضمه في فيه ويقضمه ثم يقذفه إلى مستودعه الأمين .

وحق في هذا الجانب الذي يختص به الإنسان . فلولاً اليد التي خلقها الله ، ولولا الفم الذي خلقه الله ، ولولا القواطع والأضراس التي خلقها الله ، ولولا البلعوم الذي خلقه الله لما تمكن الإنسان من الانتفاع بطعامه ، ولا شرابه . ولكن بمعونة الله تمكن واستطاع .

وتبدأ بعد هذه المرحلة مرحلة أخرى لاعلاقة من قريب أو بعيد للإنسان بها . فالجسم لا يستفيد من هذه النعم إلا بعد أن تمضم وتتحول إلى غذاء طيع للجسم (دم - جلوكوز) ولكي يتحول الطعام إلى هذه الدرجة لابد من أجهزة دقيقة تعمل ، وعمليات كيميائية تجري . ولكن كيف تعمل تلك الأجهزة . ومن يديرها . وكيف تحدث تلك العمليات الكيميائية الدقيقة المعقدة ؟ ومن أين تأتي المواد اللازمة لإجرائها ؟ ومن الذى يقدر نسبها وأحجامها . أفى الجسم خبراء ومراكز بيع مواد كيميائية ومعامل تشرف ؟

كلا . إن الإنسان وهو يتناول طعامه كالزراع الذى ينتهى دوره بوضع البذر فى الأرض وسقيه بالماء ثم ينصرف إلى حال سبيله ولا علاقة له قط بعملية الإنبات والإماء !

والقدرة التى تنبت النبات وتنميه وتقويه وتمضجه وتؤتى ثماره هى القدرة نفسها التى تعمل داخل جوف الإنسان ، فتشرف على عمليات الهضم والنمى والتنقية والتوزيع ، وهى التى تأمر الأجهزة بإفراز العصارات اللازمة لعمليات التحويل الكبرى التى تجرى بداخل الإنسان والإنسان غافل لاه عما يدور بداخله .

وتلك القدرة هى التى تبقى فى الجسم العناصر الصالحة للحياة ثم تطرد ما عداها من عناصر ضارة ومؤذية . فليسأل الإنسان هل لو بقى الطعام الذى يتناوله على حاله وطبيعته أكان ذلك يفيد أم يضره . وهل هو الذى يقوم بعمليات التحويل التى لولاها لمات الإنسان انمخا ؟ إن عناية الله بحياة الإنسان ، والله بالإنسان رءوف رحيم لا يكلفه إلا ما يستطيع . أما ما لا يستطيع - وهو لازم له - فإن القدرة الإلهية تعفيه من المسئولية عنه وتقوم هى بخدمة الإنسان فى صمت دون أن تكلفه من الأمر شيئاً .

أليست هذه دلائل إيمان بالخالق العظيم . وبراهين وجوده وتوحيده وكال مطلق .

حسن التصوير ومرونة التركيب :

في التركيب الداخلي للإنسان دلائل إيمان كاملة لا يحتاج معها المؤمن إلى دلائل . واستقصاء بدائع الصنعة ، في الإنسان يحتاج الكشف عنه إلى جهود وعلماء متخصصين في شتى مجالات العلوم . وأين نحن من هذه المنزلة الصعبة المرتقى . إننا لانملك إلا تردد قول الشاعر في شكواه من الحرمان وتمنيه أن يكون طائرا ليدرك ما فاته من آمال :

أهرب القطار من يعبر جناحه اعلى إلى من قد هويت أطير ١٩
ونلتقط - الآن - صورة من الظاهر لتلك المملكة الإلهية المعجزة التي حالت حصونها دون توغلنا في أعماقها . ولهذه الصورة التي سنلتقطها بمدان :

إحدهما : حسن التصوير وجمال الاستقامة في بناء الإنسان .
وثانيهما : مرونة التركيب والمهارة في القدرة على التصرف حسب الحاجة .

* حسن التصوير :

من الله على الإنسان لاتعد ولا تحصى . ومن أجلها وأظهرها جمال التصوير وحسن التقويم في البناء الهيكلي للإنسان . فعلى كثرة ما خلق الله من شيء فإن خلق الإنسان جاء على أجل الأشكال وأبهى الصور وهذه حقيقة لم ينزع فيها أحد .

وقد أقسم الله - وهو صادق أقسم - أن لم يقسم - بأن تقويم الإنسان هبة من الله لم يهبها لخلق مما نحسه ونراه .

والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، وحسن تقويم الإنسان أنه لم يخلق زاحفا ولا من ذوات الأربع ولا لكان حشرة أو منكس التكوين كالحيات والقيلة والبغال وحسن

تقويم الإنسان واعتدال شكله نعم جليلة ومظهر من مظاهر التكريم والتفضيل
الذى امتن الله به على عباده ، وتودد إليهم به وهو غنى عنهم .
« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ؟ » الذى خلقك فسواك فعدلك .
فى أى صورة ما شاء ركبك ، ؟

فن شكر هذه النعم أن لا يفتخر الإنسان بربه البكرىم فيقابل النعم بالمعاصى
ويقول :

« الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ، والسماء بناء ، وصوركم فأحسن
صوركم . . . »

أجل . لقد أحسن الله صورنا أحسن تصوير وفضلنا على كثير من خلقه .
وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة هذا ، وقد ورد فى الحديث : « إن الله
خلق آدم على صورته ، وهذا الحديث يطابق دلالات الآيات ويقتضى أن
الإنسان مخلوق على هذه الصورة من يوم خلق الله أبا البشرية آدم ولم يفتحدر
الإنسان عن أصل كان يجمع بينه وبين القرد كما زعم داروين الدجال . »

« مرونة التركيب :

إن تركيبة الإنسان مصممة تصميميا بديعا ، ومهيئة تهيئة موافقة جدا
للأعمال المختلفة التى يزاولها الإنسان فى كل عصر من عصوره .

فتأمل أخى المؤمن تركيب اليد ، من أطراف الأصابع إلى الكتف
وجرب الأوضاع الممكنة التى يمكن تحدث فيها حسب حاجة الإنسان
والأعمال التى يهرفها ويريدها . فهى إن تركبتها على سجيتهما تدل ملاءمة
للجنب ، هذا وضع من أوضاعها . فإذا لقيت صديقا فى الطريق وأردت أن
أن تصافه طاوعتك اليد فى الامتداد صانعة مع أعلاها زاوية مختلفة الأبعاد
حسب وضع اليد التى أنت تصافحها . قائمة أو حادة أو منفرجة . وإن أردت

بمعاقته طاواعتك يداك فالتفتا حول صديقك الجهم . كما تطاوعك يدك أو يداك بالخضوع التام حسب التصرف المطلوب منهما . سواء كنت فلاحاً تحرث الأرض، أو قائداً لمركبة أو طائرة، أو مهندساً أو طبيباً أو بناءً أو طاهياً أو نجاراً أو جندياً في الميدان . تمتد معك في الجهات الست أماماً وخلفاً وشمالاً وجنوباً وفوقاً وتحتاً وما بين هذه الجهات من جهات متداخلة لا حصر لها . تتحرك إحدى يديك حسبما تريد إن احتجت إلى استعمال يد واحدة وتتحرك يداك معاً إذا احتجت لاستعمال كلتا اليدين .

وذلك بفضل التدبير الإلهي عند خلقك وتكوينك . فقد جعل لك مفصلاً مرفقاً عند الكتف يمكنك من تحريك اليد كلها من مبتدئها الأعلى إلى منتهاها الأسفل إذا أردت أن تستعمل هذا المستطيل كله في عمل تطلب منك هذا الاستعمال، وجعل لك مفصلاً وسطاً عند منتصف المستطيل لتتمكن من الحركة النصفية إذا أردت . وجعل لك مفصلاً ثالثاً عند اتصال بداية الكتف بنهاية الذراع وبهذا التركيب المرن أمكنك أن تتحكم وأنت تصرف يدك على ثلاث درجات :

- درجة تستعمل فيها كل العضو من الكتف إلى النهاية .
- ودرجة تستعمل فيها النصف الأسفل من بداية الذراع إلى النهاية .
- ودرجة تستعمل فيها الكتف وحدها من بدايتها عند منتهى الذراع إلى النهاية .

والآن - الآن - أن تسأل نفسك : ماذا كنت ستفعل لو جعل الله هذا جلي شكل مستطيل صلب خال من « المفاصل » ، ممتص على الثني ؟
إنك في هذه الحالة لن تتمكن من عمل شيء ؟ فبم - إذن - ترفع الطعام والشراب إلى فمك ؟

أتمخطمه كما تمخطمه الماشة ؟ هب إن هذا ممكن، ولكن من الذي سيعطو

لك الطعام ؟ ومن أين يكون الطعام يا ترى ؟ إننا لا نملك وسيلة نتخربث بها الأرض ، ونضع فيها البذر ، ونرعى الزرع ونحصده ونذريه ونطحنه ونخبذه ونخبزه ؟ لا شيء من ذلك سيكون . إننا سنسكون في هذه الحالة آلة صماء لا تعمل .

إن كل شيء سوف يتوقف ، والسبب أن هذه اليد ، جمدت ولم تتحرك بلجمدت معها حركة الحياة .

والآن : أفلا بحق للصانع المدبر أن يلفت أذهاننا إلى أنفسنا لننظر فيها صنعة البديع وتدبيره الرائع . فيقول : ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، . ويقول :

، سربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، .

الدقائق للدقائق :

ومن العجب العجيب في خلق الله الإنسان وتكوينه وتشكيله ، التكيف وماحوت ، ففي جعل السكف كثيفة منبسطة حكمة مذهلة ، وفي تفرع الأصابع منها جكمة أكثر ذهولا . ولنتكئنا نمر على هذا كله ونحن غافلون . وتؤدي السكف مع مجموعتها النشطة المبرنة ، الأصابع ، مهمة جليلة : القبض والبسط ودقة التصرف إذا احتاج العمل ، إلى بسط وقبض ودقة تصرف . والإنسان يعمل بيده أعظم أعماله وأجلها وأبدعها وأروعها . وللأصابع في بديع صنع الإنسان دور بالغ الأهمية . بل إن دقائق صنع الإنسان إنما هي وليدة هذه الأعضاء الدقائق . ولولاها ما عرف جليل حضارة الماضي . وما اطلع حاضر على نتاج غابر من العلوم والفنون والآداب . فمتخيل مثلا تلم بحضارات القدماء في شتى مظاهرها مصنوعة أو منقوشة أو منسجونة في كتاب . نحن نقرأ الياذة اليونان القدامى والأوديسا . وبدائع الرومان . والفراعنة والهنود وغيرهم من أمم الحضارة . ومعاهد العلم .

نطالع جمهورية أفلاطون ، وآثار كونه شيوث ، وقانون جوراني ،
وغفران أبي الملاء ، وقانون ابن سيدنا وإشاراته ، ونهايت فلاسفة الغزالي ،
ونهايت التماث لابن رشد ، وكرويديا داني ، ونقوش وادي النيل وما بين
النهرين . بل ونسود وتسجد معنا أرواحنا ونحن نقرأ المصحف الشريف ،
وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، ورسالة الإمام الشافعي ، وموطأ مالك ، ومسنند
الإمام أحمد ، وتفاسير ابن عطية وابن جرير وجار الله الزمخشري . وغير هذا ،
بما أبدع وراع من توجهات السماء وحضارات الأمم . ولولا هؤلاء الجنود
والخمس ، التي تسطرك هذا الكلام الآن ، الأصابع ، ما كتبت يد كاتبة لعين
قارئة . ولا ستغلق كل جيل على من يليه . ولتوقفت الحضارة الإنسانية عند
درجة الصفر فالأصابع هي آلات الخدمة والإبداع . وهي أدوات ومطوعة ،
لما يراد منها . وقد فصلها الخاق تفصيلا رائعا كما فصل المصنوع الحامل لها .
فسمي استعمالها ، وأمكن في بسر تذهيبها وتحريكها . فهي سلاح الخبير في
« مختبره » ، وسلاح الكاتب في « محرابه » ، وسلاح المهندس في « مكتبه » ،
وسلاح الحائك في « حانوته » وسلاح الجندي في « ميدانه » وسلاح الفنان
في « كوخه » وسلاح الصانع في « مصنعه » وسلاح التاجر في « متجرك » ،
وسلاح الطاهي في « مطهاه » وسلاح الخباز في « مخبزه » ، وسلاح الطبيب
في « عيادته » ، وسلاح الجراح في « مشرخته » ، وسلاح كل عامل في « معمله » .
إن الأجيال تتناقل أصول العلم والمعرفة ، وبدائع الآداب والفنون ،
ونفائس الحضارات عن طريق النقوش والكتابة . وهما صنعة « الأصابع » ،
وما من عمل كبير أو صغير ، عظيم أو حقير إلا وبصمات هذه « الأطراف »
المبدعة ، ظاهرة عليه ، وكامنة وراءه . فهذه اليد وجنودها الخمس ، هي السلطة
التنفيذية لكل ما أبدعت العقول والقرائح . واليد وجنودها ظرف من
هيكل الإنسان . وكل في هيكل الإنسان من دقائق وأسرار وحكم أبدعها بديع
السموات والأرض . وقد صدق الشاعر الذي يخاطب الإنسان :

وتزعم أنك جرم صغير وفلك انطوى العالم الأكبر

وما يقال عن اليد وجمودها اللذين المهرة يقال عن مرونة الهيكل الإنسانى كله فقد فصله القادر الحكيم تفصيلا أقدره على دقة التصرف ، ومختلف الأوضاع من قيام وانحناء وجلوس والتفات وامتداد وانكماش وتنش . ولم يخلقه صلبا جامدا متأبدا على ما يراد منه ، بل خلقه مرنا طيعا منقادا بما يتفق وخير الإنسان فى دنياه وآخرته . فالإنسان من حيث هو جسم وروح وقدرة وإبداع إنما هو إحدى معجزات الخالق تسير على الأرض . ودليل ناطق من أدلة وجود الصانع المبدع . فهو برهان الإيمان أن أريد على الإيمان برهان ! ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، (٦) .

نذكرك فلا تنس :

نذكرك - أيها القارئ الكريم - فلا تنس ، أننا الآن فرغنا من فرع خطير من فروع هذا البحث ، وهو أن الماديين من علميين وشيوعيين لم يملكوا دليلا واحدا ولا شبه دليل - ولن يملكوا - على أن المادة أو الطبيعة هى التى خلقت نفسها ثم خلقت غيرها . فهذه دعوى خامسة بكل مقياس أو هى لا تصلح أن تسمى دعوى مجرد تسمية فى ميزان العقل والعلم والواقع .

أما نحن - المؤمنون - فلدينا من الأدلة والبراهين والحجج القواطع على صحة الإيمان بوجود الصانع العظيم ، الله ، وعلى توحيده وتفردية بالجلال والجمال والكمال ، لدينا من الأدلة والبراهين والحجج ما تنوء بحمله الرواسى وقد قدمنا منها ما سمح به المقام . ومن يرد أن يحصيها كلها فعليه أن يحصى كل شىء فى الوجود ؛ لأنه تبارك وتعالى كما قال حكيم من أحكم الشعراء .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

الشيوعية والدين :

لا يحتاج القارىء إلى ذكاء أو فطنة بعد ما تقدم لي معرف موقف الشيوعية من الدين لأن كل خطوة حذاها الشيوعيون إلى الوراء كانت وسيلة لا غاية أما الغاية فهي إنكار الدين وإزاحته من ساحات الريادة والتوجيه ليحلوا الجوع ، للثبث الشيوعى المسموم . وهذه دأبى ، الشيوعيين التى رقصوا لها وطبلوا وغنوا وما يزالون هم وعملاتهم من ينتسبون إلى الإسلام ظاهرأ ويطنون له العداء والحق يدركون ويظلمون ويظلمون ويغنون ويغنون لفظ المحموم المغطى عليه من الموت

الدين مخدر أو أفيون الشعوب ١٩

يقول ماركس عن الدين : إنه نشئة المخلوق المضطهد ، وشعوره بالدنيا التى لا قلب لها ؟ إنه أفيون الشعوب ، ١٩

ويقول : إنه الأفيون الذى يخدر الشعب لتسهل سرقة ، ١٩
ويقول : لأن الدين كان وسيلة الإخضاع الروحى كما كانت لدولة وسيلة الإخضاع الاقتصادى .

هذا وصف ماركس الدين ، وما كان ينتظر من رجل مثل كارل ماركس أن يقول عن الدين غير ما قال .

أما انجلز رفيق ماركس فيقول :

د ينشأ (الدين) قبل أن تنهج الوسائل التى يسكب بها الإنسان مديشته وأن الإنسان يواجه الطبيعة مباشرة فى تلك الحالة فتقف أمامه الطبيعة قوة غلبة غامضة فيعبد (الإنسان) ما لا يدرك منها ١٩ وما الدين إلا انعكاس القوى الظاهرية التى تسيطر على مديشته اليهودية .

ويقول : لأن أصحاب المصالح قد استغلوا المسيحية كلما وجدوا لهم

مصلحة في استغلالها لجعلوها دين الدولة بعد قرنين ونصف من ظمورها .
وجاء البرجوازيون في ألمانيا فأبدعوا البروتستانتية ولم يستفيدوا منها لضعفهم
فاستفاد منها الملوك المطلقون ، لأنها رفعت عنهم ساطان الكنيسة والدين جملة
هو الغذاء الخادع للضعفاء ؛ لأنه يدعوهم إلى احتمال الظلم ولا يزيله ، ويقول
ماركس في وصف المسيحية خاصة : « إن المسيحية تحبب الجبن واحتقار
النفس ، وإذلالها ، وتحبذ الخضوع والخسة وكل صفات الكلب الطريد ، ومن
أقوال عاتتهم عن الدين :

« كل مسألة اختلف فيها العلم مع الدين - فالصواب في جانب العلم ، والخطأ
في جانب الدين ، ١٩ »

« إذا تكلم العلم فليخرس الدين ، ١٩ »

معنى هذا الكلام :

يقصد العلمانيون والشيوعيون أن يصفوا الدين بأنه :
« وسيلة خادعة لجأ إليها الأغنياء والأقوياء ليتمكنوا من إحكام القبضة
على الشعوب ويسخروها لخدمتهم ١٩ » .

« إن العلم وحده - ويقصدون العلم المادى - هو مصدر المعرفة فيجب أن
يكون هو المطاع لا الدين ، لأن الدين من اختراع البشر وانعكاس لقوى
الطبيعية ، وصور المادة ١٩ »

« إن الدين يدعو إلى قبول الظلم والاضطهاد ويحط من كرامة الإنسان
بتخديره له ووعدته بالتعويض في حياة آخرة ١٩ » .

نقد ونقض :

من سوء حظ الشيوعيين أن الباطل مصاحب لهم في كل تصوراتهم . وهم
دائما يبنون تصوراتهم على أوهام ويتصيدون النظريات والآراء الباطلة
لتكون أسساً لا يذبوا لجياتهم .

فقد عوام أن الدين وسيلة لجأ إليها الأغنياء والأقوياء لإذلال الشعوب وضمان السيطرة عليهم . هذه الدعوى أول من قال بها السوفياتيون ثم أخذها عنهم فلوتير . وقد تقدمت الإشارة إلى هذا فيما قبل . وكانت هذه الدعوى في الأصل أهلياً مباشراً عند الشيوعيين على المسيحية بوجه خاص كما تقدم آنفاً عن انجلز . ثم عممها عملاء الشيوعية فيما بعد فطبقوها جزأفاً على الإسلام . وهي - في الواقع - أكذوبة على المسيحية والإسلام معاً .

فالمسيحية والإسلام دينان سماويان . وليس من انعكاس الطبيعة ولا من اختراع الإنسان وقد حسمتنا الموقف في هذه الدعوى ، في غضون هذا الكتاب .

وتاريخ المسيحية والإسلام معاً يكذب دعوى الشيوعيين أن الدين عامة ، أو المسيحية خاصة كانت مصيدة الفقراء التي دنهم إليها غيرهم من الأغنياء والأقوياء .

لأن المسيحية آمن بها الأغنياء والأقوياء من المسيحيين كما آمن بها فقراؤهم وضعاؤهم . وكلهم كانوا صادقين في الإيمان بها . ولو كانت المسيحية مصيدة وحسب لما زج أغنياء المسيحية وأقوياءها أنفسهم فيها وقراءة التاريخ في هذا المجال تكشف عن جهل الشيوعيين ومغالطاتهم لحقائق التاريخ القديم والحديث .

أما إذا أريد الإسلام بهذه المقولة فإن تاريخه منذ عصر نزوله لا يكتفي بتكذيب الشيوعيين والكشف عن جهلهم غصب . بل ينسفهم نفساً من الوجود الإنساني أو يخرجهم من دائرة العقلاء لإخراجهم لارجعة فيه .

فقد انضوى تحت لواء الإسلام أغنياء الأغنياء ، وأقوى الأقوياء كما انضوى تحت لوائه الأحرار والعبيد ، الرجال والشباب والنساء والأطفال والفقراء والضعفاء على حد سواء .

فعبد الرحمن بن عوف ، وأبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان كانوا من أغنى أغنياء العرب . ولم يمنعهم ثراؤهم وحسبهم وقوتهم وشرف أرومتهم من أن يرتموا في أحضان الإسلام ، وأن يبذلوا الغالي والنفيس من ثرواتهم في سبيل الله ونصرة الدين .

من عادي دعوات الرسل على مدى التاريخ النبوي كله من الأغنياء والأقوياء فإن سبب عدائهم للرسل معروف . فاشتغال الفتى بماله . واغترار القوى بقوته كان هو سبب الأسباب في الهداء والإعراض والإعتراض . والقرآن يالدم للعالم تفسيرا صادقا كل الصدق . مما يعتبر قانونا من قوانين علم النفس البشري : « إن الإنسان يطفئ أن رآه يستغنى ، فطفئان بعض الأغنياء والأقوياء طبيعة من طبائع النفوس .

هذا ، ولو كان للشيوعيين بصيرة بالتاريخ ، وفقه بمراميه ، وإلمام بخط سيرهم لعلوا أن الواقع التاريخي يعكس دعواهم تماما . ويظهرهم وهم يرتدون ثياب الزور والبهتان .

فدعوى الشيوعيين أن الدين من اختراع الأغنياء كذوبة تاريخية لا تقل شناعتهما عن شناعة قوطهم : إن المادة هي الخالقة : خلقت نفسها ثم خلقت غيرها ١٩ .

ذلك ، لأن التاريخ الديني النبوي يدل بوضوح على أن الأغنياء ، والأقوياء كانوا دائما يقفون في طريق الدعوات السماوية ، ويمادون الرسل ويهمونهم بالكذب ويحذرون الناس من متابعة الرسل وتصديقهم . والشواهد على ذلك كثيرة ومنها :

• قول كبراء نمود اضعفاتهم لما بعث الله إليهم صالحاً عليه السلام :

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا من آمن منهم .

أتعلمون أن صالحا أرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا . إنا بالذي آأنتم به كافرين ، الأعراف (٧٥ - ٧٦) .

• وقول قوم شعيب لشعيب ولما آمن معه :

• قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن ... ، الأعراف (٨٨) .

• وقول قوم نوح في وصف من آمن به منهم :

• ... وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الراى وما نرى لكم علينا من فضل . بل نظنكم كاذبين • هود (٣٧) .

فالأقوياء تكبرا وغناههم أعدى أعداء الرسل :

• إتهموهم بالكذب على الله .

• حذروا الناس من تصديقهم واتباعهم .

• شهروا في وجوههم السلاح وأنزلوا بهم أشد صنوف الأذى والعذاب

• أضلوا غيرهم فحذبوهم إلى حزبهم .

ولذلك فإن خصومة عنيفة ستشعب بينهم في عاقبة الأمر حين يقول الضعفاء لربهم .

• ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا • ربنا آأنتم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبريا ، الأحزاب (٦٧ - ٦٨) .

• وحين يقول بعضهم لبعض في النار :

• وإذا يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاء ، فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها • إن الله قد حكم بين العباد ، غافر (٤٨ - ٤٩) .

هذا هو موقف (البرجوازيين) الأغنياء ومالكي الثروات من الدعاة والرسل موقف عدااء سافر ، وتسكذيب مستمر . فلو كان الدين من اختراع أصحاب المصالح كما يقول حزب الشيطان من سوفسطائيين وعلمانيين وشيوعيين لما كان لهم هذا الموقف المخزى من الدين بل اناصروه وحشروا العامة عليه لينبدوا لهم ، جرعة المخدر ، فيعيشوا في ، غيوبة الأفيون ، ولا يفقهون ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا ، .

شبهة وردها :

ولكن قد يقول قائل : إن هذا ما يقرره القرآن وهم غير مؤمنين بالقرآن فلا يلزمهم حجة بما تقول ؟ .

والرد : إن الذي يقرره القرآن هنا هو ما قرره تاريخ الإنسانية المحفوظ . والقوم - أعني الشيوعيين - وإن لم يؤمنوا - معنا - بالقرآن فهم مؤمنون بالتاريخ ، وقد اعتمدوا عليه في مذهبهم الاقتصادي . فالحجة قائمة عليهم بهذا الاعتبار .

وإن ارتابوا في وقائع التاريخ فإن في الواقع المعاصر ما يلزمهم بالحجة وبصدق التاريخ . فإن أصحاب المصالح والسلطان هم الآن من أعدى أعداء الدين لأنهم يخشون منه تحريره للإنسان وتبصيره لإيائهم بحقوقهم . وأصحاب المصالح (البرجوازيون) يعتبرون هذا من الدين تحريضا عليهم لتقويض عروشهم وحرمانهم من أساليب البطش والطغيان واستئلال الناس . وإنجلز نفسه قد أدرك هذه الحقيقة حين قال إن الملوك المطلقين قد استغلوا البروتستانتية - لأن فيها نزعة تحرر من قيود رجال الدين - واستفادوا منها ؛ لأنها خلصتهم من سلطان الكنيسة . إذن فدعوى الشيوعيين أن الدين توافقة مخترعة اختراعها أصحاب المصالح من ذوي المصانع والإقطاع ورؤس المال ليخدروا بها الشعوب . هذه الدعوى أ كذوبة مفصوحة لا سند لها من

التاريخ ولا من الواقع شأنها شأن كل الدعاوى والتصورات الشيوعية سواء وقفوا بها عند حدود المسيحية ، أو تجاوزها إلى الإسلام . فهم - على أى تقدير - مخطئون مبطلون .

هل الدين مخدر كما يقولون ؟

كذب الشيوعيون فى دعواهم أن الدين من اختراع أصحاب المصالح ورجال الإقطاع حين أرادوا أن يفسروا أسباب نشأة الدين من الوجهة التاريخية والوجهة النفسية والوجهة الاجتماعية ، والوجهة الاقتصادية .

وكذب الشيوعيون حين أرادوا أن يفسروا واقع الدين وحقائقه وغاياته ومقاصده بأنه مخدر للشعوب . يزين لهم الخنوع ويحبب إليهم الذل ، ويسوغ عندهم الظلم والاضطهاد .

كذبوا فى هذه الدعوى كما كذبوا فى غيرها . وجهلوا الدين كما جهلوا حقائق التاريخ وثمرات العلوم .

والجدير بالذكر ، التحقيق بالتدبئة أن الشيوعيين استنتجوا هذه الدعوى الكاذبة من مطالعات مخدوعة فى الديانة المسيحية . ووقفوا عند نصوص مبالغ فيها فى الدعوة إلى السلام والتسامح مسطورة فى الأنجيل من مثل : من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومثل : باركوا لاعنيكم ، وما أشبههما .

ولهذا فهم ماركس أن المسيحية تبارك الجبن ، وتعبد الذل والخنوع وكل صفات الكلب الطريد ١٩

وقف ماركس عند ظواهر هذه النصوص . ووقف مثله الشيوعيون من بعده ولم يقيموا شأن الحقائق التاريخية المحفوظة ، وفيه أن المسيحيين ناضلوا

فضلا مريرا من أجل دينهم ضد الرومان ، وضد اليهود وسقط منهم الشهداء بالآلاف .

ومعلوم أن الدين الذي قصده الشيوعيون - وبخاصة في عبارة ماركس التي يقول فيها أن المسيحية تحبذ الذل والخنوع - إنما هو الدين المسيحي لحسب . وعبارات ماركس وإنجلز صريحة في هذا الإفصاح كل الصراحة وليس معنى هذا أن الشيوعية لا تعادى الإسلام ، بل هي أشد عداوة له من عداتها المسيحية . ولكن سبب أو أسباب عداتها للإسلام غير سبب أو أسباب عداتها للمسيحية . وإن كان في أسباب العداة لهذا ولتلك قدر مشترك بين الديانتين العالميتين . فقد كرهوا في الإسلام غير الذي كرهوه في المسيحية على ما سيأتي تفصيله قريبا بإذن الله .

جمل روس الشيوعية بالأديان :

ماركس وإنجلز هما رأسا الشيوعية المدبران ويداها الخائكتان لنسجها لجة وسدى ، وهما - مع هذا - كانا جاهلين كل الجمل بحقائق الأديان ولم يعرفا عنها إلا القشور والزيء . وقد انعكس جملهما بالأديان على أتباعهما في عصرهما ومن بعدهما وإلى هذا الوقت الذي نسطر فيه هذه السطور . يدلك على هذا كلام الرجلين عن الدين وفهمها له .

وروت إحدى الصحف الشيوعية أن مبشرا بالماركسية أتقى محاضرة على طائفة من علماء الكيمياء قارن فيها بين المسيحية وبين الكاثوليكية على أنهما ديانتان مختلفتان . وجهل هذا المبشر الإلحادى أن الكاثوليكية شعبة من شعب الديانة المسيحية وليست دينا مختلفا عنها .

وفي الواقع أن مواجهة الشيوعية بدعاواها العريضة - المسيحية وحدها لا تحقق كبير انتصار عليها . وبخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الشيوعية في

حملتها الضاربة على المسيحية لم تقصد مسيحية المسيح عليه السلام بقدر ما تقصد مسيحية بولس التي اعتنقتها الكنيسة بعد مجمع نيقية عام ٣٢٥ م وهي مسيحية مزورة محرفة - كما عرفنا من قبل - وفيها من العيوب والمثالب ما يطعم الفكر الشيوعي العلماني والفكر العقلي المثالي في دحرها والانتصار عليها ، وقد كان لهم ما أرادوا به - أن توارت المسيحية البولسية إلى الوراء ، وأدركت أنها ليست من فرمان الميكان الذي جال فيه العلماء والعقلانيون والعقليون ، فرضيت من الغلبة بالإيجاب .

الإسلام في مواجهة حاسمة :

عادت الشيوعية الإسلام - وما نزال تعاديه - لغير الأسباب التي عادت المسيحية من أجلها . عادت الشيوعية المسيحية ؛ لأنها دين ، والدين عند الشيوعيين « خرافة » .

وعادت الشيوعية الإسلام لأن الإعلام دين ، والدين عند الشيوعيين وهم وعادت الشيوعية الإسلام لأسباب أخرى غير أنه « دين » عادته لأنه المنافس الوحيد الخطير الذي وجدته يقف أمامها على خط آخر « الساخن » ، لم تر الشيوعية للمسيحية فيه وجوداً ولا ملاحاً هي تخشاه على حاضرها ومستقبلها ، نظرت فلم تجد - هذا - إلا الإسلام والإسلام وحده .

وجدته على هذا الخط « الساخن » ، يحمل من أسلحة الدمار للشيوعية ولكل المذاهب الباطلة ما ليس له نظير ولا وجود إلا في « ترسانه » هذا الإسلام .

هذا الخط « الساخن » هو مجال القيادة والريادة والتوجيه لشئون الحياة كلها . وجدت الإسلام بمنهجه الحسبم صالحاً لإرادة كل المجتمعات دون أن يعيا أو يكل .

لذلك نشطت الدعاية الشيوعية ضد الإسلام بعد أن عزلت المسيحية عن مسرح الأحداث وورثت مواطن كثيرة من مواطنها .

الإسلام دين الوعى والقوة :

كان من السهل والميسور على الشيوعية أن تتهم المسيحية بالهضمف والخنوع ولكن هذه التهمة إذا أريد توجيهها إلى الإسلام وجدت أمامها كل العوائق والرافيل . وإن صدق من يقول إن الشمس سبب الظلام في السكون فإن يصدق من يقول إن الإسلام مخدر أو يجهد الذل والخنوع . والشيوعيون لم يفرقوا - حتى الآن - بين دين يمكن أن يتهم بهذه التهمة . ودين يسمو فوق كل التهم والظنون . وهو الإسلام .

فليس الإسلام مخدر لنا بعبءه ؛ لأنه يوقظ فيهم روع الوعى فى السر والعلاية فالمسلم يعمل فى ظل رقابة حكيمة لا يخفى عليها شيء :

... ولا تعملون من عمل إلا كننا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، يونس (٦١) .

فى هذا الظرف المحيظ بكل شيء يعمل المسلم . فهو دائما يقظ واع لا يرى نفسه - وحده - أبداً .

، ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ثم يلبثهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شيء عليم ، المجادلة (٧) .

فالله ثامن مع الواحد ، وثالث مع الإثنين - ورابع مع الثلاثة ، وخامس مع الأربعة ، وسابع مع الخمسة . فإين المقرأ ؟ . لأنه يحصى عمل العالمين وإن ظنوا أنهم بمنأى عن الرؤية .

فهل يوصف دين هذا شاة بأنه مخدر ؟ وإذا كانت هذه البقطة تخديراً فما هى البقطة ياترى .

ويقول الحديث الشريف : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ويقول : « اتق الله حيثما كنت » .

ويقول : « استحيوا من حق الحياء » .

ومن النصيح المسموع في الإسلام : « بادروا بالأعمال » ، و « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » .

وفي الإسلام وعيد شديد لمن يغفل عن مراقبة ربه ويلهو ويلعب .

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » .
قال : رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنفى » .

فأين التحذير في الإسلام . إن المخدر - فعلا - هو الذى يقول : إن الإسلام مخدر أو هو أفيون الشعوب .

إن الإسلام أحاط الإنسان بظافات هائلة من التوجيه والتشريع ، لا تترك ذرة واحدة من حياته أو أى سلوك كبير أو صغير إلا والإسلام فيه توجيه من خلال ثلاثة أصول تنظم النشاط البشرى كله . وتلك الأصول هى :

الأصل الأول : لِإِفْعَالٍ : ويندرج تحت هذا الأمر أفعال الخير كلها سواء كانت واجبة كإداء العبادات المفروضة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو كانت مندوبة يترجح فعلها على تركها كصلة القربى والإحسان إلى مستحق الإحسان .

الأصل الثانى : لِاتْفَعِيلٍ : ويندرج تحت هذا النهى كل أفعال الشر سواء

كانت محرمة كعقوق الوالدين وخيانة الأمانة ونقض العهد والغش والخديعة .
وأذى الجار واختلاس الأموال والسمي بالفساد بين الناس . أو كانت
مكروهة يترجح تركها على فعلها كالترأخي في أداء الواجبات وعدم التورع عن
الشبهات والمبالغة في المدح أو الذم .

الأصل الثالث : لأفعل - لا تفعل : ويندرج تحت هذا الأصل بفرضيه الأمور
المباحة لإباحة مستوية الطرفين . وهو كل خير لم يلزم الشرع الناس بفعله
ولم يحرمه عليهم ، لأن أبواب الخير واسعة وطاقت الناس مختلفة في القدرة
على فعله . ومثاله بناء مدرسة أو مستشفى أو شق طريق لفقار تلميذ . فالإسلام
لم يوجب ذلك وجوباً حتى يعاقب من لم يفعله من الأثرياء ، ولم يحرمه على
من أراد أن يتطوع به .

هذه الأصول الثلاثة انتظمت النشاط البشري كله ، والمسلم المكلف خاضع
لها خضوعاً تاماً . ورقابة الله مطالة على الجميع ، فكيف يقال : إن الإسلام
مخدر لتابعيه وهو يوجههم هذا التوجيه . ويراقبهم تلك المراقبة الدقيقة
ويحصى عليهم أعمالهم ثم يحازيهم عليها على هذا الأساس : « فمن يعمل مثقال
ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

والإسلام منهج آخر في بعث الوعي في وجدان المسلم حيث حثه على
النظر في الكون والتدبر في آيات الله في النفس وما خلق الله من شيء . وقد مرت
بنا نماذج كثيرة فيما تقدم لفت القرآن فيها الأنظار إلى بدائع خلق الله
وجميل صنعه . وهل توصف أمة بفقدان الوعي ودينها يخاطبها في كل حين
بمثل قوله تعالى :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم . إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها
تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس
سكارى ، وما هم بسكارى . ولكن عذاب الله شديد » ، الحج (١ - ٢) .

إنها أمة ذات رسالة في هذا الكون . وقد وضع الله في يديها أمانة وحيه واستودعها خواتيم كلماته . ورسم لها طريق الظفر في الحياة وحظم من الفجاح والتردى رهين تمسكها بدينها . فإن غفلت عنه يوما فهي الملوثة ، وليس الإسلام .

الإسلام دين العزة وليس الخنوع :

وصف الشيوعيون الدين - بعامة - بأنه يدعو إلى الخنوع والذل والاستكانة . وهذا الوصف أبعد ما يكون عن الإسلام . ومن يصم الإسلام بهذه الوصفة فإنه إما جاهل بالإسلام ، وإما عدو لدود له واجتماع هذين الوصفين [الجمل بالإسلام والعدو له] متحقق في أئمة الإلحاد وعمالهم . ومن الطريف جدا أن الشيوعيين ، وهم من أكبر خصوم الإسلام قد وصفوه بهذا الوصف . وأن خصوما آخرين للإسلام جميعنا يعرفهم قد وصفوه بهكس ما وصفه به الشيوعيون فقالوا : إن الإسلام دين السيف . ويريدون من هذه المقولة أن أمر الإسلام قام على السيف والبش وليس على الإقناع . وهذا يدل على أن خصوم الإسلام - جميعاً - يصدرون أحكامهم عليهم بالهوى دونما سواه وكلهم كاذبون فيما يقولون . ومسألة السيف هذه ، ذكرناها هنا لأن فيها رداً من بعض خصوم الإسلام على بعض خصوم الإسلام لأن من يقول : إن الإسلام دين السيف يبطل قول من قال : إن الإسلام يدعو إلى الذل ويحبذ الخنوع والاستكانة . فالسيف رمز القوة كما نعلم . بيد أن القوة التي تمدح مرادة عند من وصفوا الإسلام بأنه دين السيف - فهذا تطرف وهذا تطرف ، وكلا الفريقين على خطأ فاجش .

وتبكي أن نقول في الرد على من وصف الإسلام بأنه دين السيف أن الإسلام لم يحارب فسكراً بالسيف . وإنما حارب الفسك الملتجرف بفكر صحيح ، وحين لجأ أصحاب الفسك الملتجرف الضال إلى حمل السيف حمل الإسلام السيف

على سيوفهم ، لأن لكل حالة سلاحها المناسب لها والمعاملة بالمثل شرع من نصي عند جميع العقلاء . ومبدأ دولي معروف في الفقه الدولي المعاصر .

« القوة العسكرية »

أما الذين وصفوا الإسلام بالخنوع والذل والاستكانة ، فإننا نقول في مواجهة دعواهم هذه :

إن الإسلام دين العزة والشموخ والكرامة . والعزة فيه صفة الإيمان بالله ذي الجلال والإكرام . أما أدلتنا على ما نقول فأكثر من أن نحصى هنا - ومنها :

١ - الأمر بالقتال في سبيل الله :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوا من حيث نفقتهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . وللفتن أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوك فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . »

٢ - الأمر بالشباب في ميدان القتال إذا وجب :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون .. »

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا وحفا فلا تقولوا لهم الأذيار . ومن يولهم يومئذ دبر . إلا متجرفا لقتال أو متحيزا لفئة فقد باء بغضب من الله . وماواه جهنم وبئس المصير . »

٣- الأمر بالقتال لرد الاعتداء وتأديب المارقين :

« فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله
واعلموا أن الله مع المتقين . »

٤ - الأمر بالقتال إذا طعن العدو في الدين ونقض عهداً :

« وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم فقاتلوا أنفوسكم
التي كفر بإنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا
بإخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة . أنخشونهم ؟ فإله أحق أن تخشوه
إن كنتم مؤمنين . »

٥ - الأمر بالإعداد لقتال العدو جهيد الطاقة :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله
وعدوكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . . . »

٦ - الإعلام بأن الموت في سبيل الله هو الحياة :

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون .
« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم
يُرزقون . »

« فرحين بما آتاهم الله من فضله . ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من
خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . »

٧ - الإعلام بأن الفرار من الموت في القتال لا يحقق نفعا :

« قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل . وإذا لا تمتنعون
إلا قليلاً . »

٨ - الإعلام بأن كل مشقة تلقاها المقاتل في سبيل الله هو ما جور عليها :

« ذلك بأنهم لا يضربهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يعطون

موطئا يغيظ الكفار ، ولا يغالون من عدو قتيلا إلا كتب لهم به عمل صالح
إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

٩ - الإعلام بأن الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم .
تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذللكم
خير لکم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري
من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن . وذلك الفوز العظيم . »

١٠ - الإعلام بأن الله نصير المجاهدين في سبيله :

« قاتلوا من يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . ويشف صدور
قوم مؤمنين . »

النصوص المتقدمة تكشف بجلاء عن القوة المهدبة التي ربي الإسلام عليها
الامة أمام العدو الذي يريد أن ينال من قدرها أو يهدد وجودها ، أو يعوق
رسالتها . وهي قوة مهدبة لأن مبعثها الحق . وتهذيبها أنها لا تبدأ بالعدوان
ولأنها ترد العدوان ولا تقتحم على الأمنين أو كارهي وإنما تشر السلاح في وجه
من شمر في وجهها سلاحا فإذا خمدت الفتنة عادت الامة إلى هدوئها وقرارها
ونشطت في أداء رسالتها في عفة وعدالة . وليسبت هي أمة جائرة يحملها النصر
على الفساد في الأرض ومواصلة العدوان :

« فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ، إن غاية القوة المهدبة في الإسلام
هي إعادة الأمور إلى نصابها ، فإذا عادت وجب الكف عن القتال :

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم فأجعل الله لكم عليهم سبيلا . »

« إن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله . . . »

وبعد تحقيق الانتصار ورفع حالة الطوارئ فإن الامة تعوق ماذا تعمل :

« الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . والله عاقبة الأمور » .

هذه هي بعض ملامح سياج الأمن الخارجى لمنهج الإسلام الذى دعا الأمة لتسكون قوية فى « الحرب » كما هي قوية فى « السلام » .

« القوة الأدبية » :

القوة العسكرية تحمى الأمة من العدوان الخارجى كما تحمى كل فرد فيها نازلة من حفظ كيان الجماعة إلى حفظ كيان الأفراد .

والقوة الأدبية تحمى كل فرد فيها من الخور والضعف كما تحمى الأمة نفسها صاعدة من نظام الأفراد إلى نظام الأمة .

ونعنى بالقوة الأدبية أن الإسلام حرر الفرد من عوامل الضعف والذل والخنوع ودعا كل فرد إلى أن يأخذ بأسباب تلك القوة الأدبية فلا يخشى أحدا إلا خالفه ومولاه ولا يجعل للشيطان منافذ إلى نفسه . وحين يكون أفراد الأمة أقوياء قويت الأمة المكونة منهم . وفيما باتى صورة موجزة للتربية الإسلامية التى هدفت إلى خلق الجماعة الأدبية فى أفراد الجماعة المسلمة .

١ - إذا أراد الله حياة نفس فلا قوة فى الأرض تميته :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا . . . » .

٢ - كفاية الله بالرزق لكل مخلوق :

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » .

٣ - النفع والضرب بيد الله وحده :

« قل : إن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

٤ - لا حزن ولا فرح فالمتقون بيد الله وحده :

« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور ، .

٥ - التوجه بالرجاء إلى الله وحده :

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده . وهو الغفور الرحيم ، .
« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، .

٦ - رحمة الله واسعة فلا يأس ولا قنوط :

« قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا لأنه هو الغفور الرحيم ، .

٧ - دفع مرارة الخوف بحلاوة الرجاء :

« وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ، .

٨ - البرى لا يؤخذ بذنب غيره :

« ولا تكسب كل نفس إلا عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى ،
« كل نفس بما كسبت رهينة ،

٩ - لكل عمل عند الله جزاء يوفاه العامل :

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ،

« إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، .

١٠ — الناس سواسية عند الله ولا فضل إلا بالتقوى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير » .

١١ — عند فوات المأمول يجب أن يشق المسلم في اختيار الله :

« وعسى أن تسكرها شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »

١٢ — والإتصال بالله ميسر للمسلم دون وساطة كهان :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .
فإذا يخاف المؤمن أو يحذر غير الله . فهو - أى المسلم - أمام الناس سيد نفسه ، وهو أمام الله عبد ممثل ، عزيز بإيمانه ، كريم بتقواه غنى بحظه .
خضوعه بين يدى الله شموخ . وافتقاره إلى الله غنى . الله هو الذى خلقه ورزقه وهو - وحده - مصير أموره ، ومصرف شئونه . وسائله عما استراحه . وليس مخلوق عليه سلطان .

وبهذا المقام الرفيع الشامخ فخر من فخر فقال :

وعما زادنى شرفا وثيها وكدت بأخصى أطا الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

هذا هو الإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة فإذا أرادت الإنسانية أن تسعد ب حياة الدارين فليس أمامها من طريق إلا الإسلام ، والإسلام وحده .

فهرس الكتاب

الصفحة

الموضوع

للبحث الأول

١	سيادة النصوص المقدسة
٢	قسطنطين وأول مجمع في التاريخ الكنسي
٧	أسرار الكنيسة
١٣	مساوىء هذا السلوك
١٥	أزمة توثيق النصوص
١٩	رسائل بولس
٢٢	تصورات الكنيسة عن بعض الظواهر
٢٥	موقف الإسلام من هذه التصورات
٦٥	القرار أو التعبير

للبحث الثاني

٦٧	الملائية
٦٨	أسباب ظهور الملائية
٦٩	فقدان الثقة في الكنيسة كمصدر للمعرفة
٧٠	لوتر والإصلاح الديني
٧٢	الكشوف العلمية الحديثة
٧٧	سيادة العقل أو عصر التنوير
٨٠	سيادة الحس أو الوضعية
٨٢	الثورة الفرنسية
٨٣	النتائج الخطيرة للثورة
٨٥	وقف إسلامية
٩٣	الحياة العقلية في الإسلام

الصفحة	الموضوع
١١٩	الإسلام من أسباب النهضة ولكن
١٢١	قائمة بالأخطاء التي مهدت للعلمانية
١٢٥	العلمانية ما هي ؟
١٣١	عوامل مساعدة على نشأة العلمانية وتطورها
١٣٣	الداروينية وأثرها في أوروبا
١٣٧	الدفاع عن الإلحاد
١٣٨	دور اليزيد في ذبوع النظرية الداروينية
١٣٩	موقف الإسلام من نظرية داروين
١٤٤	الفرويدية
١٤٨	موقف الإسلام من نظرية فرويد
١٥٣	أثر الفرويدية في الفكر العلماني
١٥٣	براجماتزم وليم جيمس
١٥٧	تعقيب إسلامي على البراجماتزم
١٥٩	دور البراجماتزم في قيام العلمانية
١٦٠	للقد الاجتماعي (نظرية روسو)
١٦٣	موقف الإسلام من هذه النظرية
١٦٩	الميكانيكية
١٧٠	موقف الإسلام من هذا التصور
١٧٤	الواقعية والميتافيزيقية
١٧٦	نيوتن ولا بلاس يستدلان على وجود الله
١٧٧	الغورد فانسترت والدفاع عن الميتافيزيقا
١٨٠	الفلسفات الصحيحة والتدليل على وجود الله
١٨١	غاسفة ابن رشد والفارابي وقضية الإيمان
١٨٦	حكمة الحكيم

الصفحة	الموضوع
٢٤٦	المسكر نوعان
٢٤٧	شواهد بطلان دعوى الشيوعيين
٢٥٧	دعوى شيوعية أخرى ودليل بطلانها
٢٥٩	بلاغات الوحي الأمين
٢٦٤	مثال وتوضيح
٢٦٦	أزلية المادة ؟
٢٦٩	أبدية المادة ؟
٢٧١	دلالة العلم الواقعي
٢٧٣	الانتقال الحراري والصدر المطاق
٢٧٤	إخبار الوحي
٢٧٦	ثلاثة قوانين
٢٧٧	دلالات للعلم وللعقل
٢٨٢	دلالة الوحي
٢٨٥	حديث القرآن عن العالم المادي
٢٩٠	الله ذو الجلال والإكرام
٢٩٣	للعقل والإيمان بالله
٢٩٤	ثلاث مراحل للعقل
٢٩٥	لماذا اتجه العقل نحو عقيدة الألوهية
٢٩٦	الإنسجام نوعان
٢٩٧	تمذح من العمل العقلي
٢٩٩	قدم النزعة الديلية
٣٠١	المذاهب في تفسير نشأة التدين
٣٠٣	التأمل في الكون نوعان
٣٠٥	المذهب الروحي
٣٠٨	المذهب النفسي
٣٠٩	نظرية ديكرات

الموضوع	الصفحة
المذهب الأخلاقي	٣١١
تشابه نظريتي كانت وديكارت	٣١٢
المذهب الاجتماعي	٣١٣
مذهب الوعي السكوني	٣١٤
المذهب التعليمي	٣١٥
العمدة في المذاهب الشارحة	٣١٦
سؤال هذا موضعه	٣١٨
وجواب هذا أوانه	٣١٩
ابن رشد يعقب	٣٥٣
دلالة التحدى والإعجاز	٣٥٤
الموت	٣٥٥
مظاهر التحدي والقمر في آيات أخرى	٣٥٦
دلالتان	٣٥٧
الأمم كالأنراد	٣٥٨
دلالة النظام والإطراد	٣٦٠
الساعة السكونية	٣٦٢
وظيفة الشمس والقمر	٣٦٣
الإنسان بين المنشأة والمصير	٣٦٥
لاتبديل لسنة الله	٣٦٦
التنظر في ملكوت السموات والأرض	٣٧٠
لماذا الحياة على الأرض	٣٧١
مزايا الأرض	٣٧٤
إعادة تصنيع العادم	٣٧٨
إننا كل شيء خلقناه بقدر	٣٧٩
ميلي الأرض على محورها	٣٧٩
الإنسان موضوع للتأمل	٣٨٠

